الشعر الاجتماعي في بلاد الشام
في القرن الرابع الهجري

إعداد

حنان محمد الحريرات

بكالوريوس لغة عربية

جامعة مؤتة -الأردن

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في جامعة مؤتة -قسم اللغة العربية

إشراف

الدكتور شفيق الرقب

تاريخ تقديم الرسالة: [illegible] / [illegible] /١٩٩٨م

تاريخ مناقشة الرسالة: [illegible] / [illegible] /١٩٩٨م

الإهداء

إلى أبي وأمّي

اللذيْن منحاني العطف والرعاية والتوجيه

وإلى كلٍّ طالب علمٍ

أهدي هذا العمل المتواضع

حنان محمد الحريرات

التي تخلّلت حياة القوم، وقد وسمتُها بـ (الشعر الاجتماعي في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري).

ولم تكن هذه الدراسة مقصورة على البيئة الحلبية فحسب، وإنّما شملت بلاد الشام كلّها، وأما الشعر الشامي الاجتماعي الذي أُتّخذ موضوعاً للدراسة، فهو كل شعر قيل في بلاد الشام، سواء أكان قائله شاعر شامي الأصل -وهم كُثر- أم كان قائله ممن وفد إلى البلاد الشامية واتخذها دار إقامةٍ، وشارك في الحركة الشعرية -وعددهم قليل-.

وأما مادة هذه الدراسة، فقد استقاها الباحث من مصادر متنوعة، كان أهمّها الدواوين الشعرية، ثم تلاها المصادر المخطوطة والمطبوعة، التي تحدّثت تفصيلاً عن بلاد الشام في هذا القرن، وأهمها مخطوطة "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر، فقد أورد المؤلف تراجم كثيرة سواء للشعراء في هذا القرن، أو للشخصيات التاريخية التي كان لها دور في تاريخ بلاد الشام في هذا القرن أيضاً، ومنها "بغية الطلب من تاريخ حلب "وزبدة الحلب" لابن العديم"، وتاريخ الأنطاكي" ليحيى بن سعيد. وقد فصّل فيه مؤلّفه عن أحداث الشام المختلفة، واهتم بالحديث عن صراع العرب مع الروم، وكان مثال المؤلف الذي امتاز بالأمانة والدقة في عرض الأحداث، و "تاريخ دمشق" لابن القلانسي، وهو مفصل لتاريخ مدينة دمشق وأحداثها في هذاالقرن، وكتاب "يتيمة الدهر" للثعالبي، وهو مصدر غزير بمادته الأدبية، فضلاً عمّا أبداه من آراءٍ نقدية تجاه أشعار الشعراء آنذاك.

أما المنهج الذي أُتّبع في هذه الدراسة، فهو المنهج التوفيقي، الذي يجمع بين المنهج التاريخي والتحليلي في آنٍ معاً، فهو يرصد الأحداث التي أثّرت في حركة المجتمع الشامي في القرن الرابع الهجري، ويستقرئ مظاهر الحياة الاجتماعية، ويتبيّن مدى تأثيرها في الشعر والشعراء، ويستقصي النصوص الشعرية، التي تبحث في الحياة الاجتماعية، ويعمل على استنطاقها واستخلاص الأحكام الفنية منها.

ويتكون البحث من تمهيدٍ وأربعة فصولٍ وخاتمة، درس الباحث في التمهيد الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري،

وبناء المجتمع الشامي آنذاك، ودرس في الفصل الأول مظاهر الحياة العامة وجعله في خمسة أقسام أولها: بنية المجتمع الشامي، وتحدّث فيه عن عناصر السكان والعلاقات بينها، والطوائف الدينية، وفئات المجتمع المختلفة من حكام وقضاة وكتاب، وتصوير المرأة العربية ودورها في المجتمع والمرأة الجارية وصورتها في الشعر، والقسم الثاني: تحدّث فيه عن ظروف المعيشة من حيث الغنى والفقر، والقسم الثالث: تحدّث عن الصراع مع الروم وأثره في الحياة الاجتماعية، والقسم الرابع: تحدّث عن مظاهر الحضارة والعمران، ووصف الأطعمة والولائم، وأما القسم الخامس فقد خصّصه للعلاقات الاجتماعية أو الإخوانيات.

وخصّص الفصل الثاني للحديث عن مظاهر الحياة الجادة، وهو يقع ضمن أربعة إطارات، أولها: الفتن والثورات التي تتعلّق بشغب القبائل العربية وغير العربية وثانيهما، هو الشعر في خدمة المذهب، ويتناول الحديث عن التشيع في الوسط الحمداني والفاطمي، والقضايا التي تناولها شعراء الشيعة في تشيعهم، وثالثهما: تناول النقد الاجتماعي والسياسي وهو نقد للظواهر السلبية في المجتمع الشامي آنذاك، ورابعهما: الزهد والحديث عن الموت، وخصّص الباحث الفصل الثالث للحديث عن مظاهر الحياة اللاهية، وهو يقع ضمن سياقين هما: وسائل الترفيه والتسلية، والتي تحدّث فيها عن الصيد والطرد واللعب بالصولجان، والمبارزة، واللهو والمجون، والذي تناول فيه الحديث عن الخمر وأماكن شربها، وأوقاته، والغناء والرقص والفحش في وصف المرأة الجارية، والديارات.

وأما الفصل الرابع فهو ما وسم "بالدراسة الفنية" حيث حلّل الباحث الأدوات الفنية التي عبّر فيها الشعراء عن مواضيعهم الشعرية وقضاياهم المختلفة، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي: بناء القصيدة، والصورة الشعرية، والأسلوب واللغة.

ويُختم البحث بخاتمة، سجّل فيها أهم ما جاء في البحث، وأهمّ النتائج التي توصّل إليها من خلال هذه الدراسة.

وأخيراً أتوجّه بجزيل الشكر إلى أستاذي الدكتور شفيق الرقب الذي رعى رسالتي كل رعاية، وكان لي خير موجه ومعين وأفاض عليّ من علمه الغزير، ولم يبخل عليّ بملاحظاته القيمة. ولا يفوتني أن أشكر أساتذتي في قسم اللغة العربية فما بخلوا عليّ بنصيحة أو مرجع. أسأل الله العليّ القدير أن يجزيهم عني خير الجزاء.

التمهيد

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري

الحياة السياسية

لقد شهدت بلاد الشام اضطراباً جسيماً في الأمور السياسية خلال القرن الرابع الهجري، وتنازعتْها قوىً سياسية مختلفة، تمثلت بالعباسيين وأمرائهم كالحمدانيين وابن رائق والإخشيديّن، والفاطميين والقرامطة. عدا عن الثورات الدّاخلية ممثلة بالقبائل العربية، والحروب الخارجية ممثلة بالروم.

ففي الربع الأول من القرن الرابع الهجري كانت الدولة العباسيّة تتدخل مباشرة بشؤون الشام، وتُعيِّن الولاة نواباً عنها، وهم غالباً من الأتراك، فهذه حلب تعاقب عليها أحمد بن كيغلغ أبو العباس من قبل المقتدر سنة ٣٠٢هـ وكان أديباً شاعراً، جواداً (١)، ثم تولاها أبو قابوس محمود بن حُبك الخراساني(٢)، وكان جبّاراً قاسياً منحرفاً عن أهل البيت، ودام والياً بها إلى سنة ٣١٢هـ ثم ولّيَ وصيف البُكتُمري الخادم(٣)، سنة ٣١٢هـ ودام عليها حتى سنة ٣١٦هـ وفي السنة نفسها وليها هلال بن بدر أبو الفتح(٤) غلام الخليفة العباسي المعتضد، وكان أمير دمشق قبل ذلك، ووليها طريف بن عبدالله السُّبْكري الخادم(٥) -وكان هذا ظريفاً شهماً شجاعاً- وتولّى دمشق وحلب بشرى الخادم(٦) من قبل القاهر سنة ٣٢١هـ ثم وبعد مجيء الراضي قلّد بدر الخرشني حلب وأعمالها(٧).

وهكذا كانت بلاد الشام في العقد الأول من القرن الرابع مسرحاً للأتراك، يتعاقبون عليها من قبل خلفاء بني العباس، مع تفاوت في الفترة الزمنية التي

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:٩٤-٩٥، وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق (خ). ٢:٨٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:٩٥.

(٣) المصدر السّابق، ١:٩٦

(٤) المصدر نفسه، ١:٩٦.

(٥) المصدر نفسه، ١:٩٧.

(٦) المصدر نفسه، ١:٩٧.

(٧) المصدر نفسه، ١:٩٧-٩٨.

كان كل واحد منهم يحكم فيها، إلاّ أن معظمهم كان محمود السيرة في ولايته، وبقي الأمر كذلك إلى أن اشتهر أمر الإخشيد محمد بن طغج في الدولة العباسية منذ سنة٣٠٦هـ(١)، وعلى أثر انتصاره على جند الفاطميين الذين غزوا مصر سنة ٣٢١هـ-٣٢٤هـ، أمر الخليفة العباسي بتكريمه، وذلك بزيادة «الإخشيد»(٢) على اسمه، وقد سادت صلة الوفاق بين الإخشيد والخلافة العباسية إلى سنة ٣٢٨هـ ثم تبدّلت بمسير ابن رائق الخزريّ إلى الشام بتقليد من الخليفة، مما حدا بالإخشيد إلى إلغاء الخطبة للخليفة العباسي، وذكر اسم الخليفة الفاطمي محل اسمه(٣)، أما ابن رائق الذي تولّى إمرة الأمراء في ربيع الآخر سنة ٣٢٧هـ ودخل حلب سنة ٣٢٨هـ، وملك دمشق وحمص والرملة، فقد ساءت علاقته مع الإخشيد، واقتتلا معاً، وانهزم الإخشيد، ثم اتفقا على أن تكون الرملة للإخشيد، وكل من دمشق وحمص وحلب لابن رائق ويحمل إليه الإخشيد مالاً مقداره مائة وأربعون ألف دينار جزية سنوية(٤)، ثم حصلت المصاهرة بينهما، حيث زوّج الإخشيد ابنته بمزاحم بن أبي

---

(١) وذلك حينٌ ولي إقليم طبرية وجبل الشراة، نيابة عن تكين، على أثر بلائه وإيقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام، فحمد له تكين هذا العمل، وشكره أهل العراق بما كان من خلاصهم على يده، انظر حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ١٣٧:٣.

(٢) لقب الإخشيد يُطلق على ملوك فرغانة، والإخشيد أصله تركي، إلاّ أنه شامي النشأة والهوى والقوة، وقد نشأ وبرزّ في طبرية وجنوب الشام، انظر حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ١٣٧:٣، والإخشيد بمعناه في لسان الترك ملك الملوك. اليافعي: مرآة الجنان، ٣١٢:٢.

(٣) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٥٠:٧.

(٤) انظر مسكويه: تجارب الأمم، ٤١٤:١، ابن العديم: زبدة الحلب، ٩٩:١-١٠١، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٣٢٣:١٥، وابن كثير: البداية والنهاية، ٢٠٤:١١-٢٠٥. وقد علّل حسن إبراهيم سبب دفع الجزية من قبل الإخشيد مع انتصاره؛ بأنها دليل على ضعف سياسته، وقال: «إنه فعل ذلك لأنه كان يخشى من أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه، ولأنه كان يخشى خصماً آخر يهدده من ناحية مصر وهو الخليفة الفاطمي. انظر حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ١٣٨:٣.

بكر بن رائق(١).

وظهر على مسرح بلاد الشام ناصر الدولة الحمداني الذي قتل ابن رائق، ودخلت بلاد الشام طوراً جديداً من الاضطرابات، وأصبح ناصر الدولة في هذه الفترة هو الذي يُعيّن ويعزل الولاة عن حلب، دون أن يطاوله أحد في ذلك، فقلّد في بادئ الأمر علي بن خلف(٢) ديار مُضر والشام، وولّى عام ٣٣٢هـ حلب وديار مضر والعواصم أبا بكر محمد بن علي بن مقاتل صاحب ابن رائق(٣)، ثم قلّد أبا عبدالله الحسين بن سعيد بن حمدان أخا الأمير أبي فراس حلب وأعمالها وديار مضر والعواصم، وكل ما يفتحه من الشام، فتوجه سنة ٣٣٢هـ ودخل الرِّقة بالسيف، لأن أهلها حاربوه مع أميرها محمد بن حبيب البلزمي، فأسره وسمله وأحرق قطعة من البلد، وقبض على رؤساء أهلها، وصادرهم، وهرب من بين يديه كل من يأنس المؤنسي وأحمد بن سعيد الكلابي، ثم عاد إلى حلب، وأقام بها إلى أن وافى الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج بن جُف الفرغاني في ذي الحجة سنة ٣٣٢هـ وانصرف الحسين بن حمدان عنها لضعفه عن محاربته إلى الرقة(٤)، أما ابن مقاتل، وقد كان مع ابن حمدان فحينما انصرف ابن حمدان، استتر هو في منارة المسجد الجامع، ثم ظهر للإخشيد واستأمن إليه، وقلّده الإخشيد أعمال الخراج والضياع بمصر(٥).

وأصبح الإخشيد يولّي نائباً عنه في بلاد الشام، إذ ولّى حلب أبا الفتح عثمان ابن سعيد بن العباس بن الوليد الكلابي، وولّى أخاه أنطاكية(٦)، وظهر في هذه الفترة سيف الدولة الحمداني الذي استولى على حلب وأعمالها، وبرز على مسرح

---

(١) انظر ابن العديم: زبدة الحلب، ١٠٢:١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٩٠:٣-٢٩١، وابن الوردي، تاريخه، ٣٧٦:١.

(٢) انظر ابن العديم: زبدة الحلب، ١٠٢:١.

(٣) المصدر نفسه، ١٠٤:١.

(٤) المصدر نفسه، ١٠٥:١.

(٥) المصدر نفسه، ١٠٥:١-١٠٦.

(٦) المصدر نفسه: ١١١:١-١١٢.

الأحداث في القرن الرابع الهجري بشكل عام، وفي أحداث الشام بشكل خاص.

وكان قد طلب من أخيه ناصر الدولة ولاية، فقال له: «الشام أمامك، وما فيه أحد يمنعك منه»(١)، وكانت الفرصة مواتية أمامه بحيث استغل الخلاف القائم بين الكلابيّين من جهة، وضعف أبي الفتح من جهة أخرى، فسار إلى حلب، واستقبله أبو الفتح وأخوته، فأكرمه سيف الدولة، وأجلسه معه على السرير ، وكان دخوله حلب يوم الإثنين لثمانٍ خلون من شهرٍ ربيع الأول سنة ٣٣٣هـ(٢)، وفي هذا الشأن نرى بعض الباحثين يعلّق على الأسرة الحمدانية، والتعريض بسيف الدولة، فيقول: «ومع أن حافز هذه الأسرة إلى البروز والنشاط في مجال الحكم والسلطان كان أسروياً، يهدف إلى إشباع الرغبة النفسية، دون اهتمام للاعتبارات القومية العربية، ودون صدور عنها، وأن هذا الحافز ظل هو المسيطر الضابط لأحداثها وحركاتها، وهو ما يشترك فيه معظم الأسر التي نشطتْ وبرزت في ذلك المجال خلال حقبة التغلب التركي، إلا أنّ الدارس يلمس فيها شعوراً بالذات أو الوجود العربي...»(٣).

وأصبحت بلاد الشام في هذه الفترة مثار نزاع بين سيف الدولة يريد الاستيلاء على دمشق، والإخشيد يتمسك بها، ثم أن أهل دمشق مالوا إلى الإخشيد دون سيف الدولة، في حين أن أهل حلب منعوا الإخشيد من دخولها، إلى أن استقرّ الأمر على أن تكون حلب وحمص وأنطاكيّة لسيف الدولة، ودمشق للإخشيد، شريطة أن يحمل الإخشيد مالاً إلى سيف الدولة في كل سنة، ثم حصلت المصاهرة مرّة ثانية على المسرح السياسي بين سيف الدولة والإخشيد، إذ تزوّج سيف الدولة بابنة أخي الإخشيد عُبيدالله بن طغج في ربيع الأول عام ٣٣٤هـ(٤)، وفي هذا العام توفي الإخشيد(٥)، ثم نجد أنّ حكم دمشق أصبح وراثياً في أسرته وذلك

(١) المصدر السابق نفسه، ١:١١١-١١٢.

(٢) المصدر نفسه، ١:١١٢، وانظر محمد محمد مرسي: الإمارات العربية في بلاد الشام، ٦٩.

(٣) محمد دروَزة: العرب والعروبة في حقبة التغلّب التركي، ١:٢١.

(٤) انظر: الأنطاكي: تاريخه، ١:٧٥، وانظر اليافعي: مرآة الجنان، ٢:٣١٢-٣١٣.

(٥) الأنطاكي: تاريخه، ١:٧٤.

بأمر من الخلفاء العباسيين، فتولّى بعده ابنه أنُوجُور(١) واستولى على التدبير أبو المسك كافور الخادم(٢)، الذي حارب سيف الدولة سنة ٣٣٥هـ حينما استولى على دمشق وطالب أهلها بودائع الإخشيد، فكاتب أهلها كافوراً فخرج بالعساكر المصرية ومعه أنُوجُور، وترددت الرسل بينهما وتجدّد الصلح بين الطرفين، لكن دون المال المحمول من دمشق، وأصبحت دمشق بحوزة الإخشيديين، وتحت سيطرة كافور إلى أن توفي سنة ٣٥٦هـ(٣). على أنه بقيت الأسرة الإخشيدية تحكم دمشق إلى أن انتهى أمرهم سنة ٣٥٨هـ إذ تناوب عليها خلال فترة حكم كافور وبعده كل من فاتك أبو شجاع المعروف بالخازن الإخشيدي(٤) الذي تولاها سنة ٣٤٥هـ من قبل أبناء الإخشيدي وأبو بكر محمد بن طغج بن جف الفرغاني(٥) -وكان هذا شجاعاً- امتدت ولايته إلى أن مات سنة ٣٥٧هـ والحسن بن عبيدالله بن طغج أبو محمد(٦) سنة ٣٥٨هـ ثم شُمُول(٧) مولى كافور الذي أظهر الطاعة لقائد الفاطميين، فولاه دمشق، وبهذا انتهت الدولة الإخشيدية.

ومن الجدير بالذكر أن الإخشيدَ أولُ حاكم تركي ولّى قواداً من العرب حين ولّى أبا الفتح عثمان بن سعيد الكلابي حلب، وولّى أخاه أنطاكية(٨)، كما قضى

---

(١) أنُوجُور، بفتح الهمزة وضم النون والجيم بعدها، وقبلها واو ساكنة، وفي أخره راء ساكنة، وهو اسم أعجمي غير كنية، معناه بالعربية، محمود مقامه، انظر في هامش ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧:٢١١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧:٢١١، ومسكويه: تجارب الأمم، ٢:١٠٤، وابن تغردي برْدي: النجوم الزاهرة، ٣:٢٩٤، ٤:٤، واليافعي، مرآة الجنان، ٢:٣١٤، ابن العديم: زبدة الحلب، ١:١١٣-١١٦.

(٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ١٢:٤٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ١٤:١٩٣.

(٥) المصدر نفسه، ١٤:١٩٣.

(٦) المصدر نفسه، ٤:٤٦٧.

(٧) المصدر نفسه، ٨:١٣١.

(٨) انظر عبدالكريم غرايبة: العرب والأتراك، ١١٧.

الإخشيد على نفوذ الأتراك، لا سيّما بعد أن ولِّيَ كافور الحكم(١)، وهو أول حاكم مملوكي غير تركي في تاريخ الإسلام(٢).

أما عن سيف الدولة في حلب وأعمالها، فقد أقام الدّعوة للخلافة العباسية وبدأت عليه سياسة الطمع في الولايات، فحين كان يساير الشريف العقيقي في دمشق، قال له: ما تصلح هذه الغوطة تكون إلا لرجل واحد، فقال له الشريف: «هي لأقوام كثير»، فقال له سيف الدولة: «لئن أخذتّها القوانين ليتبرأنّ أهلها منها»(٣)، فأسرّها الشريف في نفسه، وأعلم أهل دمشق بذلك.

لقد قلّد أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان حمص(٤)، وقلّد سيف الدولة أبا فراس ابن عمه منبج وما حولها من القلاع(٥)، وكان أبو فراس قد أكثر من الظلم لأهلها، والتعدي عليهم(٦)، كما أسند حكم أنطاكية لأبي العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان(٧). أمّا ما يميّز فترة حكمه فهو الاضطرابات وكثرة الثورات سواء الداخلية والخارجية، فالداخلية ممثلة بثورات بعض ولاته، وبعض القبائل العربية، والخارجية تتمثل بالروم. ومن الجدير بالذكر أن سيف الدولة ارتأى أن يعتمد في تكوين جيشه على أفراد أسرته أولاً: ومنهم أبو العباس أحمد، وأبو الحسين علي، وأبو عدنان محمد، وأبناء أخيه ناصر الدولة، فضلاً عن اعتماده على القبائل العربية التي كانت أهم عنصر في جيشه، ويشهد على ذلك أنه في عام

(١) هو الحاكم السُّني الوحيد في العالم العربي آنذاك في عهده ذي الطابع الشيعي، وبعد وفاته زالت اللوحة الأخيرة للسنّة، عبدالكريم غرايبة: العرب والأتراك ١١٩.

(٢) عبدالكريم غرايبة: العرب والاتراك ١١٩.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:١١٩-١٢٠.

(٤) فيصل السّامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ٢:١٥٠.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:١١٩-١٢٠.

(٦) الأزدي: أخبار الدولة الحمدانية، ٤٨.

(٧) فيصل السّامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ٢:١٥٠.

٣٣٥هـ كوّن جيشه من بني عقيل ونمير وكلاب لمحاربة الإخشيد(١)، كما استعان إلى جانب العرب بكثير من الأتراك والديلم في جيشه أو في الإدارة أو الكتابة، خاصة نجا وبكجور ولؤلؤ وقرغويه الذين لعبوا دوراً بارزاً في الأحداث السياسية.

لقد خاض سيف الدولة مع الروم إحدى وأربعين غزوةً كانت له وعليه، منذ عام ٣٣٩هـ/٩٥٠م حتى وفاته، ولم يكن ليعجز عن مواجهة الروم على الرغم من ازدياد خطرهم، ومرضه في أواخر حياته، فبعد رحيل الروم عن حلب سنة ٣٥١ هـ فإنه عاد إليها في ذي الحجة وعمّر ما خَرِب منها، وجدّد عمارة المسجد الجامع، واهتمّ بعمارة القلعة وتحصينها(٢)، وفي سنة ٣٥٤هـ افتدى الأسرى بالبطارقة، ومن هؤلاء أبو فراس الحمداني وجماعة من أهله، وغلامه رقطاش، وبعض شيوخ الحلبيين والحمصيين، ولمّا لم يبقَ معه من أسرى الروم أحد، اشترى بقية المسلمين، كل رجل باثنين وسبعين ديناراً، حتى إذا نفد مالُه، رهن الباقين بدنته الجوهر المعدومة المثل(٣)، ولم يكن خطر الروم أعظم من الأخطار الداخلية التي واجهته واستغلّت انشغاله حيناً، وضعفه حيناً آخر، فقد ثار الحسن بن الأهوازي بأنطاكية -وكان يضمن المستغلات لسيف الدولة- واجتمع هو ورشيق النّسيمي أحد القواد بطرسوس، واتفقوا مع ملك الروم، وأطمعوه بأن يحملوا إليه من أنطاكية في كل سنة ستمائة ألف درهم(٤)، وكان ممن ثار ضده غلامه نجا عام ٣٥٢هـ وقد استغل فترة ضعف سيف الدولة، فسار إلى حرّان وصادر أهلها، ومنع الجنود أرزاقهم(٥)، وثار من الديلم دزْبر بن أونيم الدّيْلمي وجمع إليه بني كلاب، وجبى الخراج من

---

(١) انظر فيصل السّامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب :٤٤-٤٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ١٤٥:١، وانظر ابن الشحنة: الدُّر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ٤٩-٥٠.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة، ٢٨١:١، وابن العديم: زبدة الحلب، ١٤٦:١، وانظر الأنطاكي: تاريخه ١١٣:١-١١٤.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، ١٤٨:١.

(٥) انظر الأنطاكي: تاريخه، ١٠٣:١-١٠٤.

حلب وحمص، لكن القبائل غدرتْ به، فقُتِل(١).

هذه الأحداث قد أودتْ ببلاد الشام، وذهب ضحية الغزو البيزنطي وثورات القبائل والعناصر الأجنبية السّاخطة على الحكم.

لقد توفي سيف الدولة عام ٣٥٦هـ وتولّى الحكم من بعده ابنه سعد الدولة، وكان المسيطر على الأمور قرغويْه، وأبو إسحاق محمد بن عبدالله بن شهرام كاتب أبيه(٢)، وفي سنة ٣٥٧هـ غدر قرغويْه بأبي فراس، وقتله غلمانُه الأتراك(٣)، وشارك قرغويه بكجور في حكم حلب، وشهدت هذه الفترة تكالب الروم على حلب، مما حدا بقرغويه مهادنتهم، وكانت شروط المهادنة توحي بضعف المسلمين، وتعلن بذهاب الشام في أيدي الروم، ودفع المسلمون الجزية عن كل صغير وكبير وذلك عن أهل حمص وجُوسْيه وسلمْيَة وحماة وشيْزر، وكفرطاب وأفامْيَه ومعرّة النعمان وحلب وقنّسْرين ومعرّة مِصرين وجبل السُّماق، وأن يكون أمير المسلمين قرغويه ومن بعده بكجور، وبعدهما يُنصِّب ملك الروم أميراً يختاره من سكان حلب، وليس للمسلمين أن ينصِّبوا أحداً، ولا يؤخذ من نصراني جزيةٌ في هذه الأعمال، إلا إذا كان له بها مسكن أو ضيعة، وأعطوا الروم فرصة تعمير الكنائس الخَرِبة(٤).

وفي ظل هذه الأوضاع -أي بعد وفاة الإخشيدي ثم كافور وسيف الدولة، وازدياد خطر الروم على الشام، ظهرت قوة سياسية ذات مذهب شيعي، أرادت السيطرة على الشام إضافة إلى مصر، وكانت بداية ذلك عام ٣٥٨هـ على يد جوهر الذي سيطر على مصر ثم جهّز جيشاً كثيفاً للاستيلاء على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح الذي استولى على الرملة عنْوة، ثم طبرية، فوجد الدعوة العلوية قد سبقته

---

(١) انظر ابن العديم: بغية الطلب، ٨:٣٦٥٦-٣٦٥٨.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:١٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ١:١٥٧.

(٤) انظر المصدر نفسه، ١:١٦٣-١٦٧.

إلى المنابر باسم المعز لدين الله(١)، فتجاوزها إلى دمشق فقام أهلُها في وجهه، وبالتالي قُطِعَتِ الخطبة للعباسيين منذ عام ٣٥٩هـ فثارت ثورة السكان، إلاّ أنهم تمكنوا من السيطرة على دمشق، وتقاتلوا في هذا الوقت مع القرامطة وانتصروا عليهم(٢)، وفي هذه السنة دهم الروم دمشق واستولوا عليها، وفي ذلك يقول ابن حوقل واصفاً تكالب الروم وتخاذل المسلمين وانشغالهم بالرياسة والسياسة عن مدافعة العدو: «دمشق أنزه بلاد الشام، استولى عليها العدو، وفتحوها في أول سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، فما اضطرب فيها من قطع شعرة للروم، ولا توصّل في نصرتها برأي صحيح ولا مشلوم، وبجوارها من السلاطين والبوادي، والقروم والملوك مَنْ قد أشغله يومُه عن غده وطرفه وحطامه عمًا أوجب الله، والسياسة والرياسة عليه، فهو يلاحظ ما في أيدي تجار بلده، ويشتمل عليه ملكُ رعيته ليوقع الحيلة على أخذه، والشبكة على صيده، والفخ على ما نُصِبَ له، ثمّ لا يُمتّعُ به فيُسلب عمّا قريب ما احتقب من الحِطام، وجمع من الآثام»(٣).

لم يقتصر أمر الشام على ظهور الفاطميين ثم الروم، بل ظهر القرامطة في عام ٣٦٠هـ ووصلوا دمشق، وقتلوا واليها جعفر بن فلاح، وذلك لأنهم كانوا قرروا من ابن طغج أن يحمل إليهم في كل عام ثلاثمائة ألف دينار، فلما ملكها جعفر علموا أنّ المال يفوتهم وكان قائدهم آنذاك الحسن بن أحمد بن بهرام وقد استعان بعز الدولة بختيار في قتال جعفر بن فلاح، وغنم القرامطة المال والسلاح(٤)، وكان الحسن بن أحمد القرمطي قد غلب على الشام سنة ٣٥٧هـ وجاءه ظالم بن موهوب العقيلي ليأخذ البلد منه، فمنع أهل دمشق ظالماً، وأصبحت دمشق مثار نزاع خلال

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٧١، والأنطاكي: تاريخه، ١٤٣:١، وانظر محمد أديب آل تقي الدين: منتخبات التواريخ لدمشق، ١٣٠:٢-١٣١، وانظر ابن خلدون: العبر، ٤٨:٤.

(٢) الأنطاكي: تاريخه، ١٤٣:١، ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٧١.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ١٦٥.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٧١، والنويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٠٤:٢٥، وابن خلدون: العبر ٤٩:٤، وانظر سهيل زكّار: الجامع في أخبار القرامطة، ٥٢٨:٢.

هذه الفترة بين القرمطي وظالم، وصالح بن عمير(١) .

ومن الجدير بالذكر أنّ حركة القرامطة امتازت بأنها حركة غزو، لم يظهر أنها تهدف إقامة كيان سياسي في الشام خاصة، فكانوا ينهبون القرى ثم يعودون إلى البادية، ولم يكوّنوا طبقات اجتماعية مستقرة، ذات مصالح تربطها بالأراضي حتى تسعى لإقامة دولة لهم، فهدفهم هو جعل المناطق المحيطة بهم مضطربة الأمن لكي تشكل مجالاً حيوياً لحركتهم(٢).

واعتمد الفاطميون على المغاربة ولاةً يمثّلونهم في الشام، ففي عام ٣٦٣هـ قدم أبو محمود المغربي الكُتامي إلى دمشق والياً من قبل المعز، بعد أن غادرها ظالم بن موهوب العقيلي -حيث مضى ظالم إلى بعلبك وغلب عليها- وعاثتْ قوات أبي محمود فساداً في الشام، ونهبوا القرى وسلبوا وقطعوا الطرق، لذا بعث المعز إلى ريّان الخادم والي طرابلس، يأمره بالمسير إلى دمشق، وصادف أن قدم الفتكين التركي الهارب من العراق(٣)، حيث رحّب الدمشقيون به، وطلبوا منه أن يخلّصهم من المغاربة، لظلمهم ومخالفتهم إياهم في الاعتقاد، وخرج ريّان الخادم وقُطعت الخطبة للفاطميين، وخُطب للعباسيين، وقمع الفساد(٤)، أما حلب فقد دخلت بعد سنة ٣٦٣هـ طوراً جديداً نجم عن إقامة الدعوة للعزيز الفاطمي من قبل سعد الدولة(٥)، ولمّا كان سعد الدولة ضعيفاً، فإنّ بكجور أراد الخروج عليه، وذلك بالتآمر مع صاحب مصر والاتفاق مع والي طرابلس نزّال الغوري وهو من قواد المغاربة، فاستعان سعد الدولة بملك الروم باسيل ضده(٦)، وفي سنة ٣٦٧ هـ سُيّر

---

(١) انظر: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٦٢٤:٨.

(٢) انظر: حسن بزّون: القرمطية بين الدين والثورة، ٤٦-٤٨.

(٣) انظر: ابن القلانسي: تاريخ دمشق ٩-٢٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٤٥:٧-٣٤٦، وابن خلدون: العبر، ٥١:٤، وابن كثير: البداية والنهاية، ٢٩٩:١١-٣٠٠.

(٤) المصادر السابقة نفسها والصفحات نفسها.

(٥) انظر: ابن العديم: زبدة الحلب، ١٦٩:١-١٧٢.

(٦) ظهير الدين الرّوذراوري: ذيل تجارب الأمم، ٢٠٩:٣-٢١٠.

الفتكين إلى مصر ومات هناك(١)، ثم آلت دمشق في سنة ٣٦٨هـ إلى قسّام التُّرابي(٢) إلى عام ٣٧٠هـ وهي السنة التي غلت بها الأسعار بالرملة، ومات الناس بالجوع، ووقع الغلاء بدمشق(٣)، ثم تسلمها بكجور سنة ٣٧٢هـ وأساء السِّيرة بأهل البلد، وظلم وقتل وصلب وبقي إلى سنة ٣٧٨هـ(٤)، وما إن جاء عام ٣٨١هـ حتى خرج بكجور من حلب، وبعدها مات سعد الدولة(٥)، وجاء بعده ابنه سعيد الدولة، وكان المدبر له من الغلمان الأمير لؤلؤ الكبير السيفي الذي رفع المظالم والرسوم التي كانت على الرعية، وردّ على الحلبيّين أملاكاً كانت قد اغتصبت منهم سابقاً(٦).

وفي هذه الفترة بعث العزيز إلى منير الخادم الصقلبي لكنه عصاه، فانتدب منجوتكين التركي لقتاله، وعاث منجوتكين فساداً في الأرض، وسُيِّر من مصر سلمان بن جعفر بن فلاح في خلافة الحاكم بأمر الله، وتميّز هذا بفعل الخير، واستمال الرعية، وصلحتْ أحوال البلد(٧)، وفي سنة ٣٨٧هـ ثار أهالي صور على الفاطميين وولوا عليهم فلاحاً يُعرف بالعلاّقة، فقبض عليه الفاطميون وسُلِخَ حياً وصلب(٨) ثم انتدب بشارة الإخشيدي سنة ٣٨٨هـ وصرف سنة ٣٩٠هـ وانتدب

---

(١) انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٢١-٣٧، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧:٣٥٥-٣٥٨، وانظر الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ١:٣٨٣-٣٨٤.

(٢) كان قسّام يعمل في التراب، وأصبح من مقدّمي الأحداث، وحملة السِّلاح، انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٤٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦:٣٦٣-٣٦٤، وانظر محمد زيود: دول بلاد الشام ومصر في العصر العباسي الثاني، ١٢٣.

(٣) انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٣٨-٤٠، وابن كثير: البداية والنهاية، ١١:٣١٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧:٣٨٢-٣٨٣.

(٤) انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٤٨-٥٧، وابن خلدون: العبر، ٤:٥٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧:٤٣٣-٤٣٤.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:١٨١.

(٦) المصدر نفسه، ١:١٨٥.

(٧) انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٦٨-٨١.

(٨) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٨٢-٨٤، ابن خلدون: العبر، ٤:٥٦-٥٧، وانظر الذّهبي: سير أعلام النّبلاء ١٧:٥٣-٥٦.

خلال هذه السنة جيش بن الصمصامة، ثمّ قُلّد ابنه محمد، ثم القائد تميم بن إسماعيل المغربي الملقب بفحل، ثم علي بن جعفر بن فلاح، وفي سنة ٣٩٢هـ اختير ختكين الدّاعي المعروف بالضيف من قبل الحاكم، وكان جاهلاً أحمق(١)، ثم اختير طِزْملت(٢) بن بكّار -رجل أسود بربري- بقية سنة ٣٩٢هـ وصُرِف عنها بخادم اسمه مفلح اللّحياني الخادم(٣)، أما حلب ففي سنة ٣٩٢هـ مات أبو الفضائل بسم دُسّ له، قيل إنه من قبل غلامه. لؤلؤ، ثم ملّك لؤلؤ ولديه أبا الحسن علياً وأبا المعالي شريفاً ابني سعيد الدولة، واستولى هو على تدبير ملكه(٤) فسيّر أولاد سعيد الدولة إلى مصر، وبقي الأمر له ولأولاده(٥)، وكان لؤلؤ هذا عاقلاً شهماً محباً للعدل(٦)، وبعد وفاته سنة ٣٩٩هـ تقرّرت ولاية حلب لولده مُرتضى الدولة الذي كثر ظلمه وعسفه(٧).

وبهذا نرى أن الأعاجم قد سيطروا على حلب بعد وفاة سيف الدولة، ولم يكن لأبنائه شيء من السلطة يُذكر، في الوقت الذي حرص فيه سيف الدولة على أن تكون السيادة للعرب، وإن استعمل الأعاجم في بعض أعماله، وأما دمشق فتولاّها سنة ٣٩٩هـ حامد ابن ملهم ثم عزل وتولّى بعده أبو عبدالله بن نزّال الذي عُزل سنة ٤٠٠هـ(٨).

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ٤١٦:١٠، وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٥٢٦:٣، وانظر الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ٢: ١٠-١١؛ ١٩:٢.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٥٢٥:٣، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ١٤١:٢، والصفدي: تحفة ذوي الألباب، ١٦:٢-١٧.

(٣) انظر إلى كل من ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ١٠٩:١٧، ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٨٧-٩٥، والصفدي: تحفة ذوي الألباب، ١٧:٢.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، ١٩٥:١.

(٥) المصدر السابق، ١٩٥:١.

(٦) المصدر السابق، ١٩٧:١.

(٧) المصدر نفسه، ١٩٨:١.

(٨) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ١٠٧، وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ١٥٠:٤، والصفدي: تحفة ذوي الألباب، ١٨:٢.

هذه القوى السياسية التي كانت تتنازع على بلاد الشام طوال القرن الرابع الهجري، وقد ظهرت الأطماع المختلفة بين هذه الفئات في بلاد الشام وكانت الخسارة الكبرى هي الشام نفسها وسوف نتبيّن ذلك عند الحديث عن الصراع مع الروم البيزنطيين الذين كانوا يصولون في الشام لا سيّما في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ولم نسمع للفاطميين أي دور في صدّهم.

الحياة الاجتماعية والفكرية

لقد ضمّ المجتمع الشامي في هذا القرن عناصر مختلفة من السكان، كان أهم عنصر فيه العرب، فهم الغالبية العظمى من السكان، أما العناصر الأخرى فكانت ثانوية، إلا أنه كان لها الدور الفعّال في الحياة السياسية والاجتماعية، فهناك الأتراك والفرس والأرمن، ثم الروم البيزنطيّون، ونظراً لأهمية العنصر العربي في بنية المجتمع، فلا بدّ من الإشارة إلى مكان انتشارهم في أجناد الشام المختلفة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين سواء القبائل اليمانية أو القيسية.

ففي جند حمص يغلب عليه اليمانيّون، ومنهم بَهْراء، وتنُوخ وطيّء وكِنْدَة وحِمْيَر وكَلْب وهمْدان وإياد والبارَة وعُذرة، وسَليح وزُبيد ويحصُب(١). أما جند دمشق فالأغلب عليهم كذلك أهل اليمن، وبها قوم من قيْس، ومنازل بني أمية وقصورهم أكثر منازلها، ومنهم غسّان وربيعة وبنومُرّة وكلْب وجماعة من قريش وموالي بني هاشم، وبنوضبّة، وعامِلة(٢). وجند الأردن أهلها قوم من الأشعريين هم الغالبون عليها، وأهلها أخلاط من العرب والعجم(٣).

وجند فلسطين وأهلها أخلاط من العرب والعجم، فالعرب منهم جُذام ولخمْ وعاملة وكنْدَة وقيْس وكنَانة(٤).

أما قبيلة كلاب فكانت بقنّسرين(٥) وبالس(٦).

---

(١) اليعقوبي: البلدان، ٨٥–٨٦، ابن العديم: بغية الطلب، ٥٦١:١، وابن رسته: الأعلاق النفيسة: ٣٢٤:٧–٣٢٥.

(٢) اليعقوبي: البلدان ٨٧، ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ٣٢٦:٧–٣٢٧، الإصطخري: المسالك والممالك، ٤٤، وابن حوقل: صورة الأرض.١٦٠.

(٣) اليعقوبي: البلدان، ٨٨، وابن رسته: الأعلاق النفيسة، ٣٢٧:٧.

(٤) اليعقوبي: البلدان ٨٩–٩٠، وابن رسته: الأعلاق النفيسة، ٣٢٨:٧–٣٢٩.

(٥) انظر: حسين عطوان: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، ١٠٩.

(٦) ابن العديم: بغية الطلب، ١١٩:١.

وقبيلة طيّء انتشرت بالأردن وفلسطين(١).

ومن خلال توزيع هذه القبائل على الأجناد، نرى أن بعض القبائل كانت تقطن في أكثر من جند(٢)، فاليمانية غلبت على جند حمص وجند الأردن وقد خلتْ حمص من بني أمية والقرشيين، وأما جندُ فلسطين ودمشق فقد انتشر فيها كل من اليمانية والقيسية، على أنه لم تتغير البنية السكانية كثيراً عمّا كانت عليه أيام الأمويين(٣).

ومن العناصر غير العربية الفرس والأرمن والأتراك والمغاربة، فقد انتشر الفرس في كل من بعلبك وعرقة وأطرابُلسَ وجبيل وصيدا وبيروت(٤)، وفي جند الأردن في كل من عكّا وقَدَس وبيسان وفحْل وجرش والسَّواد(٥)، وفي جند فلسطين في الرملة وعَمَواس ونابُلُس(٦) وفي بالس(٧). أما الأرمن فهم في ملطية(٨).

لقد لعبت القبائل العربية دوراً بارزاً في المجتمع الشامي، فساندوا الحكّام أحياناً، وناوؤهم تارة أخرى، وتعاونوا أحياناً مع الأعداء، ففي الوقت الذي كانت فيه هذه القبائل تشكل عنصراً بارزاً في جيش سيف الدولة فإنها قامت بثورات عديدة ضده، ومن هنا نراه قد نهج نهجين في تعامله معها، فحاول اصطناعها أحياناً، وقتالها حيناً أخر، وضربها ببعضها البعض أحياناً أخرى، ومنها قبيلة بني كلاب، الذين قاموا بثورة سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م، وعاشوا بنواحي بالس، فترك سيف الدولة

---

(١) الإصطخري: المسالك والممالك، ٤٤.

(٢) انظر: حسين عطوان: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، ١٠٤-١١٠.

(٣) انظر: إحسان عباس: تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ١٣١.

(٤) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ٣٢٧:٧، واليعقوبي: البلدان، ٨٧-٨٨.

(٥) المصدر نفسه: ٣٢٧:٧-٣٢٨.

(٦) المصدر نفسه: ٣٢٨:٧.

(٧) ابن العديم: بغية الطلب، ١٢٣:١.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض، ١٦٦.

حرب الروم، وتصدّى لها، فهزمها(١) وأوقع بهم وشرّدهم لمّا لمس منهم ما يدل على التمرّد، ولكنه عاد فصفح عنهم حينما وسّطوا أبا فراس(٢).

وفي العام التالي ٣٤٤هـ استسلموا له بعد أن طاردهم واستأصل شأفتهم وجاءته وفودهم لطلب العفو(٣)، كما ثار عليه مروان العُقيلي عام ٣٥٤هـ حين أحسّ بانشغال سيف الدولة بالفداء، حيث كان مروان يتقلّد السواحل له فلما تمكن ثار بحمص فملكها(٤).

وحين ظهر المبرقع سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م الذي دعا الناس لنفسه، التفت حوله القبائل، وأسر أبا وائل تغلب بن داود خليفة سيف الدولة على حمص، فما كان من سيف الدولة إلا أن أدركه وقتله، وعلّق رأسه على الرمح(٥). هذا عن دورهم في ظل حكم سيف الدولة، ولذا فإنه لا بدّ من ذكر الأسباب التي أدت إلى قيام هذه القبائل بالثورة.

لقد أشار كثير من الباحثين(٦) إلى أن هذه العناصر كانت ساخطة على الحكم الحمداني، فلا عجب منها أنْ تقوم بعقد مؤتمر تعبّر فيه، عن سخطها على سيف الدولة، وتحاول أن تحدث الاضطرابات في مملكته، وتشجع المتمرّدين عليه، وربّما أن سياسة الحمدانيين المالية والاقتصادية القاسية كانت السبب الكامن وراء ذلك، وهذا يؤكده أن أهل حران ثاروا على عامل سيف الدولة سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م وهو ابن أخيه هبة الله، لظلم موظفيه(٧).

---

(١) فيصل السّامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ٢:٤٨.

(٢) درويش النخيلي: فتح الفاطميين للشام في مرحلته الأولى، ٨٣.

(٣) فيصل السّامر: الدولة الحمدانية، ٢:٤٩، وانظر كانار: نخب تاريخية وأدبية ٢٢٥-٢٣٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧:٢٩٠.

(٥) الثعالبي: يتيمة الدهر، ١:٤٦، انظر منير الخوري عيسى أسعد: تاريخ حمص في عصر العباسيّين، ٢:١٧٢.

(٦) فيصل السّامر: الدولة الحمدانية، ٢:٤٩.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨:٢٢٥، وانظر فيصل السامر: الدولة الحمدانية، ٢:٥١.

ومما يستدعي الانتباه هو موقف القبائل العربية خلال النصف الأخير من القرن الرابع، إذ لعبت البطون الكلابية دوراً هاماً إلى جانب الحمدانيين في سبيل نصرتهم، وكأنها أحسّت بأحقيتهم في الإمارة لا سيّما في عهد سعد الدولة حين قاموا بمؤازرته ضد قرغويه(١)، وقد شكّلوا معظم جيشه خلال عام ٣٧٣هـ/٩٨٣م، فكان منهم خمسمائة فارس(٢) تميّزوا بطباعهم الحربية وحبّهم للقتال(٣)، واتسم نشاطهم بالإغارات والسلب والنهب، ويؤكد ذلك إغارتهم على معرّة النعمان سنة ٣٢٥هـ(٤).

هذا وقد لجأت القوى السياسية إلى مصانعتهم، حينما لمست منهم بعض جوانب القوة، فمثلاً نرى أن صالح بن عمير العقيلي تولّى إمرة دمشق في خلافة الحسن بن عبيدالله بن طغج في ذي الحجة من عام ٣٥٧(٥).

وفي عام ٣٥٩هـ من ذي الحجة غلب على دمشق أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي، الذي ردّ دعوة بني العباس، وأعاد الخُطبة للمطيع(٦).

وحاول الفاطميون استمالة العرب، ولا غرابة أن نرى جوهراً حينما دخل الشام واستولى عليها، أقرَّ على إقليم الغرب بما فيه طرابلس وبيروت وصيدا، أميراً عربياً وهو سيف الدولة المنذر بن أمير الدولة النعمان بن عامر التّنوخي(٧).

ومهما يكن نشاط القبائل العربية المختلفة، فإن الإمارة الطائية بفلسطين(٨)،

---

(١) انظر: محمد محمد مرسي: الإمارات العربية في بلاد الشام، ٧٨-٨٠.

(٢) انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٣٤-٣٥.

(٣) سهيل زكار: إمارة حلب، ١٢.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:٩٨-٩٩، وانظر: محمد محمد مرسي: الإمارات العربية في بلاد الشام، ٦٨.

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٨:٢٠٨.

(٦) ابن خلدون: العبر، ٤:٤٨، وانظر الصفدي: تحفة ذوي الألباب، ١:٣٧٠-٣٧١.

(٧) انظر عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، ٦٨، وعبدالعزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ٤٨.

(٨) الإصطخري: المسالك والممالك، ٤٤.

كانت هي الذّروة في الأحداث السياسية، وقد ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فثمة أسباب وراء قيامها، ومنها: ضعف الدولة الحمدانية من جهة، وتسلط القرامطة على الشام ولا سيما دمشق، وظهور الفاطميين في بلاد الشام، كل ذلك جعلها تشعر بكيانها وتشارك في الأحداث السياسية.

لقد ساهمت طيء في حرب القرامطة، وشكّلتْ جزءاً هاماً من جيوشهم(١)، وحين استولى القرامطة سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م على الرملة، عينوا فيها دغفل بن الجراح، وبالتالي أصبحت الأقسام الجنوبية من الشام منذ ذلك التاريخ ولمدة تزيد على قرن من الزمان مرتبطة بآل الجراح، أمراء طيّء(٢).

وقد زاد تمرّد هذه القبيلة؛ لانتشار الفوضى وعدم الاستقرار ورغبتها في الحصول على المال بأية وسيلة، واستغلال التنافس بين الخلافتين: العباسية والفاطمية، إذ نشطت كل خلافة في رشوة هذه القبائل لتعمل على مساعدتها ومناصرتها، ومن جانب آخر فإن الطبيعة العربية القبليّة، وعدم خضوع العربي للسلطة كان سبباً في تمرّدها ضد الفاطميين، فبنو الجرّاح كانوا ينفرون من الالتزام والخضوع للقانون والسلطة المركزية، فحينما قدم يارختكين من قبل الفاطميّين، وأمر وجوه القواد بتبجيله، والترجل في خدمته رفض أبناء مفرج ابن دغفل علي ومحمود ذلك، وظلوا يتحينون الفرص للانتقام من يارختكين(٣)، إزاء قوة الطائيين، فإن الدولة الفاطمية ستنزع من وجودهم بفلسطين، وشرقي الأردن؛ وهي مناطق هامة بالنسبة إلى الفاطميّين؛ لأنها نقطة الاتصال البري بين ممتلكاتها بأفريقيا وآسيا، لذا لا بدّ من اتخاذ منهج معين في علاقتها معهم.

---

(١) مصطفى الحياري: الإمارة الطائية، ٤٤-٤٥.

(٢) مصطفى الحياري: الإمارة الطائية، ٤٥.

(٣) أمينة البيطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، ٩١-٩٣.

أولاً: العمل على الاحتفاظ بولاء هذه القبيلة وصداقتها لمساعدتها في حروبها ضد القوى الأخرى(١)، وبالمقابل القضاء على هذه الإمارة لعدم تقيّد أمرائها بأصول العلاقات بين التابع والمتبوع(٢).

أما الاحتفاظ بولائها فذلك عن طريق السخاء بالمال والهبات والإقطاعات(٣)، وتمّ ذلك عام ٣٦٣هـ/٩٧١م، حينما تمكن الفاطميون من إفساد آل الجراح على أصحابهم القرامطة والتخلّي عنهم أثناء المعركة مقابل مائة ألف دينار، وفعلاً انهزم القرامطة(٤).

كما أيّدت طيّء عام ٣٨١هـ/٩٩١ منجوتكين التّركي في البداية ضد الفاطميّين ثمّ تخلّت عنه أثناء المعركة مما أدى إلى هزيمته وأسره(٥).

كما استعان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمراء آل الجراح في عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م للقضاء على فتنة قامت بها برقة(٦)، وفي الوقت نفسه عملت على القضاء على آل الجراح ضمن حملات أرسلتها من مصر وبلاد الشام لمحاربتهم وذلك في السنوات: ٣٦٩هـ/٩٧٩م و ٣٧٠هـ/٩٨٠م وفي ٣٨٧هـ/٩٩٧م.

ومن الجدير بالذكر أن بني طيّء بلغوا من القوة، حينما كثرت جموعهم وملكوا الرملة واستقدموا الشريف أبا الفتوح الحسن بن جعفر أمير مكة فبايعوه بالخلافة مما جعل الحاكم يستميلهم، فردّوه إلى مكة ورجعوا لطاعة الحاكم وخطب له بمكّة(٧)، وفي الوقت نفسه جهّز الحاكم العساكر إلى الشام مع علي بن جعفر إلى

---

(١) مصطفى الحياري: الإمارة الطائية، ٤٦.

(٢) المرجع نفسه: ٤٦.

(٣) المرجع نفسه: ٤٦، وانظر سهيل زكّار: الجامع في أخبار القرامطة، ٣: ٥١٤.

(٤) مصطفى الحياري: الإمارة الطائية، ٤٧.

(٥) المرجع السابق نفسه، ٤٧.

(٦) المرجع نفسه، ٤٧.

(٧) ابن خلدون: العبر، ٤: ٥٧.

الرملة، فانهزم حسان بن مفرج وقومه، واستولى علي بن جعفر على أموالهم وذخائرهم وبقي حسان وأبوه مفرج شريدين نحواً من سنتين، ثم هلك مفرج وبُعث حسان إلى الحاكم فأمّنه وأقطعه، ثم وفد عليه بمصر فأكرمه ووصله(١).

وتجدر الإشارة إلى بني كلب، ومنهم سنان بن عليّان الكلبي الذي قاتل الفاطميّين مع منجوتكين، ثم انحاز إليهم بعد أن أغروه بالمال سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، ثم انقلب عليهم وعقد حلفاً مع حسّان بن مفرج في فترة متأخرة سنة ٤١٥هـ(٢).

وفي الوقت الذي حاربت فيه القبائل العربية الفاطميين، فإنها ساندتهم ووقفت معهم ضد البيزنطيين ربما لغاية دينية؛ وهي نُصرة الجانب الإسلامي على النصراني، أو على الأقل بحماسة عربية، واندفاع بدوي، وإن خضعوا لمغريات مادية(٣).

وفي الوقت نفسه نرى أن الفاطميين كانوا متخوفين من ابن الجراح، فهذا ابن كلّس وزير الخليفة العزيز بالله، وهو نصراني يخاطبهُ ويقول له: سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك، واقتنع من الحمدانية بالدّعوة والسكة ولا تُبقِ على المفرّج بن دغفل بن الجراح، متى عرضت لك فيه فرصة(٤).

وضم المجتمع في هذا القرن فئات دينية مذهبية متعددة، ومنهم: المسلمون وهم سنة وشيعة -وقد اختلفت مدن الشام عن بعضها في قوة التشيع، وأهل السنة هم أعظم فرقة إسلامية، وكانت على المذهب الحنفي(٥)، وامتازت دمشق-

---

(١) المصدر السابق نفسه، ٤:٥٧.

(٢) انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٤٦-٤٧، وأمينة البيطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق، ١٤٩.

(٣) انظر: محمد محمد مرسي: الإمارات العربية في بلاد الشام، ٨٢-٨٣.

(٤) انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق ٤٨-٥٢، وانظر أمينة البيطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، ١٠٦.

(٥) انظر الغزي: نهر الذهب، ١:١٨٩-١٩١.

وأهلها سنة متطرّفون- بعدائها للشيعة، ويصف ذلك النسائي حين ألف كتاب الخصائص في فضل علي -رضي الله عنه- فقال عن دمشق: دخلتها والمنحرف عن علي كثير، فأردت أن يهديهم الله تعالى بهذا الكتاب(١)، ويدل على تطرّفهم وعدائهم للشيعة أنّهم التمسوا معونة الحسن بن أحمد القرمطي ضد الفاطميين(٢).

ومن الجدير بالذكر أن بعض الباحثين يستبعد ظهور التشيع بين الأسر العربية كأسرة بني حمدان- وأن التشيع أكثر ما يكون ذيوعاً بين الفرس لا العرب(٣)، لكن من الواضح أن التشيع كان عربياً في نشأته، ولم يكن فارسياً، فالذين أظهروا الميل لعلي زمن السقيفة هم عرب، والذين قاتلوا معه في معركة الجمل وحرب صفين من العرب(٤).

ويعتقد بعض الباحثين أنهم تبنّوا التشيع لأنهم رأوا في المبادئ التي كان الأئمة يدعون إليها انسجاماً مع روح الإسلام، وتجسيداً للمساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم وذلك ما لم يوجد عند خلفاء بني أمية الذين خرجوا على هذه المبادئ(٥).

وعلى العموم فالتشيع في النصف الأول من القرن الرابع الهجري كان ضعيفاً، وامتاز أهله بالتساهل إلى أن جاء الفاطميّون في النصف الثاني من القرن نفسه، وامتاز أهله بالغلو، وعن أثر التشيع على العالم الإسلامي في هذا القرن، فقد كان السبب في طمع العدو، وتكالب المصائب على مدن الشام، وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب وإظهار سبّ خير الخلق بعد الأنبياء(٦). ومن

(١) اليافعي: مرآة الجنان، ٢:٢٤١.

(٢) انظر: عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام، ٤٨.

(٣) مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ١٢٦.

(٤) فرحان القضاه: التشيع في الشعر العباسي، ١٥.

(٥) انظر المرجع نفسه، ١٥.

(٦) انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ١١:٢٥٦-٢٥٧، وانظر ما قاله محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ٢:١٥٦.

المذاهب الشيعية التي سادت في الشام، مذهب الإمامية في حلب(١)، وظهرت فرقة النصيرية المتطرفة في المناطق الجبلية(٢).

وقد ظهرت مزارات شيعية في الشام، ومنها: مشهد الدّكة، شيّده سيف الدولة عام ٣٥١هـ/٩٦٢م(٣).

وهناك الصوفية، فقد ظهر منهم في كل من: صور(٤) وأنطاكية(٥)، ودمشق(٦) وبيت المقدس(٧)، وظلَّ الكثيرون من العبّاد والنسّاك يؤثرون جبال الشام، فقد كان في جبل الجولان، -شرقي الشام- أبو إسحاق البلوطي في أربعين رجلاً يقتاتون البلوط ويلبسون الصوف(٨) وانتشر منهم في بعض الحصون المنيعة كحصن أولاس(٩).

ومن أقوال المتصوفة: الخلقُ محل الآفات، وأكثر منهم آفة منْ يأنس بهم، أو يسكن إليهم(١٠)، وقولهم في الورع: أن يسلم مما يختلجُ منه صدرك من الشبّهات ويسلم المسلمون من شرٍّ إعصائك ظاهراً وباطناً(١١). كما ظهر في هذا القرن الأبدال وهم فئة من الصالحين، وعددهم سبعون، أربعون منهم بالشام، وثلاثون في

---

(١) دومنيك وجانين: الحضارة الإسلامية، ١٣٦:١.

(٢) المرجع نفسه، ١٣٦:١.

(٣) المرجع نفسه، ١٣٦:١.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٦:٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٨٤:٧.

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٩٣:١٥.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٤٨:٨-٢٥٠، وانظر شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ٥٢٩.

(٧) ابن العديم: بغية الطلب، ٤٥٦٩:١٠.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ١٦٩، والمقدسي: أحسن التقاسيم، ١٨٨-١٨٩.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ١٦٩.

(١٠) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٤٤٦:٢-٤٤٧.

(١١) المصدر نفسه، ٤٤٦:٢-٤٤٧.

سائر البلاد(١).

ومع ذلك إلا أنه لم يكن لهم نشاط واضح على صعيد الواقع، أو أي دور بارز في ظل الأحداث المضطربة في بلاد الشام.

ومن فئاته كذلك القضاة، وقد كانت بغداد هي التي تعينهم في الشام في عهد الإخشيد(٢)، وكان الأغلب عليهم أنهم شافعية(٣)، وبعضهم حنفية(٤) ومنهم على المذهب المالكي(٥) وقد يتولى من الأسرة الواحدة أكثر من قاضٍ، إذ ولي أربعة وعشرون قاضياً من أسرة أبي الشوارب(٦). وأما عن سيرة هؤلاء القضاة، فبعضهم كان محمود السيرة، عفيفاً نزهاً، أديباً، بليغاً، جواداً، كريماً، عارفاً بالقضاء(٧)، ومنهم من كان سخيفاً خليعاً(٨)، كما تسرب الفساد لمنصب القضاء، والحصول عليه عن طريق المال(٩)، واشتهر بعض القضاة بالاستبداد والظلم ومنهم: أبو الحصين قاضي سيف الدولة الذي كان يقول: «كل مَنْ هلك فلسيف الدولة ما ترك، وعلى أبي حصين الدَّرك»(١٠)، ولا عجب أن يدوسه سيف الدولة بحصانه في معركة درب مغارة الكحل سنة ٣٤٩هـ ويقول: «لا رضي الله عنك فإنك كنت تفتح لي أبواب الظلم»(١١) وكان هو الذي أفتى لسعد الدولة بأخذ مال بكجور حين استكثره،

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٢:٥٩.

(٢) انظر إلى كل من، ابن العديم: زبدة الحلب، ١:٩٤-١٠١، وابن طولون: قضاة دمشق ٢٧-٢٨، الغزّي: نهر الذهب ١:٢٩٤..

(٣) انظر ابن طولون: قضاة دمشق، ٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ٢٧.

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٥:٢٧٠.، وابن طولون: قضاة دمشق، ٣٤-٣٥.

(٦) ابن طولون: قضاة دمشق، ٣٤.

(٧) المصدر نفسه، ٢٧-٢٨، وابن العديم: زبدة الحلب: ١:١٣١، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣:٧.

(٨) ابن طولون: قضاة دمشق، ٣٦.

(٩) المصدر نفسه، ٣٦.

(١٠) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:١١٢.

(١١) المصدر نفسه، ١:١٣١.

بحجة أنه مملوك(١).

وأهل الذمة اليهود والنصارى، وعددهم بالشام كثير، فبالرملة منهم خمسمائة مجزيّ(٢)، وكان بيت المقدس قد غلب عليه اليهود والنصارى(٣)، وقد شغلوا مناصب هامة، ومنها أن بعضهم قد سُيِّر مع الجيوش في بعض الصوائف(٤)، وقُلِّد بعضهم منصب الوزارة في عهد الفاطميّين ومنهم منشأ بن إبراهيم بن الفرّار(٥)، وكان عدد كبير من النصارى أطباء وكتبة(٦)، وأكثر الجهابذة والصبّاغين والصيّارفة والدبّاغين في الشام من اليهود(٧).

أما عن علاقة المسلمين بهذه الطوائف الدينية فقد اختلفت من فترة لأخرى، فعاملوهم أحياناً معالة حسنة تنطوي على الرعاية والعطف(٨) والإحسان إلى أهل الأديرة(٩).

وثاروا عليهم أحياناً أخرى، وهدموا كنائسهم، ونهبوا ما فيها وأحرقوها(١٠).

---

(١) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤٥٤:٧، الأزدي: أخبار الدولة الحمدانية٥٣، وظهير الدين الروذراوري: ذيل تجارب الأمم، ٢١٥:٣.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ١٥٩.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ١٦٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، ٢٢٩:٤، فقد أرسل سيف الدولة غلامه نجا مع الجيوش.

(٥) انظر: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٤٨-٥٧.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ١٨٣، وانظر محمد كرد علي: خطط الشام، ٢٨:٤، وفيليب حتّي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢٠٣:٢.

(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ١٨٣.

(٨) علي حسن الخربوطلي: العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود، ١٠٧.

(٩) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ٣٣٢:١، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٦٠٠:٢، والغزي: نهر الذهب، ١٩٤:١، وانظر محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق، ١٦-٢٠، وانظر عبدالفتاح روّاس قلعه جي: حلب القديمة والحديثة، ٢٦٥-٢٦٦.

(١٠) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ١٠٨-١١٠، وانظر جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ١٩٦.

وأمر الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٣م بهدم كنائسهم وألزمهم بتعليق صلبان من الخشب وحُظر عليهم ضرب النواقيس، وأمر اليهود بتعليق خشبة كهيئة رأس العجل -الذي عبدوه- في عنق كل منهم(١)، وحينما هدم الكنيسة نادى: من أسلم وإلا ليخرج من مملكتي، أو يلتزم بما أمِر، ثم رخص لهم في الرِّدة لكونهم مُكرهين، وقال: تُنزّه مساجدنا عمّن لا نية له في الإسلام(٢)، إلاّ أنّ المسلمين، امتازوا بالتسامح معهم، فشاركوهم أعيادهم- التي كانوا يقدّرون بها الفصول ومنها: الفصح، وقت النيروز، والعنصرة- وقت الحر، والميلاد، وقت البرد، وعيد بربارة وقت الأمطار، وعيد الصَّليب، وقت القطاف للعنب(٣).

كما انتشرت الكنائس(٤) والأديرة بكثرة(*) ومنها: دير مُرّان(٥) ودير سمْعان(٦)، ودير زَكّيْ(٧)، ودير الزعفران(٨) وهو عجيب البناء كثير

---

(١) الأنطاكي: تاريخه ١:٢٧٨، وابن القلانسي: تاريخ دمشق، ١٠٨-١١٠، ابن كثير: البداية والنهاية، ١١:٣٦٢.

(٢) اليافعي: مرآة الجنان، ٢:٤٤٩.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ١٨٢-١٨٣.

(٤) الإصطخري: المسالك والممالك، ٤٦.

(*) الدير كما هو في معجم البلدان، ٢:٤٩٥، «بيت يتعبد فيه الرّهبان ولا يكاد يكون في المصر الأعظم إنّما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال، فإن كان في المصر الأعظم كانت كنيسة أو بيعة.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢:٦٠٣-٦٠٤، الأصفهاني: الديارات ٢١، وابن فضل الله العُمري: مسالك الأبصار، ١:٣٥٢، والبكري: معجم ما استعجم، ١٥٤-١٥٧، ودير مرّان بالقرب من دمشق وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة.

(٦) الشابُشتي: الديارات، ١٠٦-١٠٨ والحميري: الروض المعطار، ٢٥١، وابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ١:٣٥١ ودير سمعان بنواحي دمشق بالقرب من الغوطة وهو من كبار الديَرة.

(٧) الشابُشتي: الديارات٢١٨، وياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢:٥٨١-٥٨٢، الأصفهاني: الديارات، ٩٦، ودير زَكّيْ بالرُّها بفتح الزاي وتشديد الكاف وتسكين الياء ضبطه ياقوت: معجم البلدان، ٢:٥٨١.

(٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢:٥٨٠.

الرّهبان(١).

وضمّ المجتمع الشّامي كذلك الفحول من العلماء، والشعراء المبرّزين، لا سيّما في حلب أيام سيف الدولة، لأنه كان شديد الميل إلى العلم، والأدب، وافر العطايا والإكرام، فكانت حلب منتجع جهابذة العلم والأدب، وإليها ينسابون من كلّ فجٍّ وحدْب(٢).

وكان لسيف الدولة مجلسٌ يحضره العلماء كلّ ليلة، يتكلّمون بحضرته، فوقع بين المتنبي وابن خالويْه النحوي كلام، فوثب ابن خالويْه على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان بيده، فشجّهُ فخرج ودمه يسيل على ثيابه، فغضب وخرج إلى مصر(٣).

وكانوا يسمّون عصر سيف الدولة الطراز المذهّب؛ لأن الفضلاء الذين كانوا عنده والشعراء الذين من حوله لم يأتِ بعدهم مثلُهم(٤).

وذكر الثعالبي: «إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدّهر، وإنّما السلطان سوقٌ يُجلبُ إليها ما يُنفق لديها»(٥).

وهؤلاء الشعراء الذين التفّوا حوله كانوا من عامّة الناس، وقد مثلوا الحياة الاجتماعية في هذا القرن خير تمثيل، ولم يقتصر أدبهم على أن يكون أدب بلاط، يمثل الحياة الأرستقراطيّة.

وقد تأثر المجتمع الشامي في هذا القرن بمجموعة من المؤثرات التي تركت آثاراً واضحة في الحياة الاجتماعية، ومنها الآثار التي تركها الصراع مع الروم وما نجم عن ذلك من دمار وخراب، فحينما اشتد خطرهم على حلب سنة ٣٥١هـ نهبوا

---

(١) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ١:٣٠٦.

(٢) الغزي: نهر الذهب، ١:١٥٨.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، ٢:٣٥٤-٣٥٥.

(٤) انظر: محمد كرد علي: خطط الشام، ٤:٢٧

(٥) الثعالبي: يتيمة الدهر، ١:٢٧.

البلد، وقتلوا معظم الرجال، ولم يسلم منهم إلاّ من اعتصم بالقلعة من العلويّين والهاشميين والكتاب وأرباب الأموال، وقيل إنّ الدمستق أخرب القصر الذي أنشأهُ سيف الدولة بالحلبة، وكان قد وجد فيه لسيف الدولة ثلاثمائة وتسعين بدرة دراهم، ووجد له ألفاً وأربعمائة بغل فأخذها، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى كثرة، وأحرق الدار فلم تعمرْ بعد ذلك(١).

ولم يكتفوا بما سبق، بل أحرق نقفور المسجد الجامع وأكثر الأسواق، وأكثر دور المدينة وخرج إلى القسطنطينية بعد أن ضرب أعناق الأسارى من الرجال، وكانوا أيضاً ألفاً ومائتي رجل(٢)، وإزاء تهلهل أوضاع الشام، -لا سيما حلب- أمام البيزنطيين، فإن نقفور دخل طرسوس عام ٣٥١هـ وصعد منبرها، وأظهر الحرب العقائدية، وقال للروم من حوله: «أين أنا؟ فقالوا: على منبر طرسوس، فقال: لا، ولكني على منبر بيت المقدس، وهذه كانت تمنعكم من ذلك(٣). لم يكن هذا فحسب، بل نرى المسلمين يُعرضون على نقفور أن يقبل منهم إتاوةً يؤدونها إليه، وهم أهل طرسوس والمصّيصة- على أن ينفذ إليهم صاحباً له ليقيم فيهم فعمل على إجابتهم، ثم ورد الخبر عليه بضعف أهل هذه البلاد، ولا ناصر لهم ولا دافع عنهم، وأنّه لم تبق أقوات، وآل الأمر بأهل طرسوس إلى أكل الكلاب الميتة وأنّه يخرج منها في كل يوم ثلاثمائة جنازة، فانصرف رأيهُ عما كان عليه، وأحضر رسولهم، وضرب له مثلاً، وقال:مثلكم مَثَلُ الحية في الشتاء، إذا لحقها البرد وذبلت وضعفتْ، حتى يقدّر من رآها أنها قد ماتت، فإن أخذها إنسان وأحسن إليها، انتعشت ولدغته، فأنتم إنّما بذلتم الطاعة لمّا ضعفتم فأخذ كتاب رسولهم وأحرقه على رأسه، وقال له: امضِ وعرّفهم أنه ليس عندي إلا السيف(٤).

---

(١) انظر إلى ابن العديم: زبدة الحلب، ١٣٥:١-١٣٨، انظر الأنطاكي: تاريخه: ٩٩:١، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٨:٧، ومسكويه: تجارب الأمم، ١٩٣:٢-١٩٤، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٧٣:٧، والأزدي: أخبار الدولة الحمدانية، ٣٨.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ١٣٩:١، ومسكويه: تجارب الأمم، ١٩٣:٢.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، ١٤٣:١.

(٤) مسكويه:تجارب الأمم، ٢١٠:٢.

وبعد أن فتح المصّيصة، فإنه وضع السيف في رقاب أهلها، ولم يكتف بذلك بل جعل المسجد الجامع بطرسوس اصطبلاً لدوابه، وأحرق منبره، وقلّد البلد بطريقاً والمصّيصة بطريقاً آخر(١).

وكان من نتائج صراع العرب مع الروم أن استولوا على معظم البلاد الشامية وهي كفُر طاب، وشيزر وحماة وعرقة وجَبَلة، ومعرّة النعمان، ومعرّة مصْرين وذلك عام ٣٥٦هـ ثم أنطاكية عام ٣٥٨هـ(٢).

وكلّ ذلك أدّى إلى اشتداد الغلاء بأنطاكية وجميع الثغور، حتى لم يقدر أحد على الخبز خلال سنة ٣٥٣هـ، وأكل الناس الرّطبة والحشيش، وانتقل قوم من الثغور إلى الرملة ودمشق، وغيرها، نحو خمسين ألف إنسان هرباً من الغلاء(٣).

وكان من نتيجة تكالبهم كذلك أن أصبحت حلب بعد ثلاثمائة ونيف وسبعين مجزية يؤدي كل إنسان عن داره ودكانه جزية(٤).

ولم تكن تسلم من خطر الروم مدينة من مدن الشام، ففي عام ٣٧٥ هـ سار ملك الروم بردس الفوقاس ونزل على أفامية ونصب عليها المنجنيقات وهدم بعض أبرجة حصنها وقاتلها أشد قتال(٥)، وفي عام ٣٨٩ سار إلى رَفنْيَة فأحرقها وسبى أهلها وتوجّه يحرق ويسبي إلى أن بلغ حمص(٦).

وبالإضافة إلى الآثار الناجمة عن صراع العرب مع الروم، فإن الشام عانت من بعض الكوارث الطبيعية، فمثلاً حدث بأنطاكية زلزلة أدت إلى سقوط قطعة كبيرة

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم ٢١١:٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ١٤٣:١-١٤٤.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم، ٢٠٣:٢.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ١٦٣.

(٥) الأنطاكي: تاريخه، ٢٠٣:١-٢٠٤.

(٦) المصدر نفسه، ٢٤٤:١.

من سورها(١)، وحدث زلزلة أخرى عام ٣٨١هـ في محرّم بدمشق، نجم عنها سقوط زهاء ألف دار، ومات خلق عظيم، وخسف بقرية من قرى بعلبك، وكانت الزلازل متكررة في هذه الفترة بدمشق وأعمالها وبعلبك، فخرج الناس من دورهم إلى الصحراء والخيم، وبقيت الزلازل متتابعة إلى يوم الجمعة ١٧ صفر(٢).

فضلاً عن أنه كانت تشب النيران في مدن الشام لأسباب مختلفة، ومن ذلك ما وقع سنة ٣٨٨هـ في قلعة أفامية، إذ احترق كل ما فيها من القوت وغيره(٣).

ولم تكن هذه الكوارث الطبيعية أعظم خطراً من سوء إدارة بعض الولاة، لا سيما ولاة الفاطميين المغاربة، وبعض الأعاجم الذين حكموا الشام، أو أولئك الأحداث الذين خرّبوا في الشام كثيراً.

فهذا أبو محمود المغربي مقدّم العسكر المصري عاثت قواته بين سنتي ٣٦٣هـ -٣٦٤هـ فساداً في دمشق ونهبوا القرى، وأتلفوا أماكن كثيرة، وألقوا النار في المدينة وقطعوا الطرق(٤)، ثم وفي سنة ٣٦٨هـ حينما آلتْ دمشق إلى قسّام التُّرابي، فقد غلت الأسعار بها وبالرملة، ومات الناس بالجوع(٥)، ووقع الغلاء والقحط وخرّب دمشق أهل العبث والفساد(٦).

ومع كل ذلك إلا أن الشام لم تخلُ من الإصلاحات الاجتماعية المختلفة، وإسقاط الضرائب والعمران، وغير ذلك، فهذا سعيد الدولة أبو الفضائل الحمداني، بعد أن تولّى حلب سنة ٣٨١هـ فإنه رفع المظالم والرسوم المقررة على الرعية، وردّ الخراج

---

(١) الأنطاكي: تاريخه، ١٤٦:١.

(٢) الأنطاكي: تاريخه ٢٢٠:١.

(٣) المصدر نفسه، ٢٤٢:١.

(٤) انظر: ابن القلانسي: تاريخ دمشق ٩-٢٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٤٥:٧-٣٤٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٨٢:٧-٣٨٣، وابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٣٨-٤٠، وابن كثير: البداية والنهاية، ٣١١:١١-٣١٢.

(٦) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ٤٣٣:٧-٤٣٤، والصفدي: تحفة ذوي الألباب، ٥:٢-٧، ٢٩٥:١-٢٩٧.

إلى رسمه الأول، وردّ على الحلبيّين أملاكاً كانت قد اغتصبت منهم سابقاً(١)، وهذا سلمان بن جعفر بن فلاح، أحد ولاة الفاطميين، فإنه بعد أن استولى على الشام سنة ٣٨١هـ استمال قلوب الرعية والعامة، وأطلق أرباب الجرائم من الحُبوس، وصلحت أحوال البلد بما نشر فيه من العدل والإنصاف(٢)، كما أن بكجور حين تسلّم حمص من قبل سعد الدولة سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م. عمل على إعمارها، مما أدى إلى انتقال كثير من أهل دمشق إلى حمص واستوطنوا فيها(٣).

وأما عن العمران في الشام فدمشق كما يقول بعض الباحثين: «فإنها عى أثر قيام الدولة العباسية، تسقط وينتهي عصرها الذهبي، وتدخل عهد الانحطاط، ذلك أن ذكر الأمويين كان ثقيل الوطأة على الخلافة الجديدة، فصبّوا على المدينة غضبهم وحقدهم، وخرّبوا القصور، وانتهكوا حرمة القبور -قبور الخلفاء- ولا عجب أن تنحط دمشق إلى مصاف المدن الثانوية...، ثم تدخل المدينة تحت حكم الفاطميين، وكانوا أبعد من أن يقرّوا الطمأنينة، فقد عادت تشهد حظها يسودّ، والفتن فيها تتكاثر وتشتد فازدادت الحالة حرجاً فيها، وأسرع فيها الانحلال بسبب الحرائق التي كانت تشب أثناء المشاغبات والثورات، ويقول كذلك: ونفتش بين أحياء المدينة وثناياها باحثين عن أثر عمراني، يعود إلى هذه الفترة فلا نكاد نجد شيئاً ذا بال»(٤).

لكن ومع تأكيد الباحثين بعدم وجود عمران في هذه الفترة إلاّ أن بعض الولاة كان يهتم بالنواحي العمرانية، وهي محدودة جداً، فمثلاً نرى سيف الدولة في حلب كان همُّهُ في سياسته الداخلية تنجيد القصور، فبعد أن استولى على حلب أنشأ قصراً بالحلبة، وتناهى في حُسْنه، وعمل له أسواراً، وأجرى نهر قويق فيه من تحت الخناقية- وهي من متنزهات حلب- يمر من الموضع المعروف بالسقايات حتى يدخل

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ١٨٥:١.

(٢) انظر: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٦٨-٨١.

(٣) منير الخوري: تاريخ حمص في عصر العباسيين، ١٧٦:٢-١٧٧.

(٤) انظر: صفوح خير: مدينة دمشق، ١٥٥-١٥٦-١٦٢.

في القصر من جانب ويخرج من آخر، فيصب في المكان المعروف بالفيض(*) وهو مكان مشهور قرب جبل الجوشن، وبنى حوله اصطبلاً ومساكن لحاشيته(١).

فضلاً عن أن سيف الدولة كان يعمّر الثغور بعد مداهمة الروم لها، ومن ذلك سنة ٣٥١هـ فبعد رحيل الروم عن حلب فإنه عمّر ما خرب منها، وجدّد عمارة المسجد الجامع، واهتم بعمارة القلعة وتحصينها(٢) كما بنى مشهد الدّكة وهو بناء يغطّي رفات الحسن، وذلك عام ٣٥١هـ/٩٦٢م(٣)

وحذا حذو سيف الدولة غلامه قرغويه الذي اهتم بالنواحي العمرانية، فبنى قُبّة الفوّارة في المسجد الجامع، بلغ طول عمودها سبعة أشبار، وفي هذه القبة جرن رخام أبيض في غاية الكبر والحُسن، وفي حافة الجرن مكتوب هذا ما أمر بعمله قرغويه غلام سيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٥٤هـ(٤).

وأما مستوى المعيشة فقد اختلف من مدينة لأخرى، فأهل بيت المقدس فيهم قلة يسار(٥)، ووصف أهل حلب بأن «لهم يسار»(٦) ولم تزل أسعارها في الأغذية قديماً، وجميع المآكل والمشارب واسعة رخيصة(٧)، وأما قنسرين «فيها رخص وسعة في الخيرات والمياه(٨)، ولكن دمشق: فالمعايشُ بها ضيّقة(٩)، وتوصف عمّان

(*) الفيض: مكان مشهور حول الحلبة قرب جبل الجوشن ابن العديم: زبدة الحلب ١:١٣٨.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:١٣٥-١٣٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ١:١٤٥، وابن الشحنة: الدّر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ٤٩-٥٠.

(٣) انظر: دومنيك وجانين: الحضارة الإسلامية، ١:١٣٦.

(٤) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ٦٢-٦٣.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ١٦٧.

(٦) المصدر نفسه، ١٥٥.

(٧) المصدر نفسه، ١٥٥.

(٨) المصدر نفسه، ١٥٦.

(٩) المصدر نفسه، ١٥٧.

«بأنها رخيصة الأسعار»(١)، وعلى العموم فهناك تقارب بين المستويين- لا سيما عامة الناس، الغني والفقير، ولكن الضرائب كانت ثقيلة على الفنادق لدخول الطبقات صاحبة اليسار(٢).

وقد ظهر جلياً الترف والبذخ لا سيما لدى الأمراء، فكان سيف الدولة إذا أكل الطعام حضر على مائدته أربعة وعشرون طبيباً(٣) ويزيد على ذلك أنه بعد وفاته غسل ثمان غسال بالماء أولاً ثم بالسّدر وبالصّندل، والذُّريرة، والكافور، وماء الورد وماء القراح، ونُشف بثوب دبيقي ثمنه نيف وخمسمائة دينار، وجُعل في لحيته ونحره مائة مثقال كافور، وكُفِّن في تسعة أثواب تساوي ألف دينار(٤).

ونرى ظهور بعض العادات والتقاليد التي يجب أن تتبع بعد تناول الطعام، وأُلِّف في هذا الشأن «أدب النديم» لكشاجم، أورد فيه أمر غسل اليد، فالرؤساء والملوك لا يغسلون بحضرة غيرهم لإجلالهم، أما النظراء فلا بأس في ذلك؛ لكنَّ الأولى الاعتزال للغسل مع كل طبقة مهما كانت(٥)، وانتشرت ظاهرة الصيد والطرد وأُلِّف فيها المؤلفات التي تحدّثت عن الحيوانات التي يصطادونها، وآلات الصيد، وغير ذلك(٦).

كما برز الاهتمام بالأعياد والمواسم للمسلمين وأهل الملل الأخرى، ومنها -لا سيما في عهد الدولة الفاطمية -موسم رأس السنة، وأول العام، ويوم عاشوراء، ومولد النبي -عليه الصلاة والسلام- ومولد علي- رضي الله عنه- ومولد الحسن والحسين -عليهما السلام- ومولد فاطمة الزهراء، وليلة أول رجب وليلة نصفه، وأول شعبان ونصفه وغرّة رمضان، وموسم عيد الفطر، وعيد النّحر وعيد الغدير،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ١٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ١٦٧.

(٣) انظر: ابن أبي أصيْبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٢٣٣:٣.

(٤) انظر ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج٣:ق١، ٣١٣-٣١٥، انظر كانار: نخب تاريخية وأدبية، ٢٧٦-٢٧٨.

(٥) انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٣٨:٢.

(٦) كشاجم: المصايد والمطارد، ٤٧.

وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، ويوم النيروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد(١).

فيوم عاشوراء كانوا يتخذونه يوم حزن، تتعطّلُ فيه الأسواق، ويُعمل فيه السّماط العظيم المسمّى «سماط الحزن» وكان يصل إلى الناس منه شيء كثير(٢).

أما الغدير: ففيه تزويج الأيامى، وتفرقة الهبات لكبراء الدولة، ورؤسائها وشيوخها وأمرائها، وفيه النحر وتفرقة النحائر وعتق الرقاب(٣).

والنيروز تتعطل فيه الأسواق، ويقل الناس في الطرقات، وتفرق الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ولنسائهم(٤).

وأما أعياد النصارى فمنها: عيد الخميس المقدّس، ويسمّى في الشام الخميس الأزرق أو خميس البيض(٥)، وذلك كان يُباع فيه بأسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة ألوان.

وظهر علم الفلك، الذي اهتم به الأمراء لأنهم اعتقدوا اعتقاداً راسخاً بعلاقة النجوم بمستقبل الإنسان، وبرع الكثير بصنع الاسطرلابات والموازين الدقيقة والآلات الهندسية(٦).

وكان أبرز ما يُميِّز المجتمع الشامي في هذا القرن انتشار مجالس اللهو والغناء والرقص والموسيقا والقيان، فسيف الدولة على الرغم من انشغاله بالحروب الداخلية والخارجية إلاّ أنه هو والأمراء الحمدانيون عقدوا في قصورهم مجالس عامرة يُقدّم فيها الطعام والشراب بسخاء وإفراط، وتغني شهرات القيان وكبار المطربين(٧).

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ١:٤٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ١:٤٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ١:٤٩٢.

(٤) المصدر السابق، ١:٤٩٣.

(٥) انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٢:٢٨٥.

(٦) فيصل السّامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ٢:٣١٣.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢:٦٢، والتنوخي: نشوار المحاضرة، ١:١٤٣، وانظر: فيصل السّامر: الدولة الحمدانية، ٢:٣١٥-٣١٦.

كما ضم بلاط سيف الدولة أكبر موسيقي إسلامي هو الفارابي الذي يقال إنه أول من اخترع القانون(١)، ولهذا لا نستغرب أن كَثُر حديث الشعراء عن آلات الطرب المستعملة آنذاك(٢)، وتزعم هذه المدرسة كشاجم، وأنتج هو وشعراء عصره أدباً موسيقياً جديداً طريفاً لأول مرة في تاريخ الشعر العربي(٣).

كما انتشرت الجواري، وكان لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم في غاية الجمال(٤)، وانتشرت ظاهرة الغلمان، والتغزل بهم، وكان لسيف الدولة غلام يسمى «ثمل»(٥).

ولا نستغرب أن مات سعد الورّاق بسبب وجده على غلام نصراني، ترهب في دير زَكّيْ، وكان سعد يعمل الأشعار به ويبكيه، وأُطلق على هذا الغلام «قاتل سعد الوراق»(٦). وأشار بعض الباحثين إلى أن مدينة اللاذقية كان المحتسب فيها يجمع «القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة، ويؤخذن إلى الفنادق التي يسكنها الغرباء وتأخذ كل واحدة منهنَّ خاتم المطران ليكون حجة بيدها من تعقب الوالي لها، وإن وجد خاطئ مع خاطئة من غير خاتم المطران، عوقب، وهذا النظام لم يُذكر إلا بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم»(٧).

وانتشر في الشام تجارة الرقيق الأبيض والأسود، فالأبيض جنسان، ويُحملون إلى الشام من الروم وقد انقطعوا بخراب الثغور(٨).

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، ٤:٩٥.

(٢) فيصل السامر: الدولة الحمدانية، ٢:٣١٩.

(٣) انظر: مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ٥٥٣.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣:٤٠٣، الأزدي: أخبار الدولة الحمدانية، ٢٥.

(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢:١٦٨.

(٦) المرجع نفسه، ٢:١٧١-١٧٢.

(٧) المرجع نفسه، ٢:١٧٤-١٧٥.

(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ٢٤٢، وانظر: طه طراونة: الرقيق في بلاد الشام، ٢٧٨ضمن كتاب المؤتمر الخامس لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت، ومحمد يونس العبادي.

ومن اللافت للنظر، أن من بين الظواهر الاجتماعية البارزة هي القومية العربية والحرص على قيام دولة عربية، فسيف الدولة قلّص من النفوذ التركي في الشام، وأسس دولة عربية شيعية عاشت حتّى نهاية القرن العاشر الميلادي، ومن هنا نرى أنّ بني حمدان أرادوا كسب القوى المختلفة عن طريقين -إزاء وضع الدولة العباسية- أولهما: عن طريق التشيّع لآل البيت، وثانيهما: عن طريق إثارة القومية العربية والاعتماد على العنصر العربي بدلاً من التركي والفارسي اللذيْن سيطرا على الدولة العباسية.

وبالتالي فالدولة الحمدانية لا سيّما في عهد سيف الدولة، دولة عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم(١) ثم كان لتلك السيادة شعور قومي وإحساس قوي به في عصر سيف الدولة، وهي مرحلة صفاء العروبة كأصل وجنسية، رغم أنها قامت على بقعة صغيرة من الشام(٢)، وهم الذين حملوا لواء اليقظة العربية، وحاولوا إعادة حكم العصبية العربية التي زالت بسقوط الدولة الأموية، إذ نراهم يمثلون العنصر العربي الذي انتعش بعدا النكسات الكبيرة في ظل العباسيين(٣).

---

(١) أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام، ١:٨٤.

(٢) أحمد علي: تاريخ بلاد الشام، ١٤١.

(٣) محمد زيود: دول بلاد الشام ومصر في العصر العباسي الثاني، ٢١.

الفصل الأول

مظاهر الحياة العامة

أ- عناصر السكان والعلاقات بينها

ب- ظروف المعيشة

ج- الصراع مع الروم وأثره في الحياة الاجتماعية

د- ١- مظاهر الحضارة والعمران

٢- وصف الأطعمة والولائم

هـ- العلاقات الاجتماعية - الشعر الإخواني

أ- عناصر السكان والعلاقات بينها:

شكّل العرب عنصراً أساسياً في بنية المجتمع الشاميّ في القرن الرابع الهجري، وظهر الحديث عنهم في الشعر الشامي ضمن سياقين كبيرين هما: الفتن والثورات القبلية، والفخر القبلي؛ أمّا الفتن والثورات، فسأفرد لها حديثاً خاصاً في الفصل الثاني، وأمّا الفخر القبليّ، فاتخذ صورتين، الأولى: الفخر بالعرب عامّة، وأكثر ما يمثّل ذلك أبو الطيب المتنبي، وقد درس هذه الظاهرة عنده عدد من الباحثين(*). كما مثّلها شعراء آخرون، فهذا الصّنوبري يشيد بالعرب، ويفخر بهم، وينوّه بشجاعتهم، وإقالتهم عثرات الكرام، ومحافظتهم على الجوار، وفتكهم بمن يجاهرهم بالعداء، يقول(١):

أبنـــاءُ يعـربَ حـين تتــ ـلو الفخْرَ أبنـاءُ الفخـارِ
مَنْ ذا يُسـامي الغـرُّ مــن سَـعْدِ العشـيرة أو يُجَاري

(*) انظر شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، إذ تناول هذا الموضوع بعنوان: العروبة في شعر المتنبي ٨٥-١٠٦، فأشار إلى أن المتنبي في مدحه لسيف الدولة لا ينسى عروبته، وكأنّ العرب ردّ إليهم فخرهم وشرفهم وقواهم على يديه، وكأنّما كان يحس أنه البطل العربي المنتظر للعرب، وهذا الذي كان يؤلمه حين رأى بعض القبائل القيسية تتمرّد على سيف الدولة وتشهر السيوف في وجهه، ثم أنه يرفع شعار العروبة عالياً مستعطفاً إيّاه، وملتمساً منه الصفح عنهم لموضعهم منه في نسب العروبةوأواصرها الوثقى، ويتضح ذلك كلّه في بائيته التي يصوّر فيها خروج القبائل العربية عليه ومنها قوله:

لهم حقٌ بشركك في نزارٍ وأدْنى الشّرك في أصلٍ جِوارُ

وتتضح عروبته في أنه سعى ليهوّن من شأن الحكام الترك الأعاجم في قصيدته التي يقول فيها:

وإنّما الناسُ بالملوك وما تُفْلحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ

ومن تتمّة شغفه بالعروبة في شعره أنْ نراه في غزله مفتوناً بالأعرابيات، مسحوراً بهنّ، معلناً أنهنّ يتفوقن لحسنهنّ الفطري على الحضريات، وذلك إذ يقول:

حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطْريةٍ وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوبِ

وانظر: أحمد أمين: فيض الخاطر، ٤:٧٩، وذلك إذ يُشير إلى اعتزاز المتنبي بعربيته واحتقاره الأعاجم، ومدحه لسيف الدولة مدحاً عربّياً.

(١) الصنوبري: ديوانه، ٥٨-٥٩.

المستقيــــلي عثـرة الـ موفي على سنَــنِ العِثارِ

والمعْــظِمي أسبــابَ جا رهــمُ لا عـظام الجِوارِ

مَنْ ســلَّ سيــفَ عداوةٍ سلُّوا له سيــفَ البــوَارِ

وللصنوبري قصيدة طويلة افتخر فيها بالعرب فخراً عارماً، وذكر مآثرهم، وأشاد بقبائلهم، ومن هذه القبائل قبيلة ضبّة، التي ينتمي إليها الشاعر، حيث قال فيها(١):

عشيرتي الحامونَ عن تعشاري

ساوَوْا سليمانَ على المضْمارِ

وعنَّفوا بالملِكِ الجبَّارِ

وباشروا الحديدَ بالأبشارِ

منهم ضرارٌ وأبو ضِرارِ(٢)

الآخذون الخَرْجَ بالصَّغارِ

حطّوا بصفِّين من الأوزارِ(٣)

ما حَمَلوا في الجمل المُثارِ

وقد امتزجت في هذه القصيدة المعاني العربية بالمعاني الإسلامية، وذلك حين تحدّث عن أمجاد العرب، قبل الإسلام وبعده، كما في قوله:

وأسْرِ هذا الحيَّ من نزارِ

---

(١) الصنوبري: ديوانه، ٣٣-٣٧.

(٢) ضرار: هو ضرار بن عمرو بن مالك، وكان سيّد بني ضبّة.

(٣) كان بنوضبّة مع عائشة يوم الجمل، وقد قُتل من فرسانهم خلق كثير، والشاعر لتشيعه يقول: إنّ بني ضبّة حطّوا عنهم ما حملوه من أوزار حين حاربوا إلى جانب علي في صفين.

أولي الكتابِ وأولـــي الأخبارِ

إن لم تَلُكْ شكيـــمة الإقــرارِ

باهِ عليّـــاً ذا العُلى وبـــاري

وهاتِ سيفاً مثلَ ذي الفِقارِ

ويتجلّى على نحو واضح، إحساس الشاعر بعروبته، حين يذكر يوم ذي قار، الذي تغلّب فيه العرب على أعدائهم، وذلك إذ يقول:

لنا خَزَارى ولنا ذو قـارِ(١)

من بعدِ أيـــامٍ لنا كِبَـارِ

صيغَتْ لنـــا أكِلَّةُ الأشعارِ

ونُظِّمتْ قلائـــدُ الأسْمـــارِ

مَنْ سابق الجوادَ بالحمارِ؟

جنتْ يداهُ ثمـرَ الغُبـــارِ

ويفخر في القصيدة بأصالة النسب العربي، ولغة العرب التي تميّزت على غيرها من اللغات، يقول:

نحن من الصَّريحِ لا السِّمَارِ(٢)

ونحن أهلُ البيت ذي الأستارِ

واللغـــةِ الكريمـــةِ النِّجـــارِ

ويذكر مآثر العرب، وما عُرِف عنهم من كرم وطيب، في قوله:

---

(١) خَزَارى وذو قار: من أيام العرب.

(٢) السِّمَار: المشوب المخلوط.

أنعامُـــنا قليـــلة الأعمارِ

ونارُنا مخلوعـــةُ العِذارِ

ماالكلْبُ مُذْ كان لنا بجارِ

ولا يمرُّ في فناءِ الـــدّارِ

وأما الصورةُ الثانية من الفخر القبلي، فتتمثّل في الافتخار بقبيلةٍ بعينها، وأكثر القبائل العربية ذكراً في الشعر الشامي في هذا القرن قبيلة تغلب التي عزّزتْ كيانها القبلي، بالبناء السياسي متمثلاً بالدولة الحمدانية، وعلى رأسها سيف الدولة، فالسَّريّ الرّفاء يفخر بعديٍّ وتغلب، وبأبنائها الفتيان الشجعان الكرام، أصحاب السّماحةِ والجود، وذلك إذ يقول(١):

وكمْ في عَدِيٍّ من كُهُولٍ وفتـيةٍ كِـرامٍ لهمْ كهْلُ السّماحِ ويافِعُهْ

جَزَيناهُمُ حَمْداً بِحُسْنِ صنيعهم وكُلُّ امرئٍ يُجْزى بما هو صانِعُهْ

إذا المجْدُ أمسى في الملوكِ مُفرَّقاً فمِنْ تَغلِبٍ يُمسي ويُصبحُ جامعُهْ

ويجلعها النامي في مدحه لسيف الدولة- أمَّ المفاخر(٢):

أميرُ النَّدى ما للنَّدى عنك مذهبُ ولا عنك يوماً للرّغائبِ مرغبُ(٣)

إذا فاخـرتْ بالمكرماتِ قبـيلـةٌ فتغـلبُ أبـناءُ العُلى بكَ تغلِبُ

وقد انتدب أبو فراس الحمْداني نفسه للفخر بقبيلته، وراح يصوّرُ مآثرها ويشيدُ بأمجادها، ويعددُ مزاياها وخصالها، وكأنّه الناطق باسمها واسم أميرها سيف الدولة، لذا كثيراً ما كان يتحدث الشاعر بضمير الجماعة، كما في قوله يشيد بعزّة هذه القبيلة ومنعتها، وتقدّمها على القبائل الأخرى في كرم المحتدّ،

---

(١) السَّرِيّ الرّفاء: ديوانه، ٢:٣٦٧.

(٢) النّامي: شعره، ٣٩.

(٣) الرّغائب: العطاء.

وأصالة النسب(١):

ألمْ تَرَنا أعزَّ الناس جاراً وأمنعهم وأمرعهم جَنَابَا
لَنَا الجَبلُ المُطلُّ على نزارٍ حلَلْنَا النّجدَ مِنْهُ والهضابا
تُفضِّلُنَا الأنامُ ولا تُحاشي ونُوصفُ بالجميلِ ولا نُحابَى
وقدْ علمتْ ربيعةُ بلْ نِزارٌ بأنّا الرأسُ والنّاسُ الذُّنابى

ويُعبِّر أبو فراس الحمداني، وهو يتحدث بصوت الجماعة، عن اندماجه التّام في قبيلته، وذلك في الأبيات التالية التي يفتخر فيها بالمكانة السامية التي تبوّأتْها تغلب بين القبائل الأخرى، وهي مكانة حازتْها بشجاعة فرسانها وقوة رجالها(٢):

بأطراف المثقّفةِ العوالي تفرّدْنا بأوساط المعالي(٣)
وما تخلو مجاني العزّ يوماً إذا لم تجنها سُمْرُ العوالي
ممالكُنا مكاسِبُنا إذا ما توارثها رجالٌ عن رجالِ

غير أنّ هذا الحديث بصوت الجماعة يتضاءل قليلاً عندما يضع أبو فراس نفسه إلى جوار ابن عمّه سيف الدولة؛ عندئذٍ يتحدث الشاعر بضمير المتكلّم المفرد، ويراوح بين المعاني التي تصوّر ندّيتهِ لسيف الدولة (فرعي فرعك)، (وأصلي أصلك) والمعاني التي تميّزه عليه، (وأخوالي...)، يقول(٤):

وفرعي فرعُك السّامي المُعَلّى وأصْلي أصْلُكَ الزّاكي وحَسْبُ
لإسمعيلَ بي وبنيهِ فخرٌ وفي إسحقَ بي وبنيه عُجْبُ

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه بشرح عبّاس عبدالسّاتر، ١٩، وأمرعهم: أخصبهم، والنّجد: المرتفع من الأرض، والهضاب: الجبل المنبسط.

(٢) أبو فراس: ديوانه، ١٢٨.

(٣) المعالي: الرماح.

(٤) أبو فراس الحمداني: ديوانه، ٢١-٢٢.

وأعمامي ربيعةُ وهْيَ صِيدٌ وأخوالي بَلَصْفَر وهْيَ غُلبُ(١)

وفضلي تعجزُ الفُضَلاءُ عنْهُ لأنّك أصْلهُ والمجدُ ترْبُ

ولم يكن المتنبي أقلَّ حماسة من أبي فراس الحمداني في الإشادة بقبيلة تغلب، وإن اختلفت الدوافع بين الإثنين، فأبو فراس يمدحها بحكم انتمائه إليها، وانحداره منها، واعتزازه بها، وأما أبو الطيب فهو يمدحها لأنها القبيلة التي ينتمي إليها سيّده سيف الدولة، هذا الأمير الذي رأى فيه الشاعر نموذجاً للفارس العربي الذي يُنافحُ عن حوزة الدين، وحمى العروبة، والإسلام، كما يُستشف من قوله(٢):

رفعتْ بكَ العربُ العمادَ وصيَّرتْ قِمَمَ الملوكِ مَوَاقِدَ النِّيرانِ(٣)

أنسابُ فخرهِمُ إليكَ وإنّما أنسابُ أصلهِمُ إلى عدْنانِ

ويقول وقد بلغ قمة الفخر بأميره(٤):

تُهاب سيوفُ الهندِ وهْيَ حَدَائدٌ فكيف إذا كانت نزاريّةً عُرْبَا

لذا فإنّ من حق (تغلب) أن تزد هي بسيف الدولة، وتفتخر به، لأنه سليلُ مجدها، ومؤثّلُ عزّها، كما يقول المتنبي(٥):

فتيهاً وفخراً تغْلبَ ابنةَ وائلٍ فأنتِ لخيرِ الفاخرينَ قبيلُ

ويحاولُ ابن نباتة، وهو يشيد بقبيلته تغلب أن يأتي بالجديد من المعاني، فيجنح به التعبيرُ إلى المبالغة، وذلك حين يقدّم الصورة تلو الصورة، للإشارة إلى تميّز سيف الدولة وقبيلته على غيرهم، يقول(٦):

---

(١) صيد: ملوك كرام.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العُكبري، ٤:١٨٤-١٨٥.

(٣) العِماد: العلو.

(٤) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري، ١:٦١.

(٥) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:١٠٩.

(٦) ابن نباتة السَّعدي: ديوانه، ١:٤٠١-٤٠٢.

أنتَ الذي تُنْسبُ الدنـيا وعالمُـها إلى علاه ولا يُـعْـزى إلى نَسَـبِ
حاشاك أنْ تدّعيكَ العُرْبُ واحدَها يا مَنْ ثَرى قدميه طينةُ العـربِ
فإن يكنْ لكَ وجهٌ مـثلُ أوجُهـهم عندَ العيان فإنّ الصُّفر كالذّهـبِ
وإنْ يكن لك نطـقٌ مثلُ نُطـقهمُ فليس مثلُ كلام الله في الكُتُبِ
أولادُ تَغلـبَ حـلّ الموتُ حُـبْوتَهُ في دارنا ودعا بالويل والحَرَبِ(١)
هَبَوا لنا طَرَفاً من عُمْر جاهـكمُ يفنى به غابرُ الأيـام والحـقبِ
فإنْ جاهَكمُ يُعطـى من الحسبِ ما ليس تُعطى عطاياكم من الحَسبِ

ومن القبائل العربية التي تبوأتْ مكانة سامية في القرن الرابع الهجري، قبيلةُ طيّء، وكان حسان بن الجرّاح أحدَ زعمائها المشهورين، وقد استجار بها الوزير المغربي(٢) عندما طارده الفاطميون، وقد قال في حسّان قصيدة طويلة، صوّر فيها قوّة هذه القبيلة، وشجاعة أبنائها، وعزة رجالها، وإغاثتهم مَنْ يلوذُ بهم، وخلع على حسان صفات السيد العربي الذي يتصف بالكرم والعزم والشجاعة، إذ يقول(٣):

وتقوم دونـي فتـيةٌ من طيّءٍ لم تلتبسْ أثوابُهمْ بالـعَابِ
يتناثرون على الصَّريخ كأنّهمْ يُدْعوْن نحو غنائمٍ ونِهابِ(٤)

---

(١) الحَرَب: سلب المال.

(٢) الوزير المغربي: هو الحسين بن علي بن الحسين بن علي، فارسيّ الأصل، وجدُّ أبيه أبو الحسن هو المغربي عرف بذلك لأنه كان يختلف على ديوان المغرب، ولد الحسين في سنة سبعين وثلاثمائة، وكان أبوه وجدُّه من كتّاب الأمير سيف الدولة، وكان الوزير أديباً فاضلاً عارفاً باللغة والنحو، والنثر والحساب، وتوفي في سنة ثماني عشرة وأربعمائة. انظر ترجمته في: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢:١٧٢-١٧٦، ابن العديم: بغية الطلب٦: ٢٥٣٢-٢٥٣٣.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ١٠٢-١٠٣.

(٤) الصريخ: طالب النّجاة.

ويُراوح الوزير المغربي في أبيات أُخرى، بين مدح حسان بن الجرّاح بعزّته وشجاعته وكرمه، ومدح قبيلة طيّء التي أجارتْه، وأغاثتْه، ووفّرتِ الأمن والطمأنينة له، حتى صارت هذه القبيلة لعزّتها ملاذاً آمناً لكل طريد، ومأوى هادئاً لكلّ مروّع، يقول(١):

يَهديهمُ حسّانُ يحملُ بزّةً ... جرداءَ تُعليه جناح عُقَابِ

يجري الحياءُ على أسِرّةِ وجهِهِ ... جَرْيَ الفِرِنْدِ بصارمٍ قضّابِ

كَرَمٌ يشقُّ على التِّلاد وعَزْمةٌ ... تغتال بادرةَ الهِزَبْرِ الضّابي

ولقد نظرتُ إليكَ يا بنَ مُفرِّجٍ ... في منظرٍ ملءَ الزمان عُجابِ

والموتُ ملتفُّ الذوائبِ بالقنا ... والحربُ سافرةٌ بغيرِ نقابِ

فرأيتُ وجهَك مثلَ سيفك ضاحكاً ... والذّعرُ يلبسُ أوجُهاً بترابِ

ورأيتُ بيتَك للضيوف ممهّداً ... فسِحَ الظّلالِ مُرَفّعَ الأبوابِ

يا طيّءَ الخيراتِ بين خلالكمْ ... أمْنُ الشّريدِ وهمّةِ الطلاّبِ

سمكتْ خيامُكمْ بأسنمةِ الرُّبا ... مرفوعةً للطارقِ المُنتابِ

وكانت أبيات الشاعر سبباً في أنّ حسانَ هشَّ لها، وجدّد القولَ له بما سكّن جأشه، وأزال استيحاشه.

وبالإضافة إلى العرب، فقد ضمَّ المجتمع الشامي عناصر أخرى، مثل الفرس، وكان بعض الشعراء ينحدرون من أصول فارسية، ومن هؤلاء كشاجم الرّملي الذي افتخر بأصوله الفارسية في قوله(٢):

---

(١) المصدر نفسه، ١٠٢-١٠٣.

(٢) كشاجم الرّملي: ديوانه، ١٢١، بنوساسان، كنية فارسية وهم قوم من العيّارين والشطّار، لهم حيَل، انظر شهاب الدين الخفاجي: شفاء الغليل، ١٥٢.

وأنا ابنُ فرسان السيرا ع معاً وفرسان الصّفاحِ

قومي بنوساسانَ ليـ س حماهمُ بالمستباحِ

العاقدونَ التيجانَ تضـ حكُ عن وجوههم الصّباحِ(١)

والجاعلون عِداهمُ لهم بمنزلةِ الأضاحي

وولاؤنا للغُرِّ من سادات مُعتلجِ البِطاحِ(٢)

ومن الجدير بالذكر أن افتخار الشاعر كشاجم بأصوله الفارسية، لم يكن بداعي النزعة الشعوبية، كما كان لدى الشعراء الآخرين كأبي نواس، وذلك لأن كشاجم افتخر بمواليه من السّادة العرب.

ويبدو أن بعض الغلمان الفرس قد تعلموا العربية، غير أنّهم لم يكونوا يستطيعون أن يتكلّموا بها بطلاقة، فيبدو كلامهم مثيراً للضحك، كما يُسْتشف من الأبيات التي هجابها الصّنوبري غلامه أسداً، وأردف ذلك بهجاء الفرس عامة، والثناء على العرب، يقول(٣):

فهْو إذا ما سمعتَ لهجته سمعْتَ في البدو راجزاً يرجُزْ

يُكْني عن الخبز بالهبيد كما يُكْني عن اسم البطيخ بالخِرْبِزْ(٤)

كلُّ الرّياحين عنده حَبَقٌ وضيمرانٌ وكلّها عَنقزْ(٥)

وجارُهُ صخرةٌ على أُحُدٍ بل تُغمَزُ الصخرُ وهْو لا يُغمَزْ

وقد تسرّبت إلى المجتمع الشامي بعض عادات الفرس وأعيادهم، ومن ذلك

---

(١) الصّباحِ: جمع صبيح وهو الجميل.

(٢) مُعتلج: من اعتلج القوم، أي اتخذوا صراعاً وقتالاً.

(٣) الصنوْبري: ديوانه ١٥١

(٤) الهبيد: منقوع الحنظل يجعل منه دقيق، الخِرْبز: اسم البِطّيخ بالفارسية انظر: الخفاجي: شفاء الغليل، ٢٤.

(٥) الحَبَق: يسمّى بالفارسية الفوْذَنج وهو مشابه من الريحانة التي تسمّى النمّام، يُكْثر نباته على الماء، والضّيمران: نبات يشبه النعنع، والعنقز: المرزنجوش.

الاحتفال بيوم النوروز، وقد صوّر الصَّنوْبري الاحتفال بهذا اليوم في فصل الربيع، وما كان يدور فيه من لهو، وتناول الخمر، فيقول(١):

هاتِها هاتِ بالكبيرِ الكبيرِ ... يومَ شمسٍ في عُقْبِ يوم مطيرِ
يومَ سبتٍ واليومُ أولُ نيسا ... نَ ويومُ النيروزِ(٢) يومُ السرورِ
زُوِّجَ الماءُ فيه بالقهوةِ البكـ ... ـرِ وكان النثارُ من منثورِ
فاصْطبحْها في الدّار دارِ عُبيد اللـ ... ـه داراً أضحتْ عروسَ الدورِ
إنّما أنت يا أميري أميرُ الـ ... ـقصْفِ والعزْفِ بل أميرُ الأميرِ

ومن هذه الأعياد التي نقلها العرب عن الفرس يوم المهرجان، وقد عدّه كشاجم الرملي سنةً سنّها آباؤه الأقدمون، وما يرافق هذا الاحتفال من شرب الخمر، إذ يقول(٣):

للمهرجان عليك حقٌّ سنّهُ ... آباؤك المتقدمون فأدِّهِ
باكرْهُ بالرّاحِ الشّمول تحثّها ... صِرْفاً على زهْرِ الربيعِ وورْدِهِ
كاساً ترى فيها مثالك من يديْ ... ساقٍ يُريكَ مثالَها من خدِّهِ

وأخذ الأتراك في هذا القرن يتكاثرون في المجتمع الشامي، إلا أن أدوارهم كانت مقصورة على الخدمة العسكرية، وخدمة أولي الأمر والكُبراء، ومنهم بكجور التركي الفارس، وقد مدحه الصُّوري، وأشاد بشجاعته وبسالته في الحرب، يقول(٤):

حاكِمْ إلى بكجورَ كُلَّ مُلمَّةٍ ... فحسامُهُ لك في المُلمّةِ حاكِمُ

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٨٩.

(٢) النيروز: أول يوم من السنة، عيد للفرس.

(٣) كشاجم: ديوانه، ١٦٥.

(٤) الصُّوري: ديوانه، ٢:٢٩، قالها حين أوقع بكجور بقوم وصلبهم سنة ٣٧٤هـ.

يا مَنْ يَردُّ سَوابحاً بسـوابـحٍ والحربُ بحرٌ مَوجُهُ مُـتلاطِـمُ

إنْ أبْرقَ السَّيْفيُّ سيْـفاً مُرْعِداً بالضّرب جاء الغيـثُ وهْو جُمَاجِمُ

حَوَتِ الصّـوارمَ والمكارمَ كفُّهُ فهْي السَّماءُ صواعقٌ وغَمائمُ

إنْ كان سيفُ الدِّين عاجَـله الـرَّدى فهْي الـفوارس حَدُّهُ والقائمُ

تُنبيكَ شدَّةُ بأسِهِ ومِـرَاسِـهِ أنَّ الفُحولَ من الرِّجالِ أعاجِمُ

حتْفُ الفوارسِ أن دُعـيتَ أباً لها وأبو الفَوارسِ للفوارسِ راحمُ

كم وقـفةٍ لك باسـماً في موقـفٍ كثُرَ العُبوسُ به وقلَّ الباسمُ

عَجَباً لقومٍ أجرموا فسمتْ بهمْ وبذكـرِهمْ بعدَ الخُمولِ جَرائمُ

رُجِعُوا فكانوا الأسفلين فعُظِّموا وذنوبُـهمْ عنـد الأنام عظائمُ

ولكن الشعر أهمل الحديث عن كثير من الأتراك الذين كان لهم دور بارز في الحياة السياسية، ومنهم نجا غلام سيف الدولة الذي استبد بالأمور، حينما ضعف سيف الدولة، وقرغويه الذي استبدَّ بالأمور حين آل الأمر إلى سعد الدولة على حلب، ومنجوتكين الذي كان قائداً للخليفة الفاطمي العزيز بالله.

وأشار المتنبي إلى غلام سيف الدولة يَمَّاك التركي، وعزّاه به، حين مات، وذكر مناقبه، وشاركه حزنه، وأيقن أن الموت مصيرُ كلِّ شخص، إذ يقول(١):

لا يُحْزِنِ اللهُ الأميـرَ فإنّنـي لآخُـذُ منْ حـالاتـهِ بنـصيبِ

ومَنْ سرَّ أهل الأرض ثُمَّ بكى أسـىً بكى بعيـونٍ سـرَّها وقـلوبِ

وإني وإن كان الدَّفـينُ حبيبهُ حبيبٌ إلى قلبي حبيبُ حبيبي

وقد فارق الناسُ الأحبَّة قبلَنا وأعيا دواءُ المـوتِ كُلَّ طـبيبِ

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري، ١:٤٩.

وقد جمع هذا المملوك التركي اليُمْن والنّجابة، والشجاعة، ولقد حزنت عليه السيوف لشجاعته:

وما كلُّ وجهٍ أبيضٍ بمُباركٍ ... ولا كلُّ جفــنٍ ضيِّقٍ بنــجيبِ
لئنْ ظهرتْ فينا عليه كآبةٌ ... لقد ظهرتْ في حدِّ كلِّ قضيبِ(١)
يَعِزُّ عليهِ أن يُخِلَّ بــعادةٍ ... وتدعو لأمرٍ وهْــوَ غيرُ مُجيبِ
وكنتُ إذا أبصرتُهُ لك قائماً ... نظرتُ إلى ذي لِبْدَتيْــنِ أديبِ(٢)

ويصل الحدّ بالمتنبي إلى أن يجعله علْقاً نفيساً عند سيف الدولة، ماجداً، خالصاً من العيب، يقول:

فإن يكُنِ العِلْقَ النفــيس فقــدْتَه ... فمنْ كفِّ متلافٍ أغرَّ وَهُوبِ(٣)
كأنَّ الرَّدى عــادٍ عــلى كلِّ مــاجدٍ ... إذا لم يُــعوِّذْ مَجْدَهُ بعيُــوبِ(٤)
ولولا أيادي الدّهر في الجمع بيننا ... غَفَلْنا فلــمْ نشعرْ لهُ بذنوبِ

والمتنبي الشاعر العربي المعتد بعروبته، وإن واسى سيف الدولة وعزّاه بمصيبتهِ هذه، إلاّ أنه لم ينسَ العنصر العربي، الذي فضّله على العناصر الأخرى، فسيف الدولة ملك العرب، لا حاجة لهِ إلى مملوك تركي، لأن القبائل العربية نفسها خاضعةٌ له، فالأجدرُ أن يفخر مثل هذا العبد لكون سيف الدولة سيِّده، يقول:

وإنَّ الذي أمسَتْ نِزارُ عبــيدَهُ ... غــنيٌّ عن استعبادِهِ لغريبِ
كفى بصفاءِ الوُدِّ رِقّــاً لمثــلهِ ... وبالقُرْبِ مِنْهُ مفخراً للبيبِ
فَعوَّضَ سيفُ الدولة الأجرَ إنّه ... أجلُّ مُثَــابٍ مِنْ أجلِّ مُثيبِ

---

(١) القضيب: السيف الخفيف الرقيق.
(٢) اللّبدتان: هما اللتان على كتفي الأسد.
(٣) العلق: الشّيء الذي يُضَن به.
(٤) عادٍ: ظالم متعدٍّ، الماجد: الكامل الشرف.

وقد ربطت بين هؤلاء الغلمان، وسادتهم من الشعراء بحكم المعايشة والمخالطة علاقات ودّية، فكان إذا تزوّج الغلام، وأنجب يهنئون مولاه به؛ فهذا الصنوبري يهنئ صاحباً له بابن غلامه (نظيف) الذي استبشر بمولده، وسمّاه مظفّراً لتفاؤله به، يقول(١):

وهنّيتَ مولوداً غدا اليُمنُ مُقبلاً ... يَخُبُّ بُبشراه إليكَ ويُعْنِقُ
غَرَسْتَ أباه قبلَهُ وغَرسْتَهُ ... وغرْسُ المعالي مثمرُ العودِ مورقُ
تفاءلْتَ إذ سمّيتَه بمظفَّرٍ ... لعلمك أنّ الفألَ فيه سَيصْدُقُ
فلم أرَ أمثالَ الوجوهِ تسربلتْ ... خَلوقاً كأنّ الدهْرَ منه مُخَلَّقُ
ولا كالموالي إذ غدا وهْو بينهمْ ... كبدرٍ بدا في أنجمٍ تتألَّقُ
ولا مثلَ ما وافقْته من سعادةٍ ... حباك بها جَدٌّ سعيدٌ موفّقُ

ونراهم كذلك يرثون غلمانهم، ويحزنون لفراقهم، عندما تخطفهم يد الموت، فهذا كشاجم يرثي غلاماً له، ويعزّي نفسه بأنّ الموتَ لا يغفل عن إمرئ، فالمالك والمملوك صائرٌ إليه، يقول(٢):

أيُّ حِرَاكٍ غالَ منك السكونْ ... ونارُ كَيْسٍ أطفأتْها المنونْ(٣)
يا (بشْرُ) إنْ تُودَ فكلُّ امرئ ... يوماً بما صرْتَ إليه رهينْ
أو تُمسِ غُصْناً في الثرى ذاوياً ... فقد ثوتْ قبلك فيه غُصونْ
أو يُبْلَ من حُسْنك ريعانُه ... فهكذا تُنْمى وتُبلى القرونْ
وليس مملوكٌ ولا مالكٌ ... بخالدٍ، كُلٌّ بموتٍ قمينْ(٤)

ويرسم خلال ذلك صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه الغلام، من وفاءٍ

---

(١) الصنوبري: ديوانه، ٤٠٨-٤٠٩.

(٢) كشاجم: ديوانه، ٤٨٤-٤٨٥.

(٣) الكيس: العقل.

(٤) القمين: الجدير والخليق.

لسيده، وإتقان لعمله، وإخلاص في القيام بمايُناط به، يقول:

مَنْ لدواةٍ كنتَ تُعنى بها عنايةً تعجزُ عنها القيونْ
أمْ مَنْ لكتْبٍ كنتَ في طيِّها أسرعَ مما تتلاقى الجفونْ
أم مَنْ لحاجاتٍ إذا ما مضى فيها مضى وهْو لنُجحٍ ضمينْ
أمْ مَنْ لتذليل صعابٍ إذا باشرَها سهُل منها الحزُونْ(١)
طاهي قدورٍ طيِّبتْ كفُّه مذاقَها فالغثُّ منها سمينْ(٢)
يا ناصحي إذ ليس لي ناصحٌ ويا أميني إذ يخونُ الأمينْ
لما دفنّاك رَجعنا وفي الـ أحشاءِ من فقدك داءٌ دفينْ
أمتعْتَني حيّاً وأحزنْتَني ميْتاً فحظّي منك دُنيا ودينْ
وكنتَ لي أُنساً فلا أُنسَ لي وكنت لي عوناً فمن أستعينْ
يا موتُ أخليتَ مكان الذي له مكانٌ في فؤادي مكينْ
فالدّمعُ جارٍ والأسى في الحشى ثاوٍ وقلبي مُستطارٌ حزينْ(٣)

ومن عناصر المجتمع الشاميّ في القرن الرابع الهجري، الأكراد، وقد تحدّث عنهم المتنبي تلميحاً، لا تصريحاً لمّا جرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل، فقال سيف الدولة له: ما تقول في هذا، وما تحكم يا أبا الطيب؟ فقال، وقد فضل العرب على غيرهم(٤):

إنْ كنتَ عن خيرِ الأنامِ سائلاً فخيرُهُمْ أكثرُهمْ فضائلا
مَنْ أنت مِنْهُمْ يا هُمَامُ وائلا الطّاعنين في الوَغَى أوائلا
والعاذلين في النّدى العواذِ لا قدْ فَضّلُوا لفضلكَ القبائلا

وبالرُّغم من العلاقات الحسنة بين العرب وغلمانهم الأعاجم، فقد تبدر عن

(١) الحزون: جمع حزْن وهو ما غلظ من الأرض.

(٢) الغث: المهزول.

(٣) مستطار: مذعور .

(٤) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:١١١.

بعض الغلمان أفعال سيئة، فينبري الشعراء لهجائهم، كما في قول كشاجم(١):

مُصيبتي فيك ليس تنجبرُ وحسرتي فيك ليس تنحسرُ
لبستَ لي حُلّةَ الخيانةِ كم حَذِرتُ ذا لو وقاني الحَذَرُ
لو كنت سمعي الغداةَ أو بصري ما عَزَّ عندي سمْعٌ أو بصرُ
فاذهب عليك العفاءُ من قمرٍ لا غرّني بعد حسنهِ قمرُ

ولكشاجم قصيدة أخرى، ذمَّ فيها غلاماً يُدعى كافوراً، وصفه فيها بالجهل والقُبح والأخلاق السيئة، إذ يقول(٢):

أكافورُ قُبِّحْتَ من خادمٍ ولا قَتَكَ مُسرعةً جائحهْ(٣)
فلم أرَ مثلَكَ ذا منظرٍ شبيهٍ بأخلاقه الفاضحهْ
حكيتَ سميَّكَ في بُردهِ وأخطأك اللونُ والرائحهْ
وضيّعْتَ بالجهل والأفن فيكَ ثمانين راوية مائحهْ(٤)
غلامٌ تكامل فيهِ القبيحُ فما فيه من خُلّةٍ صالحهْ
بطيءُ الجوابِ فكم صائحٍ بهِ لم يُجبْهُ وكم صائحهْ

ومن الفئات الاجتماعية التي ضمّها المجتمع الشامي: أهل الذمة من اليهود والنصارى الذين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية، وقد شغلوا مناصب هامّة، مثل ابن كلّس عيسى بن نسطورس(٥)، الذي اتخذه الخليفة الفاطمي وزيراً له، وهو نصراني من أقباط مصر، ومنشّا بن إبراهيم بن الغرّار(٦) الذي استنابه الخليفة

---

(١) كشاجم: ديوانه، ٢٢٢.

(٢) كشاجم: ديوانه. ١٠٤.

(٣) الجائحة: الشدّة المجتاحة للمال.

(٤) الأفن: ضعف الرأي، والراوية: المزادة فيها الماء، ومائحه: من ماح أي دخل البئر فملأ الدلو لقلة مائها.

(٥) انظر ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ٤٨-٥٧.

(٦) المصدر نفسه، ٤٨-٥٧.

في الشام، وهو يهودي، وكان كتاب الدواوين وأكثر الأطباء من النصارى(١)، أما الأعمال الدنية كالصباغة والصيرفة والدباغة، فلليهود فيها حظٌ وفير(٢).

وثمّة صورةٌ تكاد تكون متكررة لليهود في الشعر الشامي في القرن الرابع الهجري، وهي صورة تصفهم بالغدر والخيانة والوشاية، فقد دسّوا السُمَّ في الشراب لسيف الدولة، لكنه نجا منه، وأشار السَّرِيّ الرّفّاء إلى ذلك في قصيدة هنأ بها الأمير بنجاته، وحمل على اليهود حملة عنيفة، مذكّراً سيف الدولة بتاريخهم المؤسّس على الغدر، مقارناً حادثة السُمّ التي تعرض لها، بحادثة السّم المشابهة التي تعرض لها الرسول -صلّى الله عليه وسلم- منهم، يقول(٣):

صَنائعُ الله لا نُحصي لها عدَداً	فنحمدُ الله حمْداً دائماً أبدا
كفّتْ يدُ الدّهْرِ إذ مُدّتْ إلى ملكٍ	ما زال يَبْسطُ بالجَدوى إليّ يَدَا
سلامةٌ لبس المجدُ السُّرورَ بها	من بَعْدِ ما حُشِيَتْ أحشاؤه كَمدَا
قلْ للعدوِّ الذي أخفى عداوتَه	وجاءَ يُهْدي إليه الحتْفَ مُجتهدا
لو ساعَدَتْكَ الليالي لم تَدع وَزَرَاً	للمكرُماتِ ولم تترك لها عَضُدَا
سَمُّ الشراب ليُبْدي الحتفَ من أسَدٍ	إذْ لم ينَلْ بظُباه الصّارمَ الأسَدَا
فنال منه كما نالَ النبيَّ وقد	أخفوا له في الذِّراع الغدْرَ والحَسَدا
يفدِي الأميرَ المُرجَّى معشرٌ عجزوا	عن عقْدِ ما حلَّ أوحَلَّ ما عَقَدا

وهناك إشارة إلى اليهود في شعر المتنبي، يركّزُ فيها على سعيهم للوشاية به، لدى والي حمص، حتى طالتْ إقامته في السجن، وأخذ المتنبي يستعطف

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ١٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ١٨٣.

(٣) السَّرِيّ الرّفّاء: ديوانه، ٢:٩٤.

بقصيدته هذا الوالي بعد أن سجن، ويكفّهُ عن السّماع للواشين به، إذ يقول(١):

فمالك تقبلُ زُورَ الكلامِ   وقدْرُ الشّهادةِ قَدْرُ الشُّهودِ

فلا تسمعَنَّ من الكاشحين   ولا تعْبأنْ بمحْكِ اليهودِ

ومرّة أخرى، يرى أنّ اليهودي يسعى دائماً في الإفساد بين الناس، وإثارة الفتن بين الأقرباء، وذلك حين رثى محمد بن إسحاق التنوخي، وينفي بها الشماتةَ عن بني عمِّه، بقوله(٢):

أليسَ عجَيبًا أنْ بينَ بَني أبٍ   لنجْلِ يَهُوديٍّ تدبُّ العقاربُ

ألاَ إنّما كانت وفاة محمدٍ   دليلاً على أنْ ليس لله غالبُ

وهذا الذي دفع طه حسين إلى القول(٣): بأنّ اليهودي هذا هو الذي كان ينافس التنوخيين العرب، ويسعى بينهم بالبغضاء، وهو الذي ذمّه المتنبي حين مدح التنوخيين، ونفى أن يكون بعضهم قد شمت ببعض.

وأما النصارى، فقد ارتبط الحديث عنهم بشعر الأديرة، وسوف أعقد لذلك فصلاً تالياً إن شاء الله- وأكتفي بالإشارة هنا إلى حديث الشعراء عن الزّي الذي كان يرتديه النصارى، وتميزهم عن غيرهم، كما في الأبيات التالية التي يصف فيها الصنوبري هيئة أحد الغلمان النصارى، وقد علّق الصليب في رقبته، ووضع الزنّار في وسطه، وارتدى ثياباً ذات ألوان متميزة(٤):

لا ومكَانِ الصليبِ في النّحرِ منـ   ـكَ ومجْرى الزّنارِ في الخصْرِ

والعسليِّ الذي ارتديتَ به   كما تَرَدّى القضيبُ بالزّهْرِ

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري، ١:٣٤٧.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري، ١:١٠٨.

(٣) طه حسين: من تاريخ الأدب العربي، ٣:١٠٢.

(٤) الصّنوْبري: ديوانه، ٦٣.

والحلقِ المستديرِ من سَبَجٍ على الجبين المصُوغِ من دُرٍّ

وحاجبٍ خطَّ شطرَه قلمُ الـ حُسنِ بحبرِ البَهاءِ لا الحبْرِ

وسُكْرِ أجفانك التي حلَف الـ فتورُ ألاّ تُفيقَ من سُكْرِ

والخالُ في الخدِّ إذ أشبِّهُهُ زهرةَ مِسْكٍ على ثرى تِبْرِ

وأقحوانٍ بفيك مُنتظمٍ على شبيهِ الغديرِ من خمْرِ

وإذا ما نظرنا إلى فئات المجتمع الشّامي على أساس الترتيب الهرمي، فقد كان الحكام على رأس الهرم الاجتماعي، وقد أولاهم الشعراء بحكم مكانتهم، عناية فائقة، فأكثروا من مدحهم، وتصوير أعمالهم، والتنويه بمآثرهم، ونال سيف الدولة الحمداني، القدَح المعلّى من هذا المدح إذ اجتمع حوله طائفةٌ من الشعراء تباروا في تقريظه، والثناء عليه.

ولا نريد هنا أن نتحدث عن مدائحهم تفصيلاً، فثمّة دراسات متعددة حول ذلك، وإنّما نشير إلى أنّ حديث الشعراء عن سيف الدولة كان يمثّل منظومة القيم والمُثل العليا التي استقرت في المجتمع الشامي آنذاك، وهي منظومة مؤسسة على العقيدة الإسلامية النبيلة، والتقاليد العربية الأصيلة، وعلى سبيل المثال رسم ابن نباتة صورة جميلة له، استوحى فيها لغة الغزل ومعاني الحب وهو يصوِّر حرص سيف الدولة على رعيته وكأنّهُ عاشق قد أرّقه الجَوى، وأسهره العشق، يقول(١):

فتىً يتجافى لذّةَ النومِ جفْنُهُ كأنَّ لذيذَ النومِ في جفنِهِ قذى

أطرْفُكَ شاكٍ أمْ سُهادُك عاشقٌ يَغارُ على عينيك من سِنَةِ الكَرى؟

وليس ينامُ القلبُ والجفنُ ساهرٌ ولا تغمُدُ العينانِ والقلبُ مُنتضى

ألا إنّ عينَ المرءِ عُنوانُ قلبهِ تخبِّرُ عنْ أسرارِهِ شاءَ أم أبى

---

(١) ابن نباتة: ديوانه ١:٤٢٠.

وغير ذلك كثير فحياته إمّا جهاد في سبيل الله، وإمّا تفقّد لأحوال رعيته، وقوله للتقوى والصلاح، وكفّه للجود والكرم، وقد أرسى قواعد المُلك، وأعاد نهج المكرمات وهيبة الإسلام في النفوس.

غير أنّ حياة سيف الدولة لم تكن جهاداً كلّها، فما أن يعود من حروبه مع الروم ويثوب إلى قصره في حلب حتى ينزع لباس الحرب، ويحيا الحياة بمباهجها وملاذّها، كما يصوّر ذلك السَّرِيّ الرّفّاء بقوله(١):

ولئن ضجرْتَ مِنَ النِّدامِ مَشَاهداً   فلقد وصلْتَ من الحِمامِ مَشاهدا

ورغبْتَ في كأسِ البريّة رغبةً   تـركتْـك في كأسِ المُدامةِ زاهدا

ويعقد مجالس اللّهو والطرب، التي تغني فيها شهيرات القيان(٢)، وكبار المطربين، ويكفي أن نشير هنا إلى أن بلاطه قد ضمّ أحد أعلام الموسيقى المشهورين، هو الفارابي(٣)، وقد أشارت المصادر التاريخية إلى مظاهر البذخ والترف في قصر سيف الدولة، فقد ذُكر أنّ سيف الدولة إذا أكل الطعام، حضر على مائدته أربعة وعشرون طبيباً(٤)، منهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم، وكان من جملتهم عيسى الرّقي المعروف بالتفليسي الذي كان يأخذ أربعة أرزاق، رزقاً بسبب الطب، وآخر بسبب النقل من السّرياني إلى العربي، ورزقين بسبب علمين آخرين.

ومن ذلك ما عُمِل لسيف الدولة بعد وفاته(٥)، إذ غُسلَ ثمانِ غسالٍ، بالماء ثم بالسِّدْر، وبالصّندل، والذُّريرة، والعنبر والكافور، وبماء الورد، وبماء القَرّاح

---

(١) السَّرِيّ الرّفّاء: ٢:١٠٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٢:٦٢.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام، ٤:٩٥.

(٤) ابن أبي أُصَيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٣:٢٣٣.

(٥) ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق١، ٣١٣–٣١٥، انظر كانار: نخب تاريخية وأدبية، ٢٧٦–٢٧٨.

ونُشِّفَ بثوب دَبيقي ثمنه نيّف وخمسمائة دينار، وجُعل في لحيته ونحره مائة مثقال كافور، وكُفّن في تسعة أثواب تساوي ألف دينار.

ومن ولوعه بمجالس الأنس، ما ورد عنه حين كان مع جماعة من ندمائه فأُدخِلَ عليه رجل وخاطبه، فأمر بقتله، دون ذنب، ولامَ الجلوس على عمله هذا ثم ما لبث أن اعترف بأن الذي حمله على قتل هذا الرجل هو السطوة والسياسة لهذه الدنيا النّكدة(١).

واهتم الأمير بالجواري، فكانت له جارية من بنات الروم، في غاية الجمال، فحسدها بقية الحظايا، لقربها منه، وأزمعْنَ على إيقاع مكروه بها، فنقلها إلى بعض الحصون، وقيل: إن له شعراً فيها، يعبرّ فيه عن خوفه عليها من نساء القصر(٢):

راقبتني العيونُ فيكِ فأشفقـ ... تُ ولمْ أخْلُ قطُّ من إشفاقِ

رأيتُ العُذولَ يحسدني فيـ ... كِ مجداً يا أنفسَ الأعلاقِ

فتمنّيتُ أن تكوني بعيداً ... والذي بيننا من الوُدِّ باقِ

رُبَّ هجرٍ يكونُ من خوفِ هجرٍ ... وفراقٍ يكون خوفَ فراقِ

كما اهتمّ بالغلمان، حيث كان له غلام يُسمّى (ثمل)، وكان عزيزاً عليه(٣). ويصف المتنبي مجلس لهوٍ شُربتْ فيه الخمر بحضرة الأمير سيف الدولة، وحين سمع الآذان ترك الكأس، وأدّى حقَّ الله قبل أن يؤدي حقَّ نفسه، يقول(٤):

ألا أذِّنْ فما أذكرْتَ ناسي ... ولا ليّنتَ قلْباً وهْوَ قاسي

ولا شُغل الأميرُ عَنِ المعالي ... ولا عن حقِّ خالقهِ بكاسِ

---

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة، ١:١٤٣.

(٢) الثعالبي: اليتيمة، ١:٥٤-٥٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣:٤٠٢، الأزدي: أخبار الدولة الحمدانية، ٢٥، انظر أحمد أمين: فيض الخاطر، ٤:٧٧.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٢:١٦٨.

(٤) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري، ٢:١٨٥.

وقد رسم الصّنوبري صورة لإحدى حفلات الزفاف في قصر سيف الدولة، حيث تضوّعت رائحة العنبر، وتلألأ الحفلُ بالجواهر التي زينتِ العروس، ونثرتِ الدراهم ابتهاجاً بهذا الحدث السعيد، يقول(١):

خلطتُمُ الجوْهرَ بالجوهرِ وشبْتُمُ العنبَرَ بالعنبرِ
أملكتُمُ أربعةً أربعاً وطالعُ الإملاك بالمشتري
نثرتُمُ المال ومثلُ الذي نثرتُمُ في الأرض لم يُنثرِ
دراهماً زُهْراً حكتْ أنجماً زهراً خلال المجلس الأزهرِ
أبا عليٍّ وأبا القاسم الـ فذّيْن في المنظر والمخبَرِ
يا قُطْبيْ آل الإمام الأولى هُمْ فلكُ البادين والحُضَّرِ
دامتْ لنا نعمتُنا فيكما ودُمْتُما فيها إلى المحشرِ

وتحدّث الشعراء الشاميون في القرن الرابع الهجري، عن فئات أخرى ضمّها المجتمع الشامي، مثل القضاة وعلماء اللغة، والكُتّاب، والأطباء، والشعراء أنفسهم(٢)، وحديثهم عن هؤلاء يتناول مآثرهم وصفاتهم التي تميّزهم، فالقضاة يوصفون بالعدل(٣)، وعلماء العربية بالفصاحة(٤)، والكتاب بإجادة الخط والفصاحة(٥)، والأطباء بإتقان أصول المهنة(٦)، بحيث كان حديثهم عنهم أقرب إلى المدح التقليدي منه إلى تصويرهم وهم يمارسون أعمالهم، ويزاولون وظائفهم وحرَفهم.

---

(١) الصّنوْبري: ديوانه، ٢٨.
(٢) الصّنوْبري: ديوانه، ٤٢٧.
(٣) السّريّ الرّفاء: ديوانه، ١:٣٩٨، الصُّوري: ديوانه، ٢:٧.
(٤) الصّنوْبري: ديوانه ٣٧٦، كشاجم: ديوانه، ٤٠.
(٥) السّريّ الرّفاء: ديوانه، ٢:٦٦١-٦٦٢.
(٦) الصّنوْبري: ديوانه، ٣٨٤، كشاجم: ديوانه ١٧٣.

أما المرأة العربية، فلم تكن صورتها واضحة في الشعر الشامي، في القرن الرابع الهجري، وما ورد من ذكْرٍ لها، فإنما يدور حول بعض النشاطات المحدودة، فقد وصف أبو فراس الحمداني امرأة عربية من بني كلاب، أخذت تتوسّط لقومها عند سيف الدولة، وقد أقبلت في كساء من الصوف، وكان الخوف بادياً عليها، فاختلط جمالُ وجهها بما ظهر عليها من الخوف، وكانت تمشي بسرعة، وتنادي الأمير وتدعو له، وما كان منه إلاّ أن استجاب لها ولنساء قومها، وعاملهنّ كالأخ أو الأب، وغادت بالغنيمة، وقد أشادت بصنيعه، يقول(١):

وما أنسَ لا أنْسَ يومَ المَغَار ... مُحَجَّبَةً لفظتْها الحُجُبْ
دعاك ذَووها بسوءِ الفِعالِ ... لما لا تشاءُ وما لا تُحِبُّ
فوافتْك تعثُر في مِرْطها ... وقد رأتِ الموتَ من عن كَثَبْ(٢)
وقد خَلط الخوْفُ لمّا طلَعْـ ... تَ ذُلَّ الجَمال بذُلِّ الرُّعُبْ
تُسارعُ في الخطولا خِفَّةً، ... وتهتزُّ في المشي لا منْ طَربْ
فلما بدتْ لك دونَ البيوتِ ... بدَا لك منهنَّ جيشٌ لجِبْ
فكنتَ أخاهُنَّ إذ لا أخٌ ... وكنتَ أباهُنَّ إذ ليسَ أبْ
وما زلْتَ مُذ كنتَ تأتي الجميلَ ... وتحمي الحريمَ وترْعى النسبْ
فولّين عنك يُفَدّينها؛ ... ويرفعْن من ذيلها ما انسحبْ
يُنادينَ بين خلال البيو ... تِ: لا يقطعُ اللهُ نسلَ العَرَبْ!
أمرْتَ، وأنت المُطاعُ الكريمُ، ... ببذل الأمان وردّ السّلَبْ(٣)
وقد رحْنَ من مُهَجَاتِ القلوبِ ... بأوفَر غُنْمٍ، وأغلى نَشَبْ(٤)

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٢٨.

(٢) وافتك: أقبلت عليك، والمرْط: كساء من صوف أو غيره.

(٣) السّلَب: استرجاع ما أُخذ.

(٤) النشب: ما يملكه المرء من عُقار ومالَ ومواش.

فإنْ هُنَّ يابن السُّراةِ الكرامِ، رددنَ القلوبَ، رددْنا النَّهبْ

وفي موقع آخر أشار إلى إحدى نساء بني كعب، ودورها حينما أخذت تناشد أبا فراس لإطلاق الأسرى، وقد لبّى دعوتها، وصفح عن قومها وأجارَها، وفي ذلك يقول(١):

بالمرْجِ إذ أمُّ بسّامٍ تناشُدني بناتُ عمك يا حارُ بنِ حمدانِ(٢)

فبتُّ أثني صدورَ الخيلِ ساهمةً بكل مُضطغنٍ بالحقدِ ملآنِ

ونحنُ قومٌ إذا عُدنا بسيئةٍ على العشيرة أعقبْنا بإحسانِ

أما النِّساء الحمدانيات، فصورتهن في الشعر ضئيلة، وقد ظهرت في الأشعار الوجدانية، ولا سيّما الأشعار التي قالها المتنبي في رثاء والدة سيف الدولة إذ يجعلها مثالاً للمرأة العفيفة، المالكة لنفسها، الطاهرة، يقول(٣):

حَصَانٌ مثلُ ماء المُزْنِ فيه كتُومُ السِّرِّ صادِقةُ المقالِ

ورسم أبو فراس صورة لابنته وهو في الأسر، تغنّى فيها بأصلها العربي الصريح، وصوّرها ابنة دلال، معزّزة عنده، يقوم الخدم على رعايتها، يقول في ذلك(٤):

وأديبةٍ اخترْتها عربيةً تُعْزَى إلى الجدّ الكريمِ، وتنتمي

محجوبةً لم تبتذل، أمّارةً لم تأتمر، مخدومةً لم تَخْدمِ

لو لم يكن لي فيكِ إلاّ أنني بك قد غُنيتُ عن ارتكاب المحْرَمِ

ولقد نزلتِ فلا تظني غيرهُ مني بمنزلة المحبِّ المكْرَمِ

---

(١) أبو فراس: ديوانه ١٧٣.

(٢) وأمّ بسّام: هي المرأة التي خرجت في نسوة من فتيات العرب وناشدته لإطلاق الأسرى وأموالهم.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري، ١٦:٣.

(٤) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٦٥.

وتحدّث أبو فراس كثيراً عن أمّه، حين كان أسيراً لدى الروم، فقد تبين لنا من شعره أنّ أمّهُ أمُّ ولد، حينما أشار إلى أن أخواله الروم، وقد مرّ ذلك سابقاً، وجعل هذه الأمّ الأنموذج الأمثل للنساء، وصوّرها حافظة الأسرار، ومعينة للناس على همومهم، تتصف بالصّلاح والتقوى والتديّن، وإغاثة المسكين، وأداء حق الله، في العبادة من صوم، وغير ذلك، وهي الأم الحريصة على ابنها في تربيته وتنشئته، لم تفارقه بعد وفاة والده، يقول(١):

أمستْ بمنبجَ حُرّةٌ ... بالحزن، من بعدي حَرَيّهْ

لو كان يُدفعُ حادثٌ ... أو طارقٌ بجميلِ نيّهْ

لم تَطْرقْ نُوبُ الحوا ... دثِ أرضَ هاتيك التّقيّهْ

لكنْ قضاءُ اللهِ والـ ... أحكامُ تنفُذُ في البريّهْ

ويقول في الإشارة إلى دينها، وتقواها:

فيها التّقى والدينُ مجـ ... موعانِ في نفسٍ زكيّهْ

ويركّز في قصيدة أخرى على الدور الاجتماعي لأمّه، فيصوّر ما كانت تقوم به هذه الأم من عناية بالمحتاجين وإغاثة للملهوفين ورعاية للفقراء والمساكين، إذ يقول (٢):

ليبكِكِ كلُّ مضطهدٍ مخوفٍ ... أجرْتيهِ، وقد عزّ المجيرُ

ليبكِكِ كلُّ مسكينٍ فقيرٍ ... أغثْتيهِ، وما في العظم زيرُ

أيا أمّاه، كم همٍّ طويلٍ ... مضى بكِ لم يكن منهُ نصيرُ

أيَا أمّاه، كم سرٍّ مصونٍ ... بقلبكِ، مات ليس لهُ ظهورُ

---

(١) أبو فراس: ديوانه، ١٨٢.

(٢) أبو فراس: ديوانه، ٦٨.

ويصوّرها بعد أن وقع ابنها في الأسر، ذليلةً حزينة، طالما سعت للأمير سيف الدولة، لفداء ولدها الوحيد، ولكنّه أرجعها خائبةً، ليس لها نصير، يقول وقد اشتدّ ألمه عليها، وتوجّع لعدم استجابة الأمير لطلبها(١):

يا حسرةً ما أكاد أحملها، آخرها مزعجٌ، وأوّلها
عليلةٌ، بالشّام مفردةٌ، بات بأيدي العدى، معلّلها
تمسكُ أحشاءَها، على حُرَقٍ تُطفئها، والهمومُ تُشعلُها
إذا اطمأنتْ، وأين؟ أوهدأتْ عنّتْ لها ذكرةٌ تُقلقلُها
جاءَتْك تمتاحُ ردَّ واحدها، ينتظرُ الناسُ كيف تقفلها
سمحْتَ مني بمهجةٍ كرُمتْ، أنتَ، على يأسها، مُؤمّلها

ويرسم صورةً مؤثّرة لهذه الأم وهي تنتقل بين القوافل التي تسير إلى بلاد الروم، وتسألها عن ابنها الأسير، لعلّها تظفر بخبرٍ عنه يخفّف أحزانها ويزيل بعض عنائها، فيقول:

تسألُ عنا الرُكبانَ، جاهدةً بأدمعٍ ما تكادُ تمهلُها
يا مَنْ رأى لي، بحصنِ خرشنةٍ أسد شرىً، في القيود أرجلُها
يا مَنْ رأى لي الدروبَ شامخةً دون لقاءِ الحبيب، أطولُها
يا مَنْ رأى لي القيودَ مُوثّقةً على حبيبِ الفؤاد أثقلُها

لقد حاور أبو فراس أمّه، وهي تسأل عنه، ويَردّ عليها، كما كانت تسأل، ويوصي الركبان بحمل السلام إليها، هذا السلام هو رسالة منه إليها يشرح حاله، وهو في الأسر ليعزّيها، ويدعوها للصبر والتجلّد، فالحياة لا تستقر على حال، وهذا قدر مكتوب، يقول:

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه، ١٣١.

يا أيها الراكبانِ، هل لكما   في حملِ نجوى يخفُّ محملُها

قولا لها، إن وعتْ مقالكما،   وإنّ ذكري لها ليذهلُها

يا أمّتا، هذهِ منازلنا   نتركها تارةً، وننزلُها

يا أمّتا هذهِ مواردنا   نعلُّها تارةً، وننهلُها

أسلَمَنا قومُنا إلى نُوَبٍ   أيسرُها في القلوبِ أقتلُها

إذا كان أسره قدراً مكتوباً، فلماذا الجزع، والحزن إذن؟ لقد دعاها كثيراً إلى الاستسلام لحكم الله عزوجل، ودعاها للصّبر والتجلّد، يقول في قصيدة كتبها إلى أبي الحسن محمد بن محمد الأسمرة، الذي كتب إليه يوصيه بالصبر والتجلّد(١):

ندبْتَ لحسن الصبر قلبَ نجيبِ   وناديتَ بالتسليم خيرَ مجيبِ

ولم يبقَ مني غيرُ قلب مُشيّعٍ   وعودٍ على نابِ الزمان صليبِ

وقد علِمتْ أميَ بأنَّ منيّتي   بحدِّ سنانٍ أو بحدِّ قضيبِ

كما علمتْ من قبلُ أن يغرق ابنُها   بمهلكه في الماء، أمُّ شبيبِ(٢)

لم تكن تُخطئ الظن في ابنها، كيف لا، وهي التي أنشأته، وقامتْ على رعايته وربّته خير تربية، وذلك على الرماح والسيوف.

لقد أجهد نفسه في حثها على الصبر، وتعزّى بسيرة السابقين الأخيار لأخذ العبرة منهم، فأين هي من أسماء ذات النطاقين، يقول(٣):

وإنَّ وراءَ السّترِ أمّاً بُكاؤها   عليَّ وإنْ طال الزمانُ، طويلُ!

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٣٢.

(٢) أم شبيب كانت رأتْ في منامها -وهي حبلى- كأن ناراً أخرجت من بطنها، فاشتعلت الآفاق، ثم وقعت في الماء فانطفأت، فلما كان من أمره ما كان ونعى إليها لم تصدق حتى قيل إنه غرق في الماء، فأقامت المناحة، انظر اليتيمة، ١:١٠٥.

(٣) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٣٦.

فيا أمّتا، لا تخطئ الأجرَ! إنَّهُ على قَدَرِ الصبرِ الجميلِ جزيلُ
فيا أمّتا لا تعدمي الصبرَ، إنه إلى الخير، والنُّجح القريب رسولُ
أمَا لكِ في ذاتِ النطاقينِ أسوةٌ بمكة، والحربُ العَوَانُ تجولُ
أراد ابنها أخذَ الأمانِ فلمْ تُجبْ وتعلمُ، علماً أنّهُ لقتيلُ
تأسّي! كفاكِ الله ما تحذرينه، فقد غال هذا الناسَ قبلكِ غولُ

لقد فارقت هذه الأم الجليلة الحياة، ورثاها ابنها رثاءً حاراً، ولقّبها بأم الأسير، وطلب السقيا لقبرها، ولا يتخيّل أن تمضي الحياة له بدونها، فَمنْ له الآن يتشوّقه إذا غاب، ويدعو له، ويستجيرُ إن أصابه مكروه، ويعينه على كُرب الحياة، لقد بكاها كثيراً، وأثنى عليها حيّةً ميّتةً، يقول(١):

أيا أمَّ الأسير، سقاكِ غيثٌ بكُرْهٍ منكِ، ما لقي الأسيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ تحيّر، لا يقيمُ ولا يسيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ إلى من بالفدا يأتي البشيرُ؟
أيا أمَّ الأسيرِ، لمن تُربّى، وقد مُتِّ، الذوائبُ والشعورُ
إذا ابنُكِ سار في برٍّ وبحرٍ، فمن يدعو لهُ، أو يستجيرُ؟
حرامٌ أن يبيتَ قرير عينٍ ولؤمٌ أن يُلمَّ به السرورُ
وقد ذقتِ الرزايا والمنايا ولا ولدٌ لديكِ ولا عشيرُ
وغاب حبيبُ قلبِكِ عن مكانٍ ملائكةُ السماءِ بهِ حُضورُ

---

(١) أبو فراس: ديوانه، ١٦٧.

ب- ظروف المعيشة:

لم تكن الرعية في هذا القرن تعيش دائماً في ترف وبذخ، بل وجدت بعض الفئات التي كانت تنعم بالغنى، وبالمقابل نجد الفئات الأخرى التي كانت تشكو الفقر وسوء الحال وشظف العيش، وقد نوّه الشعراء بالحكام، وأثنوا عليهم؛ لتوسعتهم على الشعب، فهذا الشاعر أبو القاسم الهبيري(١) يمدح سيف الدولة بالكرم والجود، وإيواء الغريب والتفضّل على المحتاجين، يقول(٢):

وكيف احتمالي للزمانِ ظلامةً وأنت على عينِ الزمانِ رقيبُ
وفي كلِّ أرضٍ من سمائكَ صيّبٌ وفي كلِّ روضٍ من نداكَ جنوبُ
وكل غريبٍ في جنابكَ آهلٌ وكلُّ قريبٍ لمْ تصلْه غريبُ
إذا مرضتْ حالُ امرئٍ لم يكنْ لها سوى فضلُ إنعامِ الأميرِ طبيبُ

وهذا الببغاء يصف حاله في ظل سيف الدولة وينوّه بجوده، حينما ضرب الأمير دنانير للصلات، في كل دينار منها عشرة مثاقيل، وعليها اسمه وصورته، يقول(٣):

نحنُ بجودِ الأميرِ في حَرَمٍ نرْتعُ بين السّعود والنعم
أبْدَعُ منْ هذهِ الدّنانيرِ لمْ يَجْرِ قديماً في خاطرِ الكَرَمِ
فقد غَدتْ باسمِهِ وصورتِهِ في دهْرِنا عُوذَةً من العَدَمِ

كما وصف ابن نباتة النعيم الذي أصابه في ظل الأمير، وبالغ في عطائه، إذ

---

(١) أبو القاسم الهبيري هو الحسين بن محمد الفزاري الحلبي، من ولد عمر بن هُبيرة، وهو من أرباب النعم المشهورة بجند قنّسرين والعواصم، انظر ابن العديم: بغية الطلب ٢٧٨٤:٦.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب ٢٧٨٧:٦.

(٣) الببغاء: شعره ١٥٧، ونرتع: ننعم ونلهو، والعوذة: ما يُعلّق على الصّبي من التمائم ليقيه العين.

لم يُبقِ سيف الدولة له مجالاً في طلب النعمة وكاد من ذلك أن يتمنّى فيه لو كان بخيلاً، يقول(١):

قدْ جُدْتَ لي باللُّها حتى ضجرتُ بها ... وكدْتُ من ضجري أثني على البخْلِ

إنْ كنتَ ترغبُ في هذا النوال لنا ... فاخْلُقْ لنا رغبةً أولا فلا تُنِلِ

لم يُبقِ جودُكَ لي شيئاً أؤمِّلُهُ ... تركْتني أصحبُ الدنيا بلا أملِ

وفي حديث الصنوْبري ومدحه لسيف الدولة، فقد نتبين أنّ عدله عمّ البدو والحضر، وحلّ اليسرُ محلّ العسر في زمانه، واستجاب لكل من دعاه، إذ يقول(٢):

وقورُ النواحي لم يَرَ الناسُ قبلَهُ ... قلوبَ جميعِ الناسِ جُمِّعْنَ في صدْرِ

وفضلكمُ وِرْدٌ لعانٍ ومُطلَقٍ ... وعدلكم سِتْرٌ على البدو والحضرِ

ألسْتَ الأميرَ ابنَ الأميرِ الذي غدا ... به اليُسْرُ مأموناً عليه من العُسْرِ

فما خابَ محتاجٌ رجاكَ بحاجةٍ ... وما بات موتورٌ دعاك إلى وِتْرِ

ومع ذلك، فإننا نرى الشعراء يشكون الفقر، ويصفون أحوالهم البائسة، ويستجدون بالشعر، فالصنوْبري يشكو من الفقر وسوء الحال، وضيق العيش، قائلا(٣):

الشيبُ عندي والإفلاسُ والجَرَبُ ... هذا هلاكٌ، وذا شؤمٌ وذا عطَبُ

إنْ دام ذا الحكُّ لا ظِفرٌ يدوم ولا ... يدومُ جلدٌ ولا لحمٌ ولا عَصَبُ

أما تراهُ على الكفَّيْنِ منتظماً ... كأنّه لؤلؤٌ ما إنْ لهُ ثقُبُ

---

(١) ابن نباتة: ديوانه ١: ٢٠٧-٢٠٨، واللها جمع لهوة وهو أفضل العطايا وأجزلها.

(٢) الصنوْبري: ديوانه ٤٧-٤٨.

(٣) الصنوبري: ديوانه ٤٥٢-٤٥٣.

كحبّةِ العنبِ الصُّغرى تَبِـينُ ولا تزالُ تعظُم ولا يعـظمُ العـنَبُ

ولقَّبوهُ بحبُّ الظـرفِ ليـتهمُ يا نفسُ ضاعوا كما قد ضاع ذا اللقَبُ

وقد باع بعضهم ثيابه ليستقيم بذلك عيشه، يقول الصُّوري(١):

هانذا من بيتِ أهلِ النَّـدى والمجدِ من بـانٍ ومن كاتبِ

أبيعُ أثوابـي ويا لَيـتَها تقومُ لي بالقـائمِ الراتبِ

وهذا الصُّوري نفسه، يصف ممدوحه، ويصف حاله قبل أن يلتقي به، إذ يقول(٢):

فإنّني قبـلُ ما التقـيْنَا أحْلُـبُ مـا لم يكنْ يدُرُّ

كذاك نجمُ الصَّباحِ تبـدو مـن قبله أنجـمٌ تغـرُّ

ووصف حاله، وقد كتب إلى عيسى بن نسطورس، يقول(٣):

إذا النِّـعمُ السَّابغـاتُ التي عُـدِدْتُ مع الناسِ في شُكرِها

غدوْتُ إليـكَ على حالـةٍ تَراهـا فتـنظر فـي أمرِها

أبيتُ أُصـبِّرُها جاهـداً وقد تستـجيبُ إلى صَبْـرِهَا

وهـا قصـتي قد تبيَّنْتُها فلو شـئتَ وقّعتَ في ظهرِها

كما وصف الصّوري فقره، حتى إنّه لم يجد ما يسدّ به رمقه، فأفناه الجوع(٤):

سأذكُرُ مـا أنا فيـهِ وما لقيـتُ وأشـرَحُهُ ذاكـرا

---

(١) الصُّوري: ديوانه ١:٥٨.

(٢) الصُّوري: ديوانه ١:١٨٢.

(٣) الصُّوري: ديوانه ١:١٨٦.

(٤) الصُّوري: ديوانه ١:٢٢٩.

ولو لمْ أكنْ شاعراً لاستعنْتُ على وصفِ ما حلَّ بي شاعرا

وقد كنتُ أسبلْتُ من قبلِ ذا كَ دمعي على عَدَمي سايرا

إلى أن أتى الشهرُ شهرُ الصِّيامِ فأبرزَهُ وابْتدا ناشرا

وصارتْ لياليهِ أيامُهُ أبيتُ به صائماً ساهرا

وأُنْسيتُ أهلَ النَّدى والعُلى ومن يذكرُ الزمنَ الغابِرا

وقلتُ نسيتُمُ بقاياهُمُ فأذكرَني منهمُ جابرا

وبرع الصُّوري كثيراً في تصوير حالته التي شبهها بحديقة ذات أشجار مسَّها العطش وجعل سُبُل الخير قد وقفت في وجههِ، وشبهها بالعيس، وجعل طول هجران أهل الجود للفقراء كاحتباس الغيث، وذلك في مدحه لبني الشيخ، يقول(١):

عندي حدائقُ شُكْرٍ غرسُ جُودِكُمُ قد مسَّها عطشٌ فليسقِ مَنْ غَرَسا

تداركوها وفي أغصانها رَمقٌ فَلَنْ يعودَ اخضرارُ العُودِ إنْ يَبَسا

قد كان غضَّاً وفيه اليومَ مسْكنةٌ من الثناءِ وإن أغفلتُموهُ عَسَا

سيروا فإنَّ وُجوهَ العيسِ واقفةٌ عنِّي وقوموا فإنَّ الدَّهْرَ قد جلسا

ولا يُرِ يبنَّكمْ طولُ احتباسِكُمُ فالغيثُ أحسنُ ما يأتي إذا احتبسا

ويشكو الشاعر إلى أحد أصدقائه حالته البائسة، طالباً منه مدَّ يد العون والمساعدة له(٢):

أشكو إليكَ وإن تبيـ ـينَ يا ابن إبراهيمَ ضيقَكْ

أني بحالٍ لا يَسـ ـرُكَ أنْ يكونَ بها صديقُكْ

---

(١) الصُّوري: ديوانه ١:٢٥٣.

(٢) الصُّوري: ديوانه، ١:٢٣٢.

ونظراً لأن الصُّوري يعيش الفقر دائماً، فإنه يعتزُّ به، إذا كان الغنى يجعلُ صاحبَه يُوصفُ بالذل، يقول ضمن قصيدة مَدح بها أبا غالب يحيى بن عبيدالله(١):

عجبتُ من نفسي ومن أنّها ... كأنّها تُكثرُ بالقلّهْ
تعْتزُ بالفقر إذا استشْعرتْ ... أنّ الغنى يُؤخذُ بالذّلّهْ
فإنّها في العزّ مشتقةٌ ... من نفسِ يحيى ابن عبيدالله
لأجْل ذاك انتقضَ الشرطُ بي ... عن مذهبي واعتلتِ العلّهْ
وصرتُ أستجديه من حاجةٍ ... قصْداً وأستشفيهِ من علّهْ

ووقف أحد الأعراب بباب سيف الدولة، وشكاله معاناته في فقرهِ، ونفادِ زاده، فقال(٢):

أنتَ عليٌّ وهذهِ حَلَبُ ... قد نفِدَ الزّادُ وانتهى الطلبُ
بهذه تفخرُ البلادُ وبالـ ... أمير تزهى على الورى العَرَبُ
وَعَبْدُكَ الدَّهرُ قد أضرَّبنا ... إليك من جوْرِ عبدِك الهرَبُ

فما كان من سيف الدولة إلا أن أثنى عليه، وأمر له بمائتي دينار.

ويصوِّر الشعراء الصراع المريرَ الذي يعانون منه وهم يسألون الناس العون والمساعدة ويقرنون ذلك بآلام النار، كما في قول الخليع الشامي مخاطباً سيف الدولة(٣):

أنا شاعرٌ، أنا شاكرٌ، أنا ناشرٌ ... أنا راجلٌ، أنا جائعٌ، أنا عاري
هي ستةٌ فكنِ الضمينَ لنصفها ... أكنِ الضمين لنصفها بعيارِ

---

(١) الصُّوري: ديوانه ١:٤١٣.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر: ١:٤٢ ولم يذكر اسم الشاعر.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر: ١:٣٢٤، ابن العديم: بغية الطلب ١:٤٥١٢، والخليع يُكنى بأبي عبدالله واسمه محمد، أدرك زمان البحتري، وبقي إلى أيام سيف الدولة فانخرط في سلك شعرائه، انظر: ترجمتهُ في الثعالبي: اليتيمة ١:٣٢٤، النديم: الفهرست ٣٢٤.

والنارُ عندي كالسؤالِ فهل ترى أن لا تكلّفني دخولَ النّارِ

ووصف بعضهم حاله البائسة في حلب، حينما لم يجد ما يلبسه،كما يقول التّلْعْفري(١):

ما أصعبَ العيشَ على بائسٍ معاشُهُ في حلبِ النحوُ

ليس لهُ في بردها جبّةٌ ولا قميصٌ لا ولا فروُ

ونرى من سوء الحال وضيق العيش، أن الشعراء يرْثون الثياب، فالصنوْبري رثى رداءه الذي احترق، ووصفه بأنه أجلُّ أعلاقه، وأنفسُ ما يملك، وكان يتجمل به إذا جاء النهار، وستراً له في الليل، ولحافاً لزوّاره، فكيف حاله الآن وقد احترق، يقول(٢):

كان ردائي أجلُّ أعلاقي من جُددٍ كُنَّ لي وأخلاقِ

كان بهائي إذا ارتديتُ به وكان نوري وكان أحداقي

كان رفيقيَ صورَ النهارِ ولي في الليلِ منهُ صنوفُ أرفاقِ

مِقْرمةً كان لي ومِنشفةً ومِئزراً فاضلاً عن الساقِ

وكان ستراً لباب بيتي أحـ ياناً وحيناً لحافَ طُرّاقي

وكنتُ أهوى لهُ البقاءَ لكي يكون ذُخراً لعِقبيَ الباقي

أصونُهُ مُشفقاً عليهِ فما حماه صوْني لهُ وإشْفاقي

بل دبَّ منه الإحراقُ في جسدٍ سِيّان إحراقُه وإحراقي

فليس وجدي عليهِ بمُنْصَرِمٍ وليس دمعي عليه بالرّاقي

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٣٤٩ ولم يُعرّف الشاعر.

(٢) الصنوْبري: ديوانه ٤٣٢.

ورثى ثياباً له ونعالاً قد بَليتْ، يقول(١):

إنْ نعلي ولَّتْ وكانت إذا سـرْ ... تُ قلوصي، والنعلُ بئسَ القلوصُ
ولئن أنشبَ البِلى في ثيابي ... مخلباً لا يُزيلُهُ التخليصُ
فثيابي من البِلى في أمانٍ ... ليس يُخشى على ثيابي اللُّصوصُ

إلى أن يقول:

قد لبستُ القناعةَ الآن ثوباً ... فاستوى الشَّرْيُ في فمي والخَبيصُ

وقد اُتّخذ الشعرُ وسيلةً للاستجداء، وطلب المال واللباس، فالسَّرِيّ الرفّاء يطلب من سيف الدولة ثياباً ضمن قصيدة يمتدحه بها، يقول(٢):

وأيامٌ حَسنٌ لديّ حتّى ... تساوى الشيبُ فيها والشبابُ
وإنْ تُلحق ثوابكَ بي ثياباً ... فأيسرُ ما تجودُ به الثيابُ

والتمس الببغاء كسوة من سيف الدولة، يقول(٣):

فإن رأى لا أرى سوءاً ولا برح الـ ... إقبالُ مشتملاً أيامَ دولتهِ
إن يقتضي لي من إنعامِهِ خِلَعاً ... تنوبُ عن منطقي في شكرِ نعمتهِ
إذا تأمّلَها الحُسّادُ لائحةً ... تيقّنوا أنها عنوانُ نيّتهِ

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٢٤٣، والشَّرْيُ: الحنظل، والخَبيصُ: نوع من الحلوى.
(٢) السَّرِيّ الرفّاء: ديوانه: ١:٣٨٢.
(٣) الببغاء: شعره ٥٩.

واستهدى الصّنوبري نعلاً من ممدوحه(١)، كما استهدى علفاً لحمامه، كما في قوله يمدح أبا العباس الرشيدي(٢):

ألاَ يا أيُّها الغـيثُ المرجّى نَداهُ للسِّباخِ وللبقاعِ
هويتَ المستطاعَ من المعالي وما كهواكَ غيرُ المستطاعِ
لُهَىً يُلهيننا عن أهل عصرٍ تُناطُ لُهاهُمُ بلُهى السِّباعِ
وليسَ البائسُ المخدوعُ إلا الـ ـذي يرجو النباهة بالخداعِ
أبا العباس يا بدرَ المعالي لرائيهِ ويا شمسَ المساعي
أتى عَلفُ الحمامِ على المطايا فضاقتْ عن مطاياهُ رِباعي
وظنَّ الناسُ أنّ لنا ضياعاً فذلك بعضُ غَلاّتِ الضياعِ
أبا العباسِ يا أحلى ثناءٍ على الأسماعِ من حُلْوِ السّماعِ
لَئِنْ أشبعْتَ من جوعٍ حمامي فكم أشبعْتَ من ناسٍ جياعِ

وقد استنكر أبو الفتح الفخري الحلبي على الشاعر الصّوري قعوده في بيته، وعدم سعيه في طلب الرّزق، وما سبّبه له ذلك من فقرٍ وفاقة، ودعاه إلى نبذ الكسل والتواكل، والنهوض إلى العمل، وطلب الرزق، وذلك إذ يقول(٣):

أعبدَ المحسنِ الصُّوري لِمَ قد جثمْتَ جثُومَ مُنهاضٍ كسيرِ
فإنْ قُلتَ العيالةُ أقعدتْني على مضضٍ وعاقتْ عن مسيري
فهذا البحرُ يحمل هضْبَ رَضْوَى ويستثني بركْنٍ من ثَبيرِ

---

(١) الصّنوبري: ديوانه ٤٤٩.

(٢) الصّنوبري: ديوانه ٣٢٨.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٣٧٩، ابن العديم: بغية الطلب ٢:٧٧٦، والمنهاض: المقعد، الفخري: اسمه أحمد بن سليمان، شاعر ماهر، كان في عصر عبدالمحسن الصُّوري.

وإن حاولتَ سيرَ البرِّ يوماً   فلستَ بمُثقِلٍ ظهرَ البعيرِ

إذا استحلى أخوكَ قِلاكَ يوماً   فمثلُ أخيك موجودُ النظيرِ

تجوّلْ علَّ أنْ تلقى كريماً   تزولُ بقربه إحَنُ الصُّدورِ

فما كلُّ البريَّةِ مَنْ تراهُ   ولا كُلُّ البلادِ بلادُ صُورِ

فردّ عليه الصوري يبيِّن عجزه عن السّعي، وطول السِّن، يقول(١):

جزاكَ الله عن ذا النُّصحِ خيراً   ولكنْ جاء في الزمنِ الأخيرِ

وقد حدّتْ لي السبعون حدّاً   نهى عمّا أردتَ منَ الأمورِ

ومُذ صارتْ نفوسُ الناس عني   قصاراً عُدْتُ بالأملِ القصيرِ

ومما يثير الانتباه أن الواساني يشير إلى حاله الفقيرة، فلم يملك بيتاً يقطن به، إذ يصوّر ما هو فيه قائلا(٢):

فلو كان لي بيتٌ يحلُّ دُخولُهُ   لأمتعتكُمْ بالعَزْفِ والقصْفِ والسُّكرِ

ولكنّما لي بيتُ سُوءٍ كأنّهُ   بقيةُ ناؤوسٍ على ساحلِ البحْرِ

---

(١) الصّوري: ديوانه ١:٢٠٣.

(٢) الباخرزي: دمية القصر وعُصْرةُ أهل العصر ١:١٧١، والواساني: هو الحسين بن الحسن بن واسان الدمشقي توفي سنة ٣٩٤هـ - ١٠٠٣م، وهو شاعر مجيد، برع وبرّز في الهجاء له فيه نفس طويل، أُعجوبة الزمان، ونادرته وفريدُ عصره، وكان في زمانه كابن الرومي في أوانه. انظر ترجمته: الثعالبي: اليتيمة ١:٤٠٨.

٤- الصراع مع الروم أثره في الحياة الاجتماعية

لقد ترك الصراع مع الروم آثاراً واضحة في الشعر الشاميّ في القرن الرابع الهجري، فقد صوّر الشعراء الدمار الذي أصاب بعض المدن الإسلامية، والجهود التي بذلها الحمدانيون لتعميرها، واهتمام القادة المسلمين ببناء القلاع والحصون، كما تحدّثوا عن الأسرى من الطرفين، ووصفوا معاناتهم وفداءهم، وافتتنوا بالسُّبايا الروميات، ووصفوا محاسنهن.

فقد أشاد المتنبي بعناية سيف الدولة بالثغور الإسلامية، ورعايته لأهلها وتأمينه لهم من الأعداء، وإغداقه عليهم من الأرزاق والأموال، وذلك إذ يقول(١):

هنيئاً لأهل الثغر رأيُكَ فيهمُ ... وأنّك حزبَ الله صِرْتَ لهمْ حِزْبا

وأنك رُعْتَ الدهرَ فيها وريْبَهُ ... فإنْ شكّ فليُحدثْ بساحتها خطْبَا

فيوماً بخيلٍ تطردُ الرُومَ عنهُمُ ... ويوماً بجودٍ يَطردُ الفقرَ والجدْبا

ووصف المتنبي في القصيدة نفسها إعادة سيف الدولة بناء (مرعش) التي دمّرها الروم، ورسم صورة فنية معبّرة لحصانة هذه القلعة، والسّور الذي أقامه حولها، وذلك إذ يقول:

فأضحتْ كأنَّ السُورَ من فوق بَدْئِهِ ... إلى الأرضِ قد شقَّ الكواكب والتّربا

تصدُّ الرِّياحُ الهُوجُ عنها مخافةً ... وتفزعُ فيها الطيرُ أن تلقط الحبّا

وتردى الجيادُ الجُردُ فوق جبالها ... وقد ندفَ الصِّنّبْرُ في طُرْقها العُطْبا

كفى عَجَباً أنْ يَعجبَ الناسُ أنّه ... بنى مرعشاً تبّاً لآرائهمْ تَبّاً

ومن القلاع التي بناها سيف الدولة، قلعة حلب، وقد وصف الخالديان هذه القلعة، وصوّرا حصانتها وشموخها، واستعصاءها على كل من حاول الوصول إليها، إذ يقولان(٢):

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ١:٦٢.

(٢) الخالديان: الديوان ١٦٥.

وقلعةٍ عانق العـيُّوقُ سـافِلهَا   وجاز منطقَه الجوزا أعاليـهـا
إذا الغمامةُ لاحتْ خاض ساكنُها   حيَاضَها قبل أن تُهْمَى عَزَاليها(١)
يُعدُّ من أنجمِ الأفـلاكِ مرقـبُها   لو أنّه كان يجري في مجاريـها
على ذرى شامخ وعْرٍ قدِ امتلأتْ   كِبْراً بهِ، وهْو مملوءٌ بهـا تيـهـا
لـهُ جْناحُ عقـابِ الجوِّ حـائمةٌ   من دونها فهْي تخـفى في خوافيـها
ردّتْ مكايدَ أمـلاكٍ مكـايدُها   وقصّرتْ بدواهـيهمْ دواهـيـها

وبحكم الحرب فقد سُبيتْ بعض النساء الروميات، وقد وصفهنّ المتنبي بأنهن كواسد، لكثرتهنّ، وعدم رغبة العرب فيهنّ، وذلك إذ يقول(٢):

فلم يبقَ إلاّ من حماها من الـظُّبـا   لمى شفتيها والثُّديُّ النواهدُ
تُبكِّى عليهنّ البطاريقُ في الدُّجى   وهـنّ لدينا مُلقياتٌ كواسدُ

ونقل السَّريّ الرَّفاء صورة فريدة لهؤلاء السَّبايا، وقد استردفهنّ الفرسان المسلمون، وعادوا فيهنّ إلى ديارهم غانمين، إذ يقول(٣):

ثم انثنيت وأسـادُ الشّـرى جَزَرٌ   بالمُرْهَفاتِ وغزلانُ النَّقاسَلَبُ(٤)
سبيٌ تحصَّنَ منه الجيشُ وارتبطتْ   قُـبُّ الجيادِ فلا ماشٍ ولا عَرِبُ(٥)

ويصوِّرها أبو فراس، ويجعلها بكراً لم تُمسّ، وهي كريمة بذاتها لا بأهلها، إذ يقول(٦):

وخريدةٍ كرُمَـتْ على آبائـها   وعلى بوادرِ خيلنا لم تكْرَمِ(٧)

---

(١) العزالي : مصبّ الماء من الراوية ونحوها
(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ١:٢٧٥.
(٣) السَّريّ الرّفّاء: ديوانه ١:٤٣٨.
(٤) أساد الشرى: موضع تكثر فيه الأسود، وغزلان النّقا: النّساء.
(٥) العرب: النشيط ولعلّه قصد به الرّاكب.
(٦) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٦٨.
(٧) الخريدة: البكر لم تُمسّ.

خُطبتْ بحدِّ السيف حتى زوّجتْ كرْهاً، وكان صــداقُها للمقْسم

راحتْ وصاحبُها بعرسٍ حـاضرٌ يُرضـي الإلهَ، وأهلُها في مأتمِ

أمـا الطرسوسي فيستوقفه جمال هؤلاء الروميات، فيصف أجسامهنَّ الممتلئة، وأردافهنَّ الثقيلة، وعيونهنَّ الجميلة، ووجوههن البيضاء المشوبة بالحمرة، ويعبِّر خلال ذلك عن افتتانه بهنَّ، ونزوع نفسه إليهن، غير أن الشاعر، وفي الأبيات نفسها ينقل وجهاً آخر لهذا المشهد، وهو الوجه الإنساني المؤلم الذي يصوّر حزن هؤلاء السبايا وبكاءهن، يقول(١):

ويستبونَ الخُـرَّدَ الأبكـاراْ ويحتوون المـالَ والأسـارى

قد صُفِّدوا في السير في وثـاق وضُمّتِ الأيدي إلى التّراقـي

لخشـيةِ الـفـرار والإبـاق وتلكمُ الجـوارِ في استِـباقِ

يُسقْنَ كالأغنـام في الشِّـغاف يُحَزْن بالـرِّمـاح والقِـذافِ

حَوْزَ الرُّعاةِ الشاءَ في الفيافي كم فيـهُمُ من ظـبيـةٍ ذِلافِ

يمنعها من مشيها سحْـجَ(٢) الرَّبَلْ وثِقـلَ ردفٍ مائلٍ لها عَـدِلْ

وأنهـا ذاتُ دلال وخـجـلْ لوحسَّها الراهبُ يوماً لنـزلْ

والـقسُّ لو أبصرها لـما صَبَرْ وقـبّل الرجلين منها واعتـذرْ

تبكي بعـينٍ ذات غُنْجٍ وحَوَرْ وتلطـمُ الوجهَ المنـيرَ كالـقمرْ

أبيـضَ يَعـلوهُ كلونِ الخـمرِ نعم وفي الصدْر الوضيء تفري

باللـكم والخمْـشِ ونتْفِ الشعرِ من حـالكٍ قد حلَّ عند الخصْرِ

وكلُّ مـا يبـدو لهـا مليـحٌ إذا احـتواها المُرْدُ يسـتريحُ

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب: ١٩١:١، والطرسوسي هو أبو عمرو القاسم بن أبي داود، انظر ابن العديم: بغية الطلب ١٨٩:١-١٩٠.

(٢) السحْج: جري دون الشديد، والرّبالة: كثرة اللّحم.

ورسم المتنبي صورة شبيهةً للصورة السابقة، حين وصف إحدى السّبايا، وهي تبكي بعلها مفجوعةً عليه، قد شقّتْ جيبها ومَزّقتْ شعرها وثيابها، يقول(١):

وأمسى السّبايا ينتحِبْنَ بعَرْقةٍ كأنّ جُيُوبَ الثّاكلاتِ ذُيُولُ(٢)

أمّا أسرى الروم فلم تظهر صورتهم واضحة عدا بعض الإشارات البسيطة التي وردت في شعر الحرب، فهذا المتنبي يشير إلى قسطنطين وأسره وفرار والده من المعركة، إذ يقول(٣):

فودّع قتلاهمْ وشيّع فلَّهُمْ بضرْبٍ حُزونُ البيضِ فيه سهولُ
على قلب قسطنطينَ منه تعجّبٌ وإن كان في ساقيه منه كبُولُ

ويقول أبو فراس واصفاً قسطنطين وهو في الأسر(٤):

وأُبنَ بقسطنطين وهْو مُكبّلٌ تَحفُّ بطاريقٌ به وزَراوِرُ

ويقول النامي مشيراً إلى أسرهِ كذلك(٥):

وقد سارَ في الروم الدُّمستُقُ باغياً له ساعةٌ نكراءُ في نُوبٍ نُكْدِ
وأسلمَ قسطنطينَ للأسر بَرْدسٌ وولّى وقد خدّته فَوْهاءَ في الخَدِّ

وقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلى معاملة أسرى الروم وهم عند المسلمين، فحينما وقع قسطنطين بن الفقاس في الأسر سنة ٣٤٢هـ ومات في

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:١٠١.

(٢) النحيب: البكاء، وعَرْقة: موضع ببلاد الروم، والثاكلات: جمع ثاكل: وهي التي فقدت ولدها، أو بعلاً أو أباً أ وأخاً.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣: ١٥٥

(٤) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٩٠، وزرَاور وبطاريق: من قواد الروم.

(٥) النّامي: شعره ٥٢-٥٣، والدُّمستُق: الخادم الأعظم أو القائد الأعظم، وهو لقب يُطلق على امبراطور القسطنطينية، وقسطنطين: هو امبراطور القسطنطينية وكان يُعرف بـ (مالينيوس السابع) وبرْدس: هو برداس (ثالث أولاد قسطنطين) قائد الروم.

حلب سنة ٣٤٨هـ وكان قد أُعتلّ وهو في الأسر، وحاول أطبّاء سيف الدولة شفاءَه، دون جدوى، فلما توفي كفن بكفن فاخر، ونُقِل إلى إحدى الكنائس، وصُلّي عليه وكتب سيف الدولة رسالة تعزية إلى أبيه الدمستق بردس(١).

أما أسرى المسلمين فقد أشار أبو فراس إلى أسر أبي العشائر، وقد ذكر قراعه للروم، إذ يقول(٢):

أأبا العشائرِ إنْ أُسرْتَ فطالما   أسَرتْ لك البيضُ الخفافُ رجالا

لمّا أجَلْتَ المُهرَ فوق رؤوسهمْ   نسجَتْ لهُ حُمرُ الشعورِ عِقالا

وقد تميز أبو فراس في الشعر الذي قاله وهو في الأسر، سواء أكان ذلك بكثرة ما قاله، أم بصدق تجربته، وما يهمنا من هذا الشعر هنا هو وصف معاناة الأسير المسلم لدى الروم، وهي مُعاناة يمكن تعميمها على الأسرى كافة.

فقد وصف حاله، وشكا زمانه، وهو مقيّد في الأسر في حُجْرة ضيّقة، يلبس الصوف، بعد أيام عزّه التي انقضت، كما يقول مخاطباً سيف الدولة(٣):

يا واسعَ الدار كيف تُوسعُها   ونحن في صخرةٍ نُزلزلُها

يا ناعمَ الثوب كيف تبدّلهُ   ثيابُنا الصوفُ ما نبدِّلُها!

يا راكبَ الخيل لو بصرتَ بنا   نحملُ أقيادَنا وننقلُها

رأيت في الضُّرِّ أوجهاً كرمَتْ   فارقَ فيكَ الجمالَ أجملُها

وكان يستعطف الأمير؛ ولعلّه يشعر بحاله وهو عليل، بين أكفّ الأعداء، يقول(٤):

---

(١) الأنطاكي: تاريخه ١:٨٤.

(٢) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٤١، وأبو العشائر: هو الحسين بن حمدان كان قد أسر لدى الروم.

(٣) أبو فراس: ديوانه ١٣٤، وقوله: «ونحن في صخرة نُزلزلها: ربّما أنّه يشير إلى الأعمال الشاقة في الأسر».

(٤) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٤٥.

هل تعطفانِ على العليلِ   لا بالأسيرِ ولا القتيلِ
باتتْ تقلّبُه الأكفُ   سحابةَ الليلِ الطّويلِ
فقدَ الضيوفُ مكانَه   وبكاهُ أبناءُ السّبيلِ
وتعطّلتْ سُمْرُ الرِّماحِ   وأُغمدتْ بيضُ النّصولِ(١)

ويصف ضعفه وأحزانه وهو ينتظر بارقة الأمل في الفداء، وقد سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية، إذ يقول(٢):

أقولُ وقد ناحتْ بقربي حمامةٌ   أيا جارتا هل تشعرينَ بحالي؟
معاذ الهوى ما ذُقتُ طارقةَ النّوى   ولا خطرتْ منكِ الهمومُ ببالي(٣)
أتحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ   على غُصُنٍ نائي المسافةِ عالِ؟(٤)
أيا جارتا ما أنصفَ الدّهرُ بيننا   تعالي أقاسُمكِ الهمومَ تعالي
تعالي تَريْ روحاً لديَّ ضعيفةً   تَرددُ في جسمٍ يعذّبُ بالي
أيضحك مأسورٌ، وتبكي طليقةٌ   ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالي؟
لقد كنتُ أولى منكِ بالدمعِ مقلةً   ولكنّ دمعي في الحوادثِ غالِ!

وقد برع أبو فراس وهو في الأسر، بقصائده التي عاتب فيها أهله، ولا سيّما سيف الدولة، وقد صوّر فيها بُعدهم عنه، وجفاءهم له، ووصف آلامه وأحزانه وهو يتوجّع في الأسر، إذ يقول(٥):

---

(١) النّصول: السيوف اللامعة.

(٢) أبو فراس: ديوانه ١٢٦.

(٣) المعاذ: الملجأ.

(٤) القوادم: هي الريش في مقدمة جناح الطائر.

(٥) أبو فراس: ديوانه ١٠٩.

أما صاحبٌ فردٌ يدومُ وفاؤه   فيصفى لمن أصفى ويرعى لمن رعى؟

أفي كلِّ دارٍ لي صديقٌ أودُّه   إذا ما تفرّقْنا حفظتُ وضيّعا؟

إذا خفتُ من أخواليَ الروم خطةً   تخوّفتُ من أعماميَ العُرْبِ أربعا

وإن أوجعتْني من أعاديَ شيمةٌ   لقيتُ من الأحباب أدهى وأوجعا

وقد أشاد الببّغاء بالجهود التي بذلها سيف الدولة في فداء أسرى المسلمين من الروم، وعدَّ ذلك إحياءً لهم، وذلك إذ يقول(١):

وفديْتَ من أسْرِ العدوِّ معاشراً   لولاكَ ما عرفوا الزمانَ فداءَ

كانوا عبيدَ نداك ثم شريْتهمْ   فغدوا عبيدَكَ نعمةً وشِراءَ

والأسرُ إحدى الميتتيْن وطالَما   خلَدوا به فأعدْتَهمْ أحياءَ

وقد أنفق سيف الدولة على الفداء خمسمائة ألف درهم(٢)، وأخرج من قدِر على إخراجه من المسلمين من بلد الروم، واشترى كلّ أسير بثلاثة وثمانين ديناراً وأما الجِلّة ممن كان أسيراً ففادى بهم رؤساء كانوا عنده من أسرى الروم، وارتجع أبا فراس منهم، وفي ذلك يقول الببغاء(٣):

ما المالُ إلاّ ما أفاد ثَناءَ   ما العزُّ إلاّ ماثَنى الأعداءَ

شحّتْ على الدنيا الملوكُ وعافها   مَنْ لم يُطعْ في حفظها الأهواءَ

باع الذي يَفنى بما أبقى له   ذِكْراً إذا دَجَتِ الخطُوبُ أضاءَ

فليهنِ سيفَ الدولة الشرفُ الذي   لو كان مرئياً لكان سماءَ

وظهر من خلال هذا الصراع شعر الوفود، وإفضال سيف الدولة عليهم،

---

(١) الببّغاء: شعره ٣٨.

(٢) انظر ابن الوردي: تاريخه ١:٤٠٥، التنوخي: نشوار المحاضرة ٢:٢٩٦.

(٣) الببّغاء: شعره ٣٧.

وإكرامه لهم ،ومدحه الشعراء بخضوع الملوك له، وشجاعته وبذله وعطائه لأهل الثغور، والمدافعة عنها، والنفير، وفي ذلك يقول السَّرِيّ الرَّفّاء ذاكراً مجيء وفد طرسوس والمصِّيصَة، لطلب العون منه،(١):

يَحفُّ الوفدُ منك بأريحيٍّ تحفُّ به السكينةُ والوَقارُ(٢)

وسيفٌ من سيوفِ الله مُغرىً بسفكِ دمِ العدا منه الغِرارُ

حضرْنا والملوكُ له قيامٌ تغضُّ نواظراً فيها انكسارُ

وزرْنا منه ليثَ الغابِ طلْقاً ولمْ نَرَ قبلَهُ ليثاً يُزارُ

فكان لجوْهرِ المجدِ انتظامٌ وكان لجوهرِ الحمدِ انتثارُ

بعثْتَ إلى الثغورِ سَحَابَ عدْلٍ وبذْلٍ لا يغبُّ لهُ انهمارُ

وأسكنْتَ السكينةَ ساحتيْها فقرّتْ بعدما امتنع القرارُ

وعلّمتَ النفيرَ بها رِجالاً عَدَاهمْ من عدوّهمُ نفارُ

وفضْتَ على وفودهمُ فقلنا أفاضَ البحرُ أم سَمَح القِطارُ؟

مكارمُ يعجزُ المُدّاحُ عنها فجُلُّ مديحُهمْ فيها اختصارُ

ولم ينسَ الشعراء وصف المجاهدين، لا سيّما أبو عمرو القاسم بن أبي داود الطرسوسي إذ وصف المرابطين في طرسوس، وأشاد بجهاد أهلها قائلاً(٣):

طرْسوسُ أرضُ الفضلِ والجهادِ ومنتهى الرّغبةِ للعُبّادِ

تيكَ بلادي وبها تلادي ومألفي ومعدن الرُّشادِ

سكانُها أهلُ البلاء والجَلَدْ غلامُهمْ لدى الحروب كالأسَدْ

---

(١) السَّرِيّ الرَّفّاء: ديوانه ٢:٢٢٢.

(٢) الأريحيّ: الذي تعتوره الخفّة والفرح.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب ١:١٩١.

وكهلُهمْ في المعْضلاتِ مُعْــتَمدْ   وشيخُهمْ لكلِّ خَــيرٍ مُستَـنَدْ

قد دوّخوا بالضربِ في الحقائقِ   بكلِّ قَــطّاعٍ مِـــنِ البَـــوارقِ

هامَ العِدى والوَخزَ بالمَــزارقِ   والطعنِ بالخَــطّيِّ في الحمالقِ

بالسُّمْـــهرياتِ مِـــن الرِّمَـــاحِ   يخْـــتطِـفون شكَّــةَ الأرواحِ

وفي الدُّجى يسْـرون للتصباحِ   سَــرِيَّــةً في الــرومِ لاجتــياحِ

ولِلــثُّوابِ والــغِنــى والرِيــشِ   يرجون خُلْداً في لذيذِ العَيْـشِ

ليسوا بأطيــاشٍ غداةَ الهيْشِ   إذا اغتــدوا كانــوا أمامَ الجيْشِ

كما ظهرت المناظرات الشعرية بين الروم والمسلمين، وهذا ما جرى مع أبي فراس في مناظرته للدمستق، عندما قال: إنما أنتم كتاب، ولا تعرفون الحرب، فقال له أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟! وبيّن في هذه المناظرة شجاعة العرب، وهم أسود الحرب، والروم وقوادهم كالكلاب، يقول(١):

أتزعُمُ يا ضخْـمَ اللغاديـدِ أنّنا   ونحنُ أُسودُ الحربِ لا نعرفُ الحرْبَا؟(٢)

فويلكَ! مَنْ للحربِ إن لم نكنْ لها؟   ومن ذا الذي يَضْحَى ويُمْسي لها تِرْبا؟(٣)

ومن ذا يكفُّ الجيش من جنَبَاتِه   ومن ذا يقودُ العينَ أو يصدُمُ القلبَا؟(٤)

لقد جمعتْنا الحربُ من قبلُ هذهِ   فكنّا بها أُسْداً، وكنْـتَ بهـا كلْـباً

بأقلامِنَا أجحرْتَ أم بسَــيوفنـا؟   وأُسْدَ الشرى قُدنا إليك، أم الكُتْبا؟(٥)

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٢٧.

(٢) اللّغاديد: جمع لغدود وهي لحمة في الحلق، كناية عن ضخامة العنق.

(٣) التّرب: مَنْ كان في عمرك.

(٤) والقلب: قلب الجيش.

(٥) أجْحرْتَ: أقمت في الجحر ولجأت إلى الأماكن خوفاً وفزعاً.

د- ١- مظاهر الحضارة والعمران

لقد كان من الآثار التي نجمتْ عن الصراع بين العرب والروم الاهتمام ببناء القلاع، لكن سيف الدولة لم يقف عند هذا الحد، بل اهتم ببناء الدور والقصور، وبتشييدها، فهذا أبو بكر الخالدي يصف داراً بناها الأمير، امتازت بعلوّ جدرانها، ووصف الحدائق من حولها، والخشخاش، وأوراقهُ الخضراء الجميلة، وكأنها سوالفُ غانيات، كما وصف شقائق النعمان، ويشبهها باليواقيت، أو خدود الغانيات، يقول(١):

غدتْ دارُ (الأمير) كما روينا ... من الأخبارِ عن حُسْنِ الجنانِ
علتْ جُدرانُها حتى لقُلنا ... سيقصُر عن مداها الفرقدانِ
وجال الطّرفُ في ميدان صحْنٍ ... يُرَدُّ الطّرفَ دون مَداه وانِ
ترى فيهِ حدائقَ ناضراتٍ ... تُشَبّهُهنَّ أقداحَ الغواني
تشير إلى الصَّبُوحِ بغير طرْفٍ ... وتستدعي الغبوقَ بلا لسانِ
كأنَّ تفتُّحَ الخشخاشِ فيه ... على أوراقه الخضرِ اللّدانِ(٢)
سوالفُ غانياتٍ فاتناتٍ ... علتْ قُمصَ الفريد الخسرواني(٣)
وصبغُ شقائقِ النعمانِ تحكي ... يواقيتاً نظمْنَ على اقترانِ
وأحياناً تُشَبّهها خدوداً ... كستْها الرّاحُ ثوْبَ الأرجُوانِ(٤)

ووصف الشقائق المحيطة بها فحيْنما تهبُّ عليها الرياح شبهُها بفتىً يغازلها، كما وصف الخشخاش قائلاً:

---

(١) الخالديّان: الديوان ٩٨-٩٩.

(٢) الخشخاش: نبات يحمل أكوازاً بيضاً وهو منوّم مخدّر.

(٣) الفريد: المتفرد، الخسرواني: الكسروي الملكي الجميل.

(٤) الأرجواني: الأحمر القاني.

شقائقُ مثلُ أقـــداحِ مـــلاءٍ وخشـــخاشٍ كفارغَةِ القناني
ولمّا غازلتْها الريـــحُ خِلْنَـا بها جيـــشيْ وغـــىً يتـــقابلانِ
غدتْ راياتُهمْ بيْضاً وحمْـراً تُميّلُها الفـــوارسُ للطِّـــعانِ

ووصف الشعراء دمشق وما فيها من العمران، كالقصور والمساجد والأديرة، كما في قول الصنوبري(١):

متى الأرْحُلُ محـــطوطةْ وعِيـــرُ الشّوْقِ مَرْبُوطـةْ
بأعلـــى ديـــرِ مـــرّانَ فـــدارِيًّا إلى الـغـــوْطـــةْ
فَشطّيْ بردى في حَـــيْـ ـثُ بُسْطُ الرّوضِ مبسوطةْ
وأعـــلامُ الأزاهـــي كـــ ـدمـــاءِ البُدْنِ معبوطـةْ
ربـــاعٌ تهبـــطُ الأنـــها رُ مـــنها خيـــرَ مهبـــوطةْ

ووصف المحراب وبراعة بانيه والدقة في الفن، إذ يقول:

صفِ المحرابَ صفْ تشنيـ ـفَ بانيـــهِ وتـــقريطـةْ
أمـــا يخشـــى إمـــامٌ قـــا مَ في المحـرابِ تغليطةْ
ووسْـــطُ طرْفـــك القِبلـ ـةَ إن حاولْتَ توسيـطةْ
ترى سُلطـانَ حُســـنٍ لا يَمَـــلُّ الـطرفُ تسليطةْ

ووصف قصورها، والأشجارُ المحيطة بها والأنهار، يقول:

قـــصورٌ بينها الأشجا رُ بالأنـــهارِ مغطـوطةْ(٢)
فمن قـصرٍ كسا تقبيـ ـبَهُ الحـــسنُ وتسفيـــطَةْ

---

(١) الصنوْبري: ديوانه ٢٨٩.

(٢) مغطوطة: مغموسة.

فللأشجارِ فيها جُـ ـمٌّ بالحُسْنِ ممشوطَةْ

وللأثمارِ فيها طُـ ـرَفٌ بالطّرْفِ مَلْقوطةْ(١)

وفي الوقت الذي نرى فيه وصف العمران وجماله، نرى بعض الشعراء يهجون الضياع كما فعل الصنوبري في هجاء ضيعة، حيثُ شتم أهلها، ودعا عليهم، بقوله(٢):

لا قُدِّسَتْ دارُ السُّنَيْـ ـمانيَّةِ الشَّوهاءِ دارا

ما أهلُها بالمسلميـ ـنَ ولا اليهودِ ولا النصارى

همْ شرُّ ما أوعى البغا يا قطُّ من نُطَفِ السكارى

رُمْنا النزولَ بها فنالَـ ـفينا منازلَها قِفارا

وتنوولتْ أعراضُنا فيها فولّينا فِرارا

لم ننتصرْ والحرُّ لا يرجو من النّذْلِ انتصارا

ما في قُرى حلبٍ أحبُّ إلى القرى منها ديارا

هي في جوارِكَ يا قُويـ ـقُ فهل حمدْتَ لها جوارا

كسبتْك عاراً يا قُويْـ ـقُ بقربها وكفاك عارا

موسومةٌ بالشؤمِ أنْـ ـجَدَ شُؤمها فيها وغارا

وبالإضافة إلى العمران، فقد وصف الشعراء المظاهر الحضارية المختلفة، ومن ذلك الشمعة، فقد وصف كشاجم، لونها الأصفر، وحزنها وتوقُّد أحشائها وبكاءَها، يقول وقد وصفها بأنها كالعُاشق(٣):

بركة صفرٍ عمودها شمعُ تفيضُ ناراً منموضعِ الماءِ

---

(١) ملقوطة: مُقتطفة.

(٢) الصنوْبري: ديوانه ١١٢. و هذه الدار التي وصفها توجد على حافة نهر قويق.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣٥١:١، والأبيات غير موجودة في الديوان .

تبكي إذا ما المقصُ خمّشها فَرْطَ حياءٍ من الأخلاّءِ
كأنها عاشقٌ مخايلُهُ فيه بوادٍ لمقلةِ الرائي
صُفْرةُ لونٍ وذوبُ مُعْتبةٍ ودمعُ حُزْنٍ، ونارُ أحشاءِ(١)

ووصفوا المجمرة وشبّهوها بالبركة، كما في قول الصنوبري(٢):

وبركةِ نارٍ تستقلُّ بمقبضٍ لها من نواحيها قوائمُ أربعُ
إذا الأعينُ اشتاقتْ إليها بدَتْ لها وفي وسْطِها عينٌ من الطِّيب تنبُعُ

ووصفوا المرآة، وشبهوها بالماء تارة وبالشمس، ثم هي كالأخ الناصح لأخيه، وكالنديم الذي يؤنس نديمه، يقول الببغاء(٣):

كلُّ فضْلٍ لكل نوعٍ وجنسٍ دون فضل المرآة من غير لُبْسِ
لَطُفَتْ رقةً وفاضتْ صفاءً فهي كالماء في عيانٍ ولَمْسِ
واستدارتْ بباهر النورِ حتى ظنّها الناظرون قطعةَ شمسِ
وهي أصْفَى أخٍ يكشف لي عنّي وأدْنى خِلٍّ يوفرُ أُنْسي(٤)
إذا ما نأى نديمي عني ظلَّ طرفي بها يُنادمُ نفسي

وتفنّن كشاجم بوصف المرآة والحديث عنها، وجعلها أفضل هدية تهدى، يقول(٥):

أيُّ شيءٍ أهدي لأحسنِ شيءٍ قُرِن الحُسنُ فيه بالإحسانِ
فرأيتُ الأشياءَ تقْصُر عن وجهِ علاً أن يُرى لهُ من مُداني

(١) معتبة: عاتبة، من العتاب أو غاضبة.
(٢) الصنوْبري: ديوانه ٣٢٢.
(٣) الببّغاء: شعره ١١٠.
(٤) الخلّ: الود والصديق.
(٥) كشاجم: ديوانه ٤٦٨.

فبعثتَ التي يُرى منه فيها كلّ ما لا يراه في البُستانِ

كما جعلها كالشمس، وكالهالة، يقول:

أختُ شمسِ الضحاءِ في الشكل والإشـ ـراقِ غيرِ الإعشاءِ للأجفانِ
جوْنةُ الصَّقل فضلُها في المرايا فضلُ أذهانكمْ على الأذهانِ(١)
فهي كالهالةِ المحيطة بالبد رِ لستُّ مضيْنَ بعد ثمانِ

ثم يجعل نسبها إلى الفُرس، وينطلق إلى وصفها بالماء، وبالشمس:

خُسْر وانيةُ المَناسِبِ إلاّ أنها في نصابِ جزْعٍ يماني(٢)
وتُريك المكانَ فيها وإن كنـ ـتَ تراها، وغيرُها في المكانِ
وهْي دُنيا بها تفاءلْتُ إلاّ أنّها خلوةٌ من الأحزانِ
وهْي شمسٌ فإنْ مثالُك يوماً لاحَ فيها فأنتما شمسانِ

ووصف الشعراء أدق الأشياء في الحياة، فقد وصف كشاجم المحبرة، وجعلها كالجوهرة البيضاء، وقد زيّنها الحبر الأسود كالكحل في العين إذا مزجه الدمع، ثم هي خرساء، إلا أنها عون على العلم، يقول(٣):

محبرةٌ جادَ لي بها قمرٌ مُستحسنُ الخلْقِ مُرتضى الخُلُقِ
جوهرةٌ خصَّني بجوهرةٍ ناطتْ له المكرماتُ في عُنُقي
بيضاءُ والحبرُ في قرارتِها أسودُ كالمسْكِ جدُّ مُنفتِقِ(٤)
مثلُ بياضِ العيونِ زيّنهُ مسودُّ ما شابهَ من الحَدَقِ

---

(١) الجونة: الشمس.
(٢) الخسْروانية: نسبة إلى خِسْرو وهو كسرى، والمناسب: النّسب، والنّصاب: الأصل.
(٣) كشاجم: ديوانه ٣٦٨.
(٤) وفتق المسك: استخرج رائحته.

كأنّما حبـــرُها إذا نثـــرتْ أقــلامُنــا طَــلُّهُ على الــورَقِ

كحلٌ مــرتْهُ الدموعُ من مُقَلٍ نُجيــلٍ فأوفــتْ به على يــقَقِ(١)

خرساءُ لكـنها تكــونُ لـنا عوْناً علــى علمٍ أفصــحَ الـنُطُقِ

ووصف المقلمة والمحبرة، وقد أثنى عليها وعلى فوائدها، دون غيرها من الأدوات فإليها يرجع الفضل في كتابة الشعر والأخبار واللغة، يقول(٢):

حسْبيْ من اللهوِ وآلاتِ الطربْ ومــن ثَراءٍ وعَتــادٍ ونشَــبْ

ومن مُدامٍ ومثــانٍ تصــطخِبْ وهمةٍ طامــحةٍ إلى الرُتَــبْ(٣)

مجالسٌ مصُــونةٌ عن الرِّيبْ مــعمورةٌ من كــلِّ عــلمٍ يُطّلَبْ

تكادُ من حرِّ الحــديث تلتهبْ شعراً وأخباراً ونحواً يقتضبْ(٤)

ولغةٌ تجمَــعُ ألفــاظَ الــعربْ وفِقَراً كالوعدِ في قلبِ المُــحبّ

ووصف كشاجم المذبّة المجدولة، وأهميتها وقيمتها إذا كانت هدية من محبّ، يقول(٥):

مِذبّــةٌ تُهْـدى إلى سيّــدٍ ما زال عــن كلِّ ولــيٍّ يــذُبّ(٦)

طريفةٌ لم تــخلُ من مثلها مجلــسُ ذي ظــرفٍ ولا ذي أدبْ

كأنّها في ظـــهرِ مــجدولةٍ ذؤابــةٌ أنبــوبُها من ذَهَــبْ(٧)

---

(١) مراه: استخرجه، والنّجْل: واسع العين، واليَقق: شديد البياض.

(٢) كشاجم: ديوانه ٦٥.

(٣) المثاني: من أوتار العود.

(٤) المقتضب: المُرتجل.

(٥) كشاجم: ديوانه ٦٤.

(٦) يذب: يدفع ويمنع.

(٧) المجدولة، محكمة الفتل، والذؤابة: الناصية.

قليلةُ المقدارِ لكنّها أكثرُ منها أنها من مُحِبٍّ

ونظراً للاهتمام بعلم الفلك في هذا القرن فقد وصف الشعراء الإسطرلاب، يقول الببغاء(١):

ومُستديرٍ معجمِ التقسيمِ

مُنتسبِ الأشكالِ والرُّسومِ

دبّرهُ فكرُ إمرئٍ حكيمِ

فصاغهُ في صِغرِ التجسيمِ

مُساوياً للفَلَكِ العظيمِ

مقتطعاً لسائرِ النّجومِ

كما وصفه كشاجم بالاستدارة، وبأنه يقيس ارتفاع الكواكب، يقول عنه(٢):

ومستديرٍ كجرمِ البدرِ مسطوحِ عن كلِّ رائعةِ الأشكالِ مصفوحِ

صَلْتٍ يُدارُ على قُطْبٍ يُثبّتهُ تمثالُ طِرْفٍ بُشكْمِ الحذْقَ مكْبوحِ(٣)

ملءُ البنانِ وقدْ أوفتْ صفائحهُ على الأقاليمِ في أقطارِها الفِيحِ

كأنّما السبعةُ الأفلاكِ محدقةٌ بالماءِ والنارِ والأرضينَ والريحِ

تنُبيكَ عن طالعِ الأبراجِ هيئتُه بالشمسِ طوْراً وطوراً بالمصابيحِ

مميّزٌ في قياساتِ النجومِ بهِ بين المشائيمِ منها والمناجيحِ(٤)

---

(١) الببّغاء: شعره ١٥٩، والإسطرلاب: آلة يقيس بها الفلكيّون ارتفاع الكواكب، انظر: شهاب الدين الخفاجي: شفاء الغليل ٥١.

(٢) كشاجم: ديوانه ١٢٧.

(٣) الصَّلت: البارز المستوي، والصقيل: الماضي. والطِّرْف: الكريم من الخيل، وشُكْم: جمع شكيمة وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس.

(٤) المشائيم: كواكب النحس، والمناجيح: كواكب السّعْد.

لهُ على الظهرِ عيـنـا حكـمةٍ بهما يحوي الضياءَ ويجنيه من الكُلوحِ(١)

لا يستـقلّ لما فيـهِ بمعرفـةٍ إلا الحصيفُ اللطيفُ الحسُّ والروحِ(٢)

حتى يرى الغيبَ فيهِ وهْو منغلقُ الـ أبـوابِ عمّـن سواه جدّ مفتوحِ

نتيجةُ الذهنِ والتفكيـرِ صوّرهُ ذوو العقولِ الصحيحاتِ المراجيحِ

ووصفوا الساعة النجومية، «البنكام»، وقد وصفه كشاجم وجعل له أجفاناً تبكي، وهو يترجم عن المواقيت، يقول(٣):

روحٌ من الماءِ في جسم من الصُّفْرِ مؤلّفٍ بلطيف الحُسنِ والنظرِ

لهُ على الظـهرِ أجفـانٌ محـجّرةٌ ومقلةٌ دمـعُها جارٍ علـى قَـدَرِ

تنشـا لهُ حركـاتٌ في أسافِـلهِ كأنّها حركاتُ المـاءِ في الشَجَرِ

متـرجمٌ عن مواقـيتٍ يخـبّرنا عنها فيوجد فيـها صادقَ الخَبَرِ

نقضي به الخمسَ في وقتِ الوجوبِ وإن غطّى على الشمسِ سترُ الغيمِ والمَطَرِ

محـدّدٌ كـلّ ميقـاتٍ تـخيّره ذوو التخيّـرِ للأسـفارِ والحَضَرِ

ووصفوا البركار، الذي يُستخدم في العمليات الحسابية، وجعل كشاجم ساقيه يصاحبيْن لا يملأن بعضهما، وجعل ألتئام شفرتيْه، بانضمام محبوبين، وذكر وظيفته لرسم الدوائر وهو بذلك عادل منصف، يقول(٤):

جُدْ لي ببركارِكَ الذي صنعتْ فيـهِ يداقيـنهِ الأعاجيبا(٥)

---

(١) الكُلوح: الهواء.

(٢) الحصيف: الذي استحكم عقله.

(٣) كشاجم: ديوانه ٢٤٣-٢٤٤، والبنكام: آلة يستعملها الفلكيون، ويعرفون به الوقت، انظر شهاب الدين الخفاجي: شفاء الغليل ٥١.

(٤) كشاجم: ديوانه ٢٧-٢٨.

(٥) القين: الحدّاد.

مُلتئمُ الشَفرتين مُعتدلٌ ماشَيْنَ من جانبٍ ولا عيْبا(٤)
أشبهُ شيئينِ في اشتباكهما بصاحبٍ ما يَمَلُّ مصحوبا
وضَمُّ شطريْه مُحْكما لهما ضَمَّ مُحِبٌّ إليه محبوبا
لولاه ما صحَّ شكلُ دائرةٍ ولا وجدْنا الحسابَ محسوبا
الحقُّ فيه فإن عدلْتَ إلى سواه كان الحسابُ تقريبا

---

(١) الشفرة: ما عَرُض من الحديد وحُدَّ، وشانه: عابه.

٢- وصف الأطعمة والولائم

ومن مظاهر الحياة التي أكثر الشعراء من وصفها الأطعمة والأشربة، وقد تفننوا في ذلك. وبرز في هذا المجال شاعران هما: أبو القاسم الواساني، وكشاجم الرملي، ولبعض الباحثين تعليل لهذا الوصف، إذ يُعزى شعر الأطعمة ووصف الولائم إلى الغنى الفاحش والنعيم المفرط الذي كانت تحياهُ الطبقة المترفة والفئات الاجتماعية الأرستقراطيّة في هذا القرن، وكلُّ ذلك دعاهم إلى التأنّق في سبيل معيشتهم، والتفنّن في كيفية صُناعة الأطعمة، وطرائق تناولها، وتأليف الكتب العديدة في ذلك(١):

فهذا كشاجم الرمليّ يصف جوْنة طعام دعا إليها أحد أصدقائه، ويذكُر أنواع الأطعمة التي كانت عليها، وتفنّن الطّاهي في طبخها وتزيينها، وقد أطال الشاعر في ذلك على نحو يدل على الإسراف في الإنفاق على الأطعمة، والبذخ في ذلك، يقول(٢):

متى تَنْشطُ للأكلِ ... فقد أُصلحتِ الجونهْ
وقد زيّنها الطاهي ... لنا أحسن تزيينَهْ
كما زيّن صوبُ الغيـ ... ـثِ للروضِ أفانينَهْ(٣)
فجاءتْ وهْي من أطيـ ... ـبِ ما يؤكَلُ مشحونهْ
فمن جدْيٍ شويناهُ ... وعصّبْنا مصارينَهْ
ونضّدنا عليه نعـ ... ـنعَ البقلِ وطَرْخونَهْ(٤)
وفرخٍ وافر الزور ... أجدْنا لك تسمينهْ

(١) نبيل أبو حلتم: اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ٢٨٦.

(٢) كشاجم: ديوانه ٤٦٢. والجونة: سلّة مغشاة أدماً تكون مع العطارين.

(٣) وأفانينه جمع فنن: وهو الغصن.

(٤) طرْخونة: نبات يكبّس في اللبن ويؤكل -كلمة دخيلة.

وطـيهــوجٍ وفــرّوجٍ أجـدْنا لك تطـجينَـهْ(١)

وسنــبو ســجةٍ مـقلوْ وَةٍ فـي إثر طـرديـنَـهْ(٢)

وبــاذنجــانٍ بـوراني به نفـسُكَ مــفـتونَـهْ(٣)

وهِلْيــونٍ وعــهـدي بـ ـك تستـعذبُ هِليونَـهْ(٤)

ولوزينــجةٍ فــي الدُّهـ ـنِ والسُّـكّر مدفونَـهْ(٥)

ويتخذ كشاجم وصف هذه الأطعمة وسيلة لإظهار قدرته على الإتيان بالصور الطريفة المبتكرة، كما في الأبيات التالية التي جعل غايته فيها الإيتان بمقابل تصويريّ للطعام الذي يصفه، إذ يقول(٦):

ومن فراريــجٍ بماءِ الحصرمِ تصلحُ للمحمومِ أو للمحـتمي(٧)

قد شُوِيَتْ أكـبادُها ببيْــضِ فـهْي كمثلِ نرجـسٍ بروضِ

وجاءنا فيها ببيْـضٍ أحــمـرِ كأنه الـعقيقُ ما لم يُقْـشَرِ

حتى إذا قــدّمهُ مُقـشّــراً أبـرز مـن تحـتِ عقيقٍ دُرَرَا

حتى إذا ما قُطّعَ البيضُ فِلَقْ رأيــتَ منهُ ذهبـاً تحتَ ورقْ

---

(١) الطيهوج: ذكر السلكان والسلكان: فرخ القطا أو الحجل. وطجّنه: قلاه بالطّاجن، وطيجن: مقلى فارسي، انظر شهاب الدين الخفاجي: شفاء الغليل ١٧٥.

(٢) السنبوسك: ما يُحشى باللحم والجوز من رقاق العجين المعجون بالسّمن وهو عند المصريين ، انظر شهاب الدين الخفاجي: شفاء الغليل ٦٩، والطّردين: طعام للأكراد.

(٣) بورني: طعام يُنسب إلى بوران بنت الحسن بن سهل زوج المأمون.

(٤) هِليون: نبت معروف حارّ رطب.

(٥) لوزينجة: نوع من الحلوى يحشى باللوز أو الجوز، انظر: شهاب الدين الخفاجي: شفاء الغليل ١٨

(٦) كشاجم: ديوانه ٤٩٨.

(٧) المحموم: المصاب بالحمّى.

يخالُ أنّ الشطرَ منهُ مَنْ لَمَحْ   أعـارَهُ تلويـنَهُ قـوسَ قُزَحْ

ويمزج كشاجم بين وصف هذه الأطعمة ووصف مجالس الطعام، وما كان يتخللها من لهو وأحاديث ممتعة، كما في قوله(١):

عنـدي أخٌ لك مـاجـدٌ   مـن كلِّ فاحـشةٍ مُعرّى

وأوزّةٌ سَـكْـبَاجـةٌ   والجدي يؤكلُ بالجُفـرّى(٢)

ولنا طباهـجةٌ تفـو   حُ كأنها العـودُ المُطرّى(٣)

ومـدامـةٌ ورديّـة   مخبوءةٌ من عهد كسـرى

وتحيةٌ كجمـال وجـ   ـهك أو ككتبك حين تـقرا

وحديثنا مثل الـريّا   ضِ يمرُّ منظـوماً ونثرا

ووصف كشاجم أنواعاً متعددة من الأطعمة، فقد وصف دجاجة حمّاضيّة(٤) عملتْ باللّوز وصبٌّ عليها الورد، ووصف سمكة مشويّة(٥)، وجوذابة مكوّنة(٦) من الأرز والسكر والدهن، ووصف القطايف(٧) والخشكْنانج(٨)، وغير ذلك منْ ألوان الطعام، ويطول المقام لو ضربتِ الأمثلة الشعرية على ذلك، ثم إن هذه الأمثلة لا تضيف شيئاً على طبيعة الموضوع الشعري لدى كشاجم، فالغاية من هذه الأشعار

---

(١) كشاجم: ديوانه ١٩١.

(٢) سَكباجة: مكوّنة من سك بمعنى خل، وبا: بمعنى طعام، وهي مَرَق يُعمل من اللحم، فارسيّة معرّبة، انظر شهاب الدين الخفاجي: شفاء الغليل ١٨. والجُفَرّى: وعاء الطلع، لسان العرب «جفر».

(٣) طباهجةُ: اللحم المشرح بالإضافة إلى البيض والبصل.

(٤) كشاجم: ديوانه ١٤٥.

(٥) كشاجم: ديوانه ٢٦-٢٧.

(٦) كشاجم: ديوانه ٣٦٦-٣٦٧، والجوذابة: طعام من سكر وأرز ولحم.

(٧) كشاجم: ديوانه٦١-٦٢.

(٨) كشاجم: ديوانه٣٧١-٣٧٢، والخشكْنانج: دقيق السّميد مع اللوز والسكر يُعجن بماء الورد.

هي إظهار البراعة في الوصف، ومع هذا فإنها تدلُّ على شخصية الشاعر وذوقه من ناحية، والموائد المزيّنة التي كانت تُنصبُ في بيوت الكُبراء الذين كان يؤمّهم كشاجم من ناحية ثانية، ولا سيّما أنه كان طبّاخاً في بلاط الأمير سيف الدولة.

ووصف الواساني دعوة عملها في خمرايا من قرى دمشق، وما كان يشوبها من هزل، وقد شكا جموع الحاضرين، وما لحقه من أذى من جرّاء دعوته وهم من أصناف مختلفة، وذكر ليلة قدومهم، وما شملتْ عليه مائدته، يقول(١):

مَنْ لعينٍ تجودُ بالهَمَلانِ ... ولقلبٍ مُدَلَّهٍ حيْرانِ؟(٢)

يا خليليَّ أقصرا عنْ ملامي ... وارثيا لي من نكبتي وارحماني

ومتى ما ذكرتُ دعوة أبنا ... ءِ البغايا والعاهراتِ الزواني

ووصف جموعهم وكثرتهم، والأجناس المختلفة التي ينتمون إليها قائلا:

جَمّعوا لي جموعَ منْ جيلِ جيلا ... نَ وفرْغانةٍ ومن ديْلمَا

ومن الرومِ والصقالبِ والتُرْ ... كِ وبعضِ البُلغارِ واليونانِ

ومن الهندِ والأعاجمِ والبـر ... برِ والكيلجُوجِ والبلقانِ

لم يُحاشوا ممنْ عددْتُ من الآ ... فاقِ من مُسلمٍ ولا نصراني

والبوادي من الحجازِ إلى نجـ ... دٍ معدِّيها ومع القحطاني

كلُّ شكلٍ ما بين حُدْبٍ وحُولٍ ... وأصمٍّ والعُمي والعُورانِ

وشيوخٍ قُبِّ البطونِ وشُبَّا ... نٍ رحابِ الأشداقِ والمُصرانِ(٣)

وقد أطال في ذكر الجموع، ثم أشار إلى ليلة ورودهم، يقول:

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ٣:١١٤-١١٩.

(٢) المُدَلّه: المعذّب من العشق.

(٣) قُبّ البطون: ضامروها.

وَرَدوا ليـلةَ الخـميسِ علينا   فـي خميسٍ ملءِ الرُّبا والمغاني
مُتَوَالٍ كالسَّيلِ لا يلتـقي منـ   ـهُ لفـرْطِ انتشـارهِ الطرفانِ

ثم وصف مائدته وما عليها من ضروب الأطعمة الشهيّة، والأشربة اللذيذة، قائلاً:

أشرفوا بي على زرُوعٍ وأحـطَا   بٍ وبـيتٍ بخـيرهِ مـلآنِ
لبـنٍ قـارسٍ وخبـزٍ طـريٍّ   وقُدورٍ تغلي على الدّادِكانِ(١)
وشِواءٍ منَ الجِراءِ ومـعلُـو   فِ دجـاجٍ وفـائقِ الحُمْلانِ
وشرابٍ ألـذُّ مِن زَورةِ المـعـ   شُوقِ بَعدَ الصدودِ والهجرانِ
يُخجلُ الوردَ في الرَّوائحِ والطعـ   ـمِ ويَحـكي شقائقَ النُّعمانِ
أذكرتْنـي جيوشُهمْ يـومَ جاءُو   ني بيومِ الـكِلابِ والرَّحْـرَحانِ

وبدأ يصف كل واحدٍ من الجموع بأسلوب يشو به الهزل، يقول:

يقدُمُ القومَ أرحبيٌّ هَريتُ الشـ   ـدقِ رحْبُ المعى طويلُ اللسانِ(٢)
وهْو نمْسُ الدَّجاجِ والبطِّ والوز   زِ وذئـبُ النِّـعاجِ والخـرفانِ
بِسَوادٍ مِنْ عـظمهِ طـبَّق الأرْ   ضَ وخيلٍ يـهْوِيـنَ كالظُّـلْمانِ
وأبو القاسـمِ الكـبيرُ على طِرْ   فٍ كُمَـيتٍ أقَبُّ كالسـِّرْحـانِ
وأخوه الصّـغيرُ يعـرضُ الخيْـ   ـلَ على قـارحٍ عَريضِ اللبَانِ(٣)
وهُمَا يَهْـويَانِ بالسَّاقِ والرِّجْـ   ـلِ إلى ما يسـوءُني مُسْـرعانِ

ثم يصف الغلام الذي يقدّم الخمر، بقوله:

---

(١) الدّادكان: المواقد.

(٢) هريتُ: واسع.

(٣) اللبان من الفرس: ما جرى عليه اللّبَبُ.

وغلامٍ مهفْهفٍ حَسَنِ الوجْـ ـهِ يحـاكي جمالَهُ غُصْـنَ بَانِ

وأتوني بزامرٍ زمرُهُ يــضْـ ـحكِي ضُراطَ العبيدِ والرُّعيَانِ

ومغنٍّ غناؤهُ يُجشيءُ النفـ ـسَ ويأتي بالقيءِ والغَـثَيانِ

قصدَتْ هذهِ الطوائفُ خَمْرا يا ابتــلاءً ونكبــةً لامتــحاني

قلتُ ماشأنكُمْ فقالوا أغثْنَا ما طعِمْنَا الطّعامَ مُنْــذُ ثمــانِ

وأناخوا بنا فيا لك من يوْ مٍ عصيبٍ من حادثاتِ الزّمانِ(١)

وبعد ذلك وصف أصناف الأطعمة، يقول:

أكلوا لي من الجَــرادقِ ألفـيْـ ـنِ بدِبْــسٍ يسيلُ كالقَــطِـرانِ(٢)

أكلوا مـا حولــهـا ثمَّ مــالُوا كذِئابٍ إلى سمــيدِ الــفِــرانِ

أكلوا لي من الجِــداءِ ثلاثــيـ ـنَ وسبعاً بالخــلِّ والزّعــفَـرانِ

أكلوا ضعفـها شِــواءً وضِـعْفيْـ ـهَا طبيــخاً منْ ســائرِ الألــوانِ

أكلوا لي تَبالةً تَبِــلــتْ عَقــ ـلي بعشرٍ من الـدُّجاجِ سِمانِ(٣)

أكلوا لي كشكيَّةً كشكشتْ قــلـ ـبي وهــاجَتْ بفقْدها أشجَاني(٤)

أكــلوا لي مــنَ القريشــاءِ والبرْ نــيِّ والمَعــقليِّ والـصـّرفَــانِ

إلى أن يقول:

أكلــوا كُلَّ ما حــوتْهُ يميــنــي وشِمَــالي وما حَــوَى جيراني

لم يكن الواساني جدّيّاً بأسلوبه في حديثه عن دعوته هذه، وهذا الشاعر كما

---

(١) عصيب: شديد.

(٢) الجُرادق: الرّغفان، شفاء الغليل ٩٠.

(٣) تبالة: طعام مصنوع بالتّابل.

(٤) كشكيّة: ماء الشعير يُعجن باللبن.

نعلم بارع في فن الهجاء بالإضافة إلى فقرة المدقع، وميله إلى اللهو، وكان لهذه الأسباب دورٌ في إطالة قصيدته، وبراعته في الوصف، وأسلوبه السّاخر حينما تحدّث عن أنواع كثيرة من الطعام، ربما أنه سمع بها عن بعد ولم يَرَها أو يعرفها حقيقة، فالذي شكا الفقر، ولم يجد بيتاً يسكنه لا يمكنه من إقامة هذه الدعوة التي وصفها، كما أنه لم يكن من شعراء البلاط ليتسنّى له معرفة هذه الأصناف، فضلاً عن عنصر المبالغة الذي اهتمّ به شعراء العصر عامة، والأسلوبُ القصصي والنَّفَس الطويل لدى الواساني خاصة قد أعانه على إجادته في هذه القصيدة، فكانت بمثابة القصّة الفكاهية الخيالية، لها عناصرها ومحاورها الأساسية، وموضوعها الذي كرّس الشاعر جهده لإبرازه، وبالتالي النتيجة التي أرادها الواساني لوليمته هذه، أو لقصيدته، بأسلوب يشعر القارئ بأنه يعالج قضية من قضايا العصر، والتي شغلت بعض الشعراء، واهتموا بها، لا سيما شعراء البلاط.

هـ- العلاقات الاجتماعية (الإخوانيات)

اتخذ الشعراء الشاميون في القرن الرابع الهجري الشعر وسيلة للتراسل فيما بينهم، وقد عبّر هذا الشعر عن أحاسيس هذه الفئات ومشاعرها ونقل صورة صادقة عن العلاقات الاجتماعية بين الشعراء وغيرهم، وقد اختلفت صور هذا الشعر، فمنه ما هنأ فيه الشاعر فئة اجتماعية معيّنة، وعزّى آخرين وواساهم، ومنه ما صوّر المودة والمحبة بين طرفين، ومنه ما اشتمل على الاعتذار عن موقف ما حصل، ومنه استعطاف وجلب مودة.

وقد برز أبو فراس الحمداني في هذا الميدان، وكان قد شكا أقاربه، وعاتبهم على فراقهم وجفوتهم له، وأشار إلى غربته بينهم، ومعاداتهم له، إذ يقول(١):

أراني وقومي فرّقتنا مذاهبُ   وإنْ جمعتْنا في الأصولِ المناسبُ

فأقصاهمُ أقصاهمُ من مساءتي   وأقربهمْ ممّا كرهتُ الأقاربُ

غريبٌ وأهلي حيث ما كرّ ناظري   وحيدٌ وحولي من رجالي عصائبُ

نسيبُكَ مَنْ ناسبْتَ بالودّ قلبَه   وجارُكَ من صافيتَهُ لا المصاقبُ(٢)

وأعظمُ أعداءِ الرجالِ ثقاتُها   وأهونُ من عاديتَه مَنْ تحاربُ

وما الذنبُ إلاّ العجزُ يركبهُ الفتى   وما ذنبُهُ إنْ حاربتْهُ المطالبُ

ومن كان غير السيف كافلُ رزقهِ   فللذلِّ منهُ -لا محالة- جانبُ

ويعاتب الزمان، ويشكو منه، ويجعله سبباً في غدر أهله له، إذ يقول (٣):

ماليْ أعاتبُ؟ ماليْ؟ أين يذهبُ بيْ؟   قد صرّحَ الدهرُ لي بالمنعِ والياسِ

أبغي الوفاءَ بدهرٍ لا وفاءَ لهُ   كأنني جاهلٌ بالدّهرِ والناسِ

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٣٢.

(٢) المُصاقب: المواجه.

(٣) أبو فراس: ديوانه ١٠٦.

ويركّز كثيراً على وجوب الألفة بينه وبين قومه ، ويدعوهم إلى نبذ الفرقة، ووجوب التّحاب، وما أشد عداوة ذي القربى كما يقول، بل هي أمضى من وقع السيف، يقول(١):

أيا قومَنا لا تنشبوا الحربَ بيننا   أيا قومَنا لا تقطعوا اليدَ باليدِ
فيا ليت داني الرّحِمِ منّا ومنكمْ   إذا لم يقرّبْ بيننا لم يبعّدِ
عداوةُ ذي القربى أشدُّ مضاضةً   على المرءِ من وقعِ الحسامِ المهنّدِ

وراسل أبو فراس سيف الدولة، وشكا الزمان، وعتب عليه، ولامهُ، وهو صاحب قلب جريح من الجفوة، لكنه ومع جفاء ذوي القربى سيبقى الأصل واحداً، هو الأصل العربي الذي يحق له أن يفتخر به، يقول(٢):

زماني كلّه غضبٌ وعتْبُ   وأنت عليّ والأيامُ إلْبُ(٣)
وعيش العالمينَ لديك سهلٌ   وعيشي وحده بفناكَ صَعْبُ
فكيف وأنت دافعُ كلّ خطْبٍ   مع الخطب الملمّ عليّ خطْبُ(٤)

وقد جرتْ مساجلات شعرية بين الصنوْبري وكشاجم، تبادلا فيها العتاب، فهذا كشاجم يعاتب الصنوبري بقصيدةٍ استهلها بأبياتٍ صوّر فيها علاقة الصداقة المتينة التي كانت تربط بينهما، ونعته فيها بأنه أخٌ حميم، وصاحب وفيّ، يصدقُه النُّصح، ويمحضه خالص المشورة، يقول(٥):

أخٌ لي كنتُ أغْبَطُ باعتقادهْ   ولا أخشى التّنكُّرَ من ودادهْ
هلالٌ في إضاءتِهِ حيّاً في   سماحتِهِ شهابٌ في اتّقادهْ

---

(١) أبو فراس: ديوانه ٦٢.

(٢) أبو فراس: ديوانه٢١.

(٣) ألبُ: أي يحرّض.

(٤) خطب: أي حزن.

(٥) كشاجم: ديوانه ١٦٥.

أهاديه القوافي مُسْرعاتٍ إليه فليتَ أنّي لم أهادِهْ

وأقبسُهُ فيُوري من زنادي ويقبسني فأوري من زِنادِهْ(١)

وأعضدُهُ برأيٍ من سِدادي ويعضُدني برأيٍ من سَدادِهْ

وكان وكنتُ بالإخلاص منه بحيثُ يُرى (ابنُ صخر) من زيادِهْ(٢)

صلحْتُ لهُ فأدركه نبوٌّ فأظهرَه التنافسُ من فسادِهْ

وكان قيادُه بيدي ذليلاً فصعّبتِ الحوادثَ من قيادِهْ

ويشكو الشاعر برفق من تبدّل صديقه عليه، ونقضه لعُرى المودّة بينهما، وما سبّبه له ذلك من آلامٍ وأحزان عميقة، ومع ذلك فإنّه يعلن أنّه سيظلُّ وفيّاً له، مخلصاً لصداقته، باذلاً له نفسه وحياته، مفضّلاً إيّاه على أقاربه، وذوي رحمه:

فأصبح قد تبرأ من ودادي كما برئ المتيّمُ من فؤادِهْ

وعاندني ولم أعلم بأنّي سأنقلُ من هواه إلى عنادِهْ

ومالَ إلى البعادِ ولستُ أخشى حِمامَ الموت إلاّ في بعادِهْ(٣)

وكايدني ولم يُرَ قطُّ أحلى من المعشوقِ لُطفاً في كيادِهْ

جفا وأبان عن طرْفي لذيذَ الـ كرى وأزالَ خدّي عن وِسادِهْ

كأني قد عذلْتُ لهُ حبيباً فصارمَهُ وشرّد من رُقادِهْ

ولو سفكتْ يداه دمَ ابن عمّي أو ابني لم أتِرْه ولم أعادِهْ(٤)

ولو قتلي أراد قتلتُ نفسي له عمداً ليبلُغَ من مُرادِهْ

أواصلُ إن جفا وأغضُ إنْ ما هفا وألينُ في وقت احتدادِهْ

---

(١) الزّناد: العود الذي يُقتدح به النار.

(٢) ابن صخر: هو معاوية بن أبي سفيان، وزياد: هو زياد ابن أبيه، وقد أخلص زياد لمعاوية في ولائه وولايته، ومات سنة ٥٣هـ.

(٣) الحِمام: قضاء الموت وقدره.

(٤) وتره: أفزعه وأدركه بمكروه.

وينهي الشاعر قصيدته بالتوسّل إلى صديقه أن يعود إلى سابق عهده من الوفاء والمودّة، راجياً إيّاه أن يقبل اعتذاره، ويغفر له زلّته:

أبا بكرٍ لجدك حين تسمو بطارفهِ وتضحكُ عن تِلادهْ
أقِلْني إن عثرتُ وخذ بكفيْ أخيك وفكّ طرْفي من سُهَادهْ
فما كتبتْ يدي الأبياتَ حتى جرى قلمي بدمعي من مِدادهْ
وإن أكُ مذنباً وعفوتَ عنّي فإنّ الله يعفو عن عِبادهْ

وقد أعتب الصّنوبري كشاجم، ففرح بذلك فرحاً غامراً، وأثنى عليه بقصيدة بثّ فيها مشاعر الابتهاج بعودتهما إلى سابق عهدهما من الصّداقة، وصوّر سعادته بذلك، ورسم صوراً مختلفة عبّر من خلالها عن هذه السعادة قائلاً(١):

أخٌ قد عاد من بعد اجتنابهْ ففرّق بين قلبي واكتئابهْ
حباني بالعتاب وكان ظنّي به أن لا سبيلَ إلى عتابهْ
وخاطبني فخلْتُ بأن زهرَ الرُّ بى الموشّى يُجْنَى من خطابهْ
بلفظٍ لو بدا لحليفِ شيبٍ لفارقه وعادَ إلى شبابهْ
فقرّب بينَ أجفاني وغمْضي وباعَدَ بين دمعي وانسكابهْ
وردُّ البُرءَ في جسمٍ ثوى من سَقَامِ الصدِّ حين ثوى لما بهْ
أتاني أرْيُ منطقهِ فعفّى على ما ذقته من طعمِ صابِه(٢)
وكان ألذُّ عندي من رضابِ ال حبيبِ إذا قدرتُ على رضابهْ
خليلٌ كنتُ إن واريتُ شخصي رأتْ عيناك شخصي في ثيابهْ
حِمَامِيَ في تنائيه ولكن حياتي حين يقربُ في اقترابهْ

---

(١) كشاجم: ديوانه ١٦٩-١٧٠.

(٢) الأرْي: العسل، والصّاب: شجر مرّ.

ولم يكنِ العتابُ ممزوجاً بالاستعطاف دائماً ، بل يُمزج بالتهديد أحياناً، فالصنوبري يعاتب صديقاً له مهدداً إياه بأنه مال عن المودّة إلى القطيعة والخلاف، ومال به الجهل إلى ارتكاب الخلاف، ووصفهُ بالتعجرف عليه، وقد رفع نفسَه عن عتابه وجعلها فوق الآخرين، إذ لا يستحق غيرُه عتابَه، يقول(١):

نزعتَ عن المودّةِ والتصافي وملِت إلى القطيعة والخِلافِ
وأوطأك العشا ذو الجهل حتى لكاد يُحلُّ عقدَ الإئتلافِ
ثناني عن عتابك في أمورٍ حذارُ تعجْرفٍ بك أو تجافي
علامَ وفيمَ أُصفيْ الودَّ جهلاً أُناساً ودُّهم لي غيرُ صافي
وما ضرَّ البحارَ إذا علاها قذى زبدٍ على الحافاتِ طافي
ومَنْ قاسَ الرؤوسَ إلى الذُّنابى فقد قاسَ السيولَ إلى النُّطافِ
متى تكُ ذا انحرافٍ عن وصالي تجدْني عن وصالك ذا انحرافِ
ومَنْ هذا الذي يجفو خليلاً فلا يلقى الخليلَ له بجافِ

وفيما يبدو من شعر كشاجم، أن عتاب الصنوبري السّابق هو له، لأنه يردّ في عتابه بقسوة على من يعاتبه. فهو ممّن يُضيّع الصّنيع، ويسمع كلام الوشاة، فلا سبيل في ذلك إلاّ الهجران والقطيعة، يقول(٢):

إلى الله أشكو أخاً جافياً يُضيعُ فأحفظُ فيه الصنيعهْ(٣)
إذا ما الوشاةُ سعوا نحوه أصاخ إليهمْ بإذن سميعهْ(٤)
وتظهر لي منه في كلِّ يومٍ خلائقُ مستنكراتٌ فظيعهْ

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٣٨٣.
(٢) كشاجم: ديوانه ٣٢٧.
(٣) الصنيعة: الإحسان.
(٤) والوشاة: النّمام.

كــثرتُ علــيه فأملــلتُه   وكلُّ كــثيرٍ عــدوُّ الطــبيعهْ

وإنــي لأعــلــمُ أن المــلو   لَ ليس بمُرضيه إلا القطيعهْ(١)

ولكنْ نفسي إذا استُكرهتْ   على الهجر ليست له مستطيعهْ

ومرّةً أخرى يضجر الصنوبري في عتابه من الأصدقاء، ويشكو بيع الود منهم ويرى الصدق في ظاهرهم ، إذ يقول(٢):

كم من صديقٍ صادق الظّاهرِ   متّــفـقِ الأوّلِ والآخــرِ

أطمــعني في مثــلهِ مُطــمِعٌ   من خاطري لاكان من خاطــرِ

حتى إذا ما قلتُ فــازتْ يدي   بنيــلهِ فــوْزَ يدِ الظافرِ

وجدتُ بيــعَ الودِّ مــنهُ كما   راعَ من النفخِ على الزامرِ

ولذا كان هذا الشعر مرآة صادقة، عكست مشاعر الأصدقاء تجاه بعضهم، وأشارت إلى فئات الناس المختلفة.

ونجدُه حيناً يعاتب منْ لهُ صلةٌ بهم، ويجعلَ رضاهم من رضاه، وسخطهم من سخطه، وبهذا فهو يعاتبهم على جفائهم له، وانتقاص شرطه لديهم، وهو يقول مخاطباً أبا أيوب بن الجعد الكاتب (٣):

رضاكَ رضىً كلُّ الرِّضى عنده سُخْطُ   وسُخطك ما يعيا به القبضُ والبَسطُ

وما الحــلمُ إذ تحــويه إلا كمــركزٍ   أحــاط بــهِ من شــكْلِ دائرةٍ خطُّ

ألسْتَ أبا أيــوبَ أقــسط حاكــمٍ   إذا رُجِيَ الإقساطُ أوخُشي القِسْطُ

فــما ليَ أجْــفى ثــم أُلحى كأنني   لديك توالي الرُّسْلِ فانتقضَ الشرطُ

---

(١) القطيعة: الهجر.

(٢) الصّنوْبري: ديوانه ١٤.

(٣) الصّنوْبري: ديوانه ٢٩٣.

إلى أن يقول:

ولو لم يقُدْني السودُ نحوك قادني إليكَ الجنابُ اللدْنُ والجانبُ البسطُ(١)

ووجهٌ هو الشمسُ انفرى دونها الدُّجى وكــفٌّ هي البحرُ الذي مالهُ شطُّ

وأين بوجهي عنك لا أين لي بهِ ولي أملٌ في شِعْبِ جودك مُنْحطُّ

ويُؤكّدُ ذلك في غير ما قصيدة، فإذا بادله صديقه بالغضب أو الجفاء فإنه لم يرد عليه بالمثل، بل يعفو عن كل زلاته، ويجعله فوق نفسه، إذ يقول(٢):

وما تلك أبا بكرٍ وإن جاوزتِ القدرا

بأحلى منك في القلب ولاأبهى ولا أسرى

فإنْ أبدلْتني بالسَّهـ ـلِ من أخلاقك الوعرا

وعادَ الحلوُ من ودّ ك لي فيما مضى مُرّاً

إذا ما زدتُك الآن وفاءً زِدتني غَدْرا

فما تسمعُ لي قولاً ولا تقبلُ لي عُذْرا

كأني إذ أناجيك أناجي طللاً قفْرا

وكمْ لي من أخٍ إن جئـ ـتُ مشياً جاءني حُضْرا

وقد اتسمت ألفاظ الصنوبرُي في عتابه واستعطافه بالعذوبة والرِّقة، والتأكيد على الأخوّة الصادقة، والمحبة والتصافي بين الأصدقاء، والثناء عليهم، حتى في جفائهم وبُعدهم، يقول معاتباً ابن أبي ثمامة(٣):

---

(١) الجنابُ اللّدن: الطلق المنبسط

(٢) الصنوْبري: ديوانه ٦٠.

(٣) الصّنوْبري: ديوانه ٣٨١.

وجهُ عهدي على الذي كنتَ تعرِفْ   غيرُ ما منزوٍ ولا مُتَحرِّفْ
وهواي الذي طُبِعْتُ عليه   كالذي كان لا هوى مُتكلفْ
لم يُغيِّرْني التّنائي ولكنْ   نَ الليالي وصَرْفُها المتصرِّفْ
ولئن كان في كتابي تراخٍ   وتراخي الكتّابِ بالودِّ مُجحِفْ
فالتماسُ الجوابِ ضربٌ من التثـ   قيلِ عندي وعادتي أنْ أُخفِّفْ
يا أبا القاسمِ الذي ناظرُ الشو   قِ إليهِ مُحدِّدٌ ليس يَطرِفْ
يا شهابَ الكتّابِ أستشهد الخلـ   قَ على ما أقولُ فيك وأحلفْ

ومن استعطاف الأصدقاء، وإن أظهر الطرف الأخر الصدود ما قاله الشاعر المعروف بالوحيد، الذي تمنّى أن تعود أيام الصفاء والمودّة بينهما، يقول(١):

إنْ راعني منك الصدودُ   فلعلّ أيامي تعودُ
إذ لا تناولنا يد النـ   نَعماءِ إلاّ ما نريدُ
ولعلّ عهدك باللوى   يحيى فقد تحيى العهودُ
فالغصنُ ييبسُ تارةً   وتراه مخضراً يميدُ
إنـي لأرجو عطفةً   يبْكي لها الواشـي الحسودُ
فرحاً تقرُّ به العيو   نُ فينجلي عنها السهودُ

وقد حزن بعض الشعراء لفراق صديقه، ومرض لبعده عنه، فهذا الصنوبري،

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب ٤٢٧٣:٩، والشاعر الوحيد هو سعد بن محمد بن علي بن الحسن بن معبد، كان شاعراً مجيداً، قدم الشام واجتاز بحلب، ومدح بني حمدان وتوفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. انظر ابن العديم: بغية الطلب ٤٢٧٢:٩.

يذكر الأيام الجميلة التي قضاها معه، بقوله(١):

فراقي سيِّد الناسِ فراقٌ هاجَ وسْواسي
وبُعدي عنه أهدى لـ يَ سُقْماً مالهُ آسِ
وهَبْـهُ نسِيَ الوعدَ وما السيِّدُ بالناسِ

وقد ذكر أيام اللهو التي قضاها معه :

أينْسى أخذيَ الكاسَ على شوقٍ إلى كاسِ
وحثّي الصِّرفَ بالرَّطلِ وبالجامِ وبالطّاسِ
وشرْبي أولَ الكاسِ وسُكري آخرَ الناسِ
وفتْكي بالوصيفيِّ خليلي فتْكَ جسّاسِ

وصوّر الصنوبري الصديق بمنزلة الأخ والرفيق، وبأنه لا غنى له عنه، وهما جسمان بروح واحدة، يقول عن كشاجم(٢):

لي من (أبي بكرٍ) أخو ثقةٍ لم أستربْ بإخائهِ قطُّ(٣)
ما حالُ في قُربٍ ولا بُعدٍ سيّان منه القربُ والشحطُ(٤)
جسمانِ والروحانِ واحدةٌ كالنقطتينِ حواهما خطُّ
فإذا افتقرتُ فلي به جدةٌ وإذا اغتربْتُ فلي بهِ رهطُ(٥)

---

(١) الصّنوْبري: ديوانه ١٧٢.
(٢) كشاجم: ديوانه ٣١٥.
(٣) استراب: رأى منه ما يُريبه.
(٤) الشّحط: البعد .
(٥) الجِدةُ: الغنى.

كم نعمةٍ منهُ حلِيتُ بها   لا الشّنْفُ يبلُغها ولا القُرطُ(١)

ويدٌ له بيضاءُ ضاحيــةٌ   مــثل المــلاءةِ حاكها (القبطُ)(٢)

وذكر أبو فراس الحمداني علاقته بأبناء ورقاء الشيباني، وجعلهم ألذّ من الماء الصافي وأطيب من رائحة النسيم التي تهب على الرياض العطرة، وهما المختاران لديه في زمانه دون غيرهما، يقول(٣):

أتانــي عن بنـــي ورْقــاءَ قــولٌ   ألــذُّ جنــىً من المــاءِ القِراحِ(٤)

وأطيبُ من نسيمِ الروضِ هـفّتْ   بهِ اللـــذاتُ مــن روحٍ وراحِ

ولو أنــي اقــترحْتُ على زمـاني   لكنتمْ يا بنـي ورقاءَ اقتراحـي

وكما صوّر الشعر العلاقات الاجتماعية التي اتسمت بالود بين فئات المجتمع، فإنّه أبرز صورة أُخرى من صوره، وهي الاعتذار، فالصنوبري يعتذر لصديقه الذي تخلف عنه حينما دعاه وجعل سبيله في الاعتذار الحديث عن الماضي الجميل الذي قضاه معه في اللّهو إذ يقول(٥):

يا أسرعَ الناسِ في حثّي على الكاسِ   وأرغبَ الناسِ في قُربي وإيناسي

لو اطلعْتُ على ما في ضــميرِك منْ   شوقٍ لما هبتُ أنْ أسعى على راسي

حتّى أجاريك في ميــدانِ لهــوِك ما   أطــاقتِ اللهوَ في الميدانِ أفراسي

مــواصلاً قهــوةً يغــدو مُــواصِلُــها   ريّــانَ من طــمعٍ ضمآنَ من ياسِ

ووصف في اعتذاره لبدر غلام ابن كيغلغ، علو منزلته وعظم قدره، وبأنه ذخر

---

(١) الشنْف: القُرط الأعلى أو ما عُلّق في أعلى الأذن.

(٢) الملاءة: الرّيطة.

(٣) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٤٥، وبنو ورقاء هم قوم عبدالله الشيباني.

(٤) القِراح: الماء الصافي العذب.

(٥) الصّنوبري: ديوانه ١٧٩.

وسند لغيره، يقول(١):

يا مَنْ إليهِ تناهى الجاهُ والقَــدَرُ ... ومَنْ بهِ يتباهى البدوُ والحضَرُ
ومَنْ تعــاظــمَ قدْراً أن يطيــفَ بهِ ... من مدْحِ مادحهِ نَظمٌ ولا نَثْرُ
إني أطعْــتُك فيما لم أُطِــعْ أحداً ... فيه ولكنْ أبــاهُ مَنْ لــهُ الأمرُ
وقلتُ :ماليَ لا أُعطي قيــاديَ مَــنْ ... ما زالَ يغمرني إحسانُه الغمْرُ
ها إنْ بدراً أبا النجمِ المنيــرَ لنا ... لا النّجمُ يعْدِ لُهُ فينا ولا البدرُ
فاسمحْ بهذي فإني لا مُسامــحَ لي ... إمّا تَعذّرَ مِن تلــقائكَ العُــذْرُ
فأنت ذُخري في عُسري وميْسرتي ... وذخرُ مَنْ مالَهُ من دهــرِهِ ذُخْرُ

وتبادل أفراد المجتمع التهاني بالمناسبات الاجتماعية، كالأعياد، والتهنئة بقدوم مولودٍ جديد ، أو بحلول شهر رمضان أو حلول الأعياد، كعيد الفطر أو عيد الأضحى.

فقد هنّأ الصنوبري ابن مقاتل(٢) بشهر رمضان، مؤكداً على التزام ممدوحه بأداء الفرائض، إضافة إلى الصيام، ومدح صَنيعَهم، وحسنَ رياستهم، وشهرتهم بالقلم والسيف، يقول(٣):

بالسّعْدِ صُمْتَ وبالسعادةِ تُفطـرُ ... وعلى التّقى تطوي الصيامَ وتنشرُ
عُمّرْتَ مقبولَ الصيامِ مُجنّبَ ال ... آثــامِ ما دام الصــيامُ يُــعــمّرُ
وفَّيتَ هذا الشهرَ حقَّ صيامـــهِ ... وقيــامِهِ فـــي الأمــنِ ممّا تحذَرُ
وشفعْتَهُ بالحــجِّ ما حــجَّ الــورى ... أبداً يُلبِّــي مُــحْرِمٌ ويُــكــبِّرُ
ووردتَ زمــزمَ وِردَ أطــيبِ واردٍ ... طابــتْ مواردُهُ وطــابَ المصــدرُ

---

(١) الصنوبري: ديوانه ١٦.
(٢) ابن مقاتل: هو أحد رجالات ابن رائق الخَزري.
(٣) الصنوبري: ديوانه ٢٩.

وصَفَا المقامُ إلى مقــامِكَ عنـدهُ   واستشعرَ الإخباتَ فـيك المشْعرُ

وبقيتَ ما كان البـــقاءُ محــبباً   تُنْهى بسطْوتِك الخطوبُ وتؤمرُ

في نعمةٍ لم يَعْدُ حُسْـنَك حسنُها   زهراءَ تُشرقُ في القلوبِ وتزهرُ

وهنّأ الصوري أبا الفتح ابن مكّي بعيد الفطر، وأكد على عطائه المستمر، وجعل التهنئة بالعيد واجبة، إذ يقول(١):

وقالوا هناءُ العيدِ بالعيدِ واجبٌ   وأنت بصُقْـعٍ واحـدٍ ومحـمدُ

فقمتُ لهمْ بالعُذْرِ والحالُ بيــننا   تقومُ بتصديقي عليهِ وتشهدُ

عطاؤكَ أخفى العيدَ عني لأنني   بتجديدهِ في كلِّ يومٍ أُعيِّـدُ

وأكّد السَّرِيّ الرَّفّاء على نحره الأضحية في هذا العيد، وبالمقابل فتكه بالأعداء في هذا العام، حيث أخرج معنى جديداً، إذ خلط هذا البطل المسلم الشجاعة بالتقوى، يقول(٢):

فاسْعدْ بعيدك والقَ ما تهـوى به   وليلْقَ مَنْ عاداك خطباً مُوبِـقا

نحرٌ نحرْتَ البُدنَ فيهِ مُسَـدَّداً   وفتكْت بالأعـداءِ فيه مُـوَفَّقا

دميانِ ما تاق الـشّجاعُ إليـهما   إلاّ إذا خلط الشجاعةَ بالتُّقى

حمّلْتني نعماً شـرُفْتُ بحـملِها   فإذا نطقْتُ بها نطقْتُ مُصـدَّقا

ومزج الصنوبري في تهنئة أبي القاسم ابن سهل بالعيد -علي بن روح الكاتبِ- عيد الفطر بعيد الفرس، وقت الرّبيع وهو النيروز، وما يرافقه من شرب ولهو وخلاعة، يقول(٣):

---

(١) الصُّوري: ديوانه ١:١٢٨.

(٢) السَّرِيّ الرَّفاء: ديوانه ٢:٤٨٠.

(٣) الصنوْبري: ديوانه ٣٢٢.

حبّذا ما تصنعُ الأيّـ يامُ فينا من صنيعِ
جاءنا العيدانِ: عيدُ الـ فطر في عيد الربيعِ
عش منيعاً يا أبا القا سم في العزِّ المنيعِ
رافعاً ألويةَ المجـ دِ إلى الشأوِ الرفيعِ
خلعتْ أرسانَها اللذْ ذاتُ في دهرٍ خليعِ
وتزيّتْ بِدَعُ الأيـ امِ بالزيِّ البديعِ
فأطِعهنَّ يُطِعْكَ الـ عيشُ يا خيرَ مُطيعِ
أيُضيعُ اللّهوَ منْ ليـ س لحزمٍ بمُضيعِ
همُّه سُكرٌ بطيءٌ منْ يديْ ساقٍ سريعِ
شفعَتْهُ الراحُ في الأرْ واحِ منْ غيرِ شفيعِ
يا ابن سهلٍ دعوةٌ تُسْـ معُ ذا المجدِ السّميعِ
أنت في جمْعِ المعالي واحدٌ لا من جميعِ

ومن التهاني بمولود جديد، ما هنأ به الصنوْبري أبا عبدالله السّكري، إذ جعل المولود كالهلال الطالع، وهو صاحب النسب الأصيل، طالباً أن يعيش بعزِّه، يقول(١):

هُنِّيتَهُ في سَعَةِ العُمْرِ أغرَّ معْزواً إلى الغُرِّ
هلالَ مجدٍ عن قليلٍ يُرى في أفقِهِ كالقمرِ البدرِ
مُنتظراً فيه الذي لم يَزَلْ مُنتظراً فيكَ من الفخْرِ
وبالغاً في صِغَرِ السنِّ ما بلَّغهُ في كِبَرِ القدْرِ

(١) الصّنوبريْ: ديوانه ١٢.

أعطيتَ إذ أعطيتَهُ نعمةً تضيقُ عنها سَعَةُ الشكرِ

مُقابلٌ بين السَّدَى والنَّدى مُرَشَّحٌ للجاه والذكرِ(١)

في موضعِ النورِ من العينِ أو في موضعِ القلبِ من الصدرِ

شريكُ إسماعيلكُمْ في اسمهِ والنَّجْرُ مُشتقٌ من النَّجرِ(٢)

فالبسْ أبا عبدالإله العلى مُؤيَّداً بالعزِّ والنَّصرِ

واستقبلِ اللهَ بهِ آمِناً فيكَ وفيهِ نُوبَ الدَّهرِ

وهنّأ الصنوبري أبا العباس السَّبيعي بمولود، حيث جعل قدوم المولود الجديد بغرّة سحاب كوالده الذي تفخر به قحطان، وعلامة النجابة فيه ظاهرة، إذ يقول(٣):

سحابُ مجدٍ تجلّى عن سنا قمرِهْ وفرعُ عزٍّ بدا الموموقُ من ثمرِهْ(٤)

يا ليلةً ظلَّ فيها الجودُ مبتهجاً بطلعةِ الغُرَّةِ الغرّاءِ من غُرَرِهْ

تبهى سبيعٌ بمولودٍ يتيهُ به مَنْ كان من بدوِ قحطانَ ومن مُضرِهْ

علامةُ اليُمنِ فيهِ غيرُ مُشكلةٍ كالغيثِ منظرُه يُنْبيكَ عن خَبرِهْ

لو قُدَّ من بعضِ أعضاءِ النّدى بشرٌ لقُدَّ من سمعه أو قُدَّ من بصرِهْ

قررْتَ عيناً أبا العباسِ وابتسمتْ عن عُمرِكَ النعمةُ الطّولى وعن عُمُرِهْ

وسالمتْكَ خطوبُ الدَّهْرِ فيهِ ولا أُجيفَ دونك بابُ الأمنِ من غِيَرِهْ(٥)

حتى تُريكَ الليالي وجْهَ بهجتهِ في صورةِ الكَرَمِ الحسناءِ من صُوَرِهْ

---

(١) السَّدى: الشّهد يُهديه النحل.

(٢) النَّجر: كريم الأصل.

(٣) الصنوْبري: ديوانه ١١، والسَّبيعيون: هم أسرة حلبية.

(٤) والموموق: المحبوب.

(٥) من غيره، من: سببيّة، والغِيَر: تقلّبات الدّهر.

الفصل الثاني

مظاهر الحياة الجادّة

أ- الفتن والثورات

ب- الشعر في خدمة المذهب

ج- النقد السياسي والاجتماعي

د- الزهد

أ- الفتن والثورات

شهدت بلاد الشام في القرن الرابع الهجري اضطراباً في الحياة السياسية، شمل ثورات القبائل العربية على سيف الدولة والفتن المتعلقة بالقرامطة.

وقد انبرى الشعراء للحديث عن هذه الثورات، وأسبابها، وموقف سيف الدولة منها. وأولُ ما يطالعنا من هذه الثورات خروج بني ضبّة سنة ٣٢١هـ، بقيادة عمرو بن حابس على سيف الدولة، وتمكّنه من إلحاق الهزيمة بهم(١)، فقال أبو الطيّب المتنبي - دون أن يلقى سيف الدولة - يذكر هذه الهزيمة في قصيدة مطلعها:(٢)

ذِكَرُ الصِّبا ومرابعُ الآرامِ   جلبتْ حِمامي قبلَ وقتِ حِمامي(٣)

وأفاض في أول قصيدته بمدح سيف الدولة والثناء عليه، وذكر أيام الصّبا التي مضتْ، حتى إذا ما بلغ قمّة الفخر بسيف الدولة وشجاعته ينطلق للحديث عن فعله ببني ضبّة، وعمرو بن حابس، وغزوهم في عُقر دارهم، وكثرة منْ قتل منهم.وواضح من تصوير الشاعر أنه يحمل على هؤلاء الخارجين، فيصفهم بالجهل لأنهم عصوا الأمير، غير أن أبا الطيّب أبدى تعاطفاً خفيّاً مع هؤلاء العرب، لا لأنّه يؤيدهم في خروجهم، وإنّما لأنهم عرب ليس غير، لذا فقد استهلّ هذه الأبيات بكلمة (مهلاً)، ليحدّ من غلواء سيف الدولة واندفاعه، كما وصف الأسنّة بأنها كانت جائرة في أحكامها عليهم، إذ يقول:

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح اليازجي ٤٥٢:١، وانظر طه حسين: من تاريخ الأدب العربي -العصر العباسي الثاني- ٢٠٥:٣.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٦:٤.

(٣) ذِكَر: جمع ذكرى، والصِّبَا: اللهو والتصابي، ومرابع: منزل القوم في الربيع، والآرام: جمع رئم، وفيها قلب مكاني وهو الظبي الخالص البياض، والحِمام: الموت.

مهلاً ألا للّـه ما صـنعَ القَنا   في عمْرو حابِ وضبّةَ الأغتـام(١)

لما تحكـمتِ الأسـنّةُ فيهمُ   جارَتْ وهُنَّ يَجُرْنَ في الأحكـام

فتركتـهمْ خَلَل البـُيُوتِ كأنمّا   غَضبتْ رؤُوسُهمُ على الأجسام(٢)

أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ من دمٍ   ونجومُ بيْضٍ في سمـاءِ قَتَام(٣)

وذِراعُ كلِّ أبـي فـلانٍ كُنْيةً   حـالت فَصاحِبُها أبو الأيتـام

عَهدي بمعـركةِ الأميـرِ وخيلُهُ   في النّقعِ محجمةً عن الإحجام(٤)

وفي سنة ٣٤٣هـ شغب بنو كلاب على سيف الدولة بنواحي بالس ، فسار الأمير خلفهم، وأبو الطيب المتنبي معه، فأدركهم بعد ليلة ، وأوقع بهم ، وملك حريمهم ، فأبقى عليه(٥)، فقال أبو الطيّب بعد رجوعه قصيدة ، أنشدها إيّاه في جمادى سنة ٣٤٣هـ مطلعها:(٦)

بغيركَ راعياً عبِثَ الذّئابُ   وغيرُك صارماً ثَلَمَ الضِّرابُ(٧)

وواضح أن الشاعر يؤكد في أول قصيدته أحقية ملك سيف الدولة للعرب، ويجعله سيداً لهم ، مسؤولاً عنهم، ويتّهم هؤلاء الثائرين بأنهم ذئاب ، وبأن سيف الدولة صارم قوي لا يهاب من أراد أن يعبث بإمارته ، فكيف لكلاب تحاول الخروج

---

(١) عمرو حاب: أي عمرو بن حابس، وحُذفت السين ترخيماً، وضبّة: اسم قبيلة، الأغتام: جمع غُتْم : وهو الذي في منطقه عجمة.

(٢) الخُلل: الفرجة ما بين الشيئين.

(٣) بيْض: جمع بيضة وهي الخوذة، القتام: الغبار.

(٤) النقع: الغبار، والإحجام: التأخر

(٥) انظر درويش النخيلي: فتح الفاطميين الشام في مرحلته الأولى من ٣٥٨-٣٦٢هـ ٧٩. فيصل السّامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ٤٨:٢.

(٦) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٧٥:١.

(٧) عبث: ابتذل واستباح حُرمته.

عليه، وإظهار عصيانه ، إذ يقول :

وتملكُ أنفُسَ الثقلينِ طُرّاً فكيف تحوزُ أنفسَها كِلابُ (١)

ولكنه يتعاطف معهم، ويبيِّن أنهم لم يهربوا من الأمير حين طلبهم معصيةً له، وخروجاً عن طاعته وسلطانه، ولكنهم خافوا الموت ونجوا حرصاً على سلامتهم ، ومن بطش سيف الدولة، حيث يقول :

وما تركوكَ معْصيةً ولكنْ يعافُ الوِرْدُ والموْتُ الشّرابُ(٢)

ويصور الشاعر جدّ سيف الدولة في قتالهم ، وتتبّعهم على أمواه البادية، فلم يَنمْ والأخطار تحيط به، وتظهر النزعة العربية في نفس المتنبي، حين يتحدّث عن الأمير، وقد امتطى صهوة الخيول العربية الأصيلة في طلب القبائل ، قائلاً :

طلبْتَهُمُ على الأمواه حتّى تخوّفَ أنْ تفتِّشهُ السّحابُ

فبتَّ لياليَاً لا نوْمَ فيها تخُبُّ بكَ المُسوّمةُ العِرابُ (٣)

ويصف المتنبي ملاحقة جيش سيف الدولة لهم ، فهذا جيشه الكثير المضطرب، الذي أراد الانقضاض على الثائرين، يتبدّى وكأنه عُقاب حرّك جناحيه يبغي الطيران، وأخذ الأمير يغذُّ السير ليلحق بالثائرين، ويتتبع آثارهم في الفلوات، ويجعل تتبّعه لهم بمنزلة السؤال عنهم ، وإدراكه لهم بمنزلة الجواب على سؤاله، قائلاً :

يهزُّ الجيشُ حوْلكَ جانبيْهِ كما نفضتْ جناحيها العُقابُ

وتَسألُ عنهُمُ الفَلواتِ حتّى أجابَكَ بعضُها وهُمُ الجوابُ (٤)

---

(١) طُرّاً: جميعاً.

(٢) يُعاف: يكره ويتجنّب، الورْد: إتيان الماء.

(٣) تخِبُّ: من خبَّ الفرس: أي عدا فراوح بين يديه ورجليه، والمسوّمة: المعلّمة، العُراب: العربية.

(٤) الفلوات: القفار

ويتبدّى في الأبيات التالية حرص المتنبي على القبائل العربية من ناحية، والإشادة بقوة سيف الدولة من ناحية أُخرى ، فيوازن بين المعاني التي تصوّر ذلك موازنة دقيقة فهو قد رعى صلة القرابة بينه وبين أبناء عمومته من القبائل الثائرة، فهم عشيرته، وأصحابه، وكلهم ينتهون إلى نسب واحد، يلتقون فيه إلى معدّ، ثم أن قتال الأمير لهم لم يكن كقتاله لعدوّه من غير العرب ، إذ استهلّ أحد أبياته بقوله (تكفكف عنهم صُمُّ العوالي) وكأنه وهو يقاتلهم يحرص عليهم ، ويخاف من إبادتهم، ولا سيّما أنهم لم يقاتلوه، وإنما انهزموا أمامه، وتفرّقتْ أظعانهم بالشّعاب، فقتاله لهم هو للتأديب وليس للانتقام، فهو يتأسّى لما أصابهم حينما رآهم يفرّون من وجهه ، يقول :

فقاتَلَ عن حريمِهِمُ وفرُّوا ... نَدَى كفّيكَ والنَّسَبُ القُرابُ

وحِفظُكَ فيهِمُ سَلَفَيْ مَعَدٍّ ... وأنهُمُ العشائرُ والصِّحابُ(١)

تُكفكِفُ عَنهمُ صُمُّ العوالي ... وقد شَرِقتْ بظُعْنهمُ الشِّعابُ(٢)

ويصف المتنبي نتائج لقاء سيف الدولة مع القبائل العربية ، وما أصابها من الخوف والجهد دون قتال حينما هربت، فقد أسقطتِ النساء أجنَّتَها في براذع الإبل، وألقت الإبل حملها قبل وقته ، وتشتّت شمل هذه القبائل الثائرة ، فعمرو تفرّقت فرقاً شتّى ، وكذلك كعب، وخذل القوم بعضهم بعضاً،وكلٌّ منهم آثر النّجاةَ بنفسه.

والمتنبي الذي يركّز على فرار هذه القبائل ، وما آلت إليه يحرص على عدم الانتقاص من شأنها ، فهذه القبائل وإنْ آثرتْ الفرار من وجه الأمير، فلأنها قدّرت قوّته ، ونجتْ بأرواحها خوفاً من القتل، كما أن أبا الطيّب يعلي من شأن

---

(١) يقصد بالسلفين: ربيعة ومُضر أبناء نزار بن معدّ بن عدنان، وسيف الدولة ينتهي إلى ربيعة لأنه من تغلب، وبنو كلاب ينتهون إلى مضر لأنهم من قيس.

(٢) تكفكف: أي تكفُّ مرّة بعد أخرى، والصمّ: الصِّلاب، العوالي: صدور الرِّماح، شرقتْ أي غصّتْ، الظعن: النساء في الهوادج، الشّعاب: الطريق في الجبل.

سيف الدولة حينما يتحدث عن نساء القوم، وقد عُدْنَ معزّزات في ظل الأمير، كما كُنّ قبل السّبي ، ترتدي الحُلي وتتطيّب بالطّيب، وأخذت هذه النساء تشكر الأمير، لحسن معاملته إياهنّ، فهنّ من أهله وعشيرته وهذا من واجبه كما يقول :

وأُسقِطتِ الأجنّةُ في الوَلايا وأُجهضتِ الحوائلُ والسِّقابُ(١)

وعمْروٌ في مَيامنِهمْ عُمُورٌ وكعْبٌ في مَيَاسِرِهمْ كِعابُ(٢)

وقد خَذلَتْ أبو بكرٍ بنيها وخاذلها قُريظٌ والضِّبابُ

إذا ما سِرْتَ في آثارِ قومٍ تخاذلَتِ الجماجمُ والرِّقابُ

فعُدْنَ كما أُخذْنَ مُكرَّماتٍ عليهنّ القلائدُ والمَلابُ(٣)

يُثبْنَكَ بالذي أوليتَ شُكْراً وأينَ من الذي تُولي الثّوابُ(٤)

وليس مصيرُهُنّ إليك شيناً ولا في صونِهنّ لديكَ عابُ (٥)

ولا في فقدِهِنّ بني كلابٍ إذا أبصرْنَ غُرّتكَ اغترابُ(٦)

ويحرص المتنبي على القبائل العربية، عندما يطلب من الأمير عدم القسوة عليهم، لأنّ ما يؤلمهم يؤلمه، لذا يلتمس منه أن يترفّق بهم، مع أنّه عارفٌ بأنّهم مخطئون، ولكنهم ليس أول من أخطأوا، كما أنّهم أخطأوا وتابوا، ثم يقرّرُ أنّ سيف الدولة هو المولى، والقبائل الثائرة هم عبيدٌ له ، وجُنَاةٌ بلا شك ، والعبدُ يخضعُ لمولاه، ويجيبه بما يأمره به ولا يعصيه، كما أنّ سيف الدولة لهم بمنزلة الحياة، فإذا ما عاقبهم وغضب عليهم عدموا هذه الحياة . والمتنبي متعاطف مع

---

(١) الوَلايا: جمع ولية وهي البرذعة، الحوائل: إناث الإبل.

(٢) عمروٌ : هم قبيلة عَمْرو: أي صاروا فرقاً شتّى، وكذلك كعاب.

(٣) الملاب: الطّيب.

(٤) أوليت شكراً: بمعنى أنعمت.

(٥) الشيْن: العيب

(٦) غُرّتك: أي وجهك.

القبائل العربية وواقف لجانبها ، ومدافع عنها، ولا يريد أن ينفّر الأمير منها، بل أكّد ضرورة المقاربة بين الطرفين، والتمس العذر تلو الآخر، ليبقي الصفاءَ والمودّةَ بينهما، فهم لم يجهلوا فضل سيف الدولة عليهم ، ومع ذلك ثاروا عليه ، وربّما أنّ ذنبهم هذا مقرون بتدليل سيف الدولة إيّاهم، وكأنّه يحذّرُ سيف الدولة من اتخاذ العقوبة القاسية بشأن القبائل ، والعمل على إبعادها عنه ، كما يقول :

وكيف يتِمُّ بأسُكَ في أناسٍ ... تُصيبُهُمُ فيؤلمُكَ المُصابُ

ترفّقْ أيها المولى عليهمْ ... فإنَّ الرِّفقَ بالجاني عِتابُ

وإنّهُمُ عبيدُكَ حيثُ كانوا ... إذا تدعو لحادثةٍ أجابُوا

وعينُ المُخطئينَ هُمُ وليسُوا ... بأوّلِ معشرٍ خَطِئوا فَتابُوا

وأنتَ حياتُهُمْ غَضِبتْ عليهمْ ... وهَجْرُ حياتِهِمْ لَهُمُ عِقابُ

وما جَهِلَتْ أياديكَ البوادي ... ولكنْ رُبَّما خَفِيَ الصّوابُ(١)

وكم ذنبٍ مُوَلِّدُهُ دلالٌ ... وكم بُعدٍ مُوَلِّدُهُ اقترابُ

ولا يزال أبو الطّيب يستعطف الأمير عليهم، بأسلوبٍ يثير شفقته ، ويجعله حليماً بهم، قائلاً: إنهم مجرمون حقّاً ولكن الجُرم الذي وقع هو من أيدي سُفهاء القوم، وليس من القبائل كلّها ، فكيف تُنزلُ عقوبةً بمن لم يرتكبْها؟ أو كيف تُعاقب العامة منهم بذنبٍ ارتكبه القلّة السُّفهاء؟ ولا ينسى حاجة الأمير إلى المدح والثناء على قوته ، ليرفع من شأنه، وحاجته إلى الحلم ، ليعفو عنهم، إذ يقول:

وجُرْمٍ جرَّهُ سُفَهاءُ قَومٍ ... وحلَّ بغيرِ جارمِهِ العذابُ(٢)

فإن هابوا بجُرْمِهِمُ علياً ... فقد يَرجُو علِيّاً مَن يَهابُ

ويرفع المتنبي من شأن سيّف الدولة ثانيةً ، ويجعله مُفْضِلاً عليهم، فقد

---

(١) أياديك: أي نعمك، البوادي: أي أهل البادية.

(٢) الجُرْم: الذنب.

أدناهم، وألبسهم ثياب نعمته، ونشأوا في ثرائه ، واطمأنوا وطابتْ أنفسُهُم ، وكثُر عددُهم ، فكان لهم بمنزلة السّحاب للنبات، كما اجتمعا معاً لقتال عدوّهم ، وذلّلوا كل من أراد التعدّي عليهم، فلا بُدّ من صونهم والحفاظ عليهم، والعفو عنهم إذا ما أذنبوا ، فهو إذن يستعطفه عليهم ، وفي الوقت نفسه يذكّرهم بنعمته عليهم لكي لا يطغوا مرّة أخرى ، يقول في ذلك :

وإنْ يكُ سيفَ دولةِ غيرِ قيسٍ فمنــهُ جُلودُ قيسٍ والثيابُ

وتحـت رَبـابــهِ نبتوا وأثُّــوا وفي أيامهِ كَثروا وطابُوا(١)

وتحت لوائهِ ضَرَبوا الأعــادي وذَلَّ لهمْ من العَـرَبِ الصِّعابُ

ويعيد المتنبي لهم كرامتهم - وإن لم يسلبْهم إياها سابقاً ، أو يُهوِّن من شأنهم - إذ يشير إلى قوّتهم وعزّتهم ، فلو غزاها غير سيف الدولة لما ظفر بها، ولاقى قبل وصوله إيّاها حرباً يكثُر فيها القتلى، وأبطالاً يقودون خيلاً قويّة اعتادت قطع المفاوز، وخوض المعارك ، ويرى أن في خضوعها واستسلامها له، ليس عيبٌ لأنه يبقى ابنَ عمِّهم وسيّدهم، وهو حريص حين يُعلِّل استسلام هذه القبائل وخضوعها له ، وطلب العفو منه، وذلك بأنه لو قابلها غيره لوجد فيهم الخصم القوي، ووجد لديهم كلّ أسباب القوة، والبأس والعزّة والمنعة، إذ يقول:

ولو غيرُ الأمــيرِ غــزا كلاباً ثناهُ عن شمُوسِهِمُ ضَبابُ(٢)

ولاقى دونَ ثايــهُمُ طعــاناً يُلاقي عندهُ الذئبَ الغُرابُ(٣)

وخيلاً تَغتــدي ريحَ المَوامي ويكفيها منَ الماءِ السَّرابُ(٤)

---

(١) الرّباب: السّحاب، وأثّ: كثُر والتفّ.

(٢) الشموس: كناية عن النساء، والضباب: كناية عن غبار الحرب.

(٣) الثاي: مأوى الإبل والغنم.

(٤) الموامي: جمع موماه وهي الفلاة.

ويعود المتنبي ليُعلي من شأن سيف الدولة ولا سيّما أنه تحدّث عن قوة القبائل وعزّتها، فالذي أُسري لهذه القبائل هو سيف الدولة ، فلم ينفعهم شيء من بأسه وقوته، إذ لم يستطيعوا الوقوف للدفاع عن أنفسهم، ولا الذّهاب للهرب، لأنّه يدركهم، ولم ينفعْهم ليلٌ يستترون به ، ولا نهارٌ يقاتلون فيه ، ولا خيلٌ أو إبلٌ تحملهم للهرب ، وأضاف الأميرُ إلى قوّتِهِ وكثرةِ جيشه، أسلحتَه المختلفة، فبدوا كأنّهم بحرٌ قد مدّ عُبَابه وراءهم:

ولكنْ ربُّهُـــمْ أســـرى إليهمْ فما نفَعَ الوُقوفُ ولا الذّهابُ(١)

ولا لـــيلٌ أجـــنٌ ولا نَـــهارٌ ولا خَـيلٌ حمـلْنَ ولا رِكابُ (٢)

رَميتَـــهمُ ببــحْرٍ من حـديدٍ لــه في البـرِّ خلـفهُمُ عُبابُ

ولذا فقد تركوا منازلهم وهربوا وكانوا أعزّاء مترفين ، وأصبحوا مسلوبيّ النّعم، وجبنوا وذلّوا أمام قوته، فأصبح من يملك السلاح منهم كمن لا يملكهُ، وخذلوا بعضهم بعضاً ، يقول :

فَمسَّاهمْ وبُسْـطُهُمُ حريرٌ وصــبّحهُمْ وبُسْـطُـهمْ تُرابُ

ومن في كفّهِ مِنـــهمْ قناةٌ كَمن في كفّهِ منهمْ خِضابُ(٣)

لقد كانت هذه القبائل هم أبناءُ القبائل التي حاربها والد سيف الدولة أبو الهيجاء وقتل منهم جماعة ، وعفا عن بعضهم، وأعتقهم ، فعاش هؤلاء عُتَقَاء سيفه، وهاهم يثورون الآن ، فالمتنبي يشير إلى أنّ هذه القبائل تعوّدت الثورة والتمرّد على سلطانها ، وتعوّد مواليهم العفو عنهم ، فهم تشبّهوا بآبائهم في المعصية ، وتشبّه سيفُ الدولة بأبيه في العفو ، فهم لم يعتبروا بآبائهم ، وما آلوا إليه،

---

(١) أسرى: سار ليلاً.

(٢) أجَنّ: ستر، الركّاب: الإبل.

(٣) القناة: عود الرمح.

وفعله هو عجيبٌ ، لأنّه عفا عنهم بعد تكرارهم المعصية ، إذ يقول :

بنو قتْلى أبيكَ بأرضِ نجدٍ ... ومن أبقى وأبقَتْهُ الحِرابُ

عَفَا عنهمْ وأعتقهُمْ صِغاراً ... وفي أعناقِ أكثرِهِمْ سِخابُ(١)

وكُلُّكُمُ أتى مأتى أبيهِ ... وكلُّ فِعالِ كُلِّكُمُ عُجابُ(٢)

وختم أبو الطّيب قصيدته بالثناء على سيف الدولة وأفعاله ، وموقفه من عدوّه ، قائلاً :

كذا فليسْرِ مَنْ طَلَبَ الأعادي ... ومِثلَ سُراكَ فليكنِ الطِّلابُ

وكانت نهايتُها كأوّلها في الحديث عن جُرْم القبائل، وثورتها على السّادة أو الأولياء ، ففي أوّلها اتّهمهم بأنّهم ذئاب ، وبأن الأمير لا يهاب من يريد الإيقاع بإمارته، وفي نهايتها تحدّث عن ثوراتها السابقة زمن والده أبي الهيجاء ، وعفوه عنهم.وكأنّنا به يُريد أن يؤكد لسيف الدولة بصورة أو بأخرى، أن يكون حليماً على هذه القبائل ولا يؤاخذها بذنوبها، بل يكون القدوة الحسنة لغيره، فهو إذا ما أراد الإيقاع بها، فعليه أن يتّخذ العبرة من والده الذي عفا عنها ، وسامحها رغم جُرْمها، وفي الوقت نفسه لم يكن مُتواطئاً بحال من الأحوال مع هذه القبائل .

وفي سنة ٣٤٤هـ ، ثار على سيف الدولة بعض القبائل المتحالفة من بني كلاب، وهي عَقيل وقُشيْر والعجْلان وكعْب، وعقدت مؤتمراً في سلمْية قرب حمص، معبّرة عن سخطها على سيف الدولة، وقرّرت إحداث الاضطراب، والفتن في كل صقْع من إمارته ، وقد انحاز بعض جنوده من كعب إلى المتمرّدين، فأغاروا على أعماله، وقتلوا بعض عمّاله، فخرج سيف الدولة في صَفَر من حلب إليهم،

---

(١) السِّخاب: قلادة يلبسها الصِّبيان.

(٢) عُجاب: بمعنى عجيب.

واستسلمتْ له بنو كلاب في الطريق، واشتبك مع الأعراب في حرب عنيفة، فهزمهم وطاردهم حتى تدمر، ثم أوغلوا فارّين أمامه في باديةِ السّماوة، فتعقّبهم حتى استأصل شأفتهم، وجاءتْهُ وفودهُم لطلب العفو(١) ، ولم يحضر المتنبي هذه الوقعة، فشرحها له الأمير ، وسجّلها شعراً ، بقصيدة مطلعها(٢):

طوالُ قناً تُطاعِنُها قِصارُ ... وقطرك في ندىً ووَغىً بحارُ

والقصيدة مدحٌ عام لسيف الدولة، وإشادة بقوّته من جانب ، وجوده من جانب آخر، وقد بدأها بالإعلاء من شأن الأمير ، واستعطافه على هؤلاء الثائرين الجُناة، فهو لا يؤاخذهم بما جنتْه أنفسهم ، ولكنه حليم عليهم، لا لفضلهم، ولكن ترفّعاً عن هؤلاء القوم ، إذ يقول:

وفيكَ إذا جَنَى الجاني أناةٌ ... تُظَنُّ كرامةً وَهْيَ احتِقارُ

لم يكن حلم الأمير ليطغى على قوّته، بل إنّه أضاف إلى هذه الأناة القوة والحزْم في ضبط أهل الحواضر والبوادي التي لم تتعوّد ولم تألف السيطرة أو الضبط ، وكانت قبل ذلك تنكر السيطرة إنكار الوحش للإنس، وجعلها كالدّابة صعبة الانقياد، حتى إذا ما أُجْبرت على الانقياد فإن هذا المقْود قرّح ذِفْرَيَيْها، فأبو الطيب المتنبي كما هو واضح متعاطف مع القبائل العربية من طرف خفي ومادح لها تلميحاً لا تصريحاً ، وذلك حينما استهلّ بعض أبياته بمثل قوله : (تَشَمَّمُهُ شميمَ الوحش إنساً) وقوله (فقرّحتِ المقاوِدُ ذِفْرَيَيْها)، فهو ينفي أن يكون العرب قد انقادوا وخضعوا لغيرهم، واستذلّوا لحاكم ما، سواء أكان هذا الخضوع طوعاً أو كُرهاً، فإنّ مَنْ حاول إكراههم على ذلك فستكون النتائج سلبية، ومع كل ذلك، فإنّها خضعت لسيف الدولة، يقول:

---

(١) انظر كانار: نخب تاريخية وأدبية ٢٢٥-٢٣٣، فيصل السّامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ٢:٤٨-٤٩.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٢:١٠٠.

وأخْذٌ للـحواضِرِ والبـوادي بُضبطٍ لم تُعَوَّدْهُ نِـزارُ
تَشَمَّمُهُ شَمـيمَ الوحشِ إنساً وتُنكِرُهُ فيـعروهـا نِفارُ
وما انقادتْ لغيرِكَ في زمانٍ فتدري ما المَقَادةُ والصَّغارُ(١)
فَقَرّحَتِ المَقَاوِدُ ذِفْرِيَيْها وصَعَّرَ خدَّها هذا العذارُ(٢)

ويتحدّث المتنبي عن أسباب قيام هذه القبائل بالثورة، وهي حلم الأمير، وإبقاؤه عليها، ثم أنها اجتمعت وتشاورت على عصيانه، والقيام بالثورة ضدّه، ولم ينسَ المتنبي الإشارة إلى عُدّة القبائل وعددهم، إذ وصفهم بالقوة والكثرة، والإمكانات التي تجعلهم مُتأهبين للثورة.

وهذه الأبيات التالية نلمح منها استعطاف المتنبي للأمير على هذه القبائل، فصحيح أنها جمعت إمكاناتها لقتاله، وامتازت بالكثرة والقوة، إلا أنّ الأمير مع ذلك أمهلهم، وتأنّى في قتالهم لعلّهم يعودون عن خطأهم، والشاعر كذلك حين يصف تمرّد هذه القبائل، فإنّه لم يكن مُتواطئاً معهم، لأنه كان يشير إلى أنهم مخطئون، وأن الأمير حليم عليهم، وإلاّ استطاع القضاء عليهم، فهو يرفع من شأنها حينما يصفها بالقوة، ولا يُهوّن من شأن الأمير، بل يجعل من صفة الحلم فيه مدعاةً للسكوتِ عنهم، والإبقاء عليهم، يقول:

وأطمعَ عـامرَ البُقيا عليها ونزّقها احتمالُك والوقارُ(٣)
وغيّرها التّراسُلُ والتـشاكي وأعجبها التّلبُّبُ والمَغارُ(٤)
جيادٌ تعجزُ الأرسانُ عنها وفُرسانٌ تضيقُ بها الدِّيارُ

---

(١) المقادة: مصدر قاد، الصّغار: الذُلّ.

(٢) القرح: الجرح، والمقاود: جمع مقود وهو الرّسن، ذِفريَيْها: العظم الشاخص خلف الأذن، صَعَّر خدّها: أماله، والعذار: ما وقع على خدّيْ الفرس من اللّجام.

(٣) نزّقها: أي حملها على الخفة والطيش.

(٤) التّلبب: التحزّم والتشمّر للحرب، المغار: الغارة وهو مصدر.

وكانت بالتّوقُّفِ عن رَدَاها نُفُوساً في رداها تُسْتَشارُ(١)

ولم يزل المتنبي يتحدّث عن القبائل العربية التي كانت لسيف الدولة بمنزلة المقبض من السيف، ولكنها الآن عَصَتْ وطغتْ، وجازاها بما صنعتْ، ولكنّ بعضاً منها أخذت العبرة، مما فعله الأمير بغيرهم، فاستسلمتْ له، وقاتلت معه، وكأنّنا بالمتنبي تثورُ ثائرته ويغضب، لتحوّل هذه القبائل عن طاعتها، إلى العصيان، ولم يعجبْه أن يكونوا كذلك. فهو الذي يحرص دائماً على الوحدة والتقارب، وكأنه أيضاً يستعطفه عليهم، إذ يذكّره بماضيهم، فكيف يسلُّ سيفه في وجوههم، إذ يقول:

وكنْتَ السيفَ قائمُهُ إليهمْ وفي الأعداءِ حدُّك والغِرارُ(٢)

فأمْسَتْ بالبَديَّةِ شفرتاهُ وأمسى خَلفَ قائمِهِ الحِيارُ(٣)

وكان بَنُو كلابٍ حيثُ كعبٌ فخافوا أن يَصيروا حيثُ صارُوا

تلقُّوا عزَّ مولاهمْ بذلٍّ وسارَ إلى بني كعْبٍ وساروا

لقد أفاض المتنبي كثيراً في الحديث عن عُدَّة الأمير وعُدَدِه، وأثر هذه الوقعة في القبائل العربية، والنتائج التي آلوا إليها، وهو إذ ذاك يرفع من شأن الأمير أمام خصمه، الذين وصفهم بالقوة والكثرة، ومع ذلك لم تُغنِ عنهم قوّتُهم ولا كثرتهم شيئاً، أمام قوة الأمير وجنوده.

ففي وصفه لعُدَدِه، تحدّث عن الخيول القوية التي أجهدها السير، والمواصلة في القتال، وأشار إلى شدّة بلائها في المعركة، ومع أن المتنبي لم يحضر هذه الوقعة إلاّ إنّه ركّز كثيراً على غُبار المعركة الذي انتشر لشدّتها، فغطّى المقاتلين،

---

(١) رداها: هلاكها.

(٢) قائم السيف: مقبضه، غِراره: حدّه.

(٣) البديّة والحِيار: ماءان بأرضهم، شفرتاه: حدّاه.

وأما جيشه -الذي أخذ يتعقّب القبائل الثائرة، حتى ضاقت بهم الأرض على سعتها، فيوصف بالكثرة، وفرسانه أقوياء، وسيوفهم التي لم يُرَ إلاّ بريقُها، وعلى رأس هذا الجيش سيّد شريف، وملك قاهر، إذا قتل عدوّه؛ فلا قَوَدَ ولا دية له، ولا عُذْرَ منه، كما أن المتنبي لم يَنسَ قوة هذه القبائل، إذ جعلهم أُسْداً، وجيش الأمير كالطير في سرعة الجري، ومع قوة الأسود؛ فإنها لا تقدر أن تسطو على الطير؛ لأنه يفوتها، ولا تقدر على الطيران أمامه فتفوته.

وأمّا عن مصير هذه القبائل، فقد صبَّ سيف الدولة نقمته عليهم، ولم يسعْهم أمام قوّته، وقوّة أبطاله وكثرتهم وجلالتهم، إلا الفرار والهرب، وكأن كل عضو من أعضائهم يسابق الآخر، طلباً للنّجاة، وتشتّت شملُهم، من نساء ورجال ومواشٍ، حيثُ كُلّفت النساء مشقةً وجهداً، وكثُر قتلاهم، وأصبحت رماح الأمير تعجُّ بدمائهم، وبلغهم الجُهْد والعطش، فمن لم يَمُتْ بالرمح أو السيف مات بالعطش.

وقد جعل المتنبي كل ما في الطبيعة متعاطفاً مع الأمير ضد هذه القبائل، ولم يتعاطف معهم إلاّ مواشيهم، التي أخذت تبكي خلفهم وهم يسوقونها، وكأنّها تشعر بعاقبة أصحابها وهلاكهم، كما جعل دم هذه القبائل مباحاً للأمير، فلا قودَ عليه، ولا دية، حين يقول «بمهج الأعادي».

ومن الجدير بالذكر أنه على كثرة المياه التي تجاوزتْها القبائل وهي فارّة من وجه الأمير، فإن المتنبي يشير إلى قتل بعضهم عطشاً، وكأن المياه الجارية تعاطفت مع الأمير أيضاً، يقول الشاعر في وصف ذلك كلّه:

فأقبلها المُرُوجَ مسوَّماتٍ ضَوَامرَ لا هُزالٌ ولا شيارُ(١)

تُثيرُ على سلمْيَةَ مُسْبطراً تَناكرُ تحتهُ لولا الشّعارُ(٢)

---

(١) المروج: المواضع التي ترعى فيها الدّواب، وهي مروج سلمْية بين الفرات وحلب، وضوامر: قليلات اللّحم، الشّيار، السّمن وحسن المنظر.

(٢) المسْبَطرّ: الممتد ويريد به الغبار، والشّعار: العلامة في الحرب

عَجاجاً تعثرُ العِقبانُ فيهِ كأنَّ الجوَّ وَعْثٌ أو خَبارُ(١)

وظلَّ الطعنُ في الخيْلينِ خلْساً كأنَّ الموتَ بينهما اختصارُ(٢)

فلزَّهمُ الطِّرادُ إلى قتالٍ أحَدُّ سلاحهِمْ فيه الفِرارُ(٣)

مضوا مُتَسابقي الأعضاءِ فيهِ لأرؤسهمْ بأرجلهمْ عِثارُ

يشُلُّهمُ بكلِّ أقَبَّ نَهْدٍ لفارسهِ على الخيلِ الخِيارُ(٤)

وكُلُّ أصمَّ يَعسلُ جانباهُ على الكعبينِ منهُ دمٌ مُمَارُ(٥)

يُغادرُ كُلَّ مُلتفتٍ إليهِ ولبَّتُهُ لثعلبِهِ وجَارُ(٦)

إذا صرفَ النهارُ الضوءَ عَنهُمْ دَجا ليلانِ ليلٌ والغُبارُ

وإنْ جِنْحُ الظلامِ انجابَ عَنهُمْ أضاءَ المشرفيَّةُ والنهارُ(٧)

ويبكي خلفهُمْ دثْرٌ بُكاهُ رُغاءٌ أو ثُؤاجٌ أو يُعارُ(٨)

غَطَا بالعُنْثُرِ البيداءَ حتَّى تحيَّرتِ المَتالي والعِشارُ(٩)

ومَرُّوا بالجباةِ يَضُمُّ فيها كلا الجيشينِ من نقعٍ إزارُ(١٠)

---

(١) الوعث: الأرض اللّينة، والخبار: الأرض الرّخوة.

(٢) الخلْس: سرعة اختطاف الشيء خفيةً.

(٣) لزّه: دفعهَ واضطرّه إليه.

(٤) الشّلّ: الطرد، أقبّ: ضامر، النّهد: الجسيم.

(٥) الأصمّ: الصلب ويقصد الرمح، يعسل: يضطرب، ممار: مُراق.

(٦) اللّبّة: أعلى الصدر، الثعلب: ما دخل من الرمح في السّنان، الوجار: السّرب يأوي إليه الوحش.

(٧) جنح الليل: جانبه، انجاب: انكشف، المشرفيّة: السيوف نسبة إلى مشارف الشّام.

(٨) دثرٌ: مال كثير، الرُّغاء: صوت الإبل، الثّؤاج: صوت الغنم، اليُعار: صوت المعز.

(٩) العُنثُر: الغبار، المتالي: جمع متلاة وهي الناقة يتلوها ولدها، العِشارُ: جمع عُشَراء، وهي التي قرب ولادها.

(١٠) الجباة: اسم ماء.

وجاءُوا الصحصحان بلا سُروجٍ　　وقد سقط العِمامةُ والخِمارُ(١)

فأرهقتِ العَذارى مُردَفاتٍ　　وأوطِئتِ الأصيْبيةُ الصِّغارُ(٢)

وقد نُزِحَ الغُويرُ فلا غُويَرٌ　　ونِهيا والبُيَيضةُ والجِفارُ(٣)

وليسَ بغيرِ تدمُرَ مُستغاثٌ　　وتَدمُرُ كاسمها لَهُمُ دَمارُ

أرادوا أن يُديروا الرأيَ فيها　　فصَبَّحهُمْ برأيٍ لا يُدارُ

وجيشٍ كُلَّما حارُوا بأرضٍ　　وأقبلَ أقبلتْ فيهِ تَحارُ

يَحُفُّ أغرُّ لا قَوَدٌ عليهِ　　ولا دِيةٌ تُساقُ ولا اعتذارُ(٤)

تُريقُ سُيوفُهُ مُهَجَ الأعادي　　وكُلُّ دمٍ أراقتْهُ جُبارُ(٥)

فكانوا الأُسْدَ ليس لها مَصَالٌ　　على طيرٍ وليس لها مطارُ

إذا فاتُوا الرِّماحَ تناوَلتْهمْ　　بأرماحٍ من العطشِ القفارُ

يرونَ الموتَ قُدّاماً وخلفاً　　فيَختارُونَ والموتُ اضطرارُ

إذا سلكَ السَّماوةَ غيرُ هادٍ　　فقتلاهُمْ لعَينيهِ مَنارُ(٦)

ولكنّ المتنبي يعودُ ثانية ليستعطف الأمير على هذه القبائل، خاصة وأنه تفانى في قتالهم، وقسا عليهم كثيراً، ومع ذلك فإنه لم يعمل على إبادتهم، وإنّما أراد تأديبهم، ويؤكد المتنبي للأمير أنه سيّدهم ومالك أمرهم، فإذا لم يرحمهم، فلا راحم لهم غيره، والأعظم من ذلك، أنّهم وإن اختلفوا عنه بطباعهم إلاّ أنّ أصلهم

---

(١) الصحصحان: موضع.

(٢) أرهقه: كلّفه مالا يُطيق، مُرْدفات: مركبات خلف الرِّجال

(٣) الغوير ونِهيا والبُيَيْضة والجفار: أسماء مياه.

(٤) يحفُّ: يحيط، الأغرّ: السيد الشريف، القَوَد: قتل النفس بالنفس، والدية: ثمن الدم.

(٥) مُهج الأعادي: دماؤهم، الجُبار: الهدر.

(٦) المنارُ: العلم يُنصَب في الطريق.

واحد ويشتركون في النسب العربي الصريح، وهذا شأن المتنبي في رفعِهِ لشعار العروبة، الذي يُقرِّب بين الأمير، والقبائل الثائرة عليه، إذ يقول:

ولو لم تُبقِ لم تَعِشِ البَقايا ... وفي الماضي لِمَنْ بَقِيَ اعتبارُ(١)

إذا لم يُرْعِ سيِّدُهُمْ عليهمْ ... فَمَن يُرعي عليهمْ أو يغَارُ(٢)

تُفرقُهُمْ وإيَّاهُ السَّجايا ... ويَجمعُهُمْ وإيَّاهُ النِّجارُ(٣)

ولا ينسى المتنبي بعد أن يستعطفه، بأن يُذكّره بما فعله بهم، فخافه من لم يعصِهِ، عبْرةً بما فعله بغيرهم، وصاروا أمامه كالثيران بعد أن كانوا أُسُوداً، ومن حلَّ بهم الهزيمة أصبحوا يحذرونه ويهابونه، فلم يُوقدوا ناراً، ولم تسرحْ لهم ماشية لئلا يقصدهم الأمير، ويصبُّ غضبه عليهم، وقد قصدته القبائل طالبة العفو وهو إذ يستجيب لهم، فإنه يسلبهم النعم، ويكتفي بأن ردّ السيوف عنهم، وجعل سُراهم في الليل. بقوله:

ومالَ بها على أرَكٍ وعُرْضٍ ... وأهلُ الرَّقَّتَين لَها مَزارُ(٤)

وأجفَلَ بالفُراتِ بَنُو نُميرٍ ... وزأرُهُمُ الَّذي زأرُوا خُوارُ(٥)

فهمْ حِزَقٌ عَلَى الخابُورِ صَرْعَى ... بِهِمْ من شُرْبِ غَيرِهِمُ خُمارُ(٦)

فلم يَسرَحْ لهمْ في الصُّبْحِ مالٌ ... ولم تُوقَدْ لهمْ بالليْلِ نارُ

حِذارَ فَتىً إذا لم يَرضَ عَنهُمْ ... فليسَ بِنافعٍ لَهُمُ الحِذارُ

---

(١) أبقى عليه: تركه.

(٢) أرعى عليه: أبقى

(٣) النجار: الأصل.

(٤) أرَك وعُرَض: بلدان قرب تدمر، والرّقتان: هما الرّقة، والرافقة بلدان على الفرات.

(٥) الخوار: صوت البقر.

(٦) حزَقٌ: جماعة ، الخابور: نهر على الفرات، والخُمار: بقية السُكر.

تبيتُ وُفُودُهُمْ تسري إليهِ   وجَدْواهُ التي سَألُوا اغتِفارُ(١)

فَخلّفَهُمْ بردُ البيضِ عَنهُمْ   وهامُهُمُ لهُ مَعَهُمْ مُعارُ

هُمُ مِمَّنْ أذمَّ لهمْ عليهِ   كَرِيمُ العِرْقِ والحَسَبُ النُّضارُ(٢)

وبهذا فقد جعل المتنبي الأصل العربي الذي يجمعهم بمنزلة الذّمة لهؤلاء، وقد أدرك المتنبي حاجة الأمير إلى وصف بأسه وقوّته، لينشرَ هيبته في نفوس عدوّه، فبعدَ أن عاد الأمير من غزوه، استقرَّ مُلكُه، وذاع صيتُهُ في الآفاق، وتغنّى المتنادمون بما صيغ من الأشعار في مدحه، وأبو الطيب هنا يُثني على نفسه بطرفٍ خفيٍّ، ويريد أن يُعليَ من شأن أشعاره التي قالها في سيف الدولة.

كما أن هذه القبائل خضعت له، وانقادتْ لأوامره، على الرّغم من أنّها لم تتعوّد للانقياد والخضوع، وجعل خضوعها له، بمنزلة «السجود» وذلك للرّفع من شأنه، وأصبح الأمير لمهابته ترتدُّ الأبصارُ عن النظر إليه، فلا نظير له ولا مثيل، فهو مثالٌ للبطل المسلم الذي اعتاد على القتال، ومنازلة العدو بالصحراء، إذ يقصدهم ولا ينتظر أن يقصدوه، لكنه لا يباغتُهم مباغتة، إذ يقول:

فأصبحَ بالعواصِمِ مُستقرّاً   وليسَ لِبَحرِ نائلِهِ قرارُ(٣)

وأضحى ذكرُهُ في كُلّ قُطْرٍ   تُدارُ عَلى الغناءِ به العُقارُ

تَخِرُّ لهُ القَبائِلُ ساجِداتٍ   وتَحمَدُهُ الأسِنّةُ والشِّفارُ(٤)

كأنَّ شُعاعَ عينِ الشمسِ فيهِ   ففي أبصارِنا منهُ انكسَارُ

---

(١) جدواه: عطاياه.

(٢) أذمَّ له: أخذ له الذّمة.

(٣) العواصم: بلاد قصبتُها أنطاكيّة، النائل: العطاء.

(٤) الأسنّة: نصول الرّماح، الشّفار: حدود السيوف.

فمنْ طلبَ الطِّعَانَ فذا عليٌّ ... وخيلُ اللّه والأسَلُ الحِرارُ(١)

يَراهُ الناسُ حيثُ رأتْهُ كَعبٌ ... بأرضٍ ما لنازلها استتارُ

يُوَسِّطُهُ المَفاوزَ كُلَّ يومٍ ... طِلابُ الطالبِين لا الانتظارُ

تصاهَلُ خيلُهُ مُتَجاوباتٍ ... وما من عادةِ الخَيلِ السِّرارُ(٢)

ويستعطف المتنبي الأمير على هذه القبائل، إذ يُبيِّن منزلتها منه، ويؤكد القُربى بينهم، فيجعله منهم بمنزلة السِّوار من اليد، فهذا السِّوار وإن أدْمى أيديهم، إلاّ أنه يبقى زينة لها، وتبقى تفخر به لجلالته، ولم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل تبدو عنده النزعة العربية واضحة، حين يتحدّث عن حق هذه القبائل، واشتراكها مع الأمير في النسب إلى نزار، وأقلُّ هذا الاشتراك في الأصل، يُوجب الجوار ورعاية الحرمة بين الطرفين، ثم أنّ أبناء هذه القبيلة هم جنود وعبيد لأبناء سيف الدولة، فكيف يجورُ عليهم، ويستعطفه كثيراً في برّه لهم، وبيان حلمه عليهم، فلو عُقّ غير هذا الأمير، لأخذهم بالهلاك، والمتنبي إذ يشير إلى عصيانهم له، فإنه يُبيّن منزلتهم عنده، ليعطف عليهم، ويعفو عنهم، ثم نراه يُساوي بين الخصمين، فهو إذا ما سطا عليهم، وأذلّهم، فإنه لم يكن عيباً عليهم، لأنه سيّدُهم، ولا في تذلّلهم له عارٌ؛ لأنهم عبيده، يقول:

بَنُو كعبٍ وما أثّرتَ فيهِمْ ... يَدٌ لم يُدْمِها إلاّ السِّوارُ

بِها مِن قَطعِهِ ألمٌ ونقصٌ ... وفيها من جلالتِهِ افتخارُ

لَهُمْ حقٌّ بشركِكَ في نِزارٍ ... وأدنَى الشِّرْكِ في أصْلٍ جِوارُ

لعلَّ بنيهِمُ لبَنِيكَ جُندٌ ... فأوّلُ قُرَّحِ الخَيلِ المِهارُ(٣)

---

(١) الأسل: الرّماح، الحِرار: العطاش وهو جمع حرّان وحرّى.

(٢) السِّرار: مصدر سارّ.

(٣) القرّح: جمع قارح وهو الذي استكمل سنّهُ، والمِهارُ: جمع مُهْر

وأنـــت أبرُّ منْ لو عُقّ أفـنَى   وأعفى مَن عُقُوبتُهُ البَوَارُ(١)

وما في سَطوةِ الأرباب عَيـبٌ   ولا فـي ذِلّةِ العُبْدانِ عَارُ(٢)

وله كذلك قصيدة أخرى في هذه الوقعة، مطعلها(٣):

تَذَكّرْتُ ما بين العُذَيْبِ وبارقِ   مجرُّ عوالينا، ومجرى السّوابقِ(٤)

والمتنبي في أول قصيدته يقدِّم فضائل قبائل العرب، ويثني عليهم، ويشير إلى قوّتهم وأدبهم، وجودهم، ونسبهم العربي، ونسائهم الفاضلات، العفيفات، وكلُّ ذلك ليخفّفَ من غُلْواء سيف الدولة عليهم.

ثم يُعرِّض بهذه القبائل، ويشير إلى عصيانها، وتمرّدها، وخروجها عن طاعة الأمير حيث كان خروجهم عليه منقصةً لهم؛ لأنه لم يتجرأ أحد على عصيانه، ويريد أن يعلي من شأن سيف الدولة، فيشير إلى جهل هذه القبائل بقوة الأمير حين ثارتْ عليه، ولكنه يعود فيُساوي بين الطرفين، فالقبائل لم تقصِّر في حربه، ولم يُقصِّر هو في عقابهم حين جحدوا النعمة، وجمع الأمير بين أعظم شيئين، هما: الجود، والشدّة، فصحيح أنه أغدق عليهم من فضائله حين أطاعوه، ولكنه سلبهم ذلك إذا ما أرادوا العصيان والتمرّد، إذ يقول:

برأيِ مَنِ انقادَتْ عُقيـلٌ إلى الرّدَى   وإشماتِ مَخلوقٍ وإسخاطِ خالقِ(٥)

أرادوا عليّاً بالـــذي يُعـجزُ الوَرى   ويُوسِـعُ قتلَ الجحــفَلِ المُتَضايقِ

فما بسَطوا كفّاً إلى غيـرِ قـاطِعٍ   ولا حَمّلوا رأســاً إلى غيرِ فــالقِ

(١) عُقّ: أي عُصي.

(٢) الأرباب: السّادات، العُبْدان: جمع عَبْد.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٢:٣١٧.

(٤) العُذيب وبارق: موضعان بظاهر الكوفة.

(٥) عقيل: هي من كعب، من قبائل قيس.

لقد أقدموا لو صادفوا غـيـرَ آخذٍ وقـد هربـُوا لو صـادفوا غيرَ لاحقِ

ولمّا كسا كعبـاً ثيـاباً طغـوْا بها رَمَى كُلَّ ثـوبٍ من سِنـانٍ بخارقِ

ولمّا سَقَى الغيثُ الذي كفروا بـهِ سَقَى غيرَهُ في غيرِ تلكَ البَوارقِ(١)

ومع ما اتّهم المتنبي به القبائل من طغيان، فإنه يعود ليستعطفه عليهم، بقوله: إنه لو كان ما أصابهم من غيرك لا منك، لما آلمهم ذلك، فهذا الأمير الذي تعوّدوا على رزقه وإحسانه لهم، فإنه يؤلمهم إذا عاقبهم وقسا عليهم، قائلا:

وما يُوجعُ الحِرمانُ من كفِّ حارمٍ كما يُوجعُ الحِرْمانُ من كفِّ رازقِ

ويؤكّد المتنبي كثيراً على قوة الأمير، وإمكاناته في حرب الخارجين، وأكثر ما نستشفه من ذلك، حديثه عن الخيول الأصيلة القوية، التي تبدو كالحة من الجهد الذي بذلته في حرب الأعداء، قائلا:

أتاهُمْ بِها حَشْوَ العَجاجةِ والقنا سَنابِكُها تحشو بُطُونَ الحَمالِقِ(٢)

عوابسَ حَلَّى يابسُ الماءِ حُزْمَها فهُـنَّ على أوساطِها كالمنَاطقِ(٣)

وبعد أن يؤكّد هذه القوة، فإنه ينطلق للحديث عن هؤلاء الثّوار، ويشير إلى اعتياد هذه القبائل الخروج على سلاطينها زمن والده، وهو هنا لا يريد أن يُنفّره منهم، بل سرعانَ ما أكّد الأصل الذي ينتسبُ إليه كلٌّ منهم وهو مَعَدّ، ليخفف سيف الدولة من حدّةِ قتاله لهم، ولأنهم أقوياء، لم يخضعوا لغيره قطّ، قائلا:

فليت أبا الهيجا يَرى خلفَ تَدمُرٍ طِوالَ العَوالي في طِوالِ السَّمالِقِ(٤)

---

(١) البوارق: جمع بارق وهو السّحاب فيه برق.

(٢) العجاجة: الغبرة، وحشو: حال، والسّنابك: أطراف الحوافر، والحمالق: جمع حملاق وهو باطن الجفن.

(٣) عوابسَ: حال ثانية، ويابس الماء: ما جفَّ من العرق، المناطق: ما يُشدُّ به الوسط.

(٤) السَّمالق: جمع سَمْلق: وهو المستوي من الأرض.

وسَوْقَ عليٍّ من مَعَدٍّ وغيرِها   قبائلَ لا تُعطي القُفيَّ لِسائقِ(١)

وأمّا عن آثار وقعته عليهم، فقد بدّد شملهم، وتركوا نساءهم كأنّهن طوالق، والتي تفرّقت في الفلاة، وهُنَّ ما زلْنَ في عزٍّ ودلال، يمتطين النياق العتيقة، ويتحلّين بالحُلي، وفي الوقت نفسه فإن كتيبة الأمير بقيت مجموعة لم يتفرّق شملها:

قُشيرٌ وبلعجلانِ فيها خفيّةٌ   كراءيْنِ في ألفاظِ ألثَغَ ناطِقِ(٢)

تُخلّيهمُ النّسوانُ غيرَ فوارِكٍ   وهم خلوا النِسوان غيرَ طَوالقِ(٣)

يُفرِّقُ ما بينَ الكُماةِ وبينها   بطعنٍ يُسلّي حرُّهُ كُلَّ عاشقِ

أتى الظّعنَ حتّى ما تطيرُ رشاشةٌ   من الدَّمِ إلاّ في نُحورِ العَواتقِ

بكلِّ فلاةٍ تُنكرُ الإنسَ أرضُها   ظعائنُ حُمْرُ الحَلْيِ حُمْرُ الأيانِقِ(٤)

وملمومةٌ سيفيّةٌ ربَعيّةٌ   تصيحُ الحَصَى فيها صياحَ اللّقالِقِ(٥)

لقد كان هدف الأمير من هذه الوقعة، هو تأديب الثائرين، فحتّى حين هزمها، فإنّه لم ينهب مالَهُمْ من غنائمٍ، وكان هو الذي أغنى جنوده بجوده، فلم يعبأوا بما هو أمامهم، فيقول:

نَهاها وأغناها عن النَّهبِ جُودُهُ   فما تبتغي إلاّ حُمَاةَ الحقائِقِ(٦)

ولا يلبث أبو الطيب المتنبي أن يشير إلى ما كان يُحلم به من وجود الحاكم

---

(١) القُفي: جمع قفا، واللام في «لسائقٍ» للتمليك.

(٢) بلعجلان: أي بني العجلان.

(٣) فوارك: مبغضات.

(٤) حُمْرُ الأيانق: أكرم النياق عند العرب.

(٥) اللّقالق: ضرب من الطير.

(٦) حُماة الحقائق: المانعون حريمهم.

العربي، الذي يقهر الأعداء، إذ ينقد حكام عصره بخفاء، حين يقول: إنّ هؤلاء الأعراب ظنّوا أنك لا تستطيع ملاحقتهم في الفلاة، لما تعيشه من ترف وثراء ونعيم، حتى تبدّى الأمير أعلم منهم بمضارب الصحراء، وصبر ما لا يصبرون عليه، وهم الذين اعتادوا على العيش فيها، فنستشفُّ من قوله، إنّه يريد أن يُعلي من شأن الأمير، الذي تعوّد الثراء، ولم ينسَ القتال، ومقارعة الأبطال، ويرفع من شأن هذه القبائل أمامه، فهي إذ خضعت له، فإنها كانت تخيف الملوك، إذ تشعر بقوّتها، ولا تعبأ بقوة غيرها، والمتنبي الذي يطلب من الأمير أن يكون حليماً عليهم، يجعلهم مُخطئين في عصيانهم له، إذ قال عنهم (فهاجوك) ليؤكد جرمهم، فهم الذين دفعوه لقتالهم، وكانوا لشدّة غضبهم، وتمرّدهم «كهدير الفحول» ثم ما لبثت هذه القوة أن جعلتهم خُرْساً أمامه، حين أدّبهم، إذ يقول:

توهّمَها الأعرابُ سَوْرةَ مُترَفٍ ... تُذَكِّرُهُ البيداءُ ظِلَّ السُّرادِقِ(١)

فذكَّرتَهمْ بالماءِ ساعةَ غَبَّرتْ ... سَمَاوةُ كَلبٍ في أُنُوفِ الحزائِقِ(٢)

وكانوا يروعون الملوكَ بأنْ بَدَوْا ... وأن نبتتْ في الماءِ نبْتَ الغَلافِقِ(٣)

فَهاجُوك أهْدى في الفلا من نجومهِ ... وأبدَى بُيُوتاً من أداحِي النَّقانقِ(٤)

وأصبَرَ عنْ أمواهِهِ من ضِبابهِ ... وآلفَ مِنها مُقلةً للوَدائقِ(٥)

وكان هديراً من فُحولٍ تَرَكْتَها ... مُهَلَّبَةَ الأذنابِ خُرْسَ الشَّقاشِقِ(٦)

---

(١) السَّوْرة: الوثبة، السُّرادق: ما يُدار حَوْلَ الخيمة.

(٢) الحزائق: جمع حزيقة وهي الجماعة.

(٣) بَدَوْا: دخلوا البادية، والغلافق: الطحلب بداخل الماء.

(٤) النقانق: جمع نِقنِق وهي أنثى النعام، والأداحيّ: جمع أُدْحيّ وهو مبيض النعام في الرّمل.

(٥) الودائق: جمع وَديقَة وهي شدّة الحرّ

(٦) المُهَلَّبة: المقطوع الهلب وهو شعر الذنب، الشقاشق: جمع شِقشقة وهي لُهاة البعير تتدلّى عند الغضب.

لقد عرّض بهم المتنبي حين أشغلوا الأمير بقتالهم عن قتال الرّوم، فكانوا بذلك يداً مع عدوّهم عليه، فقضى وقت راحته بقتالهم، وحرّموا عليه الراحة، فلم يعتبروا بما فعله بالرّوم وبما فعله بالخارجين العاصين الذين عاقبهم، وجعل عقابهم عبرة لهم، فيقول:

فما حَرَموا بالرَّكضِ خيلَكَ راحةً ولكنْ كَفاها البَرُّ قَطْعَ الشّواهِقِ

ولا شَغَلوا صُمَّ القَنا بنحورهمْ عن الرَّكْزِ لكنْ عن قُلوبِ الدّماسقِ(١)

ألمْ يحذروا مَسْخَ الذي يَمْسَخُ العِدا ويجعلُ أيديْ الأُسْدِ أيدي الخرانِقِ(٢)

وقد عاينوهُ في سِواهُمْ وربَّما أرَى مارِقاً في الحربِ مَصرعَ مارقِ(٣)

ولكننا نجده يشير إلى بعض هذه القبائل التي اعتبرت بما فعله بغيرها، فاستسلمتْ له ولم تقاتلْه، وهم بنو نُمير الذين يجعلهم المتنبي أرشد من الثائرين، لأنهم قدّروا قوته، وبطشه وفتكه بغيرهم، فيقول:

لوفدُ نُميرٍ كان أرشدَ منهُمُ وقد طَرَدوا الأظعانَ طردَ الوَسائِقِ(٤)

أعدّوا رِماحاً من خُضُوعٍ فطاعنوا بها الجيشَ حتّى ردَّ غَرْبَ الفيالِقِ(٥)

فلم أرَ أرْمى منهُ غيرَ مُخاتِلٍ وأسرى إلى الأعداءِ غيرَ مُسارِقِ(٦)

تُصيبُ المجانيقُ العظامُ بكفِّهِ دقائِقَ قد أعيتْ قِسِيَّ البنادقِ

وقال أبو فراس الحمداني قصيدة يصف فيها القبائل الثائرة، وكان شديد

---

(١) الصُّم: الصِّلاب، ركز الرّمح: غرزه في الأرض، الدّماسق: جمع دُمستُق.

(٢) الخرانق: جمع خِرنق وهي الأنثى من أولاد الأرانب.

(٣) المارق: الخارج عن الطاعة.

(٤) الوسائق: جمع وسيقة وهي القطعة من الإبل.

(٥) الغرب: الحدّ أو الحدّة.

(٦) المُخاتل: المخادع.

الوطأة عليهم قولاً وفعلاً، فقد شارك في حربهم وإفنائهم، ودعا إلى الانتقام منهم لطغيانهم وجورهم، ولم يكن كالمتنبي الذي كان يوازن بين القبائل والأمير، فيدعوها للتذلل له والخضوع والانقياد، وعدم الخروج على طاعته، ويدعوه إلى الحلم بهم والترفّق، واللين في معاملتهم، وتأديبهم لا إفنائهم. وأمّا قصيدة أبي فراس فمطلعها(١):

أبتْ عَبَراتُهُ إلاّ انسكابَا ونارُ غرامهِ إلا التهابَا

ومن حقّ الطُّلولِ عليّ ألاّ أغبّ من الدّموعِ لها سَحَابَا

وفي أوّلها مقدّمة طللية، تبعها حديث عن الشيب الذي حلّ به من ريب الزمان، وفعل الأحبّة وصدودهم ثمّ تلاها بالافتخار بأهله وعشيرته، وذكر فضائلهم، وتفضيلهم على سائر الخلق، إذ يقول:

ألَمْ تَرَنا أعزّ الناسِ جاراً وأمرعهمْ وأمنعهمْ جَنَابَا(٢)

لنا الجبلُ المطِلُّ على نزارٍ حللْنا النجدَ منهُ والهضَابَا

تُفضّلنا الأنامُ، ولا تحاشي ونوصفُ بالجميلِ ولا نُحابَى(٣)

وقد عَلِمتْ ربيعةُ بل نِزارٌ بأنّا الرأسُ والناسُ الذُّنابى

وواضح من هذه الأبيات، أن أبا فراس يعرّض بالقبائل الثائرة من طرفٍ خفي حين يرفع من شأن قبيلته على سائر القبائل العربية الأخرى، حتى إذا ما انتهى من حديثه هذا، بدأ يصف هؤلاء الثائرين، ويقسو عليهم إذ يجعلهم طغاة، جاروا وجازاهم هو والأمير بما صنعوا، وفتحوا عليهم باباً من الحرب، بعدما أوسعوا عليهم وأفضلوا، ومن الجدير بالذكر أنّ أبا فراس يتكلم بأسلوب الجماعة، فيبدو

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٧.

(٢) أمرعهم: أخصبهم.

(٣) لا نحابي: لا نميل عن الحق.

متعاطفاً مع ابن عمّه ومع قبيلته، فما أن علِموا بثورة الأمير على هذه القبائل، فإنهم ثاروا كالأسود الغاضبة، بأرماحهم وسيوفهم القاطعة التي كانت لا تُخطيء مَنْ يُرمى بها، فيقول في ذلك:

ولمّا أنْ طغتْ سُفَهاءُ كعبٍ فتحْنا بيننا للحربِ بَابَا

منحناها الحرائبَ غيرَ أنّا، إذا جارتْ منحْناها الحرابَا(١)

ولما ثار سيفُ الدينِ ثُرْنا، كما هيّجتَ آساداً غضَابا

أسنتُهُ إذا لاقى طعاناً صوارمُهُ، إذا لاقى ضِرابا

دعانا والأسنّةُ مُشرعاتٌ فكنّا عند دعوتِهِ الجَوابَا

صنائعُ فاقَ صانعُها ففاقتْ وغرسٌ طابَ غارسُهُ فطابَا

وكنّا كالسّهامِ إذا أصابتْ مراميها فراميها أصابَا

وصوّر أبو فراس قوّتهم، وقد جابوا الصحاري التي ثارت بها القبائل، ولم يمنعهم الليل من السير، وكان خصمهم قوياً، صاحب جيش كثير انتشرت في الشعاب ولكنّ قوّتهم زالت أمام قوة الأمير وجيشه، وجعل أبو فراس أرواح هؤلاء الثائرين تُنتهب انتهاباً، لعدم الرأفة بهم، ومن نجا منه أُقتيدَ أسيراً، ونُهبتْ غنائمهم التي كانت بمنزلة الهدايا، يوزّعها قائد هذه القبائل دون أن يبغي الأجر عليها، وكانت أحلافهم قد خذلتْهم، ولم ينفعهم أمام هؤلاء الأبطال شيءٌ إلاّ أنّهم قادوهمْ كالإبل صعبة الانقياد، فأبو فراس كغيره من الشعراء، الذين يصفون خصمهم دائماً بالقوّة ومع ذلك تخونهم قوّتهم إذا ما دخلوا المعركة، وذلك حتى إذا ما انتصروا فإنّهم إنّما ينتصرون على خصمٍ قويٍّ لا ضعيف، وهذا ما تفخرُ به العرب دائماً، إذ يقول:

---

(١) الحرائب: جمع حريبة، ما يشكل مصدراً للعيش كالمال أو غيره.

قطعْنَ إلى الجِبارِ بنا مَعَاناً ونَكَّبْنَ الصّبيرةَ والقِبابَا(١)

وجاوزْنَ البديَّةَ صاديات يلاحظْنَ السرابَ، ولا سرابَا(٢)

عبرْنَ بماسحٍ والليلُ طِفلٌ وجئْنَ إلى سلمْيَةَ حين شابَا(٣)

وقاد نديُّ بنِ جعفرٍ من عقيلٍ شعوباً قد أسالَ بها الشِّعابَا(٤)

فما شعروا بها إلاّ ثباتاً دُوَينَ الشدِّ تصطخبُ اصطخابَا(٥)

تناهبْنَ الثناءَ بصبرِ يومٍ به الأرواحُ تُنتهبُ انتهابَا

تنادوا فانبرتْ من كلِّ فجٍّ سوابقَ يُنتجبنَ لنا انتجابَا(٦)

فما كانوا لنا إلا أسارى وما كانت لنا إلا نِهابَا

كأنَّ نديَّ بنَ جعفرٍ قاد منهمْ هدايا لم يُرِغْ عنها ثوابا(٧)

وشدّوا رأيهمْ ببني قُريعٍ فخابوا لا أباً لهمُ، وخابَا

وسُقناهمْ إلى الحيرانِ سوْقاً كما نستاقُ آبالاً صِعابَا(٨)

ولم تكن كعب ممن ثارت على الأمير وحدها، بل شاركها بنوقشير الذين أوردهم أبو فراس الموت، وقد صوّر أبو فراس ملاحقة الجيوش الحمدانية لهم، ومطاردتها إيّاهم، وتتبعها لفلولهم موقعاً موقعاً، وشمت بهم وبالمصير الذي صاروا إليه، مشيراً إلى العفو عن النساء اللواتي أصبحْنَ يندبْنَ قتلاهنَّ، يقول:

---

(١) معاناً: منزلاً.

(٢) البديَّة: البادية، الصّادي: شديد العطش.

(٣) الليل طِفلٌ: شبّه بداية الليل بالطّفل، سلمْيَة، اسم مكان.

(٤) ندي بن جعفر، أحد قادتهم.

(٥) تصطخب: تختلط أصواتها.

(٦) ينتجبْن: يخترن.

(٧) يُرِغْ: يطلب.

(٨) الحيران: اسم مكان، الآبال: المواشي.

سقينا بالرماحِ بني قشيرٍ ببطن العُثيرِ السُّمَّ المُذابا(١)
فلما اشتدتِ الهيجاءُ كنّا أشدَّ مخالباً، وأحدَّ نابا
وأمنعَ جانباً، وأعز جاراً وأوفى ذمةً، وأقلَّ عابا
وجُزْنَ الصحصحانَ يخدْنَ وخْداً ويجتبْنَ الفلاةَ بنا اجتيابا(٢)
ومِلْنَ عن الغويرِ وسِرْن حتّى وردْنَ عيونَ تدمرَ والجبابا(٣)
قرَيْنا بالسَّماوةِ من عقيلٍ سِباعَ الأرضِ والطير السِّغابا(٤)
وبالصَّبَّاح والصَّبَّاحُ عبدٌ قتلنا، من لبابهمُ اللبابا(٥)
تركْنا في بيوتِ بني المهنّا نوادبَ ينتحِبْنَ بها انتحابا(٦)

ويعبّر أبو فراس عن تشفّيه بما حلَّ بهذه القبائل وتشتتهم في البلاد، وكيف أنَّ ذلك أزال الأحقاد الدفينة في نفوس الحمدانيين عليهم:

شفتْ فيها بنو بكرٍ حقوداً وغادرتِ الضّبابُ بها ضَبابا
وأبعدْنا لسوءِ الفعلِ كعْباً وأدنينا لطاعتِها كِلابا
وشرّدْنا إلى الجولانِ طيْئاً وجنّبْنا سماوتَها جَنابا
سحابٌ ما أناخَ على عُقيلٍ وجرَّ عِلى جوارهمُ ذُبابا

وأما بنو نُمير، فعدلوا إليهم يبغونهم بفرسانهم الأعزّاء الذين لا مثيل لهم، ولكنّها استجابت حين لم تجدْ مفراً منه، فلمّا خضعوا لهم، أدناهم بعد أن أذاقهم الخوف وأحلّوهم في ديارهم:

---

(١) بطن العثير: المكان الذي انتصر فيه سيف الدولة عليهم.
(٢) الصَحْصَحان: الأرض المستوية الجرداء، جزْن: قطعْنَ، الوخد: السّرعة.
(٣) الغُوير: اسم مكان، الجباب: اسم مكان.
(٤) السِّغاب: الطيور الجائعة.
(٥) اللباب: الخالص من القوم.
(٦) ينتحِبْنَ: يندبْنَ.

ومِلْنا بالخيولِ إلى نُميرٍ تُجاذِبُنا أعنّتُها جذابًا(١)

بكلِّ مشيّعٍ سمْحٍ بنفسٍ يعزّ على العشيرةِ أنْ يُصابا

وما ضاقتْ مذاهبُه، ولكنْ يُهابُ من الحميّةِ أن يُهابا

ويأمرُنا فنكفيهِ الأعادي همامٌ لو يشاءُ كفى ونابا(٢)

فلمّا أيقنوا أنْ لا غياثٌ دعوهُ للمغوثةِ فاستجابا

وعاد إلى الجميلِ لهمْ فعادوا وقد مدُّوا لصارمِهِ الرِّقابا

أمرَّ عليهمُ خوفاً وأمْناً أذاقهمُ بهِ أرْياً وصَابا(٣)

أحلّهمُ بالجزيرةِ بعد يأسٍ أخو حلمٍ إذا ملكَ العِقابا(٤)

ويزداد حب الانتقام في نفس أبي فراس حين يصف الدِّيار التي طُردت منها القبائل بأنها ديارهم، ويتمادى فيقول: رغم أنها ديارهم إلاّ أننا اغتصبناها منهم اغتصاباً، ويضيف قائلاً، وقد أظهر حُبّ التملُّك، واستغلّ قُرباه من الأمير: إننا إذا أردنا فإننا نحمي البوادي كلّها، كحماية الأُسود للغابة، فالبوادي ليس مُلْكٌ لهم، كما أنّ الغابة ليس مُلْكٌ للأسد، بل إنّ الشعور بالقوة، يدفع صاحبه ليفعل ما يشاء، ويستمرُّ فيَ إظهار قوّتهم، وتميزهم عن الآخرين من الأمراء، فكتُبهم التي تُرسل إلى الأعداء تساوي جيوش الآخرين، فهم الذين اعتادوا على القتال، ويختم قصيدته بالفخر بنفسه ويجعلها فوق نفوس الآخرين، فيقول:

---

(١) العِنان: اللِّجام.

(٢) الهمام: السيد الشجاع.

(٣) الأري: الشّهد، العسل، الصّاب: شجر مرّ.

(٤) أحلّهم: جعلهم يقيمون.

ديارهُمُ انتزعْناها انتــزاعاً ... وأرضُهمُ اغتصبناها اغتصابًا

ولو شئنا حميناها البــوادي ... كما تحمي أُسودُ الغـابِ غابًا

إذا ما أنهــضَ الأمراءُ جيــشاً ... إلــى الأعــداءِ أنــفذْنا كتابًا

أنا ابن الضاربينَ الهامَ قُدْماً ... إذا كَرِهَ المحامونَ الضِّرابًا(١)

ألم تعلــمْ؟ ومثلُك قال حقاً: ... بأنّي كنتُ أثقبَــها شهابًا(٢)

وتوالى خروج بني كلاب على سيف الدولة، وكان في كلِّ مرّةٍ يؤدبهم، ولكنه ما يلبث أن يعفو عنهم، وقد صوّر أبو فراس بعض هذه الأحداث، فعندما ثاروا بقيادة صباح بن أبي جعفر الكلابي، وأغاروا على بعض نواحي الشام، فركب إليهم أبو فراس من منبج حتى لحقهم، وأوقع بهم، وقتل صباحاً، وكتب إلى بني كلاب، يعلمهم بأنّ ذلك من صنيع أيديهم، ولا يُعدُّ عمله هذا ذنباً ارتكبه، لأنه جازى سفيههم بما فعل، إذ يقول(٣):

ألا أبلــغْ سَراةَ بنــي كــلابٍ ... إذا ندَبـتْ نوادبُـها صَبَاحا

جزيـتُ سفيـــههمْ سُوءاً بســوءٍ ... فلا حرجاً أتيتُ ولا جُناحا(٤)

قتلتُ فتى بني عمروِ بنِ عــبدٍ، ... وأوسعهمْ على الضّيفانِ ساحا

قتلتُ مُعــوّداً عَلَلَ العشـــايا، ... تخيّرتِ العبيدُ لهُ اللقاحا(٥)

---

(١) الضِّراب: القتال

(٢) الشّهاب: الضوء

(٣) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٤٨.

(٤) الحرج: الذنب.

(٥) اللقاح: الواحدة لُقحة: الناقة الحلوب.

ولستُ أرى فساداً في فسادٍ يَجرُّ على طريقتهِ صَلاَحا

ويصوّر أبو فراس إيقاع سيف الدولة ببني كلاب الذين ثاروا ببالس بقيادة كُثير بن عَوْسجة، ويصف انتصارهم على هذه القبائل، وما أصابها من ذلٍّ واستسلام وخضوع للأمير، ثمّ عفو الأمير عنهم، فيقول(١):

سَلي عنّا سُراةَ بني كلابٍ ببالسَ عند مُشتجرِ العوالي

لقيناهمْ بأسيافٍ قصارٍ كفيْنَ مؤونةَ الأسْلِ الطّوالِ

وولّى بابنِ عوسجةٍ كثيرٍ وساعُ الخطوِ في ضنْكِ المجالِ(٢)

يرى البرغوثَ إذ نجّاه منا أجلَّ عقيلةٍ وأحبَّ مالِ(٣)

تدورُ بهِ إماءُ مِن قُريظٍ وتسألهُ النساءُ عن الرجالِ

يقلْنَ له: السلامةُ خيرُ غُنْمٍ وإنّ الذُّلَّ في ذاكَ المقالِ

وجمهانٌ تجافتْ عنه بيضٌ عدلْنَ عن الصّريحِ إلى الموالي(٤)

وعادوا سامعينَ لنا فعدْنا إلى المعهودِ من شرفِ الفعالِ

ونحن متى رضينا بعد سُخْطٍ أسوْنا ما جرحْنا بالنّوالِ

وإذا ما تكرّر خروج بني نُمير وكلاب، فإنه يُلقي اللّوم عليها، ويُعنّفُها، ويشيرُ إلى جهلهم، وإصرارهم على العصيان، وبالمقابل يشيد بحلم الأمير، وعفوه عنهم، ولعلّه هنا يتضرّع إلى الله ليهديَ هذه القبائل؛ لتعودَ إلى رُشْدها، وترجعُ

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٤٢.

(٢) وساعُ الخطو: نعت للفرس المضمر، الضّنْك: الضيق.

(٣) البرغوث: قصد الفرس.

(٤) جمهان بن عرفجة.

عن غيِّها، وفي ذلك يقول(١):

إلى الله أشكو ما أرى من عشائرٍ إذا ما دنونا زاد جاهلُهمْ بُعدا
وإنّا لتثنينا عواطفُ حلمِنا عليهمْ وإن ساءتْ طرائقُهمْ جِداً
ولو عرفتْ هذي العشائرُ رُشدَها إذاً جعلتْنا دون أعدائِها سَداً
ولكنْ أراها أصلحَ اللهُ حالَها وأخلفها بالرشدِ، قد عدِمتْ رُشْدا
إلى كم نردُّ البيضَ عنهمْ صَوَادِياً ونثني صدورَ الخيلِ قد مُلِئتْ حقْدا(٢)
ونغلبُ بالحِلم الحميّةَ منهمُ ونرعى رجالاً ليس نرعى لهمْ عهدا

ولم يقصِّرِ الشعراء الآخرون في الحديث عن هذه القبائل، فالسَّرِيّ الرَّفَّاء، يشير إلى انقياد القبائل العربية لسيف الدولة- لا سيّما كعب وكلاب- حين أدركتْ سطوتَه، واتخذت العبرةَ من فعله بغيرِها، إذ يقول(٣):

وسهْلٌ حينَ يُسْألُ غيرُ صعْبٍ وقد ذلّتْ له العربُ الصِّعابُ
وقد خضعتْ لهُ كعبٌ وخافتْ سُطاهُ حين خوَّفَها كلابُ

ويتحدّث الببغاء عن إحدى وقعات الأمير مع بني كلاب، ويشير إلى حلمه، وعفوه عنهم وإلقاء اللوم عليهم، حين فتحوا المجال لغير العرب بالثورة على سيف الدولة، وأما صنيع الأمير في العفو عنهم فمأخوذٌ من والده، إذ يقول(٤):

إذا استلّك الجانونَ أغمدَكَ الحِلْمُ وإنْ كفَّك الإبقاءُ أنهضكَ العزْمُ

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٥٥.

(٢) الصّوادي: العطاش.

(٣) السَّرِيّ الرّفاء: ديوانه ١: ٣٨٠.

(٤) الببغاء: شعره ١٤٧.

ومَنْ لم يـؤدبْهُ لفرطِ عتوِّهِ   إذا ما جنى الإنصافُ أدّبَهُ الظُلْمُ

إذا العُرْبُ لم تجزِ اصطناعَ ملوكِها   بشكرٍ تمادتْ في سياستِها العُجْمُ

أعِدْها إلى عادات عفوك مُحْسناً   كما عوّدَتْـها قبلُ آباؤك الشُّمُّ

وبهذا فقد حفل الشعر الشامي في هذا القرن بتسجيل ثورات القبائل المختلفة وموقف سيف الدولة منها، وأنّ قبيلة كلاب كانت أكثر القبائل ثورة على الحكم، وذلك لعدم خضوعها إلى سلطة، وشعورها بقوتها وعزّتها، وحلم الأمير عليها، وقد ركّز شعراء هذا القرن على صفح الأمير وعفوه عنهم، وذلك لإيمانهم بضرورة سيادة العنصر العربي على غيره من العناصر الأخرى، إذ لم يكن سيف الدولة يعمل على إبادتهم كفعله مع أعدائه من غير العرب.

وسجّل شعراء الشام حركات القرامطة وتمرّدهم، من ذلك ما فعلوه بالحجيج يوم الطّواف بمكّة، إذ دخل أبو طاهر القرمطي مكة يوم التّروية فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وقتلوهم في المسجد الحرام، وقلَعَ الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر.

وقد قال الصنوبري في ذلك قصيدة بدأها بوصف أحزانه على ما حلّ بالحجيج المسلم على أيدي القرامطة، مصوّراً هول الحادثة، وعظم المصاب(١):

بنفسي نفوسٌ بين زمزمَ والحِجْرِ   تولّتْ فوافاها الرّدى وهْي لا تدري

عجبتُ لقلبٍ ما تصدَّعَ حسرَةً   ولو كان صخراً أو أشدَّ من الصَّخْرِ

سلامٌ على إخوانِ برٍّ مُذِ انقضتْ   أُخوّتُهمْ قُلْنَـا: سلامٌ على البِرِّ

ويُصَوِّرُ الشاعر زحف جموع القرامطة نحو البيت العتيق، وما فعلوه بالحجاج وهم مُحْرِمون، وصبْر هؤلاء على ما أصابهم، ويرسم صورة

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٩٦.

مأساويّة لحالهم، وقد أمعن القرامطة في قتلهم، فصاروا يَسْبحون في بحر من دمائهم، فلاذوا بأستار الكعبة، لعلّهم ينجون من بطش هؤلاء المجرمين، قائلا:

أتوْا يقطعون البدوَ والحضرَ رغبةً ... إلى خيرِ بيتٍ حلَّ في البدو والحضْرِ
سَروْا وسَرَتْ أيدي المنايا إليهمُ ... فـفازوا لَدُنْ فازوا بأجرٍ على أجرِ
رأوا حجَّهمْ حجّاً وغزْواً فلم تطِبْ ... نفوسهُمُ عن كسْبِ ذُخْرينِ في ذُخْرِ
بلى وقفوا للضّرْبِ والطّعنِ موقفاً ... كأنّهمُ فيه وقوفٌ على الجمرِ
دموعهمُ تجري خشوعاً وخشيةً ... وأرواحُهمْ تجري على البيضِ والسُّمْرِ
فكائنْ ترى من سابحٍ في دمائهِ ... دماءٍ غدا من هَوْلها البَرُّ كالبحرِ
فأكرِمْ بهم والموتُ فوقَ رؤوسهمْ ... يلوذون خوفَ الموتِ بالبابِ والسِّتْرِ
أبى لهمُ إحرامُهمْ لبسَ جُنّةٍ ... فلمْ يلبسوا شيئاً سوى جُنّةِ الصّبرِ

ويمضي الشاعر في رسم الصورة تلو الصورة لتقتيل المسلمين، فيشبهُهُم تارة بالهَدي يُهدى إلى البيت العتيق، وتارة يصوّر ملابسَ إحرامِهم البيضاء وقد صارت حمراءَ من غزارة الدّماء المُراقة، يقول:

وأعجِبْ بهمْ إذ يُنحرون كأنّهمْ ... هديُهُمُ أيامَ تُهْدَى إلى النّحْرِ
رفاقٌ أقاموا لا تُشَدُّ لغيرِهمْ ... رحالٌ، ووفْدٌ لا يؤوبُ إلى الحَشْرِ
غدَتْ أُزْرُ الإحرامِ بيضاً إليهمُ ... فراحوا إلى الأجداثِ في أُزْرٍ حُمْرِ
وما غُسِلوا بالماءِ بل بدمائهمْ ... وما حُنِطوا إلاَّ منَ التُّربِ لا العطرِ

ويصف الشاعر الأعداد الكبيرة من الحجاج الذين قُتِلوا ودُفِنُوا معاً في مقابر جماعيّةٍ مبيناً أنّ الجنّة مأواهم:

هوى جُلُّهُمْ قبرٌ من الأرضِ واحدٌ   فيا خيرَ محبوبينَ في خيرِ ما قبرِ
ألوفٌ من الشبّانِ والشيبِ ضمَّهُمْ   قَليبٌ قريبُ الجانبينِ من القعْرِ
فلم أرَ مقبورينَ أكثرَ منهمُ   وليس لهمْ قبرٌ يُعدُّ سوى قبْرِ
وما إنْ هَوَوْا في هُوَّةٍ بل تَسابقوا   إلى رَبْوةٍ خضراءَ بين ربىً خُضْرِ
إلى جنّةٍ زهراءَ تزدادُ زهرةً   بما واجهتْ منهم من الأوجهِ الزُّهْرِ

وتبلغ القصيدة أعلى درجات الإثارة عندما يتحدث الشاعر عن عودة قوافل الحجيج إلى ديارهم، دون أن يرى أهله وذويه، فيتساءل متحسّراً عن سبب عدم عودتهم:

أحُجاجَنا مالي أرى السَّفْرَ آيباً   ولستُ أراكمْ آيبين معَ السَّفْرِ
أجاورتُمُ البيتَ العتيقَ فحبّذا   جواركمُ الباقي إلى آخرِ الدّهْرِ
جوارُ حجيجٍ لا طوافَ عليهمُ   ولا سَعْيَ في ميقاتِ ليلٍ ولا فجْرِ

ويحمل الشاعر حملة عنيفة على هؤلاء القرامطة الذي أرعبوا المسلمين في مكان آمن، ويصفهم بالأشقياء والغدر والقسوة، ويقرنهم بالبهائم في الجهل، ويصوّر فساد مذهبهم، وانحراف عقيدتهم، وخروجهم عن ملّة الإسلام بتعطيل فرائضه وشعائره، قائلا:

لقد ذُعروا في حيثُ للطيرِ مأمَنٌ   وفي حيثُ لا تُخشى الوحوشُ من الذُّعْرِ
فيا لبني الإسلام كمْ من سعادةٍ   حَووْها بأيدي الأشقياءِ بني الكُفْرِ
بأيدي ذوي غدْرٍ وغيٍّ كأنّني   بأرماحهمْ في قبضةِ الغيِّ والغدْرِ
بهائمُ لمْ تألفْ سجوداً جباهُهُمْ   ولا ألِفوا بَسْطَ الأكُفِّ إلى الطُّهْرِ
ولا مرَّ ذكرُ الصَّوْمِ بين بيوتهمْ   ولا خاضَ في سمعٍ ولا جَالَ في صَدْرِ

ولا كان حجُّ البيتِ مما تسربلوا إليه أهاويلَ المهامِهِ والقفرِ

بلى إنْ حججناهُ غزوهُ فويلهم لقد حُمِّلوا وِزْراً ثقيلاً من الوِزْرِ

ويستغرب الشاعر أمر هؤلاء المجرمين، الذين انعكس تفكيرهم فاعتقدوا أنّ ما يفعلونه بالمسلمين أمرٌ مشروع:

رأوْا ما رأوا من نهْبهِ مَغنماً لهم وما هو إلا مَغْرَمٌ ليس بالنَّزْرِ

وظنّوا الذي فازوا بهِ أنّه الغِنَى ووالله ما فازوا بشيءٍ سوى الفقْرِ

ولا يملك الشاعر إزاء هذه الفاجعة، إلاّ أنْ يتوجّه بالدّعاء إلى الله أن يهلك هذه العصابة، ويأخذ بثأر المسلمين منهم:

فيا رَبِّ لا تُمهلْ عدوكَ وارْمِهِ بقاصِمَةِ الأعناقِ قاصِمَةِ الظَّهْرِ

ويا ربِّ خُذْ منهمْ لدينكَ ثأرَه فقد وَتَروه مُسْتهينينَ بالوِتْرِ

إلهي أعِدْ أيامَ عادٍ عليهمُ ويوماً كيومَيْ أهلِ مَدْيَنَ والحِجْرِ

وتحدّث الشعراء عن ظهور المبرقع(١) بالغرب، ودعا الناس إلى نفسه، والتفت عليه القبائل، وافتتح مدائن من أطراف الشام، وأسر أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان -وهو خليفة سيف الدولة على حمص- وألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل، وجملة من المال، فأسرع سيف الدولة من حلب يغذُّ السير حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق فأوقع به وقتله، ووضع السيف في أصحابه، فلم ينجُ إلا من سبق فرسه، وعاد سيف الدولة إلى حلب ومعه أبو وائل، وبين يديه الخارجي على رمح، وقال أبو فراس مصوّراً، قتل القرمطي، وعودة أبي وائل(٢):

وأنقذَ من مسِّ الحديدِ وثِقْلِهِ أبا وائلٍ، والدّهرُ أجدعُ صاغرُ

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ٤٦:١.

(٢) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٩١.

وأبَ ورأسُ القرمطيِّ أمامهُ ، له جسدٌ من أكعُبِ الرُّمحِ ضامِرُ

كما قال المتنبي قصيدة لامية مطلعها(١):

إلامَ طَماعيَةُ العاذِلِ ولا رأيَ في الحُبِّ للعاقلِ(٢)؟

تحدّث عن القرمطي الخارج، وقتْله على يد سيف الدولة، واستنقاذه لأبي وائل دون مالٍ، كما يقول:

فدَى نَفسَهُ بضمانِ النُّضَارِ وأعطَى صُدُورَ القَنَا الذّابِلِ(٣)

فَلُقّينَ كُـلَّ رُدَيـنيّـةٍ ومصبُوحةٍ لبنَ الشّائلِ(٤)

أمّا هذا الإمام الخارج، فإمامته باطلة، وحين قابل سيف الدولة للقتال، فإن خيله نفرتْ وهربتْ من جيش سيف الدولة، وكان الأمير وجيشه أشجع من الخارجي، وقد شلّ جمعهم وأبادهم، يقول:

وجيشِ إمامٍ على ناقةٍ صحيحِ الإمامَةِ في الباطلِ(٥)

فأقبلْنَ ينحَزْنَ قُدّامهُ نَوَافِرَ كالنّحلِ والعاسِلِ(٦)

فلّما بدوْتَ لأصحابهِ رأتْ أسْدُها آكِلَ الآكلِ

بضربٍ يَعُمّهُمُ جائرٍ لَهُ فيهم قسمةُ العادلِ

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:٢١.

(٢) طماعية: مصدر بمعنى الطمع.

(٣) النُّضار: الذهب، القنا الذابل: الرّقاق.

(٤) المصبوحة: الفرس التي تسقي اللبن صباحاً، والشائل: الناقة التي ابتدأ حملُها.

(٥) الإمام: هو القرمطي.

(٦) ينحزْن:«ينفعلن» من الانحياز أي ينضم بعضها إلى بعض، والعاسل: الذي يجمع العسل.

وطعْنٍ يُجــمّــعُ شُــذّانَهمْ   كما اجتمعتْ دِرّةُ الحـافِـلِ(١)

وأبان المتنبي عن قصد الخارجي الذي كان يطمع بالإمارة والولاية، بقوله:

ولـيـــس بأوّلِ ذي هِــمّةٍ   دعَتْـهُ لما لَيْــسَ بالـنّائِلِ

يُشَــمِّرُ للّجِّ عنْ ســاقِهِ   ويَغْمُرهُ المــوْجُ في السّـاحِلِ

ولكن طمعه هذا أدّى إلى الفتك به وبأصحابه:

تركْتَ جماجمهمْ في النّـقا   ومـا يتخـلّفنَ للنّاخِلِ(٢)

فأنبتَّ منهمْ ربيعَ السِّباعِ   فأثْنَتْ بإحسانِكَ الشّامِلِ

---

(١) دِرّة الحافل: التي حفل ضرعُها وامتلأ لبناً.

(٢) النّقا: الكثيب من الرّمل.

ب- الشعر في خدمة المذهب

علا صوت الشيعة في القرن الرابع الهجري، ومن الجدير بالذكر أن شعراء الشيعة في هذا القرن، كانوا ينضوون تحت لواء البلاط الحمْداني في حلب، والحمدانيون هم شيعة، ولكنهم غير مُغالين.

ولا تكاد تختلف القضايا التي تناولها شعراء التشيع في بلاد الشام في القرن الرابع عن القضايا التي تناولها شعراء الشيعة في العصور السابقة، وأبرز هذه القضايا رثاء آل البيت وذكر مصارعهم، ومدحهم وبيان أحقيَّتهم بالخلافة، والتعريض بخصومهم.

ويطالعنا في رثائهم حديث الصنوبري عنهم، وتفجعه عليهم، وبكائه الحار وطلبه السقيا لقبورهم، إذ يقول(١):

ما في المنازلِ حاجةٌ نقضيها   إلا السلامُ وأدمعٌ نُذْريها

وتفجُّعٌ للعينِ فيها حيثُ لا   عيشٌ أوازيهِ بعيشيَ فيها

أبكي المنازلَ وهْي لو تدري الذي   بعثَ البكاءَ لكُنْتُ أستبكيها

بالله يا دمعَ السحائبِ سقِّها   ولئن بخلْتَ فأدمعي تسقيها

وبكاهم كشاجم، وتفجّع عليهم، مُبَيِّناً أنَّ هذا البكاء لا يُغني عن فقدان ذريّة الأنبياء، يقول(٢):

بُكاءٌ وقلَّ غَناءُ البكاءِ   على رُزْءِ ذُريّةِ الأنبياءِ

لئنْ ذلَّ فيهِ عزيزُ الدموعِ   لقد عزَّ فيهِ ذليلُ العَزاءِ

لقد كان للشعراء شُغلٌ عن المقدمة الطللية، واستعاضوا عنها بالبكاء على آل

---

(١) الصّنوبري: ديوانه ٥٠٩.

(٢) كشاجم: ديوانه ٢٨.

البيت، فهذا كشاجم يظهر هلعه وجزعه عليهم، قائلاً(١):

لهُ شُغُلٌ عن سؤالِ الطَّلَلْ   أقامَ الخليطُ به أمْ رَحَلْ
لهُ في البكاءِ على الطاهر يـ   ـنَ مندوحةٌ عن بُكاءِ الطَّلَلْ(٢)
فكم فيهمُ من هلالٍ هوى   قُبيل التَّمامِ وبدرٍ أفَلْ
لهم حجةُ الله يومَ المعا   دِ للناصرينَ على مَنْ خَذَلْ

لقد أضاف الشعراء في رثائهم لآلِ البيت، والتفجّع عليهم، الدعوة لزيارة قبورهم التي تواري أعظمَ مَنْ خلقَ الله، فهم شموس مرة، وبدور مرّة أخرى كما يقول الصنوبري(٣):

زورا بيثربَ قبراً   وبالعراق قُبُورا
زورا ولا تسأما   حُيِّيتُما أنْ تزورا
زورا النبيَّ وزورا   وصيَّهُ والوزيرا
زورا الشموسَ شموسَ الـ   أيامِ زورا البدورا
محمداً وعلياً   وشبِّراً وشبيرا(٤)
صلى الإلهَ على مَنْ   أتى بشيراً نذيراً

ويذكرُ الصنوبري مصارعهم، وما آلوا إليه على يدِ الأمويين، فقد كان مقتل الحسين فاجعة للإسلام، وكان ما أصاب نساءهم خطباً جليلاً، حتى ذرفتِ الفاطمياتُ الدموع بغزارة لهذه الفاجعة التي حلّت بهم، يقول وقد ثارت نفسه غضباً على الأمويين:

---

(١) كشاجم: ديوانه ٤١٩.

(٢) المندوحة: ما اتسع من الأرض

(٣) الصّنوبري: ديوانه ٩٣.

(٤) شبر وشبير: هم أولاد هارون، ومعناها بالعربية حسن وحسين

يومَ الحسين على الدّيـ ـنِ كنت يوماً عسيرا

مـلأت والله كرْباً يا كربلاءَ الصّدورا

كأنني برحَى الحر بِ أوشكتْ أنْ تدورا

والفاطميون تقريـ ـهمُ السيوفُ الطيورا

والفاطمياتُ ينحرْ نَ بالدُّموعِ النُّحورا

يا عُصبةً لم تخفْ مِنْ إلهـها أنْ تجـورا

يا عُصْبةً لم تراقبْ قرآنَهُ المسطورا

ألم يكن حملُ رأسِ الـ ـحسينِ خطْباً كبيرا؟

ألم يكنْ منعُهُ المـا ءَ كان شيئاً نكيرا؟

ويقول مُسْتنكراً هذه الجرائم البشعة التي أرتكبتْ، وذلك بهتْك حريمهم، وتمثيلهم بالقتلى:

أكانَ هتكُ حريمِ الـ ـحسينِ أمراً حقيرا؟

أكان قرعُ ثنايا ه بالقضيبِ يَسيرا؟

لقد كانت هذه الفجائع تعود لأحقادٍ قديمة بينهم، فهاهم يثأرون لما أصابهم يوم بدر، ولا يكون بوسع الصنوبري إلاّ أن يتمنّى بأن شيعة آل علي اليوم كانوا حضوراً بالأمس، ليثأروا من بني أميّة، قائلا:

ثأرتُمُ أهلَ بدرٍ لمّا وجدتمْ ثُؤورا

نفسي تقي أمّ كُلثو مٍ الرّدى والشّرورا

لو أنّ شيعتها اليو مَ أمسِ كانوا حضُورا

إذن لظلّوا يُضاهو نَ بالزّئيرِ الزئيرا

فيكْلمونَ كُلـومـاً　　ويثــــغرون ثُـغُورا

وينظـمون نُحورا　　من العِدَى وسُحُورا(١)

وَينْحرون يزيــداً　　نحْرَ المجـيـجِ الجزُورا

ولم يكن كشاجم أقلَّ حظاً من الصـنوبري في تصوير جرائم الأمويين البشعة، فقد صوَّر القنا وقد أخذتْ نصيبها من دماء آل البيت، كما هُتكتْ الحُرُم، وسيق رجالهم كالعبيد، ونساؤهم كالإماءِ، وهُنَّ أفضل نساء الإسلام، وكلُّ ذلك ناجمٌ عن حقود الأمويين السابقة، يقول كشاجم بمرارة(٢):

وإنْ وَتَر القومُ في بدرهمْ　　لقد نقـضَ القومُ في كربْلاءِ(٣)

وأبوا وقد شَربتْ غيَّـها　　صدورُ القنا من صُدور ظِـماءِ

بها هُتكتْ حُرُمُ المصطفى　　وحلَّ بهـــنَّ عظـيمُ البَلاءِ

وساقوا رجالهمُ كالعبيدِ　　وحـازوا نسـاءهُمُ كالإمـاءِ

فلو كان جدُّهمُ شـاهـداً　　لَشيَّــعَ أظـعانَهمْ بالبُـكاءِ

حقودُ تضـرَّمُ بَــدريــةٌ　　وداءُ الحُقودِ عزيزُ الـدّواءِ(٤)

ولم يقصِّر الشعراء في مدح آل البيت والثناء عليهم، فقد تباروا في تقريظهم ، وبيان أحقيّتهم بالخلافة، لفضائلهم المتعددة، ويطالعنا الصنوبري بمدحهم، والإشادة بفضائلهم، فهم أهلُ التقوى والصلاح، المجاهدون في سبيل الله، الصائمون، القائمون، المُطَهَّرون، الذين جاعوا وأطعموا غيرَهم من الأيتام، والمساكين، أهل الكساء، الشجعان، الأبطال، يقول(٥):

---

(١) السُّحور: جمع سحر وهو الرئة.

(٢) كشاجم: ديوانه ٣٠.

(٣) وتر: أدركه بمكروه.

(٤) حقود بدريّة: إشارة إلى ما كان بين بني هاشم وبني أميّة من عداوة وأحقاد بسبب وقعة بدر.

(٥) الصنوبري: ديوانه ٩٤.

أضحى الهُدى في قبورٍ ضُمِّنتَها مقبورا
مُلِّيتَ للفاطميّيـنَ لوعةً وزفيرا
الأفضلينَ جهاداً والأفضلينَ نصيرا
الصّائمينَ المصلّيـنَ طُهِّروا تطهيرا
والمنطوينَ بطوناً والمنحنينَ ظهورا
والمطعمينَ يتيماً والمطعمينَ أسيرا
أهلُ الكساء الأجلّيـنَ منبراً وسريرا
من لم يَزَلْ جبرئيلُ ردءاً لهمْ وظهيرا
لهفي عليهمْ ليوثاً لهفي عليهمْ صُقُورا

ويجعلهم الصفوة الأخيار، وأهل الشفاعة لمن طلبها منهم، قائلا(١):

إنَّ السُّفاهَ يَقلُّ مدْحي فيهمُ فيحقُّ لي ألاّ أكونَ سفيها
هُمْ صفوةُ الكَرَمِ الذي أصفيتَهمْ ودّي وأصفيتُ الذي يصفيها
أرجو شفاعتَهمْ فتلك شفاعةٌ يلتذُّ بَرْدَ رجائها راجيها

لقد كان في حبِّهم غنىً لمادحيهم، وحماية من الفقر، وهم الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة، كما يقول كشاجم(٢):

زعموا أنَّ مَنْ أحبَّ عليّاً ظلَّ للفقرِ لابساً جلبابَا
كَذَبوا كم أحبَّهُ من فقيرٍ فتحلّى من الغِنى أثوابَا
حرَّفوا منطقَ الوحيِّ بمعنى خالفوا إذ تأوّلوه الصّوابا
إنّما قولُهُ: ارفضوا عنكمُ الدُّنـ ـيا إذا كُنتمُ لنا أحبابا

---

(١) الصّنوبري: ديوانه ٥١.
(٢) كشاجم: ديوانه ٣٦.

وهم الذين جمعوا أسباب الفضيلة كلّها، فإلى جانب الشرف جمعوا البلاغة، والحلم، والعُلا، والشجاعة، ورفض الدنيا، وتفضيل الآخرة عليها، كما في قوله(١):

آلَ الرسولِ فضلْتُمْ فضلَ النجومِ الزاهرهْ
وبهرتُمْ أعداءكُمْ بالمـأثُراتِ السّائرهْ
ولكمْ مع الشرف البلا غةُ والحُلومُ الوافرهْ
فإذا تُفوخِرَ بالعُلى فَبِكمْ عُلاكم فاخِرهْ
هذا وكمْ أطفأتُمُ عن (أحمدَ) من نائرهْ(٢)
بالسُّمْرِ تُخضَبُ بالنجيـ ـعِ وبالسيوف الباترهْ(٣)
تشفى بها أكبادكمْ من كُلِّ نفسٍ كافرهْ
ورفضتمُ الدنيا لَدُنْ فُزتُمْ بحظٍّ الآخرهْ(٤)

لقد اتخذ الشعراء من مدحهم لآل البيت سبباً في الوصول إلى أحقيتهم بالخلافة، لفضائلهم على سائر الخلق، فكشاجم يثني على عليٍّ، ويجعله إمامَ الهُدى، وهو سيفٌ ماضٍ على الكُفر وأهله، صاحب علمٍ غزيرٍ كينبوعِ الماء، ولكنّ عدوَّهُ جَحَدوا حقَّه بالخلافة على الرُّغم من أنه أجدرُ بها، إذ يقول(٥):

ولو سلّموا لإمامِ الهُدى لقوبِلَ مُعْوَجُّهم باستْواءِ
هلالٌ إلى الرُّشْدِ عالي الضيا وسيفٌ على الكُفْرِ ماضي المضاءِ
وبحرٌ تدفّقَ بالمُعْجزاتِ كما يتدفّقُ ينبوعُ ماءِ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٢١٣.
(٢) النائرة: من نارتْ نائرة: هاجت هائجة.
(٣) النّجيع: من الدم: ما كان إلى السواد.
(٤) لَدُنْ: ظرف زمان ومكان.
(٥) كشاجم: ديوانه، ٢٩.

علومٌ سـماويَّةٌ لا تُـنـالُ ومَـنْ ذا ينـالُ نجـومَ السمـاءِ

لَعمـري الأُلى جـحدوا حـقَّهُ ومـا زالَ أولاهُـمُ بالـوَلاءِ

وكم موقـفٍ كان شخصُ الحِمامِ مـن الخوفِ فـيـهِ قليلَ الخَـفاءِ

وهذا السَّريّ الرَّفّاء، رأى ما رآه شعراء عصره من أحقيّتهم بالخلافة، واغتصابها منهم، فهم أحقُّ بإرث النبي وتولّي الخلافة، وهم سادة العرب منذ القدم، كما يقول(١):

مُنِـعتُمُ كُلَّ حقٍّ واجبٍ لكُمُ حتّى مُنِعْتُمْ لذيذَ الماءِ وُرّادا

وندب الصَّوري نفسه -ولم يكن تابعاً لبلاط حاكم ما- لذكر فضائلهم، ومآثرهم ؛ فهم الناطقون بالصدق، وحُجّةُ الله في أرضه، والمُعينون على العمل الصالح، ومورِدُ كلِّ مَنْ طلبهم، والتجأ إليهم، ثم هم وارثوا علومَ الرسول الكريم -عليه السلام- يقول(٢):

هُمُ موردُ الحـوضِ للواردينَ وهُمْ عُـروةُ الله للواثقيـنـا

هُمُ عونُ مَنْ طلبَ الصـالحاتِ فكـن بمحبّـتهمْ مستعـيـنا

هُـمُ حُجّـةُ الله في أرضـهِ وإنْ جَحدَ الحُجّةَ الجاحدونا

هُمُ النّاطقونَ همُ الصّادقونَ وأنتـمْ بتـكذيبهم كاذبـونا

هُمُ الوارثون علومَ الرَّسولِ فمـا بالُكم لهـمُ وارِثـونا

وهم المُوصى إليهم، والطيّبون، وعليٌّ هو الذي ندب نفسه للنوم في فراش النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم الأخيار الطّاهرون، كما يصفهم:

فأيُّكـم كـان أوْلـى بهـا وأثبـتَ أمراً من الطّيّبينا

---

(١) السَّري الرَّفّاء: ديوانه ٢:١٢٧.

(٢) الصَّوري: ديوانه ٢:٦٨.

وأيُّكمُ كان بَعدَ النبيِّ   وصياً ومن كان فيكمْ أميناً

وأيُّكمُ نام في فرشه   وأنتم لمهجته طالبونا

ومَنْ شارك الطُّهرَ في طائرٍ   وأنتمْ بذاك لهُ شاهدونا

لقد كانوا أهلَ الرسالة، فلا تليق الإمامةُ بغيرهم، كما يقول(١):

آلُ النبيِّ هُمُ النبيُّ وإنّما   بالوحي فُرِّق بينهمْ فتفرقوا

أبتِ الإمامةُ أنْ تليقَ بغيرهمْ   أهلُ الرِّسالةِ بالإمامةِ أليقُ

لقد كان في وصيّة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لعلي في غدير خمّ موئلٌ للشعراء، ليؤكّدوا أحقيّة الطّالبيّين بالخلافة، إذ آخاه، وجعله منه كهارون من موسى ونبّه الحاضرين لذلك، وصرّح بتفضيل عليّ، يقول الصنوبري(٢):

رفع النبيُّ يمينَهُ بيمينه   ليرى ارتفاعَ يمينهِ رائيها

في موضعٍ أضحى عليه منبِّهاً   فيهِ، وفيهِ يبدعُ التّشبيها

آخاهُ في خُمٍّ ونوّه باسمهِ   لم يألُ في خبرٍ بهِ تنويها

هو قال: أفضلُكمْ عليٌّ إنّه   أمضى فسنّتُهُ التي يمضيها

هو لي كهارونٍ لموسى حبّذا   تشبيهُ هارونٍ به تشبيها

وأشار أبو الرَّقعمق إلى يوم الغدير، حين فضّل النبي -عليه السلام- عليّاً على سائر الخلق وجعله أفضل من في الدنيا، بقوله(٣):

لا والذي نطقَ النبيُّ بفضلهِ يومَ الغديرِ

ما للإمامِ أبي عليٍّ في البريّةِ مِنْ نظيرِ

---

(١) الصّوري: ديوانه ١:٣٢١.

(٢) الصّنوْبري: ديوانه ٥١.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٢٩٦.

ورغم هذه الوصيّة فإن الخصوم أنكروها، وأصبحت منبوذة في العراء كما يقول كشاجم(١):

وأوصى النبيُّ ولكنْ غدَتْ وصاياهُ منبوذةً بالعراءِ

ومن قبلها أمر المنبئون بردِّ الأمورِ إلى الأوصياءِ

وعرّض الشعراء كثيراً بخصوم آل البيت، ولا سيّما الأمويّون الذين أنكروا الوصيّة ونبذوها رغم معرفتهم بأحقية غيرهم بها، ووصفهم كشاجم بأهل الضلال، والغيّ والظلم، وذلك بكل قسوة ومرارة، إذ يقول(٢):

نبذتُمْ وصيّتهُ بالعَرَاء وقُلتُمْ عليه الذي لم يُقَلْ

لقد طمسَ الغيُّ أبصارَكمْ وضلَّ بكمْ عن سَوَاءِ السُّبُلْ

أيمنعُ (فاطمةً) حقَّها ظلومٌ غشومٌ زنيمٌ عُتُلْ(٣)

وأبان الصُّوري عن حقدهم وجحدانهم، وإصرارهم على الباطل، مع علمهم بالحق وأهله، ومردُّ ذلك طمعُ نفوسِهم بها، قائلا(٤):

حقدتُمْ عليهمْ حُقُوداً مضتْ وأنتمْ بأسيافهمْ مُسْلمونا

جحدتُمْ مُوالاةَ مولاكُمْ ويومَ الغديرِ بها مؤمنونا

وأنتم بما قاله المصطفى وما نصَّ من فضلهِ عارفونا

وقلتُمْ رضينا بما قلتَهُ وقالتْ نفوسُكمُ ما رضينا

ولم يقصِّر أبو فراس من التعريضِ بالأمويّين، فقد طعنهم طعناً، وذمّهم ذمّاً شديداً، فهم الذين أراقوا الدِّماء، ولم يردعْهم رادعٌ، لادين ولا عهد ولا قُربى، وهم

(١) كشاجم: ديوانه ٢٩.

(٢) كشاجم: ديوانه ٤٢٣.

(٣) الزّنيم: المُستلحق في قوم ليس منهم أي الدَّعيّ، والعُتُل: الجافي الغليظ.

(٤) الصُّوري: ديوانه ٢:٦٨.

الذين غدروا آل البيت، وهم آل الرسول الكريم -عليه السلام- يقول فيهم(١):

لا بيْعةٌ رَدَعتْكُمْ عن دِمائِهِمُ ... ولا يَمينٌ ولا قُرْبى ولا ذِمَمُ!

هلاّ صفحتُمْ عن الأسرى بلا سببٍ ... للصّافحين ببدرٍ عَنْ أسيرِكُمُ؟

كم غدرةٍ لكُمُ في الدّين واضحةٍ! ... وكم دمٍ لرسول الله عندكُمُ!

وهم شِيَعُ الغيِّ والضّلال، آذوا أكرمَ خلق الله، وأطلُّوا دمهم، وعفّروا جبينهم بالثرى، كما تحدّث كشاجم عنهم قائلا(٢):

يا شيعَ الغيِّ والضّلالِ ومَنْ ... كلُّهمُ جَمّةٌ فضائحُهُ

غَشَشْتُمُ اللهَ في أذيّةِ مَنْ ... إليهمُ أُدّيتْ نصائحُهُ

عفّرتمْ بالثّرى جبينَ فتى ... (جبريلُ) قبل (النبيِّ) ماسحُهُ

يُطَلُّ ما بينكمْ دمٌ (لرسو ... ل اللهِ) وابن السّفّاحِ سافِحُهُ(٣)

سيّانَ عندَ الإلهِ كُلُّكمُ ... خاذلُهُ منكمُ وذابحُهُ

لقد انتقص الشعراء من قدْرَ الأمويين، ووصفهم الصنوبري بأنّهم حمير، ومن يقودهم هو حمار، يقول(٤):

بغى عليهمْ حمارٌ ... باغٍ يسوسُ حميرا

وكان ينقُصُ مُذ كا ... نَ ناقصاً مبتُورا

وعرّض بعبيْد الله المختار، ولعنه، فهو الذي قاتل الطّالبيِّين بخيل إبليس رغم علمه بأنّه غيرُ مُحقٍّ بعمله هذا، يقول(٥):

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٥٧.

(٢) كشاجم: ديوانه ١١٢.

(٣) يُطلُّ: يُهدر.

(٤) الصنوْبري: ديوانه ٩٥.

(٥) الصنوْبري: ديوانه٢٧٢.

وابنُ اللعينِ عبُيدُ الله قد قرض الـ مختارُ مُدَّتَهُ بالسيفِ فانقرضا

بعد اعتراضِ عبيــد الله سادتَـنا بالخيل وهْو يراها للرّدى غَرضًا

بخيلِ إبليسَ هاتيكَ التي ركضــتْ لـمّا تَراءَى لها إبليسُ قــد ركضا

وفي الوقت الذي عرَّض الشعراء فيه بالأمويينّ، ووصفوا دولتهم بالاعوجاج، فإننا نرى الصُّوري يشير إلى هذه الحقيقة، ويرى في وصول الفاطميينّ، استرداداً لحقوق الطالبيِّين، وذلك ضمن قصيدة مدح بها الحاكم بأمر الله، قالها يوم عاشوراء، يقول فيها(١) :

فمن مُبلغٌ عنّــي أميَّةَ أننّـــي هتفــتُ بما قد كنتُ عنها أكاتِمُهْ

مضَتْ أعصرٌ مُعْوجَةٌ باعوجاجكمْ فلا تُنكروا أنْ قُوِّمَ الدّهــرَ قائِمُهْ

وجدّد عهدَ المصــطفى بعضُ أهلهِ وحُـكّم في الدِّين الحنيفيِّ حاكمُهْ

إلى أن يقول مشيداً بالدولة العلوية، التي وصلت إلى الحكم:

فيالكِ منها دولةً علويّةً تبدَّتْ بسعْدٍ خاتَمُ الدهْرِ خاتِمُهْ

ويتحدث عن الحاكم حين وصل إلى الخلافة، وكيف كان الإسلام قبله، ثم كيف أصبح الآن في عهده، فقد كان مظلماً واكْتسى الآن نُوراً، وكشف عن الحق وأزال الباطل يقول(٢):

وتوارثـوها لــيس تخـــ رجُ عنهمُ شِبــراً قـــصيرا

هذا إلى أنّ قـــامَ قـــا ئـــمُ آلِ أحــمدَ مُستْثـيرا

وتسـلّـــم الإسـلامَ أقـ تَـــمَ مُظلماً فكساه نُــورا

وكـأنّمـا مَـزّقـا بـــذ لك عن دعائـمهِ قبـــوراً

---

(١) الصّوري: ديوانه ٢:٣٧.

(٢) الصّوري: ديوانه ١:٢١٩.

حتى إذا ما الحاكمُ الـ مَنصُورُ قام لها نصيرا

ظهرتْ دلائلُ لمْ تَجِدْ من دونِ دولتهِ ظهيرا

لم يقف شعراء الشيعة عند التعريض بالأمويِّين فقط، بل عرَّضوا بالخلفاء العبّاسيِّين الذين اغتصبوا الخلافة من العلويِّين، فانبرى أبو فراس الحمداني في معارضته لمحمد بن عبدالله بن سكّرة الهاشمي -الذي افتخر على الطالبيِّين- للهجوم عليهم، وذكر مساوئ خلافتهم، وضعفهم الظاهر، فقد خرجوا على الدِّين، وانتقصوا الحقوق، وظلموا الرّعيّة التي أصبحت تُسامُ كالأنعام، لقد كانوا طُغاة كالأمويِّين، يقول مُستصرخاً بمن يُرَجِّعُ الحقوق لأصحابها، وينتقمُ للدين الذي أُنتُقِصَ لديهم(١):

الدِّينُ مُخترمٌ، والحقُّ مُهْتَضمٌ وفيءُ آلِ رسولِ الله مُقتَسمُ(٢)

والناسُ عندك لا ناسٌ، فيحفظهمْ سَوْمُ الرُّعاةِ، ولا شاءٌ، ولا نِعَمُ

يا للرجالِ! أما لله مُنْتَصِفٌ من الطُّغاةِ؟ أما للدِّينِ مُنتقِمُ؟!

بنو عليٍّ رعايا في ديارهمُ والأمرُ تملكُهُ النُّسوانُ والخَدَمُ!

فالطالبيّون أحقُّ من بني العباس، وإذا كان العباسيون يفخرون عليهم، فلا مجال للمقارنة بهم، فالطالبيّون هم سادتهم، والرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- جدُّهم وهم أحقّ به منهم، وقِدَمُهم سابق في المجد، وأصلهم وشرفهم يفوقون به بني العباس، يقول:

لا يُطغِيَنَّ بني العباس ملكهُمُ بنو عليٍّ مَوَاليهمْ وإنْ زعَمُوا

أتفخرُون عليهمْ؟ لا أبَا لكُمُ حتّى كانَ رسولَ الله جدُّكُمُ

وما توازنَ يوماً بينكمْ شرفٌ ولا تساوتْ بكمْ، في موْطنٍ قَدَمُ

---

(١) أبو فراس: ديوانه ١٥٦.

(٢) مخترم: مستأصل.

ولا لكمْ مثلُهُمْ، في المجدِ متّصلُ ولا لجدِّكُمُ مَسْعَاةُ جدِّهمُ

ولا لِعرْقِكمُ مِنْ عِرْقِهِمْ شَبَهٌ ولا نفيلتُكمْ من أُمِّهِمْ أَمَمُ(١)

لقد تجاهل العباسيون والأمويون أمر أحقيّة الخلافة، وكأنهم لا يعرفون ذلك، وأصبحوا يتشاورون بها على غير حق، وادّعاها بنو العباس، وكأنها إرْثٌ لهم، وهي ليستْ كذلك، فهم ظلموا غيرهم، وظلموا أنفسهم بها، فلم يُشهدْ لهم الفضلُ على عليّ يوماً ما، يقول مُندِّداً بهم، وساخراً منهم:

قام النبيُّ بها يومَ الغديرِ، لهَمْ والله يشهَدُ والأملاكُ والأمَمُ

حتى إذا أصبحتْ في غيرِ صاحبِها باتَتْ تُنازعُها الذُّؤبانُ والرَّخَمُ

وصُيِّرتْ بينَهمْ شُورى كأنَّهمُ لا يعرفون وُلاة الحقِّ أيُّهمُ!

تالله ما جَهِلَ الأقوامُ موضِعَها لكنَّهمْ ستَروا وجْهَ الذي علِمُوا

ثمَّ ادّعاها بنو العبّاس إرثَهمُ، وما لهمْ قَدَمٌ فيها ولا قِدَمُ

لا يُذْكَرونَ إذا ما معشرٌ ذُكروا ولا يُحكَّمُ في أمرٍ لهَمْ حَكَمُ

ولا رآهمْ أبو بكرٍ وصاحبُهُ أهلاً لِما طلبوا منها وما زَعَمُوا

فهل هُمُ مُدَّعوها غيرَ واجبةٍ أمْ هل أئمتُهمْ في أخذها ظَلَمُوا؟

وعلي أحقُّ منهم، فالكلُّ يشهد بفضله، وبأحقيّتهِ، ولا أحدٌ يُنكر ذلك، يقول مُوَبِّخاً إياهم:

أمّا عليٌّ فقد أدْنَى قرابتكمْ عندَ الولايةِ، إن لم تُكْفَرِ النِّعَمُ

هلْ جاحدٌ يا بني العباسِ نعمتَهُ أبوكُمُ، أم عُبيدُالله، أم قُثَمُ(٢)

بئسَ الجزاءُ جزيتُمْ في بني حَسَنٍ! أبوهُمُ العَلَمُ الهادي وأُمُّهُمُ

---

(١) نفيلة: أم العباس، وأراد بأمّهم فاطمة أم عبدالله.

(٢) قُثَم: من أبناء العباس.

وأما عن المذهب الشيعي السائد، فلا نرى منْ يحدّثنا عن ذلك إلاّ إشارةً واحدة بيّنها أبو فراس، وتحدّث عنها، حيثُ أشار إلى مذهب الاثنا عشرية،يقول فيهم(١):

لَسْتُ أرْجو النّجاةَ، من كُلِّ ما أخْـ ... شَاهُ، إلاّ بأحمدٍ وعليٍّ
وببنتِ الرسولِ فَاطمةِ الطُهْـ ... ـرِ، وسِبْطيْهِ والإمامِ عليٍّ(٢)
والتقيِّ النَّقيِّ، باقرِ عِلْمِ الإ ... لهِ فينا، محمدِ بنِ عليٍّ
وابنهِ جعفرٍ ومُوسى ومَوْلا ... نا عليٍّ، أكرمْ بهِ من عليٍّ
وأبي جعفرٍ سَمِيِّ رسول الـ ... ـله، ثمَّ ابنهِ الزّكيِّ عليٍّ
وابْنهِ العسكريِّ والقائمِ المُظْـ ... ـهرِ حقّي مُحمدِ بنِ عليٍّ
بِهِمُ أرْتجي بُلُوغَ الأماني ... يَوْمَ عَرْضي على الإلهِ العَليّ

---

(١) أبو فراس: ديوانه ١٨١.

(٢) السِّبط: الكريم.

ع- النقد السياسي والاجتماعي

تعددت مجالات النقد الاجتماعي والسياسيّ في الشعر الشامي في القرن الرابع الهجري، وقد شمل هذا النقد طوائف مختلفة من الناس، وظواهر اجتماعية رآها الشعراء سلبية، وقد إتخذ بعض هذا النقد مظهراً تعميمياً، دون أن يخصّ الشعراء حاكماً بعينه، وأكثر ما يكون ذلك عند المقارنة بين سيف الدولة وغيره من الحكام والملوك، فهذا أبو فراس الحمداني يقارن بين بني حمدان، وغيرهم من ملوك عصره، وكأنه يرى أحقيّة الحمدانييّن بالخلافة، فإذا كان هدف الحكام الالتذاذ بشرب الخمر، والاهتمام بمجالس الأنس والرقص والغناء، فإنّ بني حمدان لم يُخلقوا إلاّ لخوْز المجد والشجاعة والجود، إذ يقول(١):

لئن خُلِقَ الأنامُ لحسوِ كأسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وعودِ(٢)

فلمْ يُخلَقْ بنو حمدانَ إلاّ لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجودِ

والشاعر المتنبي كان من أكثر الشعراء الذين اتخذ نقدهم طابع التعميم، فقد قال في مدحه لبني حمدان: إنهم لا يستوون بغيرهم من الحكّام، فإذا كانوا هم يكرّسون حياتهم لخوض الحروب، فقد كرّس غيرُهم حياته لشرْب الخمر، ولا أكثر من ذلك(٣):

ما الذي عندهُ تُدارُ المنايا كالّذي عندَهُ تُدارُ الشّمولُ(٤)

وفي قصيدة أخرى فإنّه يصف هؤلاء الحكام في ابتعادهم عن الدين، واعتمادهم في الحكم على الخدم، وليس لهم من الأمر شيءٌ، وهم يُحلّلون الحرام، ويُحرِّمون الحلال، ثم هم كالأغنام يصرِّفُها الرُّعاة حسب أهوائهم، وفي اعتمادهم

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه٦٢.

(٢) الطنبور: من آلات الطرب.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:١٥٧.

(٤) الشّمول: الخمر الباردة التي ضربتها ريح الشمال.

على هؤلاء الخدم أو العبيد منقبضة للعرب وهم السادة، يقول مُظهراً غضبه(١):

أرى أُناساً ومحصولي على غَنَمٍ   وذِكْرَ جودٍ ومحصولي على الكَلِمِ
سيصحبُ النَّصْلُ منّي مثلَ مَضْرِبِهِ   وينجلي خَبَري عن صِمّة الصِّمَمِ(٢)
لأتركنَّ وجوهَ الخيلِ ساهمةً   والحربُ أقومُ من ساقٍ على قَدَمِ(٣)
بكلِّ مُنصلِتٍ ما زال مُنتظري   حتى أدَلْتُ لهُ من دَوْلةِ الخَدَمِ(٤)
شيخٌ يرى الصلواتِ الخمسَ نافلةً   ويستحلُّ دمَ الحجاجِ في الحَرَمِ

ويعلّق شوقي ضيف على أبيات المتنبي قائلا: «وواضح أن نفسه تكاد تذهب حسرات، فالناس من حوله مسخّرون للحكام، كأنهم أغنام، أو أنعام، وأنه يعلن على أن يشبَّ على أعدائه حرْباً شديدة الضّرام، يخوضُها الفرسان على خيولهم، حتى يستنقذ الأمة من دولة الترك الأعاجم، الذين استذلوا سادتهم العرب»(٥).

وانتهز المتنبي الفرصة في مدحه للمغيث بن علي العجلي بنقد السلاطين والملوك وجعلهم أرانبَ، والأرنبُ يُضرب به المثل للجبان العاجز الذي لا يملك القدرة على فعل أي شيء، وهم غَفلَة لا يعلمون شيئاً، فعيونهم مفتحة، وعقولهم وقلوبهم لا تعلم شيئاً، وهم أجساد بلا عقول، ولا هدف لهم من الحياة إلا الطعام، فإذا كانت هذه الصفات هي ما امتاز به الحكّام آنذاك، فأين العرب الجديرون للقيام بالسلطة، يقول(٦):

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح اليازجي ١:٣١.
(٢) الصمّة: الشجاع.
(٣) ساهمة: أي متغيرة ضامرة.
(٤) الباء في «بكلّ» للاستغاثة، والمنصلت: الماضي في الأمور، أدلتُ له: أي نصرته.
(٥) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ٨٠.
(٦) المتنبي : ديوانه بشرح العكبري ٤:٧٠.

أرانبُ غيرَ أنّهمُ مُلُوكٌ مُفَتَّحةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ

بأجسامٍ يحرُّ القتلُ فيها وما أقرانُها إلا الطّعامُ(١)

والمتنبي نفسه يتحدّث عن حق العرب الذي عفا عليه الزمن، وهممهم التي خارتْ وضعفت، وكل ذلك لأنّ فلاح الناس بفلاح الملوك، ومن الطبيعي ألاّ يفلح العرب ما دام حكامهم أعاجم، وهم أراذل الناس، فلا عهد لهم ولا ذِمَم، ولا حَسَبٌ عندهم ولا أدب، وما العرب الذين خضعوا لهم إلاّ كالأغنام السائمة، لا حول لهم ولا قوّة، وهذا العجمي الذي لم يعرف الحضارة قطّ، صار حاكماً مسؤولاً عمن هم أسيادٌ، فقد كان هؤلاء يلبسون الخز ويستخشنونه، فإذا بهم حكّام لمن هم أفضل منهم، قائلاً(٢):

أحقُّ عافٍ بدمعكَ الهِمَمُ أحدثُ شيءٍ عهْداً بها القِدَمُ

وإنّما النّاسُ بالملوكِ وما تُفلحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ

لا أدبٌ عندهمْ ولا حَسَبٌ ولا عهودٌ لهمْ ولا ذِمَمُ

في كلِّ أرضٍ وطِئْتَها أُمَمٌ تُرعى بعبْدٍ كأنهمْ غَنَمُ

يستخشِنُ الخزَّ حين يلبِسُهُ وكان يُبْرَى بظُفْرِهِ القَلَمُ

غير أنّ بعض الشعراء صرّحوا بمهجوّيهم من الحكّام دون مواربة، ولم يسلم الخلفاء العباسيون من ذلك، فهذا أبو فراس لم يتورّع من نقده لهم إزاء ضعفهم وتحكُّم الأعاجم بدولتهم، وانشغالهم بالملاهي والملذّات، والأمور الدنيوية، فإذا ادّعوا الملك، لم يكونوا كذلك لأنّ المُلك بيد الأعاجم، وتثور ثائرة أبي فراس عليهم، ويقول لهم: لا تدّعوا الفخر، بل اتركوه عنكم فليس لديكم ما تفخرون به، والفخر لمن يغضب في الله ويحكم وفقاً للشريعة، ويؤدي الفرائض، وتلاوة القرآن، في الوقت الذي أنتم لا يُسمع في بيوتِكم إلا الغناء(٣):

---

(١) يحرُّ: يشتد.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٤:٥٩.

(٣) أبو فراس: ديوانه ١٥٨.

أبْلغْ لديْكَ بني العبــاسِ مألُــكةً: لا تدّعوا مُلكَــها! ملاَكُها العــجــمُ

أيُّ المفاخرِ أمســتْ في مــنابرِكمْ، وغيرُكُمْ آمرٌ فيــهِنّ، مُحــتكمُ؟

وهــلْ يزيدُكُمُ منْ مَفــخَرٍ عَلَمٌ، وفي الخِلافِ عليكمْ يَخفقُ العَلَمُ

خلّوا الفَخار لعلاّمينَ إن سُئــلوا يومَ السؤالِ، وعمّــالينَ إن علِموا

لا يغضبونَ لغيرِ اللّه إنْ غضبوا ولا يُضيْعون حكمَ الله إنْ حكموا

تبدو التــلاوةُ منْ أبيــاتِهمْ أبداً وفي بيوتِكُــمُ الأوتارُ والنــغَمُ

لقد أقام أبو فراس موازنة بينهم وبين العلويّين، وهو يرى أحقية العلويين بالخلافة، فإذا بالعباسيّين يكثّفون مساعيهم إلى ملذّاتِ الدّنيا ومتعها، من شُرْبٍ وغناءٍ وطرب، وإذا بالعلويين لم يكونوا كذلك، لأنهم جعلوا مساعيهم للآخرة لا للدنيا، فمن اشتهر من العباسيين، اشتهر بالغناء والرّقص وشرب الخمر، وقضاء الأوقات مع النُّدماء، ومغازلة الجواري، وأما العلويون فقد قضوا أوقاتهم حجّاً وتقرُّباً إلى الله، وفيهم ملجأ لمنْ طَلَبَهم، ومعصَمٌ لمن التاذ بهم، يقول:

منكم عُليّةُ، أم منــهمْ؟ وكان لهمْ شيخُ المغنّينَ إبراهيمُ أمْ لكُــمُ(١)

ما في ديارِهمُ للخــمرِ مُعْتَــصَرٌ ولا بيوتُهمُ للسّــوءِ مُعْتَــصَمُ

ولا تبيــتُ لهمْ خُنْثى تُنادِمُــهمْ ولا يُــرى لهمُ قــردٌ لــهُ حَشَمُ

الرّكْنُ والبيتُ والأستارُ منزلُهمْ وزمزمٌ والصّفا والحِجْرُ والحَرَمُ

صلىّ الإلهُ عليــهمْ أينــما ذُكروا لأنّــهمْ للورى كهْفٌ ومُعْتَــصَمُ

ونقد الشعراء المستخدَمين والموظفين في الدولة، من ذلك هجاؤهم للرؤساء، وذلك بوصولهم إلى الرّياسة بطريق غير مشروعة، وإظهارِهم الكِبْر، وهو غير مُسْتَطاب، وابتغوا من وصولهم لها أسباب الغنى، وليس لهم من المعالي شيء كما

---

(١) عُليّة: هي بنت المهدي أخت الرّشيد، وقد وُصِفتْ بالغناء.

يقول كشاجم(١):

عُدِمْتُ رئاسةَ قَوْمٍ شقوا ... شباباً ونالوا الغِنى حين شابوا

حديثٌ بنعمتهمْ عَهْدُهمْ ... فليسَ لهمْ في المعالي نِصابُ

يَرَوْنَ التكبُّرَ مُسْتَصْوَباً ... من الرأي والكِبْرُ لا يُسْتطابُ

وإنْ كاتبوا صادقوا في الدّعاء ... كأنَّ دُعاءَهُمُ مُسْتجابُ

ويصوّر إظهارهم الإعجاب بالنفس، والتكبُّر، وعدم تلبية حاجات الناس، ورفض الشاعر أن يتقرّب منهم، وهم لا يعترفون بحقوق الناس، وكل ما يبتغونه هو أن يتقرّب العامة لهم، إذ يقول(٢):

رأيتُ الرئاسةَ مقرونةً ... بلبْسِ التّكبُّرِ والنّخوهْ(٣)

إذا ما تقمَّصها مُعْجِبٌ ... ترفّعَ في الجهرِ والخلوهْ

ويقعدُ عن حقٍّ إخوانهِ ... ويطمعُ أن يُسرعوا نحوهْ

وينقصهمْ من جميل الدُّعاءِ ... ويأملُ عندهمُ الحظْوهْ

فذلك إن أنا كاتبْتُهُ ... فلا سَمَعَ اللهُ لي دَعْوَهْ

ولستُ بآتٍ لهُ منزلاً ... ولو أنّهُ يسكنُ (المروَهْ)

وانتقد الصنوبري ولاة الشام واتهمهم بالبخل، وجاء بمعنى جميل شبّه به شعرَه الذي يهديه لهم كمَنْ ينفخُ في البوق مرة، ومن يسقي المخنوق ماءً، يقول(٤):

يا ذا الذي يصدُقُني وُدُّهُ ... وليْس مكذوبٌ كمصدوقِ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٤١.

(٢) كشاجم : ديوانه ٤٩٣.

(٣) النخوة: الحماسَة والمروءة.

(٤) الصّنوبري: ديوانه ٤٢٥.

أنتَ أبا عبدالإلهِ امرؤٌ سابقُ مجدٍ غيرُ مسبوقِ
خُلِقْتَ في أكْرمِ ما خلقةٍ فأنتَ من أكْرَمِ مَخْلوقِ
لا كالأُلى حصّلْتُ من وُدِّهم ما حصَّل النافخُ في البوقِ
بضاعتي كاسدةٌ عندهمْ كسادَ ماءٍ عند مخنوقِ
فاعجبْ ففي قولي أعجوبةٌ منسوقُها أعجبُ منسوقِ
منزليَ الشامُ كما قد ترى وإنّما زيتي من السُّوقِ

وقد ذمَّ الشعراء الحُجّاب وشكوا منهم حتى أن الصّوري يرى أن يرتكب كل الحماقات أهون عليه من أن يقف أمام الحاجب(١):

لَقلعُ ضِرْسٍ ومَضْغُ كِلْسٍ وردُّ أمسٍ ويومُ نَحْسِ
ولذعُ نارٍ وحملُ عارٍ وبيعُ جارٍ برُبْعِ فلْسِ
ومضغُ صخرٍ وسَفُّ بعرٍ وجوعُ دَهْرٍ والفُ قَلْسٍ(٢)
وقودُ قِردٍ ونسجُ بُرْدٍ ودَبْغُ جلدٍ بغيرِ شمْسِ
وقَتْلُ إلْفٍ وأكلُ كفٍّ وضيقُ خُفٍّ ونزعُ نفْسِ
وقَتْلُ عمٍّ وشربُ سمٍّ وطولُ غمٍّ وضَنْكُ حَبْسِ
وقَتْلُ خالٍ وعُدْمُ مالٍ وسوءُ حالٍ وطولُ عَكْسِ

إلى أن يقول:

وعُدمُ نفعٍ وكسرُ ضَلْعٍ وطولُ صَفْعٍ وطولُ حَبْسِ
أهْوَنُ من وَقْفةٍ ببابٍ تَلْقاكَ حُجّابُهُ بعبْسِ

---

(١) الصُّوري: ديوانه ٢: ١٤٠.
(٢) القَلْسِ: القيء.

واتخذ الشعراء من الهجاء الشخصي نقداً للظواهر الاجتماعية المختلفة، ومن ذلك أنهم أجمعوا على ذم أصحاب اللّحى من الفقهاء ووصفهم باللؤم، وأنهم فعلوا ذلك لجلب الناس، يقول السَّرِيّ الرّفاء(١):

رأيتُ خيارَ بني مُسْهِرٍ   تُشاكلُ في اللؤمِ أشْرارَها

أطالوا اللحى كيْ يحُوزوا بها   مُرادَ النفوسِ وأوطارَها

وحفُّوا الشّواربَ عنْ نُخْرَةٍ   تَضَرَّمُ إنْ يُطْفِئوا نارَها(٢)

وكانتْ سُتُوراً على كُنفِهِمْ   فكم سَلبُوا الكُنْفَ أستارَها(٣)

ونقدوا الظواهر الاجتماعية كظاهرة الظلم، وربطوها بأصحاب اللّحى، فلطالما بدوا أمام الناس عِلْقا ثميناً، ولكنهم في الحقيقة لا يساوون شيئاً، وصبَّ الصنوبري غضبه عليهم، قائلا(٤):

شُبِ ازدياداً في الهوى بانتقاصْ   ولا تُطِعْ أمْرَ وَصُولٍ وَعَاصْ

إن تَسُمِ الشاميَّ هَجْراً فقد   خَلَّصَهُ هَجْرُكَ كلَّ الخلاصْ

يا ظالماً أصبح ذا لحيةٍ   تُعلِّمُ المظلومَ أخْذَ القصاصْ

قد كنتَ عِلْقاً مُثْمناً غالياً   فصِرْتَ من بعضِ العُلوقِ الرِّخاصْ

فأينَ ذاك الحسْنُ، مالي أرى   وجْهَكَ منه وهْو خالي العِرَاصْ

مَنْ لبسَ الشَّعْرَ عِذاراً فقد   ألبسَكَ الشَّعْرُ لِجاماً دِلاصْ(٥)

فَسِلْ بريحِ الذمِّ سَيْلَ الهَبَا   وَذُبْ بنارِ الهَجْرِ ذَوْبَ الرَّصاصْ

---

(١) السَّرِيّ الرّفّاء: ديوانه٢: ٣٠٩

(٢) النُّخرة: مقدمة الأنف

(٣) الكُنْف: الخلاء الساتر للدار

(٤) الصنوْبري: ديوانه ٢٤٥

(٥) الدِّلاص: الأملس اللين

وله كذلك يسخر منهم وينقدهم نقداً لاذعاً، إذ يقول(١):

وحامل لحيةٌ لمّا بَدَتْ وقَعَتْ ما بيْنَ حالينِ من نقْضٍ وتقويضِ
سألْتُهُ كيف ما طالتْ وما عرضتْ فردَّ إذ ردَّ قولاً غيرَ تعريضِ
ما جادَ زَرعُ اللِّحى لا جاد مُذ وقَعَتْ فيهِ طُيورٌ تُسمّى بالمقاريضِ

ويسخر الببغاء من أصحاب اللحى الذين اتخذوها وسيلة لخداع الناس، والتظاهر بالعلم والمعرفة، والحصول على المراتب العالية، قائلاً(٢):

ما كُلُّ مَنْ طوّلَ عُثْنُونَهُ يزدادُ فضلاً يا أبا الفضْلِ(٣)
طوّلتَ عُثْنُونَكَ تبغي العُلا أيُّ عُلاً في ذَنَبِ البَغْلِ
ولستُ أحصي كم رأيتُ امرءاً الْحي ولكنْ كوْسَجُ العَقْلِ(٤)
قد مَلأتْ لحيتُهُ صدرَهُ ورأسُهُ أفرغُ منْ طبْلِ

وشغلتْ ظاهرةُ البخلِ شعراءَ هذا القرن كثيراً، وهجوا مَن اتّصف بها، حتى لو كان من أقرب الناس للشاعر، فهذا الصّوري يهجو أخاه لا تّصافهِ بالبخل، وتحدّث عن نزوله عليه، ولاقاه بالعبوس والسّؤال عن مجيئهِ إليه، وقد ردَّ عليه الصّوري بأسلوب جميل استمدّهُ من السنة، إذ يقول(٥):

وأخٍ مسّهُ نُزولي عليهِ مثلَ ما مسّني من الجوعِ قرْحُ
قيلَ لي إنهُ جوادٌ كريمٌ والفتى يعتريه بُخلٌ وشُحُّ

---

(١) الصّنوبري: ديوانه٢٦٦
(٢) الببغاء: شعره١٤١
(٣) العثنون: شعيرات تحت حنك البعير
(٤) كوسج: معرب كوسه بمعنى ناقص الشعر، واشتقّوا منه فعلاً فقالوا من طالت لحيته تكوسج عقله، انظر: شهاب الدين الخفاجي: شفاء الغليل ٢٢٤..
(٥) الصُّوري: ديوانه ١: ٨٤

بتُّ ضيفاً له كما حكمَ الدّهـ ـرُ وفي حُكمهِ على المرءِ قُبْحُ

فابتداني وقال وهو منَ الكُرْ هِ والهمُّ طافحٌ ليس يصحو

لِمْ تغرَّبْتَ؟ قلتُ: قال رسول الـ ـلّه والقولُ منه نُصحٌ ونجْحُ

سافروا تغنموا، فقال: وقد قا لَ تمامَ الحديثِ: صُوموا تَصحّوا

كما تحدّث الحسن الدّقاق عن صديق له أجحفَ في مَسْألتِه وهو ضيفه، ووصف بخلَه بأسلوب جميلٍ، إذ طلبِ منه أضعاف ما أكله عنده، قائلا(١):

ودعوتَني وأكلتُ عندك لقمةً وشربْتُ شربَ مَنِ استتمَّ خروفا

وسألْتَنِي في أثْرِ ذلك حاجةً ذهبتْ بمالي تالداً وطريفا(٢)

فجعلْتُ أُفكرُ فيكَ باقي ليلتي ما كنتَ تفعلُ لو أكلْتُ رغيفا

كما انتشر النفاق، وعُدِم الزمان من وجود الأصحاب الثقات، فالناس تحوّلوا إلى ذئاب ولم يبقَ للحرِّ الكريم أصدقاء، كما يقول أبو فراس الحمداني(٣):

بمَنْ يثقُ الإنسانُ فيما ينوبُهُ ومن أينَ للحرِّ الكريمِ صِحَابُ؟

وقدْ صارَ هذا الناسُ إلاّ أقلَّهمْ ذِئاباً على أجسادِهنَّ ثيابُ

ولم يجد أبو فراس الخليل الصادق الذي يحفظ مودته، ويأمَنَهُ على سرِّه، يقول(٤):

ولمّا تخيّرْتُ الأخلاّءَ لم أجدْ صبوراً على حِفْظِ المودّةِ والعَهْدِ

سليماً على طيّ الزّمانِ ونشرهِ أميناً على النّجوى صحيحاً على البُعْدِ

---

(١) الثعالبي: تتمّة اليتيمة ٥٣.

(٢) التّالد: القديم من المال وغيره، الطريف: المستحدث من المال وغيره

(٣) أبو فراس الحمداني: ديوانه١٤

(٤) أبو فراس: ديوانه ٥٦

وإلى جانب النفاق، ظهر الحسد والحقد، وممّن كان ظاهرُه غيرَ باطنِهِ، ولكنْ صورةَ المنافقِ تبدو واضحة، ينبضُ بها فؤادُه، وتتكشّفُ أحوالُه، كما يقول كشاجم الرّملي(١):

كم حاسدٍ ظاهِـرُهُ لي وامـقٌ والغلُّ منهُ بالضميرِ لاصِقُ(٢)

تخبرني عن سـرِّه الخـلائقُ وقلَّ ما ينكَتِمُ المـنافـقُ

لهُ فـؤادٌ إن رآنـي خـافِـقٌ وإن أغِبْ فهْو فخورٌ ناطِـقٌ

يَكْذبُ وهْو في التظنّي صادِقٌ وكُلُّ مجْرٍ في الخلاءِ سـابِـقُ

ومقت الشعراء اللؤم، وحذّروا من مقاربة اللئام لأنهم يظهرون المودّة عندما تكونُ ليس بحاجةٍ لهم، ويبتعدون في وقت الحاجة إليهم، فأبو فراس يتحدّث عنهم قائلا(٣):

احذرْ مُقَاربةَ اللئامِ! فإنّـهُ يُنبيكَ عنهمْ في الأمورِ مُجرِّبُ

قومٌ إذا أيسرتَ، كانوا أخـوةً وإذا تَربْـتَ، تفرّقوا وتجنّبوا

اصبرْ على ريْبِ الزمانِ فإنّهُ بالصّـبرِ تُدْركُ كلَّ ما تتطلّبُ

وإلى جانب اللؤم وجد الغباء والجهل، فلا عالم ولا حازم، ولا كريمٌ أو بصيرٌ، ولا شجاعٌ في هذا الزمان، فكل ما في هذه الدنيا يتراءى للمتنبي أنه عدوٌ، ولكن لا بدَّ من مصاحبته، كما يقول(٤):

أذُمُّ إلى هـذا الزّمـانِ أهيـلَهُ فأعلمُهُمْ فَدْمٌ وأحزَمُهُمْ وَغْدُ(٥)

---

(١) كشاجم : ديوانه ٣٥٧.

(٢) الوامق: المُحبّ المتودّد.

(٣) أبو فراس: ديوانه ٣٩

(٤) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ١: ٣٧٤.

(٥) الفدم: الغبي من الرّجال، والوغد: اللئيم الضعيف

وأكرمُهُمْ كلْبٌ وأبصـــرُهُمْ عَـمِ   وأسهدُهُـمْ فَهْدٌ وأشجعُهمْ قِرْدُ
ومن نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أن يَرَى   عــدواً لهُ ما مِنْ صــداقتهِ بُدُّ

ويشتكي الشاعر محمد بن حماد البصري أهل زمانه دون أن يذكُرَ عيوبَهم، إذْ يقول(١):

لا أشتكي زمنـي هــذا فأظلـمُه   وإنّمـا أتشكّى أهلَ ذا الزّمنِ
وقد سمعتُ أفانينَ الحديثِ فهلْ   سمـعْتَ قطُّ بحرٍ غيرِ ممتَحنِ

كما ويهاجم كشاجم هذا الزمان الذي فُضّلَ فيه مَنْ لا قيمةَ له، فهو حمار لتفضيله أهل السوء، وهو جائرٌ طالبُ ثأرٍ في إيقاعه الأذى بالناس، يقول(٢):

وزمانٌ تجورُ منه القضـــايا   في البرايا وتُظْـلَــمُ الأقــدارُ
فاللبابُ اللبابُ يَلقى تصاريـ   ـفَ أذى الدّهرِ والنُّـضارُ النُّضارُ
فـلا يــثأره الحميرَ على النا   سِ علـمْنَا أنّ الزمانَ حمـــارُ
أيُّها الــدّهرُ ناذِراً بـتّ نذْراً   في أذانا أعـنـدنا لـك ثـارُ؟

---

(١) الثعالبي: تتمة اليتيمة ٢٢.

(٢) كشاجم: ديوانه ٢١٦

د- الزهد:

لقد كان من فئات المجتمع الشامي في القرن الرابع الهجري الزهاد والمتصوفة، ولكن فيما يبدو لم يكن لهم نشاط بارز في الحياة، فقد ذكرت المصادر عدداً من هؤلاء الصُلحاء والعبّاد والنُسّاك الذين كانوا يؤثرون جبال الشام كما أشار المقدسي في حديثه عنهم من أنه لقي في جبل الجوْلان شرقي الشام أبا إسحق البلّوطي في أربعين رجلاً يقتاتون البلوط، ويلبسون الصوف، ومن هؤلاء الذين اشتهروا بالتصوف أحمد بن عطاالله الرّوذباري الصوفي، وإبراهيم بن شيبان القرميسيني، ومحمد بن إبراهيم الهسوسي شيخ الصوفية بدمشق، وهو من تلامذة أحمد بن عطاالله الروذباري، وكان زاهداً عابداً ما عقد على درهم ولا دينار، وغير هؤلاء عدد سبق ذكرهم في التمهيد. كما أشرنا في موضع سابق إلى وجود الأبدال وعددهم بالشام أربعون.

وكان للصراع مع الروم أثر في ظهور فئة الزهّاد الذين كان لهم ميزة خاصة يختلفون بها عن سائر فئات المجتمع الشامي في القرن الرابع الهجري، فقد أدّى هؤلاء حقوق الله من الفرائض المكتوبة كالصوم، وعبادة الله، والبكاء من خشيته، خوفاً من الحساب ومن الذنوب، يقضون أوقاتهم بالاستغفار، وهم يعفون عن المظلوم، يعيشون على الكفاف، وبخفْضٍ من العيش، ولا هدف لهم إلا إرضاءُ الله، فإذا فرغوا من أداء فرائضه وعبدوه، يغزون في سبيله، يبغون الشهادة لأجله، وذلك كما نستشفُ من حديث الطرسوسي في مزدوجته التي وصف بها أهل طرسوس إذ يقول(١):

بها رجالٌ بعضُـــهمْ من بعضِ في الله قاموا بحقوقِ الفرضِ
فيها يعيـــشون بكلّ خفْــضِ يَحـــبوهمْ ببــرْكاتِ الأرضِ
يَبْدونَ مَنْ يلقونَ بالتّســليمِ يعفـونَ عن ذي القُدْرةِ الظْلومِ

(١) ابن العديم: بغية الطلب ١: ١٩٢

نهارُهمْ صــــومٌ بلا تعـــتيم ولــيلُهمْ عبــادةُ الـــقــيومِ

فتارةً يبكون شجـــواً دُرَراً خوفَ الحسابِ والخطايا حَذَرَا

وتـارة يُغـــزون أرضَ الرومِ يرجونَ قتــلاً في هوى الكريمِ

يا ليتني في الأرضِ كالرّميمِ عنـــدهُمُ فقصرِّي أو لـــومي

هذا وقد أشار ابن العديم إلى حال أهل طرسوس، وقال: «هذا كان حال مدينة طرسوس، والشرائع محفوظة، وأمور الجهاد ملحوظة، وأحوال البدع مرفوضة والجفون عن الحرمات مغضوضة، فحين فسدتِ الأمورُ، وارتكبت الفجور، وقلّتْ الخيرات، واشتغل أهلُ الجهاد باللذات، طمع العدو، ومنعه طلب الثأر الهدوّ، فقصد البلاد، وأكثر الأمداد، وهجم حلب، وفتح أنطاكية، وقتل الأبطال، وسبى الذّريّة، ثمّ استولى على الديار، وقصد طرسوسَ، وألحّ عليها بالحصار»(١).

وتحدّث الطرسوسي عن أهل أنطاكية وقد أشار إلى فضلها، وذكر زهادها وهم أهل عفاف وأخلاق عالية، يعيشون بخيرات بلادهم، التي تمتاز بكثرة الخيرات والثمار، ولو لم يكن بها إلاّ قبرُ صاحب ياسين حبيب، المختار عند ربه لكفاها ذلك فخراً، يقول(٢):

ثمّ وردْنا غُـــدوةً أنطـــاكيَهْ وأهلُــــها في خيــــرِها مُواســـــيهْ

أهلُ عفافٍ وأمـــورٍ عاليــــهْ أخــــلاقهم قُــــدْماً عليـــــها جاريهْ

مدينةٌ ميمـــــونةٌ مُذْ لم يزلْ النصفُ في السّهلِ ونصفٌ في الجبلْ

والبقُّ لا يـــدخلُها ويتّـــصلْ لكــنْ بهـــا فــأرٌ عظــيمٌ كالـــوَرَلْ

كثيرةُ الخـــيرات والثـــمارِ وتيـــنُها الـــقِلاّرُ في الأشـــجــارِ

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب ١٩٢:١

(٢) المصدر نفسه ١: ٩٢-٩٣

مثل النجوم في دُجى الأسحارِ حـــصيـــنةٌ كثـــيـــرةُ الآثـــارِ

صاحبُ ياسين حَبيب فيـــها وكـــان عنـــدَ ربـّــهِ وجـــيهـــا

في الخُلْدِ والثمارِ يجـــتنيها أكـــرِمْ بهِ مُـــفتـــخراً نَبـــيها

وثمّةَ سببٌ آخر دفع الشعراء للحثّ على الزهد في الدنيا والإعراض عن ملذّاتها، والإقلاع عن المعاصي، والرجوع إلى الله والتوبة إليه، والتسليم بالقضاء والقدر، ألا وهو موت الأقرباء، أو ما حلّ بهم من مصائب مختلفة. فنجدُ أبا فراس مثلاً يتحدّثُ عن القضاء والقدر حين أُصيبَ بمحنةِ الأسر وأكّد أنه لا مفرٌ منه، وذلك بقوله(١):

وهلْ يَدفعُ الإنسانُ ما هُوَ واقـــعٌ وهـــلْ يعلمُ الإنســـانُ ما هو كاسِبُ؟

وهل لقضاءِ الله في الناسِ غالبٌ وهلْ من قضاءِ اللهِ في الناس هاربُ؟

وقد أكّد على زوال الدنيا وجعلها مطية راكب، لذا يجب أَخْذ الحيطة والحذر منها، فلا بدٌ من عقّها له يوماً ما، إذ يقول(٢):

ألا إنّما الدنيـــــا مطـــيّةُ راكبٍ علا راكبُوها ظهرَ أعوجَ أحْدَبَا

شموسٌ متى أعطتْك طوْعاً زمامَها فكنْ للأذى مِن عقّـها مُترَقّـبَا

وطالما أنها زائلة، فلا بدّ من أنّهم يحذّرون من ملذاتها وعدم الغرور بما فيها من سرور، كما يقول الصنوبري وقد استلهم من القرآن والسّنّة في حديثه عن غرورها(٣):

بما جرّبْتَ من نُكبِ الدّهـــورِ وما لابسْتَ من نُوَبِ الأمورِ

صُدِقْتَ وما غُرِرْتَ بأمر دنيا فلا تُغرَرْ فما هي بالغَرورِ

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٢٤

(٢) ابو فراس: ديوانه ٣٩.

(٣) الصّنوبري: ديوانه ٩٠.

وصرف كشاجم نفسه عنها إذ ليس فيها مشربٌ صافٍ، كما يقول(١):

سأصرفُ عنكِ يا دُنيايَ وجْـهاً ... وأبغَضُ منكِ ما قد كنتُ أهوى

بَلَوتُ مشارباً لكِ مُتْـــرعاتٍ ... على ظَمَأٍ فلم أرَ فيكِ صَفْوا

ودعا إلى ردع النفس وزجرها، ولا سيّما أن طبيعة النفس تميل إلى ارتكاب المعاصي، وتبتغي كل ما فيه هلاكٌ لها، وبعدٌ عن الخير، وهذا مستلهمٌ من القرآن الكريم، يقول(٢):

فاجتهدْ أن يكونَ أكثرُ قسميْـ ... ـك من النّـــفعِ والأقلُّ الأضَرُّ

وتحمَّلْ مرارةَ الـــرأي واعـلـمْ ... أنَّ عقبى هـــواكَ منـــهُ أمرُّ

رُضْ بهذا التدبيرِ نفسَك واقصر ... ها عليـــهِ ففيه فضـلٌ وفخرٌ

لا تُطغْـــها على الـــذي تبتـغيهِ ... وليرُعْها منـك اعتسافٌ وقهرُ

إنَّ من شأنِـــها مجانـــبةَ الخيـ ... ـرِ وإيثـــارِ كـلِّ ما قد يَــغُرُّ

لقد وصل الحدُّ بهم إلى التّمادي على الدنيا، والاستهتار بها، طالما أنها سرابٌ وكلها خداع ووهم، فلماذا نهرب من المصير؟ كما يقول الببغاء(٣):

حتّامَ تخدعنا الدنيا بزخرفها ... ولا تحـصّلنا منـــها علـى أرَبِ

نُسَرُّ منها بما تُجنى عواقبُـهُ ... همّاً ونـهـربُ والآجالُ في الطّلبِ

فإذن والدنيا مصيرها الزوال، فالموت حتمي لا مهربَ منه، فهذا أبو فراس يؤكد انتهاء الأجل، فما فيها إمّا فاقد وإمّا مفقود، يقول(٤):

---

(١) كشاجم: ديوانه ٣٥.

(٢) كشاجم : ديوانه ٢٢٢

(٣) الببغاء: شعره ٥١.

(٤) أبو فراس الحمداني: ديوانه. ٦٣.

هيهاتَ: ما في الناس من خَالِدٍ لا بُدَّ مِنْ فَـقْدٍ ومنْ فَـاقِدِ

ومع ما يسببه الموت للبشر من إحساس بعِظَمِهِ وخطره، إلا أن أبا فراس يَستعذبُه إذ ضاقت به الأرض، وقدوقع أسيراً وخذله الأصدقاء، يقول في ذلك(١):

قد عَذُبَ الموتُ بأفواهِنا والموتُ خيرٌ من مقامِ الذليل!

إنَّا إلى الله، لِما نابَنَـا وفي سبيلِ الله خيرُ السبيلِ

وفي الوقت نفسه نجده يحث الناس على الاستعداد له، ولعلّهم يأخذون العبرة والعِظَة منه، لتسقيم أحوالهم في الدنيا والآخرة، وهو بهذا يستخدم أسلوب الاستفهام بقوله (٢):

أما يودعُ المـوتُ أهلَ النُّهى ويمنـعُ عن غيِّهِ من غوَى؟

أما عالـمٌ، عارفٌ بالزمـانِ يروحُ ويغدو قصيرَ الخُطا؟

فيا لاهياً، آمِنـاً والحِـمَامُ إلَـيهِ سريعٌ، قريبُ المَدَى

ولابد إذن من الاتعاظ بأهل القبور حين يتساوى الناسُ جميعاً فيها، كما يقول (٣):

إذا ما مَرَرْتَ بأهلِ القبورِ تيـقّنْتَ أنّكَ منـها غـدا

وأن العزيزَ بها و الذليلَ سواءٌ إذا أُسلـما للبِلَـى

غريبينِ، مالهما مؤْنِـسٌ وحيدين تحت طِباقِ الثَّرى

فلا أملٌ غيرُ عفـو الإلـه ولا عملٌ غيـرُ ماقدْ مضى

فإن كان خيراً فخيراً تنالُ وإن كـان شراً فشـراً ترى

فالعزيز والذليل سواء كما قال، لا مؤنس لهما إلا عفوُ الإله والعمل الصالح،

(١) أبو فراس: ديوانه ١٢٥.

(٢) أبو فراس: ديوانه ١٨.

(٣) أبو فراس: ديوانه ١٨.

وما غير ذلك يودي به إلى الهلاك.

ونرى الصنوبري يتحدث عن القبور ويدعو الأحياء إلى أخذ العبرة منها، وزجر النفس قبل فوات الأوان، يقول(١):

يا بنــي المــوت إنّ للـ ... حيِّ في الموتِ مُعــتَبرْ
فكأنــي بكُــمْ وقــد ... بعــتُمُ الدُّورَ بالحُــفَرْ

ويقول داعياً لزجر النفس وأن من قُبر مثل من هو حيٌّ، فكلاهما سيؤول في النهاية إلى القبر(٢):

اذكرِ المــوتَ واعتــبرْ ... واصــدقِ النفسَ وازدجِرْ
مَنْ سيــمضي إلى القبو ... رِ غـداً مثــلُ مَنْ قُــبِرْ

لقد أكثر الشعراء وأطالوا في الحديث عن القبور والدعوة إلى أخذ العبرة منها، كما نراهم يصفون الموتى وحالهم التي آلوا إليها ، وكلّ ذلك لأخذ العبرة والعِظة ، كما نلمح ذلك عند الصنوبري بقوله (٣):

أمَا أبصرْتَ قوماً قطُّ ماتوا ... على مرِّ السنينَ أو الشّهورِ
فأبصرْتَ العِظامَ بلا جلودٍ ... وأبصَــرْتَ الجلودَ بلا شُعورِ
بلى ، أبصرتَهُمْ أيضاً تُراباً ... تجول به القبولُ مع الدّبُــورِ

ومع التأكيد على اجتناب المعاصي، فإنهم يتحسّرون على ما فات من الذنوب، ويؤنبون الضمير، ولا فائدة مرجوّة من الغنى في الدنيا، بل الفائدة بمن تزوّد خيراً للآخرة، يقول الصنوبري(٤) :

---

(١) الصنوبري: ديوانه ١٠٢
(٢) الصنوبري: ديوانه ٨٩
(٣) الصنوبري: ديوانه ٩٠
(٤) الصنوبري: ديوانه ٣٩٣.

هي القلوبُ قدِ اسودّتْ وحُقّ لها		من الذنوبِ التي اسودّتْ لها الصحفُ

متى النزوعُ فحسبي ما جنيتُ وما		قد اقترفْتُ فكمْ أجني وأقترفُ

يا ويحَ نفسي أغرّتْها سلامَتُها		إنّ السّلامةَ مقرونٌ بها التّلَفُ

بئس الثراءُ ثراءٌ خلْفَهُ عَدَمٌ		بئس الشبابُ شباباً خلفَهُ خَرَفُ

يا خائفاً ليس تثنيهِ مخافتُهُ		وعارفاً وهْوَ في ذا ليس يعترفُ

لا سيرَ إلا بزادٍ يُستعانُ بهِ		فاستأنفِ الزادَ ، إنّ الزّادَ مُؤْتَنَفُ

وبما أنّ الموتَ هو النهايةُ الحتميةُ، فحياةُ المرء كثيرها مثل قليلها، كما يقول المتنبي(١):

كثيرُ حياةِ المرْءِ مثلُ قليلِها		يَزولُ وباقي عُمْرِه مِثلُ ذاهبِ

وإذا آمن البشر بهذه الحتمية، فلا بدّ إذن من الصّبر، كما يقول السّري الرّفاء(٢):

هي الرزيّةُ مَنْ يصبرْ لفادحِها		يؤجَرْ ومَنْ يتحامَ الصبرَ لا يُلَمِ

ويؤكد هذا المعنى الصّنوبري، وقد جعل الصبر إجباراً وليس طوعاً واختياراً إذ لا سبيلَ غيرُ ذلك(٣):

إذا نزلَ المكروهُ بي ثمّ لم أعَنْ		على دفعهِ عني بأمرٍ من الأمرِ

صبرتُ على غير اختيارٍ وإنّهُ		ليصبرُ مَنْ لا يستطيعُ سوى الصّبرِ

لقد كان الموتُ هو عدلٌ إلهي، كما يقول الصنوبري(٤):

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ١:١٥٠.

(٢) السّريّ الرّفاء: ديوانه ٢: ٦٥٠.

(٣) الصّنوبري: ديوانه ٩١.

(٤) الصّنوبري: ديوانه ٤٤٠.

جلَّ قاضي الحياةِ والموتِ في الخلْـ ... قِ قضاءً عدْلاً من الخلاّقِ

ويبقى المصير المحتوم للبشر، فإما للجنة وإما للنّار، فهل من معتبر، كما يقول الصنوبري(١):

فمَنْ ذا غرّتِ الدُّنيا أمَا مِـــنْ ... سميـــعٍ في الأنامِ ولا بـصيرِ

ولا دارٌ سوى دارَيْنِ فاختـــرْ ... خُلوداً فـــي النعيمِ أو السَّعيرِ

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٩١

الفصل الثالث

مظاهر الحياة اللاهية

أ- وسائل التسلية والترفيه:

١- الصيد

٢- اللعب بالصولجان

٣- المبارزة

ب- اللهو والمجون:

١- شرب الخمر

٢- الغناء والرقص

٣- صورة الجواري

٤- الديارات

أ- وسائل التسلية والترفيه:

صوّر الشعر الشامي في القرن الرابع الهجري بعض وسائل التسلية والترفيه التي كانتْ شائعة آنذاك، ومن أبرز هذه الوسائل الصيد، ويبدو أنّه كان الرياضة المفضّلة لكبراء القوم ومن اتصل بهم من الشعراء، وقد أفرد الشعراء للحديث عنه ووصفه مزدوجات طردية تجاوز بعضها مائة بيت، يشيع فيها جو المرح واللهو، وصاغوها بأسلوب قصصيّ مترابط متسلسل الأحداث والأفكار، وتحدثوا فيها عن وسائل الصيد وأدواته، والحيوانات المصطادة بأنواعها.

وقد برع أبو فراس الحمداني في هذا الميدان، ولهُ مزدوجة طردية تحدّث فيها عن حيوان الصيد كالصقور والكلاب والفهود والبازي، مطلعها(١):

ما العمرُ ما طالتْ به الدُّهورُ   العمرُ ما تمّ به السّرورُ

وقد وصف الشاعر عملية الاستعداد للصيد، وتتضمن اختيار النُّجباء ومَنْ هم عالمون بحيوانات الصيد ومدرّبون عليها، ويبدوأن هؤلاء الصّيادين كانوا مختصّين، فهناك الصقّار(٢)، والفهّاد(٣) والبازيار(٤)، وفي هذا يقول :

دعوتُ بالصّقّار ذات يومِ   عند انتباهي سَحَراًمن نومي

قلتُ له: اخترْ سبعةً كِبَارا   كلٌّ نجيبٌ يردُ الغُبارا

يكونُ للأرنبِ منها اثنانِ   وخمسةٌ تُفردُ للغزلانِ

واجعلْ كلابَ الصيدِ نوبتينِ   ترسِلُ منها اثنينِ بعدَ اثنينِ

ولا تؤخّرْ أكلُبَ العِراضِ   فهنَّ حتفٌ للظِّباءِ قاضِ

ثم تقدمتُ إلى الفهّادِ   والبازيارين بالاستعدادِ

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه١٨٥.

(٢) الصقّار: لم أعثر على معناه في المعاجم

(٣) الفهّاد: صاحب الفهد لسان العرب (فهد).

(٤) البازيار: حامل البازي وخادم الصقر للصيد به،والبيازرة معرب بازيار، الجوهري: الصحاح ٢:٥٨٩..

حتى إذا أحسَسْتَ بالصباحِ ناديـــتُهمْ حـيّ على الفـلاحِ
نحنُ نصلّي والبزاةُ تخــرُجُ مجــرَّداتٍ والخيولُ تُسـرَجُ(١)
فقلتُ للفـهّاد: فامضِ وانفرِدْ وصِحْ بنا إنْ عنّ ظبْيٌ واجتهدْ
فلم يزلْ غـــيرَ بعيدٍ عــنّا، إلـــيه يمضي ما يفـــرُّ منّـــا
وسرتُ في صفّ من الرجالِ كأنّما نـــزحفُ للقـــــتالِ
فما استوينا كلُّنا حتى وقفْ غُلَيّمٌ كان قريبـــاً من شُــرَفْ
ثم أتـاني عجِلاً، قال: السَّبقْ فقلت: إنْ كان العَيانُ قد صدقْ

ووصف أبو فراس بدقّة براعتَه ومهارتَهُ بالصيد وتصويبَه نحو فرائسه، قائلا:

ثم أخذتُ نبلةً كانتْ معـــــي، ودرتُ دورتـــين لم أوَسّعِ
حتّى تمكنْتُ فلمْ أخطِ الطّلبْ لكلّ حتْفٍ سببٌ من السَّببْ

وكانت عمليةُ الصيدِ أشبهَ بمبارزة بين هؤلاء الصيّادين، فكلٌّ منهم كان مستعداً لخوض هذه المبارزة،وساعدهم في هذا كلّه حيواناتُ الصيد المدرّبة، ذاتُ القدرة الفائقة في الحصول على فريستها، لا سيّما الكلاب والبازي اللذانِ كانا يتبارزانِ في مطاردة الفرائس وكأنّهما يخوضانِ معركة، ويشهد عليهما حَكَمٌ ليحكمَ بينهما:

- ثم دعوتُ القومَ: هذا بازي فأيُّــكمْ ينْشَطُ للبرازِ؟
فقال منهم رشأ: أنا، أنـــا ولو درى ما بيدي لأذعنا
فقلت: قابِلْني وراءَ النــهرِ أنتَ لشطرٍ وأنا لشطرِ

---

(١) البُزاة: البازي من أشدّ الجوارح تكبُّراً، وأضيقُها خُلُقاً، يوجد بأرض التُّرك، وهذا النوع لم يُخلق له ذكر، وإنما ذكرها يكون من نوع آخر، من الحِدَاة أو الشّاهين أو غيرهما، ولهذا يكون الاختلاف في أشكال البُزاة كثيراً، وذلك بحسب حال الذّكر، فإن كان الغالب على لونه البياض فهو أحسن البزاة وأملاها جسماً وأجرأها قلباً، وأسهلها رياضة، والبازي لا يتخذ الوكر إلا على شجرة أغصانها مشتبكة، لدفع الحر والبرد، وإذا أرادتْ أن تبيضَ جعلتْ لوكرها سقْفاً حتى لا يقع فرخها المطر والثلج، وإذا مرض البازي أكل لحم العصفور فيبرأ. انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ٢٠: ٥٠.

طارتْ لــهُ درّاجــةٌ فأرســلا،   أحــسنَ فيها بازُهُ وأجْــمَلا

علّــقها فعطــعطــوا، وصاحوا   والصّيدُ من آلتهِ الصّــيّاحُ(١)

فقلتُ: ما هذا الصياحُ والقلقْ؟   أكــلُّ هذا فــرَحٌ بذا الطّلَقْ؟

فقال: إن الكلبَ يشــوي البازا   قد حَرَزَ الكلبُ فجُزْ وجازا(٢)

فلم يزل يــزعقُ: يــا مــولائي   وهْو كمــثلِ النّارِ في الحلْفاءِ(٣)

طارتْ فأرسلتُ فكانتْ سلوى   حلّتْ بها قــبلُ العُــلوُّ البــلْوى

فما رفعــتُ البازَ حتــى طارًا   أخــرُ عــوْدا يحــسنُ الفِــرارا

أســودُ صــيّاحٌ كــريمٌ كُــرّزُ   مُــطــرّزٌ مكــحّلٌ مــلــزّزُ(٤)

علــيه ألــوانٌ من الثــيــابِ   مِــن حُلَــلِ الديبــاجِ والعتّابي

فلم يزلْ يعــلو وبازي يســـفلُ   يحرزُ فضلَ السّبْقِ ليسَ يغفلُ

يرقــبُهُ مِنْ تحــتهِ بعــينهِ   وإنّمــا يــرقــبُــهُ لحــيــنهِ

حتى إذا قــاربَ فيــما يحسبُ   معقلَــهُ والمــوتُ منهُ أقــربُ

أرخــى لــهُ بــنبــجهِ رجلــيهِ   والمــوتُ قــد سابقَــهُ إليــهِ(٥)

ولم يكن البازي وحدَهُ الذي يشارك في الصيد، بل كان إلى جانبه الشواهين(٦)، فقد

---

(١) عطعطوا: ارتفعت أصواتُهم.

(٢) يشوي: يخطئ.

(٣) الحلفاء: نبات.

(٤) كُرّز: يتطاير ريشه

(٥) نبجه: نباحه، أو مكانه في جحره.

(٦) الشواهين: هو طائر من جوارح الطير، عدوُّ الحمام، إذا رآه الحمام اعْتراه ما يعتري الحمار من الأسد والشّاه من الذيب، وإذا رأت السّلحفاة الشاهين نقنقت، وأعطته ظهرها، فيحملها الشاهين ويصعد بها نحو الجو ويرميها على صخرة صلدة لكي تتكسّر، فعند ذلك يأكلها، وإذا مرض الشاهين أكل الدّرّاج، فيزول مرضه. انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ٢:٥١.

أطلقهُ أبو فراس للذهاب إلى مكان آخر عُرِف بصيده الوفير، واستعمل في هذه المرّة عدداً من الشواهين التي تبارزتْ في مطاردة الفرائس، وسَرْعانَ ما حققت نجاحاً واصطادت عدداً من الطيور، وكلّ ذلك كان داعياً للفرح والسّرور، فيقول:

ثمَّ عدلْنا نحوَ نهْرِ الوادي   والطيرُ فيهُ عددُ الجرادِ

أدرتُ شاهينينِ في مكانِ   لكثرةِ الصيدِ مع الإمكانِ

دارا علينا دورةً وحلّقا،   كلاهما، حتى إذا تعلّقا

توازيا، واطّردا اطّرادا   كالفارسيْنِ التقيا أو كادا

ثُمّتَ شدّا فأصابا أربعا   ثلاثة خضراً، وطيراً أبقعا

ثم ذبحْناها، وخلّصناهما   وأمكن الصيدُ فأرسلناهما

فجدّلا خمساً من الطيورِ،   فزادني الرحمنُ في سروري

أربعةٌ: منها أُنيسيّانِ   وطائراً يُعرَفُ بالبيضاني

كما كثرت طيور الكراكي(١) بقرب النهر، وتفرّغ لصيدها ومقارعتِها الباز، وهو إذ ذاك خبيرٌ ماهرٌ بصيدها حتى إذا ما تجمعت انقضَّ عليها، وساعدهُ الصيّادون في اختتالها حتى تمكنوا من الانقضاض عليها وصرعها، يقول:

حتى أخذْنا ما أردْنا منها   ثم انصرفْنا راغبينَ عنها

إلى كراكيٍّ بقربِ النهرِ   عشراً نراها، أو فُويقَ العشرِ

---

(١) الكراكي: طائر له اجتماع في الطيران لا يخالف بعضهم بعضاً البتة، ولهم المقدّم الذي يتبعه الجمع وذلك بالنّوبة، ولها رئيس، والرّئاسة أيضاً بالنوبة، فإذا انتهت قام غيره مكانه، وجماعة الكراكي لا تثبت إلاّ في مكانٍ بعيد عن الناس والوحش، والحارس يقوم عليها، ويضعُ إحدى رجليه ويرفع الأخرى لكيلا يغلبه النوم حتّى يستوفي نوبته، قيل إنّ لحمَه عُضلي ليفي لذلك يؤكل بعد ذبحه بأيام، ويُصلحها الطبخ بالخل مرّة وبالماء والملح أخرى. انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ٢٠:٥٢.

لما رأها البازُ من بُعْدٍ لصقْ   وحدَّد الطرفَ إليها وذرقْ(١)
فقلتُ: قد صاد وربِّ الكعبهْ،   ونحن في وادٍ بقربِ جنبهْ!
فدارَ حتى أمكنتْ ثم نزلْ   فحطَّ منها أفرعاً مثلَ الجملْ
ما انحطَّ إلا وأنا إليهِ   ممكّناً رجليَّ من رجليهِ
جلستُ كي أشبّعَهْ؛ إذا هِيهْ   قد سقطتْ من عنْ يمينِ الرّابيهْ
فشلتُهُ أرغبُ في الزيادهْ   وتلك للطُّرادِ شرُّ عادهْ
لم أجزهِ بأحسنِ البلاءِ   أطعتُ حِرصي وعصيتُ دائي
فلم أزلْ أختِلُها وتُختَتَلْ   وإنّما نختِلُها إلى أجَلْ
عمدتُ منها لكبيرٍ مُفردِ   يمشي بعنقٍ كالرِّشاءِ المُحْصَدِ
طارَ وما طار ليأتيه القدرْ   وهل لِما قد حان سمْعٌ أو بصرْ
حتى إذا جدّ لهُ كالعندلِ   أيقنتُ أن العظمَ غيرُ المفصَلِ(٢)

وكان يتخلّل عملية الصيد طلب الراحة والجلوس لتناول الطعام والشراب، وهنا يأتي دور الطبّاخ، إذ يقوم بتجهيز وجبات الطعام لهم مما اصطادوه، ثم يقوم الشّرابي ليقدم لهم الشراب، يقول:

صِحْتُ إلى الطبَّاخِ: ماذا تنتظرْ   انزلْ عن المهرِ وهاتِ ما حضرْ
جاء بأوساطٍ وجُرْدٍ تاجِ   من حَجَلِ الصيدِ ومن دُرّاجِ
فما تنازلْنا عن الخيولِ   يمنعنا الحِرصُ عن النزولِ
وجيءَ بالكأسِ وبالشرابِ   فقلت: وفّرْها على أصحابي
أشبعني اليومَ وروّاني الفرحْ   فقد كفاني فيه قسْطٌ وقدحْ

---

(١) ذرق: رمى بنفسه إليها.
(٢) العندل: صوت العندليب

وبعد أن ينال هؤلاء الصيادون قسطاً من الراحة، فإنهم يعودون ثانية لمتابعة عملية الصيد، فلم يقتصر صيدهم عى الطيور، بل يطلبون الظّباء في الصحراء، ويصف أبو فراس هنا سرباً من الظّباء، يدلُّ سُمْنها على خصوبة المكان الذي ترتع فيه، وكانت آنذاك آمنةً، فلما رأتِ الصيادين نفرت، ولكنهم بادروها بالفهّاد الذي تغلّب عليها، وقنص عدداً منها، وساعدته في ذلك الكلاب، يقول:

ثم عدَلْنا نطلبُ الصحراءَ   نلتمسُ الوحوشَ والظباءَ
عنّ لنا سِربٌ ببطن الوادي   يقْدِمُهُ أقرنُ عبلُ الهادي(١)
قد صدَرَتْ عن منهلٍ رويٍّ   مِن غُبرِ الوسميّ والوليٌّ
ليس بمطروقٍ ولا بكيٍّ   ومرتعٍ مُقتبلٍ جنيٍّ
رَعيْنَ فيه غيرَ مذعوراتِ   لُعاعَ وادٍ، وافرِ النباتِ(٢)
مرّ عليهِ غَدقُ السحابِ   بواكفٍ متّصلِ الرّبابِ
لمّا رأنا مالَ بالأعناقِ   نظرةَ لا صَبٍّ ولا مُشتاقِ
ما زال في خفضٍ وحُسن حالِ   حتى أصابتْه بنا الليالي
سربٌ حماهُ الدهرُ ما حماهُ   لما رآنا ارتدّ ما أعطاهُ
بادرتُ بالصقّارِ والفهّادِ   حتى سبقناهُ إلى الميعادِ
فجدّل الفهدُ الكبيرُ الأقرنا   شدٌ على مذبحِهِ وأستبطنا
وجدّل الآخر عنْزاً حائلاً   رعتْ حمى الغورين حولاً كاملا
ثم رميناهنَّ بالصقُورِ   فجئنها بالقدَرِ المقدورِ
أفردْن منها في القراحِ واحدهْ   قد ثُقلتْ بالخصرِ وهْي جاهدهْ
مرّت بنا والصقرُ في قَذَالها   يؤذِنُها بشيّءٍ مِنْ حالِها(٣)

---

(١) العبل: الممتلئ، والهادي: العنق.

(٢) اللعاع: نوع من النبات، ينمو في الأماكن الخصبة.

(٣) القذال: مؤخرة الرأس.

ثم ثنــــاها وأتاها الكــلبُ   همُــا عليـها والزمانُ إلـــبُ(١)

فلــم نزلْ نصيــدُها ونصــرعُ   حــتى تبقّى في القطــيعِ أربــعُ

وبعد أن حصل الصيادون على هذا الصيد الوفير، وما ظهر منهم من براعة في ممارسة عملية الصيد، فإنهم جمعوا صيدهم وانصرفوا مُصْطحبين البغال والخيول الأصيلة، واستقروا في مكانٍ آمنٍ طلباً للراحة وتناول الطعام، فهناك مَنْ يقلي وآخر يشوي وثالث يقدّم الشراب مع الطعام، وانتهت رحلتهم وقد غمرهم الفرح في فترة تراوحت سبع ليالٍ، يقول:

ثم انصرفنا والبغــالُ موقرهْ   في ليلةٍ مثلِ الصباحِ مُسْفرهْ

حتى أتينــا رحْلــنا بليــلِ   وقــد سُبقنــا بجيادِ الخيــلِ

ثم نزلْنا وطرحْــنا الصــيدا   حتى عــددنا مئــةً وزيــدا

فلم نزل نقلي ونشــوي ونصُبّ   حتى طلبنا صاحياً فلم نُصِبْ

شُــرْباً كما عنَّ من الزِّقــاقِ   بغير ترتيـــبٍ وغيــرِ ساقِ

فلم نزلْ سبْــعَ ليــالٍ عَــدَدَا   أسعدَ مَنْ راح، وأحظى مَن غدا

وحذا حذو أبي فراس الحمداني، الشاعر أحمد بن محمد العقيلي ، فله مزدوجة طردية على طريقة أبي فراس، وصف فيها أياماً مرت له بحلب ونواحيها، وذكر فيها منازل من قرى حلب مرّ بها في رحلته، وذكر وقعة جرت له مع الروم، وقد ذكر في أول طرديّته أن العمر هو أيام السرور فقط.

ويصف الشاعر عملية الاستعداد لرحلة الصيد هذه، وما كانوا يصطحبونه معهم من أطعمة وأمتعة تدل على ترفٍ في الذوق الحضاري آنذاك، فيقول(٢):

وذاك أنّي قمتُ نصــفَ الليلِ   مــشارفــاً لخــدمــي وخيــلي

---

(١) إلب: مجتمعة.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب ١٠٩٧:٣-١١٠٦.

حينَ زقا البازُ وصاحَ الصَّقْرُ فقلتُ: يومُ صيدِه يسرُ

هاتِ إليَّ يا غلامُ الطاهي قلتُ لهُ لمّا أتى: باللهِ

أكثِرْ لنا من الشِّواءِ المُنْضجِ ومن دجاجٍ فائقٍ ملهوجِ

واشوِ من الحُمْلانِ ما يكفينا واخترْ هُديتَ الفائقَ السّمينا

واملَ الصّناديقَ من المُصوصِ حتى تكونَ عددَ الشُّخُوصِ

واصلحْ من القبْجِ مطْجناتِ ومن فراريجٍ مبزّراتِ

واحملْ من المرّي وماءِ الحصرمِ والخلَّ والزيتِ اللذيذِ المطْعَمِ

للكرْدناجِ والشّويْ والمائدهْ فحملُ ذا فيهِ جميعاً فائدهْ

واصلح من البيض مشوشاتِ ونرجسيّاتِ ومقْلوّاتِ

كما يصف أيضاً بعض المقبّلات والحلوى والفاكهة والشراب إلى جانب الأطعمة التي اصطحبوها معهم:

وضمْ إلى الصّعْتَرِ والهليونِ ما يفتقُ الشهوةَ من طرخونِ

والمسكُ والما وردُ يا عجيبُ بهِ إذا طيّبْتَهُ يطيبُ

وخذْ من الحلوى السلالَ الوافره فإنْ أيدينا لها مباشرهْ

قلتُ: الشرابيُّ فقالوا: قد حضرْ قلتُ احملِ الراحَ ووفّرْ يا قمرْ

واحملْ من المرواحِ في جرارهِ يشربُهُ مَنْ شاءَ باختيارهِ

وخذْ من المطبوخِ والشمسيِّ ريُّ رجالٍ حظُّهمْ في الرّيِّ

وخذ لنا فاكهةً ترضاها فأعينُ الناسِ غداً تراها

وبعد أن يفرغ الشاعر من وصف الأطعمة والأشربة يستدعي أحد الرّجال

المتخصصين في الجوارح وحيوان الصيد، العارفين بأحوالها والعلامات الدّالة على قوّتها، ويأمرهُ باختيار أجودها لاصطحابها في رحلتهم هذه:

وقلتُ: أين البازيارُ جـعفرُ؟ قيل: ببابِ الدارِ قلتُ: يحضرُ
قلتُ لهُ لمّا أتى: اسمعْ قولي ولا تخالفْني تنلْ من نيلي
تصيدُ ما طارَ من الفِراخِ أحسنَ من صيدِك بالفخاخِ
وخذْ شواهيناً جياداً فُرْها تأخذُ طيرَ الماءِ فيه كُرْها
ستاً وإنْ شئتَ فخذْ ثمانيهْ تديرُ منها ما تشا علانيهْ
وخذْلنا عشْراً من الكلابِ مختارةً تُمعنُ في الهِرابِ
وخذْ من الأكلبِ للعراضِ أربعةً فهْي القضاءُ الماضي
وخلّها باللـه بالنوائبِ فإنّها تأخذُ كلَّ ذاهبِ
ثمَّ خذ الفهدَ فإني وامقٌ لصيدهِ إذا اغتدى يُعانقُ(١)
كـأنّهُ بلثْمِ ما يصيدُ وضمّهِ فإنّه شديدُ
كعاشقٍ فازَ بِمَنْ يُحبّ وهْو بهِ من قبلُ ذاك صبّ
وقلْ له واسِ أخي مفرّجٍ لستُ أحبُّ اليومَ صيدَ الزّمّجِ(٢)
لا البازُ يصطادُ ولا الصقورُ إذا رأتْهُ فوقَها يدورُ(٣)

ثم يصف الشاعر الجماعة الذين خرجوا للصيد ويخلع عليهم الصفات المثالية التي ينبغي أن تكون لمن يشارك في هذه الرّحلة، وهي صفات تجمع بين مكارم الأخلاق وقوة البنية، والمهارة في الصيد:

---

(١) وامق: مشتاق.

(٢) الزمّج: اسم طائر يقال له بالفارسية ده برادَران، انظر الجوهري: الصحاح ١/ ٣٢٠. زمج

(٣) الصقر: يُقال إنّ صيدَه أعجبُ من صيد جميع الجوارح، ومع صِغر جثّتِهِ فإنه يثب على الكراكي مع ضخامة جثّته، وذلك لشجاعةٍ خَلَقها الله فيه. انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ٢٠:٥١.

وقلتُ للغلمانِ في وسْطِ السحرْ: قوموا اخرجوا فاليومُ يومُ مُشْتَهرْ
ولا تريدوا مَعَكمْ من قد عُرِفْ بالشؤمِ في الصيدِ ولكنْ ينصرفْ
قالوا: فمن نردُّ؟ قلتُ: ردوا ذاك وذا وذا وشدّوا
لمّا رددتُ القومَ طابتْ نفسي وسرْتُ في عصابةٍ من جنسي
كلٌّ كريمٌ بطلٌ محامٍ مغاورٌ مُنازلٌ مِقدامُ
أجْرى من الليثِ إذا الليثُ زأرْ والبدرِ في الحُسْنِ إذا البدرُ بَهَرْ

ويذكر الشاعر الأماكن التي خرجوا إليها، وهي أماكن مشهورة بصيدها الوفير، وبيئتها الجميلة، وكان أول ما صادوهُ الأرنب وهو ما زال نائماً جاثماً في مكانه، فكان فاتحةً لصيد غيره، إذ يقول:

سقياً لعجّارَ وما والاها طاب ثراها وشفى هواها
حتى إذا صرتُ ورا البستانِ وعينُ قنّسرينَ في الجِنانِ
رأى الغلامُ أرنباً في المجْثَمِ نائمةً بحينها لم تعلمِ
فشكّها بالآلةِ المباركهْ ونفسُها مما دهاها هالكهْ
وانفتحَ الصيدُ لنا وطابا قلتُ: احفظوا ويْحكمُ الكلابا
فلم نزلْ نطلبُها في البقعهْ حتى أخذْنا مائةً وسبعهْ

ثم يصف الشاعر بدقة بالغة عملية صيد طيور الماء من إوزٍّ وغيره، وكيف أنهم كانوا ينفّرونه حتى يطيرَ في الجو، فيصوّبون سهامهم نحوه:

وصاحَ طيرُ الماءِ عن يميني كأنّما دلٌّ على كمينِ
قلت: ذرِ الأصفرَ والملمّعا حتى إذا ما استعليا دارا معا
كأنَّ ذا يطلبُ ذا في الحرْبِ والطيرُ منها في أشدّ الكرْبِ
لمّا نقرتُ الطبلَ طارَ الرفُّ واستقبلتْهُ بالرّدى الأكُفُّ

فجدّلتُ أربعةً كبارا كأنها من ثقلها أحجارا

ثم تبعناه إلى إحدى البِرَكْ وهْو من الخوفِ كطيرٍ في شَرَكْ

فلم يَطر حتى نقرْنا الطّبلا فازدادَ منا وحشةً وخبْلا

حتى إذا طارتْ طيورُ الماءِ والطائرانِ فوقَ في الهواءِ

تصوبتْ كالنارِ لّما اشتعلتْ فجدّلتُ أربعةً وارتفعتْ

ثمتَ عادا فأجدّا في الطلبْ فلحقا ما كان منها قد هَرَبْ

فصرّعا أربعةً وأربعهْ وهبتِ الريحُ فصارت زوبعهْ

وجاءني العبدُ بسلوتينِ كلاهما في ثِقْلِ وزّتينِ

ويشير الشاعر إلى أحد الصيّادين الذي جاء بقدر وفير من السمك:

وجاء صيادٌ بمخلاتيْ سمكْ قد صادها منفرداً وما تركْ

وبعد هذا يأتي صيد الدرّاج والكراكي، حيث يُطلق البازي في أثرها في الجو، ويتابعها إلى أن يتمكن منها:

ثم عدلنا نطلب الدرّاجا وكان من كثرتهِ أزواجا

فلم نزلْ نأخذُ ما يطيرُ كبيرُها المأخوذ والصغيرُ

حتى أخذْنا فوقَ تسعين عددْ والبازُ قد أسرعَ فينا واجتهدْ

مِلْنا جميعاً فإذا الكراكي طويلة السّاقاتِ والأوراكِ

لما رأى البازَ أجدّ السّيرا ولا ترى أخبثَ منهُ طيْرا

حتى إذا قاربَها تعلقا زاد علواً وسما وحلّقا

ثم رمى بنفسهِ عليها فكان موْتاً مسرعاً إليها

فلم يزلْ يضربُها وينصرعْ وقد تحدّاها بموتٍ وطمعْ

فِعْلُ الشواهين بـطيرِ الماءِ إذا رأتْه وهْـو في السـماءِ

حتى لقد صادَ الكريمُ تسعـهْ وسبـعةً وسبـعةً وسـبـعهْ

صيداً ترى عدّتَه في جـمْعِهْ وذا من الباز لعـمري بِدْعهْ

واتبعِ الغطرافَ طيراً قد هربْ لكلِّ حتْفٍ سببٌ من السببْ

فإذا ما انتهى الرفقة من صيد الكراكي والدّراج واصلوا السير، فإذا مكان فيه الكثير من الحُبَارى، فيأمر رئيسهم بإطلاق الباز في أثَرِهِ لاصطياده، يقول:

بينا نسيرُ فـإذا الحُـبَارى واقــفـةٌ كأنـّها حَيَـارى

لما رآها البازُ طابتْ نفـسي أرسلْتَهُ فانسلَّ مثل النـمسِ

يطيرُ فوقَ الأرضِ لا يُدْرى بـهِ فأفردَ البـائسُ من أصحابـهِ

لحقْـتَه وهْوِ علـيهِ ينـتفُ والقلب من خوفٍ عليهِ يرجفُ

قلتُ له اركبْ مسرعاً فما ركبْ حتى نزلتُ والحبارى تضطربْ

ثم إذا الغطـريفُ فوقَ الثاني أراه مـن بُـعْدٍ ولا يـراني

فصحْتُ بالصياد خذْهُ من يـدهْ فطـيرُنا مجتهدٌ في طرْدِهْ

واستكمالاً لرحلة الصيد هذه، يتحدث الشاعر عن صيد الحيوانات البريّة من نعام وحميرٍ وبقر، ولكن وسيلة الصيد هنا كانت مختلفة، فهي الكلاب المدرّبة التي أمْعَنتْ في مطاردتها، بالإضافة إلى ملاحقة الصيّادين لها على ظهور خيولهم، ورميها بأسلحتهم:

لما أتينا النهرَ نبغي الطرْدا نكَـدْ ما نبـصرُ منهُ نكْدَا

إذا النعامُ والحميرُ والبـقرْ في فيء زيتونٍ وتـينٍ وشجرْ

قال ليَ الصيادُ: ذا يوم ظفرْ والصبرُ عُقبى خيرُهُ لمن صَـبَرْ

فابعث بخيلٍ تأخذ المضائقا واخترْ من الخيلِ الطمرَّ السّابقا

ووصَّهــمْ بصـيدهِ من الجبلْ   فكلما عاد إلينا قد حصلْ

بعثــتُ من عيـنته للـوقتِ   سبعاً وسبعاً وصلَتْ بستً

ثم عبرْنا النـهرَ بعد مـرّهمْ   نسيرُ سيراً ليناً في إثرهمْ

حتى إذا صرْنا حذا الزيتونِ   وقد قربْنا من أصول الـتينِ

إذا الظـباءُ جعلـتْ تطـيرُ   واتبعتْـها بعـدَها الحـميرُ

ثم إذا سربُ النّعـام والبقرْ   نافرةٌ قد طلبـتْ منهـا الأثرْ

قلتُ لهم: خلّوا الـكلابَ طرّا   ولا تـخلّوا فوقَ كـفٍّ صقْرا

فـأدبـرتْ هـاربةً فـراراً   والموتُ قد حاصرها حصارا

قد أخذتْ طرْقَ الفلا عليها   وكلّـنا منـكمشٌ إلـيها

حتى استوينا وهْي في البطحاءِ   بأكلبٍ شُـدَّتْ على الظِّـباءِ

فكـم مهاةٍ هـلكتْ بطعنـةِ   ورميةٍ تمكّـنـتْ في الشُّـفنةِ

وكم حـمارٍ كسـرتْهُ حذفَهْ   وضربةٍ تقـدُّ منـه كـتفَهُ

وكم غـزالٍ أخـذتْه الخيـلُ   حـلَّ بهِ منـها هناك الويلُ

ولمّا حان وقت الظهيرة وحصل القوم على صيد وفير، نزلوا فوق شط النهر طلباً للراحة وتناول الطعام وشرب الرّاح، ثم استعدوا للعودة، يقول:

سرْنا وقد حـان أوانُ الـظهرِ   حتى نزلنا فـوقَ شـطِّ النهرِ

قلتُ استريحوا ثم صلّوا وكلوا   ثم اشربوا الراحَ هنيّاً وارحلوا

وأجّـجَ الطّـباخُ ناراً هـائلهْ   يقلي ويشوي والنفوسُ مائـلهْ

وقـلت: لمّـا شربوها راحـا   وكـلّهمْ قد طـابَ واسـتراحا

سيـروا بـنا ندخلُ بالنـهارِ   لينـظرَ الناسُ إلى استظهاري

غير أن رحلة الصيد هذه لم تكن أمْناً كلَّها، فقد اعترضهم وهم عائدون لصوص الروم ولكنّهم تمكنوا من النّجاة منهم، وعادوا إلى بلدتهم مسرورين، وقد خرج أهلها لاستقبالهم وأخذ نصيبهم مما أتى به هؤلاء الصيادون، إذ يقول:

حتى إذا صِرْنا إلى الزيتونِ إذا بخيلِ الرّومِ في الكمينِ
وهْو لعمري موضعٌ محذورُ فيهِ اللّصوصُ أبداً تدورُ
لما رأونا اجتمعوا وقالوا لنا: الأمانُ قلتُ: ذا مُحالُ
والله لا أومنُ إلا من نَطقْ بالحقِّ فيما قالهُ ومَنْ صدقْ
قالوا: علينا لك صدقُ المنطقِ نحن تركْنا عسكرَ الدمستقِ
ليلاً وقد مرّ على سرتينَ ثمّتَ خلاّها على اليمينِ
وعزمُهُ أن ينزل البذْريّهْ ليلاً ومنها يخرجُ السَّريّهْ
نعم ولا بد من الكمينِ في موضعٍ يخفى عن العيونِ
فاستَبَقْنا فكلُّنا ذو حالِ بالمالِ نفدي ثم بالرجالِ
قلتُ: لكمْ ما قد طلبْتُمْ منّي واللهِ لا يُروى القبيحُ عنّي
فسِرْتُ بالقومِ وقد طارَ الخبرْ وَخرَجَ الناسُ جميعاً للنظرْ
وافترقَ العسكرُ كلٌّ قد حملْ بما أصبناهُ ومما قد قُتِلْ
وفُرِّقَ الباقي على أهل البلدْ فعمّهمْ طُراً وزادَ في العددْ

ويصف كشاجم رحلة صيد قام بها مع مجموعة من أصحابه، ويحدّد الزمان الذي خرجوا فيه، والأجواء الجميلة التي نشرتْها الطبيعة حولهم، مصوّراً الخيول الأصيلة التي استخدموها في عملية الصيد وملاحقتها لطرائدها، مُعْرِباً عن إعجابه بسرعتها ومهارتها، واصفاً الفرائس وهي تتخبّط في دمائها، معتبراً ذلك كلّه نعمةً

من الله ومنّاً، فيقول(١):

لمّا بدا الصبحُ فقيلَ أسْفرا ... وقوّضَ الليلُ فقيل شمّرا (٢)
وأذكتِ الريحُ نسيماً عَطِراً ... كأنّما يؤخذُ منها عنْبرا
غدتْ بنا جُردٌ طوينَ ضُمَّراً ... مكسوّةٌ من الشِّيَاتِ حَبْرا(٣)
أبلقُها وحزنُها والأشقرا ... حتى إذا العانةُ عنّتْ سطرا(٤)
وظهرتْ أو كربَت أنْ تظهرا ... وقال مَنْ كان أحدُّ بَصَرا
لمن يليه جَذِلاً مستبشراً: ... أما ترى أما ترى أمَا ترى
فمنبضٌ أو مستَجدٌ وَتَرا ... ومطلقٌ بسهمهِ فقَصّرا
وممسكٌ أجدرْ بهِ أنْ يَظْفرا ... وكنتُ من أشدِّهمْ تنظُّرا
بهرتُمُ سبْعاً ومثلي بَهَرا ... فقدّم المقدارَ مَنْ تأخّرا
مَنْ أحسنَ الوِرْدَ أجادَ الصَّدْرَا ... فكم رأيتُ مِسْحلاً مُعَفّرا(٥)
مكتسياً من دمهِ مُعَصْفرا ... ما خَصّني بل كان للقومِ قِرى
وكان فيه غرضٌ أنْ أشكرا ... للهِ ما أعمّهُ فأكثرا
لصَدَق النبيُّ فيما أخبرا ... إذ قال: كلُّ الصيد في جوْف الفِرا(٦)

ويصف كذلك في قصيدة أخرى الإطار العام لرحلة صيد قام بها، فقد كانت في

---

(١) كشاجم الرملي: ديوانه ١٩٤.

(٢) قوّض : هدّم ، وشمّر : مرّجاداً أو مختالاً

(٣) الشيات: جمع الشية وهي كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره، والحبر: ضرب من برود اليمن.

(٤) الأبلق: السّواد مع البياض، والحزْن: الخشن، والأشقر من الدّواب: الأحمر، والعانة: القطيع من حُمُر الوحش.

(٥) المِسْحَل: حمار الوحش.

(٦) الفِرا: الحمار الوحشي.

جوٌّ ربيعيٌّ جميل، اكتست فيه الطبيعةُ حُلّةً قشيبةً من الأزهار والأشجار التي تحفُّ بها غدران الماء، وتحلق فوقها الطيور التي تُطرب الآذان بغنائها العذب، فانتشى الشاعر وصحبُه بذلك، فأخذوا يتعاطون الخمر، ويتبادلون كؤوسها فيما بينهم، يقول(١):

وروضةٍ صنّفَ النُّوّارُ جوهرَهُ ... فيها بما شئتَ من حسنٍ ومن طيبِ
كأنّ غدرانَها بالروضِ مُحدقةٌ ... تحبيرُ ثوبٍ من الموشيِّ معصوبِ(٢)
وأكؤسٌ من رحيقِ الرّاحِ مُترعةٌ ... موضوعةٌ بين فتيانٍ مناجيبِ
كأنما الطيرُ في حافاتِها حُزُقاً ... بيضٌ زهينَ بتطويقٍ وتحبيبِ
كأنهنّ قيانٌ والصفيرُ غِناً ... وكالمناقيرِ أنصافُ المضاريبِ

وأشار إلى مباكرته لها وقت الفجر على خيوله، وصاحبَهُ سلاحَه، إذ يقول:

باكرتُها وكأن الفجرَ شادِخَةٌ ... في وجهِ لاحقةِ الأقرانِ سُرْحُوبِ(٣)

ويصوّر الشاعر الأسلحة التي حملها معه في هذه الرحلة، ويدقق في نعت الرماح، فيشير إلى الشجر التي أُخذتْ منها، والنقوش التي صُوِّرت عليها، وتأنّق القيْن في صنعها وتزيينها، وذلك في قوله:

مُستصحباً شكةً ليسَ ليومِ وغىً ... ولا لِثارٍ لدى الأعداءِ مطلوبِ(٤)
وفي يساري من الخطّيِّ محكمةٌ ... متى طلبتُ بها أدركتُ مطلوبي
للوعلِ باطن شطريها ومُعظمها ... من عودِ شجْراءَ صمّاءَ الأنابيبِ(٥)

---

(١) كشاجم: ديوانه ٥٥.

(٢) معصوب: من العصْب: ضربٌ من البرودِ.

(٣) الشّادخة: من الشّدخ أي الميل وانتشار الغُرّة، والسّرحوب: الفرس الطويلة.

(٤) الشكّة: السّلاح، والجمع شِكك.

(٥) الوعل: تيْس الجبل.

تأنّق القينُ في تزيينها فغدتْ   تَزْهى بأحسنِ تلميعٍ وتذهيبِ
في وسْطِها مقلةٌ منها تُبيِّنُ ما   ترمي فما مَقْتلٌ عنها بمحجوبِ

وقد وصف بعض الشعراء آلات الصيد، ومنها (السَّبطانة)، وهي تُتَّخذ من الخشب، مستطيلة كالرمح، مجوّفة من الدّاخل، يجعل الصائد بندقة من طين صغيرة فيها وينفخ بها فتخرج منها بقوّة، فتصيبَ الطيرَ فترميه، وهي دقيقة الإصابة، يقول الببغاء في ذلك(١):

وجوفاءَ حاملةٍ تهتدي   إلى كل قلبٍ بمقروحِهِ
مقوّمةِ القدِّ ممشوقةٍ   مهفهفةِ الجسمِ ممسوحِهِ
مثقّفةٍ فَمُها عينُها   تُبشِّرُ قلبي بتصحيحِهِ
فإن هي والجارحُ استنهضا   إلى الصيد عاقتْه عن ريحِهِ
إذا المرءُ أودعها سرَّهُ   لتُخفيهِ باحتْ بتصريحِهِ
مَواتٌ تعيش إذا ما أعادَ   لها النافخُ الرّوحَ من روحِهِ
هي السَّبطانةُ في شكلها   ففي القلبِ جِدُّ تباريحِهِ
تحُطُّ أبا الفَرْخِ عن وكرهِ   وتستنزلُ الطيرَ من لُوحِهِ(٢)

ومن الألعاب التي كان يمارسها القوم أنذاك، اللعب بالصولجان(*)؛ وهو ضربُ كرةٍ من على ظهور الخيل، وقد وصف كشاجم الرملي هذه الرياضة وكيف أنها كانت تتم في ملعب من الأرض مستوٍ فسيح، ووصف اللاعبين في تآلفهم وانسجامهم وضمورهم وخفّة أجسامهم وسرعة حركتهم، والخيول التي كانوا يركبونها، وهي خيول تجمع بين الفراهة والقوة والجمال، فإذا ما قُذفتِ الكرة

---

(١) الببغاء: شعره ٦٩.

(٢) اللوح: الفضاء بين السّماء والأرض.

(*) أصل هذه اللّعبة فارسي. انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٦٢:٢.

وراحوا يتبادلونها فيما بينهم، دبّ النشاط في أجسامهم، وغمَرَ الفرحُ قلوبهم، يقول(١):

ومَلعبٍ للخيلِ في قرواحِ ... مُنفسحِ الأرجاءِ والنّواحي
كأنّهُ كفُّ فتىً جحجاحِ ... مبسوطةٌ للجودِ والسّماحِ(٢)
عَمَرْتُهُ بفتيةٍ صِباحِ ... بيضٍ بأعراضهمُ شِحاحِ
مؤتلِفي الأخلاقِ والأرواحِ ... وضُمَّرِ الأحشاءِ كالقِداحِ(٣)
من كلِ طِرْفٍ سابحٍ طمّاحِ ... مناسبٍ للبرقِ والرياحِ(٤)
يُطيرُهُ الحُضْرُ بلا جَنَاحِ ... خالٍ من الحِرانِ والجماحِ(٥)
ذي دُهْمةٍ تضحكُ عن أوضاحِ ... كأنّهُ ليلٌ على صَباحِ
وقاني مثلِ دمِ الجراحِ ... سِبْطٍ كخطّيِّ من الرماحِ(٦)
خِلتُهمُ من شدّةِ المِراحِ ... ونَزَواتِ الأُكْرِ المِلاحِ(٧)
سَكْرى تنشّوا من حُمَيّا الراحِ ... فواصلوا التجْميشَ بالتُّفاحِ(٨)
فيالهُ لهوٌ بلا جُناحِ ... شُبّه فيه الجِدُّ بالمُزاحِ

ومن هذه الألعاب المبارزة، وللمتنبي قصيدة طويلة وصف فيها مبارزة بدر ابن عمار صاحب طبرية مع الأسد، بدأ حديثه عن المبارزة بالإشادة بقوة بدر حينما

---

(١) كشاجم: ديوانه ١٢٣.
(٢) الجحْجاح: السّيد.
(٣) القِداح: جمع قِدْح وهو السّهم قبل أن يُنصل.
(٤) الطّرْف: الكريم من الخيل، والسّابح: الفرس السّريع الجري.
(٥) الحُضْر: ارتفاع الفرس في عدْوه، والحران: وقوف الدّابة وامتناعها عن المشي.
(٦) السِّبط: الطويل.
(٧) النزوات: الوثبات، والأكر: جمع الأُكرة وهي لغة في الكرة.
(٨) التجميش: المغازلة والملاعبة، والحُميّا: من الكأس: سورتها وشدّتها.

جعله يستخدم السّوط لمبارزة الأسد وهو أقل وسيلةً من وسائل القوة التي عنده، وكأننا بالمتنبي يريد رفع معنويات بدر من جهة، ومن جهة أخرى بيّن حقيقة المقابلة بينه وبين الأسد، فلم يكن هدفه قتاله أو القضاء عليه بل أراد إبراز قوته وإظهارها فوق قوة الأسد، إذ يقول(١):

أمُعَفِّرَ الليثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصقُولا

ثم يصف الشاعر الأسد، فقد طارت شهرته وذاع صيته ودوّى حين ورد بحيرة طبرية وأخاف بزئيره كل من وجده في طريقه، وكثيراً ما امتاز بشجاعته وفروسيته حتى يُرى دائماً مُتَخضّباً بدم الفوارس، إلى جانب أنه يبقى وحيداً فلم يُرَ قطّ مع غيره، وامتاز بكبريائه حتى شُبّه بالطبيب الذي يرفق بمريضه حين يجسّهُ، وقد جمع إلى جانب الكبرياء شدة الغضب إذا ما أثاره ثائرٌ ما، يقول المتنبي في ذلك:

وَقَعتْ على الأردنِّ مِنهُ بَلِيَّـةٌ نَضَدَتْ بها هامُ الرِّفـاقِ تُلُولا
وَرْدٌ إذا وَرَد البُحَيْرةَ شارِباً وَرَدَ الفُرَاتَ زَئيرُهُ وَالنِّيلا(٢)
مُتَخضّبٌ بدَمِ الفَوَارسِ لابِسٌ في غِيلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْه غِيلا
ما قُوبِلَتْ عَيناهُ إلاَّ ظُنَّتا تَحتَ الدُّجى نارَ الفَريقِ حُلُولا
في وَحدةِ الرُّهبانِ إلاَّ أنَّهُ لا يَعرفُ التَّحريمَ والتَّحليلا
يطأُ الثَّرَى مُتَرَفّقاً مِن تيهِهِ فكأنَّهُ آسٍ يجُسُّ عَليلا
وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إلى يا فُوخِهِ حَتَّى تَصيرَ لرأسِهِ إكليلا
وتظنُّهُ مما يُزَمجِرُ نفسُهُ عنها لشِدَّةِ غيظِهِ مَشغُولا
قَصرَتْ مَخافتُهُ الخُطَى فكأنَّما رُكِبَ الكَميُّ جوادَهُ مَشكُولا

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٢٣٧:٣.

(٢) وَرْدٌ: ذو اللون الذي يضرب إلى الحمرة.

وإذا ما انتهى الشاعر من وصف الأسد، فإنهُ يبدأ بالحديث عن المبارزة بينه وبين بدر، ونستشف من أبيات المتنبي أنه متعاطف مع الأسد، فجعل الفريسة هي للأسد، ومع ذلك فإنه لا يملك إلاّ أن يدافع عنها، ولا يملك كذلك إلاّ الصّياح لكي لا يقربَها الأمير حين لاحظ أنهُ يدنو منها، ولكن المتنبي لم ينتقص من قدرِ الأمير فجعله مشابهاً للأسد بالقوة ومخالفاً له في الكرم، ولم يكتفِ بهذا القدر بل جعل هذا الأسد يرى قوته وشجاعته من خلال بدر، إذ يقول:

ألقى فَريسَتَهُ وَبَربَرَ دُونَها ... وقَرُبْتَ قُرْباً خالَهُ تطفيلا

فتشابَهَ الخُلُقانِ في إقدامِهِ ... وتخالفَا في بَذْلِكَ المأكُولا

أسَدٌ يرى عُضويْهِ فيك كليهما ... مَتْنا أزلٌ وساعِداً مَفتُولا(١)

لم يكن الأسد يملك إلا قوة جسده دون أيّ إمكانات أخرى، أما بدر فإنه جمع إلى جانب قوته استعانته بسلاحِه وبخيله الوثّابة القوية التي إذا ما أرادت أن تطلب شيئاً فإنها تحصل عليه فهي عزيزة على غير صاحبها، ولا تَذِل إلاّ له، كما يقول:

في سَرْجِ ظامِئَةِ الفُصوصِ طِمِرَّةٍ ... يأبى تَفَرُّدُها لها التّمثيلا(٢)

نيّالةِ الطَّلِبَاتِ لولا أنّها ... تُعطي مكانَ لجامها مانيلا(٣)

تَنْدَى سَوالِفُها إذا استحضرْتَها ... وتظُنُّ عَقْدَ عِنانها مَحْلولا(٤)

وعاد الشاعر ثانية لوصف الأسد، واستعداده للوثوب، وامتيازه بالغيظ وشدة الغضب، والغرور بقوته الذي دفع به إلى مبارزته الأمير فخدعهُ بصره، ومع ذلك فإنه أنف من الدّنية، فلم يهرب خوفاً من العار، فآثر الهلاك على الهروب، يقول:

ما زالَ يَجمعُ نفسَهُ في زَوْرِهِ ... حتّى حَسِبْتَ العرضَ مِنهُ الطُّولا

---

(١) الأزلّ: قليل اللحم.

(٢) ظامئة الفصوص: ليس برهلة ولا برخوة، والطمرّة: الوثّابة.

(٣) الطّلبات: جمع طَلِبَة وهي الحاجات.

(٤) السّوالف: صفحة العنق، واستحضرتها: من الحضْر، أي العدْو.

وَيَدُقُّ بالصَّدرِ الحِجارَ كأنَّهُ يَبغي إلى ما في الحضيضِ سَبيلا

فكأنَّهُ غرَّتهُ عَينٌ فادَّنى لا يُبصرُ الخطبَ الجليلَ جَليلا

أنَفُ الكَريمِ منَ الدَّنيَّةِ تارِكٌ في عَينِهِ العَدَدَ الكثيرَ قليلا(١)

والعارُ مضّاضٌ وليس بخائفٍ مِن حتْفِهِ مَنْ خافَ ممَّا قيلا(٢)

ولم يزل المتنبي يرفع من شأن الأسد حيث جعله يبدأ بمبارزة بدر ويهجمُ عليه، استشعاراً بقوته، إلاّ أن قوته هذه خذلته أمام قوة بدر حين لاقاه فلم يكن أمامه إلا أن ينقاد للأمير ويترك خصومتَهُ.

وراوح المتنبي بين مدحه للأسد والإشادةِ بقوتهِ، ومدح بدر والثَّناء على قوته، فإذا ما بدأ بالهجوم فإنّ بدراً يردُّ ذلك عن نفسه ويجعل من فعله بالأسد عبرة لغيره، فهو إذا ما حاول أن يُظهِر جرأتَه على بدر فإنها لم تنفعه هذه الجرأة، إذ يقول:

سَبَقَ التقاءَكَهُ بوثبةِ هاجمٍ لَو لمْ تُصادِمْهُ لجازَكَ مِيلا

خذلَتهُ قُوَّتُهُ وقد كافَحْتَهُ فاستنصَرَ التَّسليمَ والتَّجديلا

قَبَضَتْ منيَّتُهُ يديْهِ وعُنُقَهُ فكأنَّما صادفْتَهُ مغلولا

سمعَ ابنُ عمَّتِهِ بهِ وبحالِهِ فَنَجا يُهرْوِلُ منْك أمْسِ مَهُولا

وأمَرُّ ممّا فرَّ منه فِرارُهُ وكقتلِهِ أن لا يموتَ قتيلا

تلفُ الذي اتَّخذَ الجراءةَ خُلَّةً وَعظَ الَّذي اتَّخذَ الفِرارَ خليلا

---

(١) الأنَف: الاستنكاف.

(٢) مضّاض: موجع ومحرق.

ب- اللهو والمجون:

١- شرب الخمر

شغف شعراء هذا العصر بوسائل اللهو والمجون وحثّوا عليها، واتخذوها وسيلة للعيش، وساهم معهم في انتشار اللهو والمجون ارتباطهُ بحياة القصور، ولا سيّما في بلاط الأمير سيف الدولة، الذي أُثِرَ عنهُ ولوعهُ بمجالس الأنس وإغراقهُ فيها، فممّا ذكر عنه أنّه كان في مجلس أُنسٍ مع جماعة من ندمائه، فأُدْخل إليه رجل وخاطبهُ وأمرَ بقتله فقُتِل في الحال، فالتفت إلى ندمائه وقال لهم: ما هذه المعاشرة القبيحة التي تعاشرون بها؟ كأنّكم ما رأيتم الناس ولا سمعتم أخبار الملوك، ولا عشتم في الدنيا، ولا تأدّبتم بأدب دين ولا مروءة، فتوهّم الجلوس عنده أنهم عملوا شيئاً منكراً، فقال لهم: أما رأيتموني وقد أمرْتُ بقتل رجل مسلم لا يجب عليه القتل؟ وإنّما حملتْني السّطوةُ والسياسة لهذه الدنيا النكدة على الأمر به طمعاً في أنْ يكون فيكم رجل رشيد فيسألُني العفو عنه فأعفو عنه، فقال الحضور: لم نتجاسر على ذلك(١).

ولم يكن سيف الدولة ممن شغف بمجالس الأنس وحده، بل أُقيمتْ بعض المجالس لدى الإخشيد، شَرب فيها مع ندمائه الخمر، كما ذكر الشاعر أبو الطيب المتنبي من أنّ ابن طغج- أبا محمد عبيدالله- أقسم عليه أن يشرب فأخذ الكأس منهُ، وقال(٢):

حُيِيْتَ من قسَمٍ وأفدي المقْسِمَ   أمسى الأنامُ لهُ مجلاً معْظما

وإذا طلبتُ رضى الأميرِ بشرْبِها   وأخذْتُها فلقد تركتُ الأحْرُما

وحلف عليه مرة أخرى فامتنع المتنبي، فأقسم عليه ابن طغج، فشرب المتنبي، وقال(٣):

---

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ١:١٤٣..

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٤:١١٨.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٢:٣٥١.

سقاني الخمرَ قولُك لي بحقّي ... وودٌ لــم تَشُبْهُ لي بمذْقِ(١)

يميناً لو حلفتَ وأنــــتَ ناءٍ ... على قتلي بها لضربتُ عنْقي

غير أننا نرى هذا التيار يعبِّرُ في معظمه عن نزعاتٍ فردية لدى بعض فئات المجتمع، فمثلاً نجد الشاعر أبا الرّقعمق قد اتخذ اللهو والفسق وسيلة لنيل العيش والكسب، فشجّعَ الناس جميعاً أن يحذوا حذوَهُ، ومما يزيد في تماجنهِ أنهُ يفضِّلُ حمقَهُ على عفّته ودينه، وذلك إذ يقول(٢):

فأطيبُ العيشِ كان عندي ... أيّامَ للفسقِ قلّدوني

وكنتُ طبّــاً به بصــيراً ... أقودُ الناسَ في سكونِ(٣)

فكم غــزالٍ أخذتُ قسراً ... وكم مليحٍ حوتْ يميني

والناسُ يسعون نحو داري ... من كلِّ أرضٍ ويقصدوني

فــذا يوافــي بثوبِ خزٍّ ... وذا يوافي بثوبِ توني(٤)

وذا يفدِّي وذاك يــهــدي ... وذاك يمضــي وذا يجيني

وكلُّ عِلْقٍ إلى مــراحي ... أهــدى من الطيرِ للوكونِ

وكان خُلُقي لهمْ رضــيّاً ... أصفعُــهُمْ ثم يصفعوني

قد أجمعَ الناسُ أنّ حُمْقي ... أحســنُ من عفّتــي وديني

قد عشتُ دهراً أعولُ عقلي ... والنــاسُ إذ ذاك يبعدوني

فمذْ تحامــقتُ قد كساني ... حُمقــي وقد عالني جنوني

وكان أبو الرّقعمق على رأس هذا التيار الذي دافع عنه ودعا إليه، فهو لا

---

(١) المذْق: المزج.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٣٩٨.

(٣) طبّاً: عالماً.

(٤) توني: نوع من الحرير.

يعترف بشيء في الحياة سوى المجون، وارتياد الحانات والخمارات ومصاحبة أهل الخساسات، وكثيراً ما دعا إلى اطِّراح العقل، فيقول(١):

وقد مجنتُ وعلّمتُ المجونَ فما أُدْعى بشيءٍ سوى ربُّ المجاناتِ
وذاك أني رأيتُ العقلَ مطّرحاً فجئتُ أهلَ زماني بالحماقاتِ
إني سأدخلُ عذّالي على عذلٍ في الحبِّ أنْ عذلوني في الحراماتِ
أفدي الّذين نأوا والدارُ دانيةٌ وشتتوا بالجفا شملَ المودّاتِ
كم قد نتفتُ سبالي في صدودهمُ والصدُّ أصعبُ من نتفِ السبالاتِ
سُقياً ورَعْياً لأيامٍ لنا سلفتْ بالقفصِ قصّرها طيبُ اللذاذاتِ
إذ لا أروح ولا أغدو إلى وطنٍ إلاّ إلى ربْعِ خمّارٍ وحاناتِ
أيامَ أسحبُ أذيالَ الهوى مرحاً مصرّعاً بين سكْراتٍ ونشْواتِ
عوِّضتُ فيهنَّ أحزاناً تؤرّقني بعد السرور وفرْحاتٍ بترْحاتِ
لولا عذارٌ تعالى كيف صوّرَهُ ربُّ العبادِ لتعذيبي وحسراتِ
كأنّهُ مِشْقةٌ مِنْ خدِّ مَنْ شَقِيَتْ روحي بهجرانهِ أو عطفِ نوناتِ(٢)
لّما حللْتُ بدارٍ ما لها أحدٌ إلاّ أناسٌ تواصوا بالخساساتِ
لو كنتُ بين كرامٍ ما تهضّمَني دهرٌ أناخَ على أهلِ المروءاتِ(٣)

وشارك أبا الرَّقْعمق في مذهبه هذا، كشاجمُ الرّملي الذي أعلن أنّه سيصرُّ على البطالة والهوى ما دام يمتلك القدرة على ذلك، وما دام يستصبي الحسان ويفتنهن، إذ يقول(٤):

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٣٨٥.
(٢) مِشقة: رقّة الخدّ.
(٣) تهضّمَني: ظلمني، أو أنقصني حقوقي.
(٤) كشاجم الرملي: ديوانه ٢٢٥.

لِمَ لا أصرُّ على البطالةِ والهوى   وعليّ بُردُ شبيبتي وإزارُها

وإذا ترَاءتْ للقيانِ محاسني   طمحتْ إليّ بلحظها أبصارُها

ولو أنّ عيداناً بغيرِ ضواربٍ   قابلْنني لتحرّكتْ أوتارُها

وقد تمادى الشعراء كثيراً في المجاهرة بارتكاب الحرام، ودعوا إلى شرب الخمر ومغازلة الغلمان، واتخاذ كل أسباب اللهو، كما يقول الصّنوبري(١):

ما ساعةٌ تمضي بلاوزرٍ   بساعةٍ تُحْسَبُ من عمْري

قمْ باكرِ الفجرَ إلى شرْبَةٍ   يَغْنى بها الشّربُ عنِ الفجرِ

لا تسقني خمْراً وهاتِ اسقِنا   إنْ كنتَ ساقينا أخا الخمرِ

أنَ لأصحابي أنْ يسكروا   فنادِهمْ حيٌّ على السّكْرِ

وقد استْخفّوا بالدنيا والحياة، وجعلوا الدنيا كأحلام منام أو كالوهم، وبذلك فلا بدّ من الاستمتاع والالتذاذ بشرب الخمر، كما يقول كشاجم(٢):

فاشربِ الرّاحَ بأرطا   لٍ وطاساتٍ وجامِ(٣)

إنّما الدنيا كوهمٍ   أو كأحلامِ منامِ

لا تـرومنّ بعيداً   وارضَ بالأمرِ الموامِ(٤)

ولم تكنِ الخمرةُ هي الباعثُ على اللهو فقط، بل نجد الشعراء يتحدثون عن توقِ أنفسهم إلى الغواني، دون أن يسيطروا عليها، كما يقول كشاجم(٥):

فنفسي تتوقُ إلى الغانياتِ   وقلبي يهمُّ بأنْ ينزجرْ

---

(١) الصّنوبري: ديوانه ٣٩.

(٢) كشاجم: ديوانه ٤٤٥.

(٣) الطّاسات: الإناء يُشرب فيه، والجام: إناء من فضّة.

(٤) الموام: الموافق والمناسب.

(٥) كشاجم: ديوانه ٢٦٤.

ويأبى له ذاك وردُ الخـدودِ ... وصُبْحُ الوجوهِ وليلُ الشعرْ

وأعطي قيادي كفُّ المجـونِ ... وأخفي فتـوناً وأبـدي أشرّ

وبلغ إستـخفاف بعض الشعراء واستـغراقهم في المجون حداً جعلهم يصفون الشام بأنها (بلد الخلاعة والمجانة)، راسمين لها صوراً تبيِّن جمالَ بيئتها، واعتدال جوِّها، وكثرة حسانها، كما في قول أبي فراس(١):

جَادتْ عِراصَكِ يا شـآمُ سَـحَابةٌ ... عَرّاضَةٌ من أصدقِ الأنواءِ(٢)

بلدُ المجانةِ والخلاعـةِ والصِّـبا ... ومحـــلُّ كلِّ فُـتُوَّةٍ وفـتَاءِ

أنواعُ زهْرٍ والتفافُ حـدائقٍ ... وصفاءُ ماءٍ واعتـدالُ هواءِ

وخرائدُ مِثْلُ الدُّمى يَسْـقيننا ... كاسيْنِ مِنْ لحظٍ ومن صَهْباءِ

وإذا أدِرْنَ على النّدامى كأسَهَا ... غنّيننَا شعرَ ابنِ أوسٍ الطّائي

ويبدو أنّ فصل الرّبيع كان الفصل الذي تكثر فيه مجالس اللهو والمجون، لذا فقد ربط الشعراء بينه وبين (عيش الخلاعة)، كما في قول الوأواء الدمشقي(٣):

زمانُ الرياض زمانٌ أنيقُ ... وعيشُ الخلاعةِ عيشٌ رقيقُ

وقد جمعَ الوقتُ حاليْهما ... فَمَنْ ذا يفيقُ ومَن يستفيقُ

ومما شجع الشعراء على اللهو وشرب الخمر كثرة الأماكن التي تُقدِّم فيها، كما أشار الصّنوبري إلى الرّقة والبليخ والجوشن، حيث تكثر حولها البساتين والثمار والأزهار وتزورها الجواري، فيقول(٤):

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١١.

(٢) العرّاضة: معترضة في السّماء.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ١: ٣٤٠.

(٤) الصّنوبري: ديوانه ٥٤.

مــا فيَّ مـــن خـلـعِ العذارِ ومن التَّـــجـنُّبِ للــوقـــارِ

كأسٍ مـــن الـصَّـبواتِ لـ كنْ من سوى الصَّـبَوَاتِ عـاري

أختـــالُ في طـرقِ الهـوى نشْـــوانَ مسـحـــوبَ الإزارِ

بين الهـنيِّ إلى الـبلـيخِ إلـــى بســاتـــينِ النـــقارِ(١)

فالرِّقـــةِ السّـــوداءِ ذاتِ المُجْـــتـنَى الغضِّ الثِّـمارِ(٢)

فالـدّيـرِ ذي الـتُّل المـوْز زَرِ بـالـشـــقائقِ والبَـــهارِ(٣)

فالحيْرِ حَيْرَ الوحـــشِ وال ميـدانِ ميـدانِ الجـــواري(٤)

فالجوشنِ المحفـــوفِ بالشـْ شُرفـــاتِ مـــن أعـلى انحدارِ(٥)

وذكر الصّنوبري بعاذين الذي تحفُّهُ البساتين، وتحدث عن يومٍ شرب فيه، وقد طرب لصوت العصافير وجمال الأزهار، قائلا(٦):

شربْنا فـــي بعـــاذينِ على تـلـك الميادـيـــنِ

على ضحْكِ الهـزاراتِ على نوْحِ الشّفافينِ

على ضربِ الرواشـينِ وترجيـــعِ الوَرَاشينِ

لدى أنوارِ زهْـــرٍ لُوْ ونَـــتْ ألـطفَ تلوينِ

شـــربْنا فتـــعالَ انظرْ إلـــى شُربِ التفانينِ

وتحدث في موقع آخر عن الحدائق والرياض التي شرب فيها مع ندمائه،

---

(١) الهنيّ: نهر بإزاء الرّقة والرافقة، والبليخ: نهر على جانبي دير زكّي.

(٢) الرّقة السوداء: قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة.

(٣) المقصود بالدير هو دير زكّيْ وهو بالرّقة.

(٤) الحير: الحمى أو الحظيرة، ويعني نوعاً من ملاعب الوحوش، والجواري: السفن.

(٥) الجوشن: اسم جبل غربي حلب.

(٦) الصنوبري: ديوانه ٤٨٩.

وشاركهُ صوت الطيور وهو يعبُّ كؤوسَ الخمر، فقال يتشوق إلى هذه الأماكن التي قضى فيها أياماً جميلة مرّت لهُ بها(١):

ألا طربْتُ إلى زيتونِ بطياسِ ... فصالحيّةَ ذاتِ السّروِ والآسِ
مَن ينْسَ عهدَهما يوماً فلستُ لهُ ... وإنْ تطاولتِ الأيامُ بالناسي
يا موطناً كان من خير المواطنِ لمْ ... مَا أن جَلسْتُ بهِ ما بين جُلاّسي
ما كدتُ أكتمُهمْ وجْدي بنَرجسِهِ ... إلاّ استدلُّوا على وجدي بأنفاسي
تنغُّمُ الطيرِ في الأشجارِ يُوقظني ... إذا كؤوسُهُمُ همّتْ بإنعاسي
وصْفُ الرياضِ كفاني أنْ أقيمَ على ... وصفِ الطّلولِ فهلْ في ذاك من باسِ
وقايلٍ لي: أفِقْ يوماً، فقلتُ لهُ: ... مِن سكرةِ الحُبِّ أمْ من سكرةِ الكاسِ

ويشير الخليع إلى الشرب بالنهار على الرياحين وقت الربيع، وذلك أنهم ينشطون للشرب في هذا الوقت بعدما تكتسي الأرض بالأنوار، وتلبس سموطاً من الدُّر فتمنحهم الاستمتاع والالتذاذ بالخمر، إذ يقول(٢):

حُكمُ الرَّبيعِ وصولُ الكاس بالكاسِ ... والشُّغلُ بالكاسِ دونَ الشُّغْلِ بالناسِ
أما ترى قُضُبَ الأشجارِ قد كُسِيتْ ... أنوارُها بعد عُرْيٍ كسوةَ الكاسي
منظومةً كسمُوطِ الدُّرِّ لابسةً ... حُسْناً يُبيحُ دمَ العنقودِ للحاسي
تنوءُ بالحملِ من نَوْرٍ فقد سَجدَتْ ... نحْوَ النّدامى على العينينِ والراسِ
فاشربْ على حُبُكِ الأكوابِ راعفةً ... بقهوةٍ كدمِ الغزلانِ في الكاسِ

ومن الأوقات المحببة للشرب الليل، فقد اتخذ الشعراء من قول ابن المعتز: «الليل أمتع من النهار- لا يطرقك فيه خبرٌ فاظع ولا سبب مانع" فنظم كشاجم ذلك

(١) الصنوبري: ديوانه ١٨١.

(٢) السَّرِيّ الرّفّاء: المحب والمحبوب والمشموم والمشروب ٤:٢٤٥-٢٤٦.

ذلك بقوله(١):

واتخذِ الليلَ جَمَلْ ... ما حُمِّلَ الليلُ حَمَلْ
والليلُ فيهِ مُتعةٌ ... والليلُ أخلى للعملْ
آمنٌ فيهِ زائراً ... يشغلُني عن الشغلْ
وإن عراني مَلَلٌ ... نفيتُ بالرّاحِ المَلَلْ

كما حبّب هؤلاء الشعراء الشرب أوقات الثلج، فتحدث الصّنوبري عن الثلج وهو يسقط، وهم يشربون الخمر وقد غمرهم الفرح، فيقول(٢):

الجوُّ بين مُضَمَّخٍ ومُضرَّجٍ ... والرَّوضُ بين مزخْرفٍ ومدَبّجِ
والثلجُ تهطلُ كالنّثارِ فقمْ بنا ... نلتذُّ بابنةِ كرمةٍ لم تُمزجِ

ومن كلفهم بها وقت الثلج أن كشاجم يستهدي النبيذ من ممدوحه، وكأن شربها في هذا الوقت سنّةٌ جرى عليها هؤلاء، إذ يقول(٣):

يا مَنْ أناملهُ كالعارضِ السّاري ... وفعلُه أبداً عارٍ من العارِ
أما ترى الثلجَ قد خاطتْ أناملُهُ ... ثوباً يزرُّ على الدنيا بأزرارِ
نارٌ ولكنّها ليست بمبديةٍ ... نوراً وماءٌ ولكنْ ليس بالجاري
والرّاحُ قد أعوزتْنا في صبيحتِنا ... بيعاً ولو وزنُ دينارٍ بدينارِ
فجدْ بما شئتَ من راحٍ تكونُ لنا ... ناراً فإنّا بلا راحٍ ولا نارِ

ومما يلاحظ على شعراء هذا القرن أنهم شربوا الخمر في أوقات مختلفة وامتنعوا عنها في الصيام، وكأنهم قسموا حياتهم شطرين، شطراً أدّوا فيه حقوق

---

(١) كشاجم: ديوانه ٤٢٨.

(٢) الصنوبري: ديوانه ٤٦٦.

(٣) كشاجم: ديوانه ٢٣٠.

الله، وشطراً تمتعوا فيه باللذائذ، كما يقول كشاجم متحدثاً عن نفسه(١):

مضى (رمضانُ) قد أدّيتُ فيهِ حقوقَ اللهِ قرآناً وصوما
وجاء (الفِطرُ) فالْهُ الآنَ فيهِ ولا تسمعْ لمنْ يلحاكَ لوما
وعدْلُ قسمةَ الأيامِ قصْفاً وعدْلُ رئاسةٍ يوماً فيوما
وليلُك شطرُ عمرك فاغتنمهُ ولا تذهبْ بنصفِ العمْرِ نوْما

كما أنَّ الصّوري يعترف بتحريمها فيمتنع عنها بالصوم ويرجع إليها بشوال، إذ يقول(٢):

وممنوعةٍ بالصومِ في كلِّ حجّةٍ ثلاثين يوماً ثم تأتي شهورُها
تهيم بها نفسُ الفتى وهْي ضرّةٌ فيا عجباً من ضرّةٍ لا تُغيرُها
وحرّمها نصُّ الكتابِ فجاءنا بتحليلها نصُّ الهوى ومُديرُها
وأقبلَ شوالٌ بها فاهرجوا لها وإن كان محظوراً عليكمْ عبورُها

وإلى جانب كلف الشعراء بشرب الخمر وشغفهم بها، فإنهم هاموا بالغلمان الذين يقدمونها وأكثروا من وصفهم والحديث عنهم والتغزّل بهم، إذ نرى الببغاء يصفُ وجنتيْ هذا الغلام، ويشبهها بالورد والتفاح، قائلاً(٣):

واجنِ بألحاظِكَ من وجنتيْ مديرِها ورْداً وتفّاحا

كما يتحدث كشاجم عن لواحظ هذا الغلام، ويعجبهُ منها ما كانت حوراء كعين الغزال، إذ يقول(٤):

وشادنٍ حيّرتْ لواحظُهُ ألحاظَ عينِ الغزالِ بالحَوَرِ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٤٣.

(٢) الصّوري: ديوانه ١:١٦٧.

(٣) الببغاء: شعره ٦٧.

(٤) كشاجم: ديوانه ٢٣٨.

أُجْبِرْتُ في حبِّهِ لأعذرهُ ... فإنْ جفاني احتججتُ بالقَدرِ

سألتُهُ زورةً فجادَ بها ... وكلُّ هذا بالسنِ النّظرِ

فنلتُ سُؤْلي من رشف ريقتِهِ ... ومُنْيَتي من مآربٍ أُخَرِ

كما أحبّوا من الغلمان ما كان ذا دلال، حسن القوام، ذا طرفٍ ناعس، وأسنانٍ كالأقحوان، كما يقول الطائي الدمشقي(١):

إني ليرتاحُ قلبي ... إلى اصطحابِ المثانِ

بحيثُ تنفي همومي ... معتقاتُ الدّنانِ

مع شادنٍ ذي دلالٍ ... مهفهفٍ فتّانِ

يرنو إليَّ بطرْفٍ ... وناظرٍ وسْنانِ

أعارَ حُسنَ التّثني ... تثنّيَ الأغصانِ

إذا تبسّم تيهاً ... يفترُّ عن أقحوانِ

كما نراهم يعجبون بمن في صوته غُنّة، كما يقول السّريّ(٢) :

وغنيتُ بالسّاقي الأغنِّ لأنّهُ ... وزرٌ يزيدُ الصّبُّ من أوزارهِ

ولم يقتصر تقديم الخمر على الغلمان، بل صاحبهم في ذلك السّاقيات اللواتي تغنّى بهنّ الشعراء وقرنوا صورة الخمر بالغزل بهنّ، وذلك كما في قول الصُّوري الذي وصف أجفانها وشبهها بزجاجة الخمر(٣):

وغانيةٍ لا توجبُ الحبُّ حُرمةً ... عليها ولو كانت كما وجَبَ الواجبْ

أرى رميَ جفنيها من الضّعفِ ناقصاً ... فيطمعُني حتّى أحسُّ بهِ صائبْ

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر: ١:٤٠٠.

(٢) السّريّ الرّفّاء: ديوانه ٢:٢٠٥.

(٣) الصّوري: ديوانه ١:٥٩.

أتتني بأُخرى مثـــلها في زجـاجةٍ   فقلتُ اصرفيها أنتِ أسوغُ للشّاربْ

ووصفها الطائي الدمشقي وهي تقدم الخمر بحُسْن القوام، فجعلها كقضيب الخيـزران، وهي كـالشمس تارة وكـالقمـر تارة أُخرى، إذ يقول وهو يتشـوق الخمر(١):

ألاَ طَرِبَتْ إلى النّشَوات نفسي   وتقتُ إلى مُعتّـقةِ الدِّنـانِ

كما طربَتْ أباريقُ النّـدامى   إلى أصواتِ قهقهةِ القناني

ويومُك إذ تطـوفُ بهِ فتـاةٌ   على الخدّينِ مـنها وردتـانِ

مهفـهفةُ القـوامِ إذا تثنّـتْ   تثنّتْ كالقضيبِ الخيزرانِ

ولم أرَ قبلها شـمساً تبدّتْ   ولا قمـراً بأعلى غـصنِ بانِ

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣٩٢:١.

٢- الغناء والرقص

يُستشفُّ من الأشعار التي قالها الشعراء الشاميّون في القرن الرابع الهجري، ازدهار فن الغناء وشيوعهُ لدى بعض الفئات الاجتماعية، ويُذكَر هنا أن الفارابي وهو من كبار الموسيقيّين، كان من ضمن الذين ضمّهم مجلس سيف الدولة الحمداني.

وقد حفل الشعر بأسماء المغنين والمغنّيات، ووصف عذوبة أصواتِهم وجمال أنغامهم، وحلاوة كلماتهم، ومن هؤلاء مُغَنٍّ اسمهُ «جعفر» ، وقد وصف الصّنوبري حسنهُ ورقة صوته، ونشوة الطرب التي يحدثها في كل من يسمعهُ، والحركات التي تبدو منهُ وهو يغنّي، وافتتان الحضور بذلك، يقول(١):

بالله قلْ لي أخدُّك الأحمرُ ألْينُ مسّاً أمْ خدُّك الأصفَرُ
جعفرُ أحسنتَ في غنائكَ بلْ زدتَ على المحسنينَ يا جعفرُ
أطربْتنا لا خلوتَ من طربٍ أسْكرتَ منّا مَنْ كان لا يَسْكرُ
لفظُك مِسْكٌ وعنبرٌ، ومتى قِيسَ بهِ المسك قطُّ والعنبرُ
لحظُكَ سيفٌ وخنجرٌ، ومتى قيسَ بكَ السيفُ قطُّ والخنجرُ

ويتحدث الصنوبري في أبيات أخرى عن مغنية اسمها «هجعة» ، ويصف براعتها في الضرب على العود، وهيئتها وهي تحملهُ وتعزفُ أعذب الألحان على أوتاره، وتأثيرها في نفوس سامعيها، يقول(٢):

لا هَجَعتْ عينٌ جَفَتْ هجعهْ ولا رَقَتْ من دمعِها دمعهْ
غنّت فلو أسطيعُ عُجْباً بها أقطعتُها من مهجتي قِطعَهْ
جاريةٌ لو أدركت بدْعَةً إذن لكانتْ عندها بدْعَهْ

(١) الصّنوبري: ديوانه ٧٠.

(٢) الصّنوبري: ديوانه ٣٤٠.

تخلَعُ إنْ غنَّتْ على قلبِ مَنْ　　غنَّتْ لهُ من طَرَبٍ خِلْعهْ

جاريةٌ تثْني على عُودِها　　قطعةَ جُمَّارٍ على طَلْعهْ

تُغْني عن المجْمرِ طيباً ولا　　تُحْوِجُ في الليلِ إلى شمْعَهْ

ويبدوْ أنّ الغناء كان يقام أحياناً في منازل خاصة يرتادها محبّو الطرب، فقد دخل كشاجم أحد هذه المنازل، ووصَفَ مَنْ فيه من المغنيات والعازفات المحْسنات، وعبّر عن إعجابه بهنّ، وذكر أصنافهن، فهناك مَنْ تضربُ على العود، أو تشدو على الناي، أو تدقُّ على الطبل، أو تعزف على المعزفة، أو ترقص على إيقاع هذه الآلات رقصاً جميلاً، يقول(١):

ومنزلِ قينةٍ سَهْلِ الحجابِ　　تضمَّنَ كُلَّ آنسةٍ كعَابِ(٢)

غَذَتْها نِعمةٌ ولذيذُ عيشٍ　　فأنبتَ صدرُها ثمرَ الشبابِ

فمِنْ عَوَّادةٍ تشدو وأخرى　　بمعزفةٍ وأخرى بالرَّبابِ

ومحسنةٍ موقّعةٍ بطبلٍ　　كصوتِ الرّعدِ من خَلَلِ السّحابِ

وشافعةٍ صواحِبَها بناي　　أحَنَّ من الخليعِ إلى التّصابي

وراقصةٍ على كرةٍ وحبْلٍ　　كخطفِ البرقِ أو لمعِ السّرابِ

ركبْتُ به مطايا اللهو حتّى　　حطَطْتُ به مُطلّحةً ركابي(٣)

فما بقيَتْ به عذراءُ إلاّ　　صَبَتْ نحوي وهامَ فؤادُها بي

ويكثر في شعر كشاجم الحديث عن النساء اللواتي برعْن في العزف على العود، وقد تفنن في وصفهن، فهو يصف مجلس لهو أحيتْهُ إحدى القينات بالعزف

(١) كشاجم: ديوانه ٥٠.

(٢) كعاب: نهد ثديها.

(٣) مطلّحة: من طلَح البعير: أعيا وطلّحه: أتعبه.

على العود، ويصفُ طريقة حملها لهذا العود وحنوّها عليه، ووصف شكله وهيئتهُ وحركة أصابعها على أوتاره، والأنغام المطربة التي تصدر عنه، والأثر الكبير الذي تتركهُ في نفوس السامعين، حتى كادوا أن يُغشى عليهم من نشوة الطرب، يقول(١):

ومسمعةٍ تحــنو على مُتــرنّمٍ ... لهُ زَجَـــلٌ عـــالٍ وليس لهُ سحْــرُ

إذا ما تأمّلْتَ الحــشا منه خلتَهُ ... تضمَّنَ شَبْـعاً وهو منـــخرقٌ صِـفْرُ

لــه نغـمٌ يُفضينَ من كلِّ مسمعٍ ... إلى حيثُ لا يفضي إلى مثْـلهِ الخـمْرُ

إذا طـرقتْهُ بالأنامل والــتقى ... على جسمهِ من جسمِها الصَّدرُ والحِجْرُ

بكى طَرَباً فاستضحكَ اللهوَ نحْوه ... وفضّتْ عُرى الألبابِ واستلبَ الصَّبْرُ

وتمنحهُ اليمنى حساباً مُفَصّــلاً ... فَتحْمِلُ فيهِ الخمسُ والسّتّ والعـشْرُ

فبتُ صريعَ الكـاسِ أطيبَ بيتةٍ ... وما الحُـلْمُ إلاّ أنْ يسـقَهَكَ الخـمْرُ

ويدقق كشاجم الرملي في مشهد إحدى القينات وهي تغني على العود، ويرسم صورة طريفة لتنقّل أصابعها بين أوتاره المختلفة، وذلك إذ يقول(٢):

ومُسمعةٍ إذا غنَــتْك صـوتاً ... فمالكَ مـــن فراقِ الحــلْمِ بُدُّ

كأنَّ يسارَها في العودِ برقٌ ... ويُمناها إذا ضــــربتْـــهُ رعْدُ

تريك الشمسُ قُرّطتِ الثُّريا ... ونــيطَ بها من الجـوزاءِ عـقْدُ

وكنتُ إذا الهمومُ تعاورتْني ... تـــروحُ إليَّ طـــارقةً وتغدو(٣)

وجدتُ شفاءَ همّي في سماعٍ ... وشــربِ مُدامـــةٍ مــع مَنْ أودُّ

(١) كشاجم: ديوانه ٢٢٣.

(٢) كشاجم: ديوانه ١٢٩.

(٣) تعاورتني: من تعاوره أي تداوله.

ويصفُ في مقطوعة أخرى انبهار المستمعين بمهارة إحدى القينات، حتى صاروا كالمبهوتين من أثر أنغامها العذبة التي أسكرتْهم ونقلتْهم عن حالتهم، يقول(١):

ولها من الأوتارِ حين تجسُّها ... أذنٌ على حُجُبِ القلوبِ لطيفُ

شغلتْ عقولَ السَّامعينَ فكلُّها ... مصغٍ إلى نغماتِها مصروفُ

تردُ الجوانحَ والعقولُ شواخصٌ ... فيها فتقعدُ والعقولُ وقوفُ

لو كان من حَجَرٍ فؤادُكَ لمْ ترُحْ ... إلاّ وأنتَ بحبِّها مشغوفُ

وكثيراً ما وصف كشاجم طريقة حمل القينة للعود، وغالباً ما تستثير في ذهنه صورة العناق فيقرنها به، كما في قوله(٢):

وأجوفَ معشوقِ الأنينِ مُخفَّفٍ ... تُحرِّكُ من أطرابِنَا حركاتُهُ

لهُ ألسنٌ رُكِّبْنَ من غيرِ جنسهِ ... تُعادُ إذا أودتْ بهِ نقراتُهُ

تُعانقهُ بين النَّدامى غريرةٌ ... كعابٌ إليها موتُهُ وحياتُهُ

ويصف في أبيات أخرى الحالة الوجدانية التي اعترتْه وهو يسمع غناء إحدى القينات، مصوّراً العلاقة بينها وبين عودها وتلازم كُل منهما بالآخر، وذلك إذ يقول(٣):

وكثيرةُ النَّغماتِ تحسبُها ... في كلِّ عضوٍ أوتيتْ حَلَقَا

غنّتْ فظلتُ إخالني طَرَباً ... أسمُو إلى الأفلاكِ أو أرْقى

وترى لها عوداً تعانقهُ ... وكلامُهُ وكلامُها وِفْقَا

لو لمْ تُحرِّكهُ أناملُها ... كان الهواءُ يُقيدُه نُطقَا

(١) كشاجم: ديوانه ٣٤٧.

(٢) كشاجم: ديوانه ٧٣.

(٣) كشاجم: ديوانه ٣٥٤.

جسّتْهُ عـــالمةٌ بحالتِــهِ ، جسَّ الطّــبيبِ لمدْنفٍ عِرْقَا
فحسبتُ يُمناها تُــحرّكهُ رَعْــداً وخلْتُ يــسارَها برْقَا

أما أنغام العود فيتخيّلها كشاجم صوتَ فتاة تشكو لواعجَ الحب إلى حبيبها، وتبثّهُ زفرات أشواقها، وذلك إذ يقول(١):

جــــاءتْ بعُــودٍ كأنَّ نغمــتَه صوتُ فتاةٍ تشكو فراق فتى
مُخفّــفٍ خَفّتِ النفــوسُ لهُ كأنّمــــا الزّهرُ حــولَهُ نبتا
دارتْ ملاويــهِ فيه واخْـتلفتْ مثلَ اختــلافِ الكفّينِ شُبّكتا
لــو حــرّكتْــهُ وراءَ منــهزمٍ على بريدٍ لعــاجَ والتَــفتَا
يا حُســـنَ صوتيهــما كأنّهما أختانِ في صنــعةٍ تراسلــتا
وهْو على ذا ينوبُ إنْ سكتتْ عنها وعنهُ تــنوبُ إنْ سكتَــا

ولعلّ تردد كشاجم على مجالس الغناء، جعله يتحدث عن الغناء المفضّل إليه، وهو الغناء الذي يصدر عن صوت ناعم شجيّ فيه بُحّة، دون أن يطغى على هذا الصوت إيقاع الأوتار فيخفي جماله أو يحدّ منهُ، يقول(٢):

أشتهي في الغناءِ بُحّةَ حلْقٍ ناعمِ الصّــوتِ مُتعَبٍ مكدودِ
كأنــينِ المحبِّ أضعفَه الشّو قُ فضاهى بهِ أنينَ العميدِ(٣)
لا أُحبُّ الأوتارَ تعلو كما لا أشتهي الضّربَ لازماً للعمودِ
وأُحبُّ المجنّــباتِ كحُبّــي للمبادي موصولةً بالنّشيدِ(٤)

---

(١) كشاجم: ديوانه ٧١.
(٢) كشاجم: ديوانه ١٦١.
(٣) العميد: مَنْ هدّه العشق.
(٤) المجنّبات: المقدمات.

كهبوبِ الصَّبا توسَّطَ حالاً بيْنَ حالــينِ شــدةٍ وركــودِ

وكما أحبّ كشاجم هذا النوع من الغناء، فإن غيرَهُ ذمَّ بعض المغنين لقبحهم وقبح غنائهم، كما يقول الصّنوبري(١):

إذا جَوَاريــكَ غــنّوا فاطْــرحْ علينــا دِثارا

واريتَــهمْ، وحقــيقٌ لقُبحِــهِمْ أنْ يُــوارَى

قد قُلتُ إذ قال صَحبي لِمْ يضــربُون سِتــارا

لو اطّلعْتَ عليـــهمْ ولَّــيتَ منهــمْ فِرارا

وهذه العلاقة التي قامت بين كشاجم والغناء جعلته يرثي عوداً كُسر لإحدى المغنيات، مدققاً النظرفي أجزائه، معزّياً نفسه ببقاء صاحبته القينة، يقول(٢):

بأبي أقيكَ من الحوادثِ والرّدى يا عودُ لا بلْ طارقُ الحَدَثانِ(٣)

فجِــعتْ به غــرِدَ الأنــينِ كأنّهُ صبّانِ مــهجورانِ يشتكــيانِ

هَزِجاً قِوَامُ لسانِـــهِ في أُذْنهِ يا مَنْ رأى أُذْناً قِوامُ لســانِ

وكـــأنَّ موقعَ زيــرِهِ زيــرانِ وكأنّهُ عــودانِ يصــطخبانِ

ومخفّفِ الأجزاءِ ليس لجِرمِهِ وزنٌ يمــيّلُ كِــفّةَ المــيزانِ

وكأنَّ مقبضَهُ جبيرةُ ســاعــدٍ قد فُصِّلتْ بالــدُّرِّ والعِقْــيانِ

في صدرِهِ من ثقــبِهِ عينـــانِ وبنحْرِهِ طوقٌ من الدّستانِ(٤)

لا غرْوَ سيّدةُ القيانِ وأُنْســـنا تبقى ويهْلَكُ سيّدُ العــيدانِ

---

(١) الصنوبري: تتمّة ديوانه ٤٧.

(٢) كشاجم: ديوانه ٤٦٥.

(٣) الحَدَثان: نوائب الدهر.

(٤) الدّستان: الوتر من العود.

ومن الآلات الموسيقية التي وصفوها «المعزفة»، ويبدو من الأبيات التالية أنها آلة وترية يدخل الجلد في صناعتها، وعدد أوتارها تسعة، كما يقول كشاجم(١):

مُعلنةُ الأوتارِ صخّابةٌ   لها حنينٌ كحنينِ الغريبْ
زادتْ على المِزْهرِ طيباً وقد   تاهتْ على الناي بحلقٍ عجيبْ(٢)
مكسوّةٌ أحشاؤها حُلّةً   بيضاءَ من جلدِ غزالٍ ربيبْ
كأنّما تسعةُ أوتارِها   نُصِبْنَ أشراكاً لصيدِ القلوبْ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٧٠.

(٢) المزْهَر: العود يُضرب به، والناي: من آلات الطرب، يُنفخُ فيها- والكلمة دخيلة.

٣- صورة الجواري :

لقد انتشرت الجواري في القرن الرابع الهجري نظراً لأثر حروب سيف الدولة مع الروم، واهتمام الأمير سيف الدولة بالجواري، فمما يُذكر أنّه كانت له جارية من بنات ملوك الروم، وكانت في غاية الجمال.

وقد افتتن الشعراء في هذا القرن بهنَّ، وعكفوا على وصفهن، فكشاجم الرملي يتغزل بجارية ويتمنى أن يقبّلها، إذ يقول(١) :

تمنيتُ من خدِّها قُبْلةً   وما كنتُ أطمعُ في قبلتِهْ
وكأساً أناولُها مثلَها   فتبدو وأشربُ من فضلتِهْ

ووصف جارية وقد كشفتْ عن ساقها، وأبانتْ عن خلخالها، فيقول(٢):

تمضي بليلٍ فإذا أقبلتْ   أقبلتِ الشمس بإقبالِها
قلتُ وقد أبصرتُها حاسراً   عن ساقها فاضلَ أذيالِها
لو لم يكنْ من بَرَدٍ ساقِها   لاحترقتْ من نارِ خلخالِها

وتحدث المتنبي عن طيب رائحتها، وهو هائمٌ بها، قائلا(٣):

جاريةٌ ما لجسمها روحٌ   بالقلب من حبِّها تباريحُ(٤)
في كفِّها طاقةٌ تُشيرُ بها   لكلِّ طِيبٍ من طِيبِها ريحُ

وتحدث كشاجم كثيراً عن وصف جسدها ولباسها، فأشار إلى لباسها الأزرق، وقميصها الشفاف، وجسدها بداخله كالنور، وهي كالبدر في السماء، فيقول(٥):

---

(١) كشاجم: ديوانه ٨.

(٢) كشاجم: ديوانه ٤١٨.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ١:١٥٦.

(٤) التباريح: شدّة الحب.

(٥) كشاجم: ديوانه ٢٧.

أقبلتْ في غِلالةٍ زرقاءَ ... زُرقةٌ لُقّبتْ بجري الماءِ(١)

فتأملتُ في الغِلالةِ منها ... جسدَ النّورِ في قميصِ الهواءِ

هي بدرٌ وإنّ أحسنَ لونٍ ... ظهرَ البدرُ فيه لونُ السماءِ

وافتتن بغيرها من الحسان واصفاً جسدها أيضاً، إذ يقول(٢):

فتنتني أوانسٌ نسجَ الحُسْـ ... ـنُ لأجسادِها غلائلَ نورِ

ناظماتٍ لها من الدرِّ عِقْداً ... سُبَحاً عُلِّقتْ مكان السيورِ

ووصفها كشاجم وقد نثرت شعرها، وظهرت كأنها تلبس الحداد، وقد شغفهُ حبّها، فيقول(٣):

ملكتْني وصيفةٌ لأُناسٍ ... تركَتْني لحبّها مُنقادا

حضرتْ مأتماً ولو نادتِ الميْـ ... ـتَ فيه بأنْ يعودَ لعادا

منعوها لبس الحِداد ولكنْ ... نشرتْ شعرها فكان حِدادا

وافتتن المعوّج الشاميّ بها وقد ارتدت الأرجواني وكانت تنثر شعرها، إذ يقول(٤):

وفي أُرجوانيِّ الغِلالةِ شادنٌ ... لباسُ الدُّجى من غُدْرِهِ وغدائرِهْ(٥)

وأما سيف الدولة فقد عدّ جاريتهُ التي أحبّها علقاً نفيساً، وكان قد أحبّها كثيراً وأبعدها عن حظاياه إشفاقاً عليها منهنّ، إذ يقول فيها(٦):

راقبتْني العيونُ فيكِ فأشفقْـ ... ـتُ ولمْ أخلُ قطُّ من إشفاقِ

ورأيتُ العُذولَ يحسدني فيـ ... ـكِ مجداً يا أنْفسَ الأعلاقِ

فتمنيتُ أن تكوني بعيداً ... والذي بيننا من الودِّ باقِ

ربَّ هجرٍ يكونُ من خوفِ هجرٍ ... وفراقٍ يكونُ خوفَ فراقِ

---

(١) الغِلالة: الثوب.

(٢) كشاجم: ديوانه ٢٥٢.

(٣) كشاجم: ديوانه ١٣٤.

(٤) السَّريّ الرَّفّاء: المحبوب ١:٣٦٢.

(٥) الغدائر: جمع غديرة وهي ذوائب الشعر.

(٦) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٥٤.

٤- الديارات

كثرت الأديرة في بلاد الشام، وقد ارتبط الحديث عنها في الشعر الشامي في القرن الرابع الهجري باللهو وشرب الخمر، حيثُ كان بعض الناس يرتادونها للاستمتاع فيها، ومن هذه الأديرة «دير الزّعفران»، وقد وصف الببّغاء زيارة ليلية لهُ، وقضاءهُ وقتاً جميلاً فيه، يلهو مع أحد الغلمان الحسان ويشرب الخمر، وذلك إذيقول(١):

صَفَحْتُ لهذا الدّهْرِ عن سَيّـئاتهِ وعدَدْتُ يومَ الديرِ من حسناتـهِ
وصبّحْتُ عُمْرَ الزعفرانِ بِصُـجَّةٍ أعاشتْ سُرورَ القلبِ بعد مماتـهِ
وأهْيَفَ فاخرْتُ الرياضَ بحُسْنـهِ فاذْعَنَ صُغراً وصْفُها لـصفاتـهِ
فلما دَجا الليلُ استعادَ سَنَا الضُّحَى بــراحٍ نأتْ بالليـلِ عن ظُلُماتهِ
ونمْ إليـــنا دَنُّها بضـيائِها فكان كقلـبٍ ضـاقَ عن خَطَراتهِ
وخوّفني منـهُ فخِلْتُ صليبَهُ لشـدَّةِ ما نخشـاهُ بعض وشـاتـهِ

ومن هذه الأديرة «دير زَكّيْ»، وقد حنّ الصّنوبري إلى أيامه الجميلة التي كان يقضيها فيه مع إحدى الحسان، وذلك إذ يقول(٢):

مالي نأيْـتُ عن الهـنيّ وكنتُ لا أسطيـعُ أنـأى عنهُ طُـرْفَةَ عينِ
يا ديرَ زَكّيْ كنتَ أحسـنَ مألـفٍ مَنَّ الزمـانُ بهِ علـى إلفـيْنِ
وبنفسَيَ المرجُ الذي ابتسمتْ لنا جَنَـباتُهِ عن عسـجدٍ ولُجيْنِ
لو حُمِّل الثقـلانِ ما حُمِّلْـتُ من شـوقٍ لأثقـلَ حَمْـلُهُ الثَّـقلَينِ

ومن أكثر الأديرة ذكراً في الشعر الشامي في هذا القرن «دير مرّان» ويبدو

---

(١) الببغاء: شعره ٦٠.

(٢) الصّنوبري: ديوانه ٤٩٩.

أنَّهُ كان مثابةً يقصدُ إليها طلاب اللهو والمتعة، ويجدون فيها ما يتمنون من الوجوه الحسان، والخمر المعتّقة، والغناء الجميل.

فهذا كشاجم الرَّملي يصوِّر اعتكافهُ في هذا الدير لياليَ طوالاً، واستغراقهُ في المتعة، ويصف البيئة الطبيعية الجميلة التي يقع فيها هذا الدير وتحيط به، ويتحدث صراحةً عن الفجور الذي كان يُمارسه فيه مع أحدالغلمان، وذلك إذ يقول(١):

هلْ أحدٌ نالَ مثلَ لذَّتِنا (بدير مُرَّانَ) ليلةَ الأحدِ
يا طيبَ يومي بهِ وأمسي ويا حُسنَ غدي بعدَهُ وبعدَ غدِ
حدائقٌ فوقَ جدولٍ صخبٍ وبانةٌ تحت طائرٍ غَرِدِ
وخالعٍ يشتري المجانة بالـ عفّةِ فيه والغَيُّ بالرُّشَدِ
سُقْياً لما خورِ (حارثٍ) ولما خُصَّ به من محاسنٍ خُرُدِ(٢)
قلتُ لهُ وابنُهُ يطوفُ بها عُمْرُك فينا عِمارةَ البَلدِ
بابنك ذا في جمالِ صورتهِ صرْتَ أبا الظَّبْيِ لا أبا الأسَدِ
بوركْتَ من والدٍ وبوركَ يا (حارثَ عبدالمسيحِ) من وَلدِ
هاتِ اسقنيها صِرفاً فإنْ سفكتْ دمي فمالي عليك من قَوَدِ
والشّرْب من قابضٍ على رشأ الـ رملةِ حُسناً وظبيةِ الجَدَدِ(٣)
ورافع الصوتِ بالغناءِ فهلْ يونسُ دون التقاءِ من أحَدِ
زمانُ لهوٍ مضى وكان وقد فارقْتهُ من أعزّ مفْتَقَدِ

---

(١) كشاجم: ديْوانه ١٤٨.

(٢) الماخور: بيت الرِّيبة.

(٣) الجَدَدِ: ما استرقّ من الرمل والأرض الغليظة المستوية.

وتتكرر الزيارات التي قام بها كشاجم الرملي إلى «دير مُران»، وكان يصوِّرُ كل زيارة منها في مقطوعةٍ أو قصيدة، وكأنهُ أراد أن يؤلِّف مجموعة شعرية خاصة بهذا الدير، مستقصياً جوانب مختلفة من الحياة الديرية فيه، كما في الأبيات التالية التي يدل أسلوبُها على أنهُ قالها من أجل وصف هذا الدير وما فيه، فتحدث عن جمالهِ، وحُسن موقعهِ، وكثرة الحسان من النساء والغلمان فيه، وتفنّن هؤلاء في أساليب الإغراء والإثارة، لهذا فقد فضّل المكوث فيه على سائر الأعياد الأخرى، إسلامية وغير إسلامية، وذلك في قوله(١):

يا (ديرَ مـرّانَ) كم غــزالٍ   فيكَ وكـم روضـةٍ ونهْرِ
وكم تطرّبْتُ مُسـتَهامـاً   إليكَ إذ عيلَ عنكَ صبري(٢)
وفي يميني شمالُ شمسٍ   وفي شِـمـالي يمـينُ بدرِ
حـدائقٌ كـفٌ كلُّ ريـحٍ   حلّتْ بـها عقْـدَ كلِّ قَـطْرِ
كـأنّ دولابَـها مُـحبٌّ   يحنُّ والـدمعُ منهُ يجري
ثم تحلّتْ ضحـىً وأبدتْ   عرائسـاً من حـليٍّ زهْـرِ
فالنـورُ والـطلُّ في رُباهُ   ما بـين نظمٍ وبين نـثْرِ
كالدّمعِ قد حارَ في خـدودٍ   حُمـرٍ ووردِيّـةٍ وصُـفْرِ
ورُبَّ يومٍ قطـعْتُ فـيهِ   عظـيمَ قـدْرٍ جلـيلَ ذِكْرِ
أحسنَ من يومِ (مهـرجانٍ)   ويومِ (أضحـى) ويومِ (فطرِ)
أتبـعْتُ إثْمَ الهـوى بإثمٍ   فيـه ووزْرِ الصّبا بـوزْرِ
بين شقيقٍ صـقيلِ خدٍّ   وأقحـوانٍ نـقيِّ ثـغْرِ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٢٤٨.
(٢) عيل: غُلب.

وابــنِ دلالٍ إذا تثـنّى رأيـتَ عـذراءَ بنـتَ خِدْرِ
يُـديـرُ ألفـاظَهُ بحـذوٍ فيـنا وألحـاظهُ بسـحرِ
فلستُ أبي ولو سقوني على أغـانيـه نيـلَ مِـصْرِ
ما تركتْ لِي المـدامُ همّاً يضـيقُ عنـه وسيعُ صدري
إنْ هي إلاّ نجـومُ سـعْدٍ على أكُـفّ الأنـامِ تجـري

ويرتبط حديث كشاجم عن «دير مران» بالحديث عن الخمرة المعتّقة التي كان يقدّمها لهُ السقاة من النصارى، وهنا يمتزج وصف الخمر بالتغنّي بجمال السّاقي وحُسنه على شاكله «الدّيرية» التالية التي وصف فيها إحدى زياراته، إذ يقول(١):

سقـياً لليلٍ قـصّرتُ مدّتـهُ بديـر (مُـرّانَ) مرّ مـشكورا
يومٌ أتيـناه زائريـنَ فصا دفْنَـا بهِ روضةً وما خـورا
وباتَ بدرُ الدُّجى يُشعـشعُها نوريةً تمـلأ الدُّجـى نـورا
غارتْ على نفسِها وقد سفرتْ فعادَ جيبُ الحَبـابِ مـزرورا
حتى رأيتُ الظلامَ يُدرجُـه الـ غرْبُ وبُرْدَ الصَّباحِ منشوراً
واختلط الليلُ والنهارُكـما تَخلِطُ كفٌّ مسـكاً وكافـورا

ولم تكن زيارات كشاجم الرملي اللاهية مقصورة على «دير مرّان» فقط، وإنّما امتدت لتشمل أديرة أخرى مثل «دير البُريج»، وقد نقل لنا في إحدى قصائده صوراً متعددة لأنواع السلوك التي كانت تُمارس فيه: دينيّة وغير دينيّة، فوصف أصوات النواقيس وما يصاحبُها من تراتيل دينية، وعبّر عن افتتانه بإحدى الراهبات، ورسم صورةً بديعة لجمالها الأخّاذ الذي يستهوي الأفئدة، وذلك إذ يقول(٢):

---

(١) كشاجم: ديوانه ١٩٦.
(٢) كشاجم: ديوانه ٢٨١.

ويا حبّذا الديرُ ديرُ (البُريجِ) تجيبُ النواقيسُ فيهِ القسوسَا(١)
وهيفاءَ لو لم تَمِسْ ما اهتدى قضيبُ الرياضِ إلى أنْ يميسَا(٢)
ولو برزتْ لنصارى (المسيحِ) لدانوا لها كلُّهمْ دونَ (عيسى)(٣)
إذا شئْتَ أُنْطِقَ في حِجْرِها لسانٌ فصيحٌ يهيجُ الرّسيسَا(٤)
وأمرةٍ بركوبِ الفلاةِ وأنْ أعملَ الطِّرفَ والعنتريسَا (٥)
رأتني قنعتُ ولم ألتمسْ لقاءَ وجوهٍ تطيلُ العبوسَا
دعيني أمارسْ صروفَ الزمانِ وألبسُ في كلِّ حالٍ لبُوسَا

ولزم بعض الشعراء الأديرة لهيامهم بالغلمان هناك، كما فعل سعد الورّاق الذي لزم «دير زَكّيْ» مع غلامه عيسى وأظهر هيامه به، وعمل فيه الأشعار، وكان يزوره حيناً بعد حين، ولكن الرهبان منعُوه من دخول الدير، فاشتدّ وجده عليه، وزاد عشقهُ حتى صار إلى الجنون، فذكر الصّنوبري في أحد الأيام أنه كان يُنَاجي حمامةً بباب الدّير، ويطلبُ منها أن تبلّغ سلامه إلى غلامه الذي عشقه، إذ يقول(٦):

بدينكِ يا حمامةَ ديرِ زَكّيْ وبالإنجيلِ عندكِ والصّليبِ
قفي، وتحمّلي عني سلاماً إلى قمرٍ على غصْنٍ رطيبِ
حماه جمَاعةُ الرّهبان عنِّي فقلبي ما يقرُّ من الوجيبِ

---

(١) البُريج: تصغير بُرْج، قلعة بنواحي حلب وموضع بدمشق، والقسوس: رئيس النصارى في العلم، ومفردها قس.
(٢) يميس: يتبختر في مشيته.
(٣) دان به: اتخذه ديناً وأطاعه وعبده.
(٤) الرّسيس: الشيء الثابت.
(٥) العنتريس: الناقة الغليظة.
(٦) أدم متز: الحضارة الإسلامية ٢:١٧١-١٧٢.

وقالوا: رابَنا إلمـامُ سـعْدٍ ولا والله! ما أنا بـالمـريب
وقولي: سعدُكَ المسكينُ يشكو لهيبَ جوىً أحرُّ من اللهيبِ
فَصِلْهُ بنظـرةٍ لكَ من بعيدٍ إذا ما كنتَ تُمنَعُ من قريبِ
وإن أنا متُّ فاكتبْ حولَ قبري محبٌّ ماتَ من هجْرِ الحبيبِ
رقيبٌ واحدٌ «تنغيصُ عيشٍ» فكيف بمَنْ لهُ مائتا رقيبِ

وقيل إنه وجِدَ في بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدّير، وأطْلق على غلامه «قاتل سعد الوراق»، وكان هذا الغلام إذا ما دخل الرّها لزيارة أهله رجمه الصبيان بالحجارة، وامتنع هذا الغلام عن دخول المدينة ثم انتقل إلى «دير سمْعان».

ووصَف لنا الببغاء أحد الأديرة، وليلة الأُنس التي قضاها مع غلام هناك، وما دار في الدّير من غناء وشرب، فيقول(١):

وليـلةٍ أو سعـتْني حسْـناً ولهواً وأُنْسا
ما زلْـتُ ألثـمُ بدراً بهـا وأشربُ شمْسا
إذ أطلعَ الديرُ سعداً لم يُبْقِ مُذْبانَ نحْسا
فصارَ للـروحِ منّي روْحاً وللنفسِ نفْسا

ووصف الببغاء في قصيدة طويلة يوماً قضاهُ «بدير مرّان»، حيثُ النسيم العطر؛ نسيم الرّياحين والأزهار، والبيئة الطبيعية الجمْيلة والأنهار الجارية، وما رافق ذلك من شرب الخمر، ومعابثة أحد الغلمان الذي وصفه بالحسن والجمال الفائق، وما كان بينهما من مسامرة ومُجون، وجمع هذا الغلام إلى جانب جماله، صوتَهُ الجميل، فقد غنّى وأطربَ سامعيه، وذلك إذ يقول(٢):

ويومٍ كأنّ الدهرَ سـامحـني بهِ فصارَ اسمُهُ ما بيننا هبةَ الدّهرِ

---

(١) الببغاء: شعره ١٠٨، والثعالبي: يتيمة الدهر ٢٩٨:١.
(٢) الببغاء: شعره ١٠١.

جرتْ فيه أفراسُ الصِّبا بارتياحِنا ... إلى دير مرّانَ المعظَّمِ والعمْرِ
بحيثُ هواءُ الغوطتينِ معطَّرُ النْـ ... نَسيمِ بأنفاسِ الرّياحينِ والزَّهْرِ
فمن روضةٍ بالحسنِ ترفدُ روضةً ... ومن نَهَرٍ بالفيْضِ يجري إلى نهْرِ
وفي الهيكلِ المعمورِ منهُ افترعْتُها ... وصحبي حلالاً بعدَ توفيةِ المهرِ
ونزّهتُ عن غيرِ الدنانيرِ قدْرَها ... فما زلتُ منها أشربُ التِّبْرَ بالتِّبرِ
وحلّ لنا ما كان منها محرّما ... وهل يحظرُ المحظورُ في بلدِ الكفرِ؟
فأهدتْ ليَ الأيامُ منهُ مودةً ... دعتْني في سترٍ فلبّيتُ في ستْرِ
أتى من شريفِ الطَّبْعِ أصدقَ رغبةً ... تخاطبنيَ عن معدنِ النَّظمِ والنَّثرِ
وكان جوابي طاعةً لا مقالةً ... ومن ذا الذي لا يستجيبُ إلى اليُسْرِ
فلا قيْتُ ملءَ العينِ نُبْلاً وهمّةً ... محلّى السَّجايا بالطلاقةِ والبِشرِ
وأحشمني بالبرِّ حتى ظننْتهُ ... يريدُ اختداعي عن جناني ولا أدري
ونزّهَ عن غيرِ الصَّفاءِ اجتماعنا ... فكنتُ وإيّاهُ كقلبيْنِ في صدْرِ
وشاء السرورُ أن يلينا بثالثٍ ... فلا طَفَنّا بالبدرِ أو بأخي البدْرِ
بمعطي عيونٍ ما اشتهتْ من جماله ... ومُضْني قلوبٍ بالتجنّبِ والهجرِ
جنينا جنيَّ الوردِ في غيرِ وقتهِ ... وزهْرِ الرُّبا من روض خدّيْه والثَّغرِ
وقابلَنَا من وجههِ وشرابهِ ... بشمْسيْنِ في جِنْحيْ دُجى الليلِ والشَّعْرِ
وغنّى فصارَ السَّمْعُ كالطَّرفِ آخذاً ... بأوفرِ حظٍّ من محاسنهِ الزُّهْرِ
وأمتَعَنَا من وجنتيْهِ بمثْلِ ما ... تمزّجُ كفّاهُ من الماءِ والخمرِ

الفصل الرابع

الدراسة الفنيّة:

أ- بناء القصيدة

ب- الصورة

ج- الأسلوب:

أ- بناء القصيدة

اهتم النّقاد العرب منذ القدم في حديثهم عن بناء القصيدة العربية من حيث المطلع أو المقدمة، وموضوع القصيدة ثمّ الخاتمة. «فإنّ الشعرَ قفلٌ أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجوِّدَ ابتداء شعره فإنه أولُ ما يقرع السمع منه، وبه يُسْتدَلُّ على ما عنده في أولِ وهلةٍ، وليتجنّب (ألا) و (خليليّ) و (قد)، فلا يكثر منها في ابتدائه فإنها من علامات الضعف....»(١).

واشترط النقاد بالإضافة إلى حسن الفواتح والخواتم لطف الخروج أو التخلّص من المقدمة إلى الموضوع، «لأنّ حسنَ الافتتاح داعية الانشراح، ومظنّة النّجاح، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السّمع، وألصق بالنفس؛ لقرب العهد بها»(٢).

ومن الملاحظ على شعراء هذا القرن أنّ معظمهم التزم بهذا النهج الذي اختطّهُ النُّقاد في بناء القصيدة، والحرص على وحدتها، لا سيّما في قصائد المدح.

ويطالعنا في هذا الشأن قصيدة المتنبي التي يصوِّرُ فيها قبيلة بني ضبّة وعمرو بن حابس، ويكرِّسُ جهدَه في مدح الأمير سيف الدولة الحمْداني، حيث يبدأُ القصيدة بمقدمة طللية، يذكُرُ فيها الشاعر أيامَ الصِّبا التي قضاها مع أحبّتِهِ في هذه المنازلِ، ويَذْكُرُ الفتيات الجميلات التي قضى معَهنّ الأيام الحلوة، ثم يصف حاله بعد رحيلِ المحبوبة، ومرارته لفراقها وانعدام الصّبر عند الرحيل، وبقاءه وحيداً لا صاحبَ له يُرافقهُ إلاّ الحزْن، ولا أنيسَ يَسْكنُ إليهِ، إلاّ سُرْعةُ ناقتهِ في الفلوات، إذ يقول(٣):

ذِكَرُ الصِّبَا ومَرَابعُ الآرامِ   جَلَبتْ حِمامي قبلَ وقتِ حِمَامِيْ

---

(١) ابن رشيق القيرواني: العمدة ١:٣٨٩.

(٢) المصدر نفسه: ١:٣٨٨.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٤:٦.

دِمَنٌ تكاثرتِ الهمومُ عليَّ في عَرَصاتِها كَتكاثُرِ اللوّامِ

فكأنَّ كلَّ سَحَابةٍ وَكفتْ بِهَا تبكي بعيْنَيْ عروةِ بنِ حِزامِ(١)

ولَطَالما أفنيتُ ريقَ كعَابِها فِيهَا، وأفنتْ بالعتابِ كلامي

قد كنتَ تهزأُ بالفِرَاقِ مجانةً وتَجرُّ ذيليْ شِرَّةٍ وعُرَامِ(٢)

ليس القِبابُ على الرِّكابِ وإنَّما هُنَّ الحياةُ ترحَّلتْ بسلامِ(٣)

ليت الذي خَلَقَ النّوى جَعَلَ الحصى لخِفافِهِنَّ مَفاصلي وعِظامي

متلاحظينَ نَسُحُّ ماءَ شُؤُونِنَا حَذَراً من الرُّقَباءِ في الآكامِ

أرواحُنا انهملتْ وعشْنا بَعْدَها من بعدِ ما قطرَتْ على الأقدامِ

لَوْ كُنَّ يَوْمَ جَريْنَ كُنَّ كصَبْرِنَا عنْدَ الرَّحيلِ لكُنَّ غيرَ سِجَامِ

لم يتركوا لي صاحباً إلاَّ الأسى وذَميلَ دِعْبِلةٍ كفَحْلِ نَعَامِ(٤)

وممّا يُلاحظ على مقدّمة قصيدة المتنبي شيئان، أولهما: أنّها مقدمة طللية وغزلية، على الرغم من أنَّ الشاعرَ يَصِفُ الثّائرين على الأمير سيف الدولة، فهل أخلَّ الشاعر بوحدة القصيدة هنا؟

وثانيهما: أنَّهُ أكثر من الشكوى والمرارة، وتكاثُر اللوّام، والموت، وانعدام الأصحاب، وتعذُّر وجود الأحرار.

فالشيء الأول تحدَّث به بعضُ الدّارسين في ضوء نفسية الشاعر وأثرها على مطلع القصيدة، إذ يقول أحد الباحثين: «حيث نجدُ أنّ المطلع ليس خروجاً ولا بعداً

---

(١) عروة بن حزام: صاحب عفراء، وهو من عشّاق العرب المشهورين.

(٢) الشِرّة: الحدّة والبطر ، العرام: الشراسة.

(٣) القِباب: الهوادج.

(٤) الذَّميل: ضرب من سير الإبل، دِعْبلة: الناقة السريعة.

عن موضوع القصيدة، بل وليس مجرّد تقليد التزمه الشعراء القدماء، وإنّما هو نهج يُتيحُ للشاعر أن يُبرزَ لنا من خلالِه خواطره ومشاعره نحوَ موضوعِ القصيدة، وكأنَّ الشاعر بهذا يحتفظُ لنفسه بالحق في أنْ يُبديَ رأيَه أو مشاعرهُ الحقيقية نحو موضوع القصيدة، ولا يرضى بأنْ يكونَ محضَ أداةٍ إذا دعته المناسبة أو الظروف لذلك»(١).

ويقول: «فالشّاعرُ بأسلوبه ومقدرتِه الفنيّة يَسْتَغلُّ أبياتِ المطْلع حينئذٍ ليصبّ فيها عادةً مشاعره وانفعالاته الحقيقية نحو موضوع القصيدة، فعلى سبيل المثال: «إذا كانتْ أبيات المطلع غزلاً فإنَّ الشاعر عادةً يُشير إلى مشاعرهِ الحقيقيّة نحو الممدوح من خلال أوصافه لمحبوبته، أو نوع علاقتهِ بها راضياً أو ساخطاً وهكذا، وحينئذٍ لا نستطيعُ بأيِّ مقياسٍ أنْ نتّهم القصيدة بفقدان الوحدة؛ لأنَّ هذا الغزل لا علاقة له قطُّ بالغزل من الناحيةِ الموضوعية، وإنّما هو حديث الشاعر عن الممدوح نفسِه بأسلوبٍ فنيٍّ معيّن»(٢).

وأما عن الشيء الثاني لديهِ، فإن سُخط المتنبي الشديد ناتجٌ عن شُعوره بالنّقص من ناحية المنبت وناحية كيانه في المجتمع، فالسُّخط تعْبيرٌ عن عدمِ بلوغه ما يرى أنّه حقٌّ له(٣).

وفي إشارته لانعدام الأصحاب وتكاثر اللُّؤام، وتعذُّر وجود الأحرار فإنّهُ إنّما يُشيرُ إلى خُلُقِ منْ هُمْ حولَ السُّلطان والمُتنافسين على التّقرُّبِ منه، فيصوغُ مشاعره وأحاسيسَهُ على صورة شكوى من الزّمان، وهذا التّنوُّع في افتتاح القصائد أشار إليهِ النُّقاد في هذا القرن، فابنُ رشيق يقول: «وللشعراء مذاهبُ في افتتاح القصائد بالنّسيب، لِمَا فيه من عطف القلوب واستدعاء القُبول بحسب ما في الطّباع من حُبِّ الغزل والميل إلى اللهو والنّساء وإنَّ ذلك استدراج إلى ما

---

(١) عبدالحليم حفني: مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ٦.

(٢) المرجع نفسه٦.

(٣) انظر: المرجع نفسه٨.

بعده»(١). ولكنّ مقاصد الشعراء تختلف من أهل البادية عن أهل الحاضرة:

«فطرائق أهل البادية ذِكْر الرّحيل والانتقال، وتوقُّع البيْن والإشفاق منه، وصفة الطُّلول.... وأهل الحاضِرة يأتي أكثرُ تغزُّلهم في ذكر الصُّدود والهِجران والواشين والرُّقباء ومنعة الحرس والأبواب، وفي ذِكرْ الشّراب والنّدامى والورد والنِّسرين....»(٢).

أمّا نفسيةُ الشاعر ومقدمة القصيدة فلم يولها النّقاد أهميةً، ولكنّهم يُركِّزون على أحوال المخاطَبين إذْ يشير ابن رشيق القيرواني إلى حُسْنها قائلا: «والفَطِنُ الحاذق يختارُ للأوقات ما شاكلها وينظر في أحوال المخاطَبين، فيقصدُ مَحَابَّهم ويميل في شهواتهم، وإن خالفتْ شهوته، ويتفقّدُ ما يكرهون سماعه فيتجنبُ ذكرَه»(٣).

وإذا عُدْنا لقصيدة المتنبي نجدُه يتلطّفُ في انتقاله من المقدمة إلى المدح تلطُّفاً جميلاً، فهو حين فارق محبوبته وفارق أصدقاءه ولم يبقَ معه إلاّ ناقته السّريعة، وتعذّر وجودُ الأحرار، حتى صيّر ركوبَ الناقةِ محرّماً عليه إلا لقصد هذا الأمير وهو الممدوح؛ لأنّه كريمٌ في زمنٍ خلا من الأحرار والكُرَماء، يقول(٤):

وتعذُّرُ الأحرارِ صَيَّرَ ظَهْرَهَا إلاّ إليْكَ عَليَّ فرْجَ حَرَامِ

ثم ينتقل الشاعر يصف ممدوحه ويُثْني عليه ولا يخرج في مدحه له عن المدح التقليدي إذْ يذكُرُ بذله وعطاءَه ومكارمه وقوّته وَحِلْمه ورجاحة عقْلِه، وذلك إذْ يقول:

أنتَ الغريبةُ في زمانٍ أهلُهُ وُلِدتْ مَكَارِمُهُمْ لغيرِ تَمَامِ

أكثرْتَ من بذْلِ النّوالِ ولم تَزَلْ عَلَماً على الإفْضالِ والإنعامِ

---

(١) ابن رشيق: العمدة ١:٢٩٧-٢٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ١:٢٩٨.

(٣) المصدر نفسه ١:٢٩٥.

(٤) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٤:٩.

صَغُرْتَ كُلَّ كَبيرةٍ وكبُرْتَ عَنْ   لَكَأنَّهُ وعدَدْتَ سِنَّ غُلامِ

وَرَفَلْتَ في حُلَلِ الثَّناءِ وإنَّما   عَدَمُ الثَّناءِ نهايةُ الإعْدامِ(١)

عَيْبٌ عليك تُرى بسَيفٍ في الوَغى   ما يَصنعُ الصَّمصامُ بالصَّمصامِ!

إنْ كانَ مثلُكَ كانَ أو هو كائنٌ   فَبرِئتُ حينئذٍ منَ الإسْلامِ

مَلِكٌ زَهَتْ بمكانهِ أيَّامُهُ   حتَّى افتخرْنَ به على الأيَّامِ

وتخالُهُ سَلَبَ الوَرى أحلامَهُمْ   من حِلْمِهِ فهُمُ بلا أحلامِ

وإذا امتحنْتَ تكشَّفتْ عَزَماتُهُ   عَنْ أوحديِّ النَّقضِ والإبرامِ(٢)

وإذا سألْتَ بَنَانَهُ عن نَيلهِ   لم يرضَ بالدنيا قضاءَ ذِمَامِ

ثم يتلطّف ثانية في الانتقال من الثناء على الممدوح إلى موضوع القصيدة، دون أنْ يُشْعِرَ القارئ بالنُّقلة، وهو قتال الأمير لعمرو بن حابس، إذ يقول:

مَهْلاً ألاَ لِلهِ ما صنَعَ القَنا   في عمروِ حابٍ وضبَّةَ الأغتامِ

وليس عبثاً أن يشيد الشاعرُ بممدوحه وبقوّته، وحدّةِ مضائه قبل أنْ يتحدّثَ عن ثورة بني ضبّة، إذ قصد من مدحه أنْ يَسْتعطفَ الأمير على ما فعله بعمرو بن حابس وبني ضبّة. وقد وصف المتنبي ما حلَّ بهذه القبيلة الثائرة، إذ يقول:

لمَّا تَحكَّمتِ الأسنَّةُ فيهمُ   جارتْ وَهُنَّ يَجُرنَ في الأحكامِ

فَتركْتَهمْ خَلَلَ البيوتِ كأنَّما   غضِبتْ رؤوسُهُمُ على الأجسامِ

أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ من دَمٍ   ونجومُ بيْضٍ في سماءِ قَتَامِ

وذِراعُ كُلِّ أبي فُلانٍ كُنْيةً   حالتْ فصاحبُها أبو الأيتامِ

(١) رفل في ثيابه: إذا أطالها وجرّها متبختراً.

(٢) الأوحَديّ: الأوحد والياء للمبالغة.

ثم انتقل إلى الخاتمة وقد أحسن التخلص، وأشعرَ القارىء بقرب انتهاء القصيدة، فبعْدَ أن يُشير إلى ما فعله الأمير بالخارجين، فإنه يُطلق حُكماً عامّاً على أنّ معاركَ الأميرِ كُلّها تجري هذا المَجْرى من الفتْك بالأعداء، قائلاً:

عهدي بمعــركةِ الأميرِ وخيلُهُ   في النَّقعِ مُحجِمَةٌ عَنِ الإحجامِ

ويختم قصيدتَه بالثناء على الممدوح فيدعو له، والدُّعاء يَشي بقرب الانتهاء، أي انتهاء القصيدة، وبالإضافة إلى الدعاء فإنه يخصُّ الأمير بالمدح، ويضرب به وبقبيلته المثل على السَّخاء والبسالة، وبأنّهم هم الذين علّموا غيرَهم هذه المثُل، فيقول:

يا سيفَ دَولةِ هاشمٍ مَنْ رامَ أنْ   يَلْــقى مَنَــالكَ رامَ غيــرَ مَــرَامِ
صَلى الإلهُ عليكَ غيرَ مُــوَدَّعٍ   وسقى ثَرَى أبَويْكَ صَوْبَ غَمــامِ(١)
وكساكَ ثَوْبَ مَهَابةٍ مِنْ عــندهِ   وأراكَ وَجــهَ شقيــقِكَ القـمْقَـامِ
فلقد رمى بَلَدَ العدوّ بنفسهِ   في رَوْقِ أرْعَــنَ كالغِطَـمِّ لُهَـامِ(٢)
قومٌ تفــرّستِ المنايا فــيكمُ   فرأتْ لكــمْ في الحرْبِ صبْرَ كِرَامِ

ونرى الشعراء أحياناً يأتون بمقدمة وثيقة الصلة بموضوع القصيدة، فالمتنبي يصوّر ثورةً لبعض القبائل العربية على سيف الدولة سنة ٣٤٤هـ ويبدأ قصيدته بمقدمة يشيد فيها بهذه القبيلة -وهم قبيلةُ بني كلاب -وهو حين يفعل ذلك ليس لشيء إلاّ ليُخفف من غلواء سيف الدولة عليهمْ، وسبيلُهُ في ذلك الثناء عليهم، والإشادةُ بمكارمهمْ، وهو قد عاشرَهم فشاهدَ شدّتهم وبلاءَهم وفتكهم، فضلاً عن حُسْنِ مُعاشَرتِهمْ لغيرهم، والمتنبي يَرْبط بينَ مكارم هؤلاء وحُسْنهم وبين بلادهم

(١) صلّى: بمعنى البركة.
(٢) الرّوْق: القرن، وأراد به مقدّمة الجيش، الأرعن: الجيش المضطرب لكثرته، والغِطَمّ: البحر العظيم، اللُّهام: الجيش الكثير يلتهم كلَّ شيء.

التي نشأوا فيها، وكأنّ كلُّ ما فيهم من صفاتٍ حسنةٍ إنما يعودُ إلى مكان نشأتِهم، يقول(١):

تذكَّرتُ ما بينَ العُذيبِ وبَارِقِ ... مَجَرَّ عَوالينا ومَجْرى السَّوابقِ

وصُحبَةَ قومٍ يَذْبحونَ قنيصَهُمْ ... بفضْلةِ ما قدْ كسَّروا في المَفارقِ(٢)

ولَيلاً توَسَّدْنا الثّويَّة تَحتَهُ ... كأنّ ثَراها عَنْبرٌ في المَرافقِ(٣)

بلادٌ إذا زارَ الحسانُ بغَيْرِها ... حَصَى تُرْبها ثقَّبْنَهُ للمخانقِ(٤)

سَقَتْني بها القُطْرُبُلِّيُّ مليحَةٌ ... على كاذبٍ من وَعْدِها ضوءُ صادقِ(٥)

سُهادٌ لأجفانٍ ، وشمسٌ لناظرٍ ... وسُقْمٌ لأبدانٍ، ومِسْكٌ لناشقِ

وأغيدُ يهوىَ نفسَهُ كلُّ عاقلٍ ... عفيفٍ ويَهوى جسْمَهُ كلُّ فاسقِ

أديبٌ إذا ما جَسَّ أوتارَ مِزْهَرٍ ... بَلا كُلُّ سمْعٍ عَن سواها بعائقِ(٦)

يُحدِّثُ عمّا بين عادٍ وبينَهُ ... وصُدْغاهُ في خدَّي غلامٍ مُراهقِ

وما الحُسْنُ في وجه الفتى شَرَفاً لَهُ ... إذا لم يكنْ في فِعْلهِ والخلائقِ(٧)

ومَا بلَدُ الإنسانِ غيرُ المُوافقِ ... ولا أهلُهُ الأدْنَوْنَ غيرُ الأصادقِ

وكما لاحظنا في قصيدته وبعد أن خصّص هؤلاء بالمدح، يعود ليُطلقَ أحكاماً عامةً، لربما إرضاءً للأمير، فهو وبعد أن قرن حُسْنَهم ببلادهم العراق، يقول: إن حُسْنَ الفتى وشرَفه لا يُقارنُ بحُسْنِ الوَجه وإنما بأخلاقه وأفعاله الحسنةِ، والحكم

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٢١٧:٢.

(٢) القنيص: الصيد، المفارق: جمع مفرق وهو فوق الرأس.

(٣) الثويَّة: موضع بقرب الكوفة.

(٤) المخانق: العقد.

(٥) القطر بُلِّيُّ: الشراب المنسوب إلى قُطْرُبُلّ: ضيعة من أعمال بغداد يُنسب إليها الخمر.

(٦) المِزْهر: آلة من آلات الغناء.

(٧) الخلائق: الخِصال.

الآخر هو أنّه ليس بلدُ الإنسان الذي نشأ فيه، ولا أهلهُ الذين يحفّون به في النسب، بل كلُّ بلدٍ وافقه وطابَ له هو بلدُه، وكلُّ قومٍ صادقوه فهم أهلهُ، وبعد هذا التعميم في الحديث عن قبيلة كلاب، فإنه يجيدُ التخلّص من المقدمة إلى موضوع القصيدة، إذ أشارَ من طرفٍ خفيٍّ إلى أسباب ثورةِ هذه القبائل، فهي وإن امتازتْ بكلِّ الصفات الحميدة السّابقة، لكنها قد تبدو تُنافق في حُبّها للأمير، فهو إذن يُعرِّض بمشيخةِ بني كلاب الذين طرحوا أنفسَهم على الأمير لمّا قصدهم، يُبْدون له المحبة غيرَ صادقين، وهو بهذا لم يُرِدْ أنْ يُسلبَهم فضائلهم، بل أرادَ أن يكسبَ ودَّ القبائل منْ جهة، ويكسب ودَّ الأمير من جهة أخرى، يقول:

وجائزةٌ دَعْوى المحبّةِ والهَوَى وإنْ كانَ لا يخفى كلامُ المُنافقِ

ثم ينطلق للحديث عن أسباب ثورات هذه القبائل وما لا قوهُ من الأمير من ويلٍ وهلاكٍ وقتل، وكانت القصيدة تقوم- ما بعد المقدمة- على التّضاد والمقابلة بين عنصرين هما: القبائل العربية من جهة، والأمير من جهة أخرى، وتمثّلتْ أوجه هذه المقابلة بالحديث عن نعَمِ الأمير التي أفاضها عليهم، ومقابلتهم إيّاها بالجحدان والكفر، مما ألجأه إلى أن يقابلهم بالانتقام، يقول في ذلك:

برأيِ مَنِ انقادتْ عُقيلٌ إلى الرّدى وإشْماتِ مخلُوقٍ وإسْخاطِ خالقِ؟
أرادوا علياً بالذي يُعجزُ الورى ويُوسعُ قتلَ الجحفلِ المُتضَايقِ
فما بسطوا كفّاً إلى غيرِ قاطعٍ ولا حملوا رأساً إلى غيرِ فالقِ
لقد أقدَموا لَوْ صادفوا غيرَ آخذٍ وقد هَرَبوا لَو صَادفوا غَيرَ لاحِقِ
ولَمّا كسا كَعْباً - ثيابا طغوْا بها رَمى كُلَّ ثوبٍ مِنْ سِنانٍ بخارقِ
ولمّا سَقى الغيثَ الذي كفروا بهِ سَقى غيرَهُ في غيرِ تلكَ البوارِقِ

والوجه الآخر حال هذه القبائل المقاتلة التي لاقتْ الهزيمة والويل والهلاك، وحال الأمير وقواته التي حافظت على نفسها من الفرار، وبقيت منتصرة

وملمومة الشّمل، فهي مقابلة من حيث الهزيمة للقبائل، والنصر للأمير، إذ يقول:

ومَلمومةٌ سَيفيّةٌ رَبَعيَّةٌ   يَصيحُ الحَصَى فيها صياحَ اللّقالقِ
بَعيدةُ أطرافِ القنا من أصولهِ   قريبةُ بين البَيضِ غُبْرُ اليَلامِقِ
نَهاها وأغناها عن النهبِ جُودُهُ   فما تبتغي إلاّ حُماةَ الحقائقِ

وقد بقيت أبيات القصيدة متناسقة لم تخرج عن موضوعها، فاستمرّ الشاعر بعد أن أشار إلى نصر الأمير وقواته، إلى الإشادة بسيف الدولة، وتعوّده للقتال مثلهم ومعرفته بضروبِ الصحراء والفيافي، وخيوله التي اعتادت على الحروب، إذ يقول:

تَوهّمَها الأعرابُ سَوْرةَ مُتْرَفٍ   تُذكّرُهُ البيداءُ ظِلَّ السُّرادِقِ
فَذكّرْتَهُمْ بالماءِ ساعةَ غبَّرتْ   سَماوةُ كلبٍ في أنوفِ الحزائقِ
وكانوا يروعُونَ الملوكَ بأنْ بَدَوْا   وأنْ نَبَتَتْ في الماءِ نَبْتَ الغلافقِ
فهاجُوكَ أهْدى في الفلا من نجومهِ   وأبْدى بُيُوتاً من أداحِي النّقانِقِ
وأصبَرَ عَنْ أمواههِ من ضَبابِهِ   وآلف منها مُقْلَةً للودائقِ
وكان هديراً من فحولٍ تركْتَها   مُهلّبةَ الأذنابِ خُرسُ الشقاشقِ
فما حَرَموا بالرّكْضِ خيلَكَ راحةً   ولكنْ كَفاها البَرُّ قطْعَ الشّواهقِ
ولا شَغَلوا صُمَّ القَنا بنحُورِهِمْ   عن الرّكزِ لكنْ عن قلوبِ الدّماسِقِ
ألمْ يحذَرُوا مَسْخَ الذي يمسَخُ العِدَا   ويجعَلُ أيْدي الأُسْدِ أيْدي الخَرانِقِ
وقد عاينُوهُ في سِواهُمْ ورُبّما   أرى مارقاً في الحربِ مَصْرَعَ مارِقِ
تَعَوّدَ أنْ لا تقضَمَ الحَبَّ خيلُهُ   إذا الهامُ لم ترفعْ جُنُوبَ العلائقِ
ولاَ تَرِدَ الغُدْرانَ إلاّ وماؤها   من الدّمِ كالرّيْحانِ فوقَ الشقائقِ

ثم وهو في سياق موضوعه يريد أن يضرب لهؤلاء الثائرين أمثلة غيرهم من القبائل التي آثرت الطاعة والخضوع والاستسلام؛ لكي يتّعظوا من جهة، وليرفع

قدر الأمير من جهة أخرى، وكأنّه يريد أن يقول له: إنْ خُروجَ هذه القبائل عليك ليس بعيبٍ ولا عار، لأنّ غَيرها قد أطاعتك خوفاً منك، فيقول:

لَوَفدُ نُميْرٍ كانَ أرشَدَ منهُمُ   وَقد طردوا الأظعانَ طَرْدَ الوسَائِقِ
أعَدُّوا رِماحاً من خضوعٍ فطاعَنوا   بها الجيشَ حتى ردّ غَرْبَ الفيالِقِ

ويُنهي قصيدته في تخصيصه لمدح الأمير، إذ تفوّق على غيره من قواد عصره، فكان البيت الأخير كالسّهم الصائب في آخر القصيدة، لأنه أظهر ممدوحه ببسالته وشجاعته، فقال:

فلم أرَ أرمَى منه غيرَ مُخاتِلٍ   وأسْرى إلى الأعداءِ غيرَ مُسَارِقِ
تُصيبُ المَجانيقُ العِظامُ بكفِّه   دقـائقَ قد أعيتْ قِسيُّ البَنَادِقِ

وثمّة نمطٌ آخر من القصائد يَلِجُ فيه الشعراء موضوعَ القصيدة ولوجاً مباشراً، وهذا ينسحبُ كثيراً على قصائدِ التشيّعِ والمُجونِ والإخوانيات.

ويطالعنا في هذا الشأن قصيدة أبي فراس الحمداني في تشيّعه ومدحه لآلِ البيت، والقصيدة ذاتُ مغزى واحد، هو إظهار الشاعر حبَّه لآل البيت، والتشيع لهم وبكائهم، والإشارة إلى مصارعهم، والتعريض بخصمهم من الأمويين والعباسيّين، وهي تقوم كذلك على المقابلة بين بني العباس من جهة وبين العلويّين من جهة ثانية، وعناصر هذه المقابلة واضحة في قصيدة أبي فراس الذي رجّح الخلافة أن تكون للعلويّين دون العباسيّين، وقد بدأ قصيدته بالحديث عن الأجواء السائدة في ظل العباسيّين، ووصف حال الأمّة، متّخذاً من فساد الأمور، وضعف الدين، واهتضام الحقوق، وصمتِ الرعية الذين كانوا كالشّاء، لا يملكون من أمرهم شيئاً، منطلقاً لذم بني العباس، إذ يقول(١):

الدينُ مُخْتَرمٌ، والحقُّ مُهتَضَمُ   وفيءُ آلِ رسولِ الله مقْتَسَمُ(٢)

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٥٦.

(٢) مُخْتَرَم: مُسْتَأْصَل.

والنّاسُ عندك لا ناسٌ، فيحفظهمْ   سومُ الرعاةِ ولا شاءٌ ولا نِعَمُ

ويراوح الشاعر كما هو واضح في قصيدتهِ في حديثه عن بني العباس والعلوييّن، فمرّة يتحدّث عن العلويين ويخرج لهجاء العباسيّين، ثم يعود للعلويين ثانية وهكذا، ومن هنا كان واجباً عليهِ أن يعتمد على عنصر المقابلة بين متضادّيْن، فهو يستغيثُ أهلَ النّصرة، ليخلّصوا الناس من هؤلاء الطُّغاة، ويصف حال بني علي الذين ليس لهم من الأمر شيءٌ، وهم مُبْعَدون، على الرّغم من أنهم أحقُّ بالخلافة ، والعباسيّين الذي ليس لهم الحق ومع ذلك فإنّهم يمتلكون زمام الأمور، فيقول:

يا للرجالِ! أما لِلهِ منتصِفٌ   مِن الطُّغاةِ؟ أما للدِّينِ مُنتقِمُ؟!

بنو عليٍّ رعايا في ديارِهمُ   والأمرُ تملكهُ النسوانُ والخَدَمُ!

مُحلّئونَ فأصْفَى شُرْبِهمْ وَشلٌ   عِنْد الورودِ وأوفى وُدِّهمْ لَمَمُ(١)

فالأرضُ إلاّ على مُلاّكها سَعَةٌ   والمالُ إلاّ على أرْبَابِهِ دِيَمُ(٢)

وما السعيدُ بها إلاّ الذي ظلموا   وما الغنيُّ بها إلاّ الذي حَرَموا

للمتّقينَ من الدنيا عواقِبُها   وإنْ تعجّل منها الظالمُ الأثِمُ

ثم تأتي المفاضلة في صالح العلويّين، فهم الموالي والأسياد، وإنِ ادّعى العباسيّون ذلك لهم، كما تقوم المفاضلة على الاستفهام الإنكاري، وسلبِ العباسيّين ما يدّعون من فضائل على العلويين، فأصْلهم ونسبهم وموطنهم شاهد على مجدهم وسؤددِهم، يقول:

لا يُطغينَّ بني العبّاسِ ملكهُمُ!   بنو عليٍّ مواليهمْ وإنْ زعمُوا

أتفخرونَ عليهمْ؟ لا أبَا لكُمُ   حتّى كأنْ رسولَ اللهِ جَدُّكمُ

وما توازنَ يوماً: بينكمْ شرَفٌ   ولا تساوتْ بكمْ في موطنٍ قَدَمُ

---

(١) الوشل: قليل الماء، لمم: ذنب.

(٢) الديَم: المطر يتساقط بلا رعد ولا برق..

ولا لكمْ مثلُهمْ في المجدِ متّصلٌ ولا لجدِّكُمُ مَسْعاةُ جدِّهِـمُ

ولا لعِرْقكمُ من عِرقِهمْ شَبَـهٌ ولا نفيلتُكمْ من أُمِّهـمْ أمُمُ

وحتى إذا وصل أبو فراس إلى فضائل العلويين، فإنّه يُقرِّر المبدأ السياسي في أحقيّتهم، إذ يُشيرُ إلى وصية النبي- عليه الصلاة والسلام- يوم الغدير، ويذكر اغتصاب الآخرين لها، الذين تنازعوا عليها بغير حق، وادّعوها ادّعاءً باطلاً، وهو كذلك يلجأ إلى الاستفهام الإنكاري فيردّ دعواهم، وفي سلْبهم لهذه الفضائل، حتى يُثْبِت أحقيّة العلويين لأسباب كثيرة، وفي ذلك يقول:

قام النـبيُّ بها يومَ الغـديرِ لهمْ واللهُ يشـهدُ والأمـلاكُ والأمَـمُ

حتى إذا أصبحتْ في غيرِ صاحبِها باتتْ تَنَازَعُها الذؤبانُ والـرّخَمُ

وصُيِّرتْ بيـنهمْ شُـورى كأنّهـمُ لا يعـرفون وُلاةَ الحقِّ أيّـهمُ

تاللهِ، ما جَـهِلَ الأقوامُ مَوْضِـعَها لكنّهم ستروا وَجْهَ الـذي عَلِموا

ثـم ادّعاهـا بنو العباسِ إرثَهمُ وما لهمْ قَـدَمٌ فيـها ولا قِـدَمُ

لا يُذكَـرونَ إذا ما معـشرٌ ذُكروا ولا يُحـكَّمُ في أمـرٍ لهمْ حَـكَمُ

ولا رآهـمْ أبو بـكرٍ وصـاحبُـهُ أهلاً لِما طلبوا منها وما زعموا

فهلْ هُمُ مُدّعـوها غيـرَ واجـبةٍ أمْ هلْ أئمّتُهمْ في أخذِها ظلموا؟

أمّا عليٌّ فقـد أدنـى قرابـتكمْ عند الولايةِ إنْ لم تُكفرِ النِّـعمُ

هل جاحدٌ يا بني العـباسِ نعمتَه أبوكُـمُ أمْ عبيدُالله أمْ قُـثَمُ؟

وإذا انتهى أبو فراس من الموازنة بين الطّرفين فإنه يخرجُ لذمِّ العباسيّين والطعنِ فيهم، ذاكراً مصارعَ العلويّين، فهم انتقموا ليوم بدر، وأساءوا لآلِ الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولنسائهم، وللدّينِ كلّه، ثم يُقابل بينهما حتى يَصلَ إلى تفضيل الطالبيّين عليهم ، فيقول وقد استرسل كثيراً في حديثه عنهم:

بئسَ الجزاءُ جَزيتمْ في بني حسنٍ أبوهُمُ العَلَمُ الـهادي وأمُّـــــهمُ

لا بيــعةٌ رَدَعَتْـكمْ عنْ دمائــهمُ ولا يمــينٌ ولا قُــربى ولا ذِمَـــمُ

هلاَّ صَفَحْتُمْ عنِ الأسرى بلا سببٍ للصــافحين ببدرٍ عن أسـيركمُ؟

هلاّ كفَفْتُمْ عنِ الدّيـباجِ ألسُـنَكمْ وعن بناتِ رسولِ الله شتـمَكمُ؟(١)

ما نُزِّهتْ لرسولِ الـله مهـجتُهُ عن السِّياطِ! فهـلاّ نُزِّه الحــرمُ؟

ما نالَ منهمْ بنو حربٍ، وإنْ عظُمَتْ تلــك الجـرائــرُ إلاّ دونَ نَيْـلكمُ

كم غدرةٍ لكمُ في الدِّينِ واضـحةٍ وكَـمْ دمٍ لرســولِ اللــهِ عنـدكمُ!

أأنتــمُ آلُه فيــما تــرونَ وفــي أظفـاركمْ من بنيهِ الطّاهرينَ دَمُ؟

هيهاتَ لا قُرِّبتْ قُرْبى ولا رَحِـمٌ يوماً، إذا أقْـصتِ الأخـلاقَ الشِّيَمُ

كانتْ مودّةُ سلـمانٍ لهُ رحـماً ولمْ يكُنْ بين نُوحٍ وابـنهِ رحِـمُ!(٢)

يا جاهداً في مساويهمْ يُكـتِّمها! غدْرُ الرَّشيدِ بيحيى كيف يَنكتمُ؟(٣)

ليس الرشيدُ كموسى في القياسِ ولا مأمونُكمْ كالرِّضا إنْ أنْصفَ الحكَمُ(٤)

ذاق الزّبيريُّ غِبَّ الحِـنْثِ وانكشفتْ عن ابنِ فاطمةِ الأقـوالُ والتُّـهمُ(٥)

باؤوا بقتلِ الرِّضا من بعد بيعتهِ وأبصروا بعضَ يومٍ رُشدَهمْ وعمُـوا

يا عُصْبةً شقـيتْ من بعد ما سَـعِدتْ ومعشراً هلَـكُوا منْ بعدِ ما سَلِمُـوا

لبئسَ ما لقيتْ منهمْ، وإن بليتْ بجانبِ الطَّفِّ تلك الأعظمُ الرِّمَمُ

---

(١) أم الديباج: فاطمة بنت الحسين.

(٢) سلمان: هو الفارسي.

(٣) يحيى: قصد به مقتل يحيى بن عبدالله بأمر من الرشيد.

(٤) موسى : هو موسى الكاظم الإمام السابع عند الشيعة، والرّضا: هو علي.

(٥) الزبيري: هو الذي بايع علياً ثم تراجع.

لا عن أبي مُسْلمٍ في نُصْحِهِ صَفَحُوا ... ولا الهُبَيْرِيُّ نجّى الحِلفُ والقَسَمُ(١)

ولا الأمانُ لأزْدِ الموصلِ اعتمدوا ... فيه الوفاءَ ولا عن عمِّهمْ حَلِمُوا(٢)

وبهذا فقد نصَّب أبو فراس نفسه في صبِّ هجائه على العباسيِّين، مُدافعاً عن العلويين ومناصراً لهم ومؤيداً، حتى يصل في آخر قصيدته يخصِّص الحديث لبني العباس صاباً غضبه عليهم، فهم لا يصلحون لأنْ يكونوا أهْلاً للخلافة، فالأمر يملكه العجمُ ، وجُلُّ اهتمامهم في الدنيا ومجالس الطرب واللّهو ، وحتى إذا اشتدَّ في طعنهم، وسَلَبهم كلَّ فضيلةٍ، وإلصاقهُ كلَّ رذيلةٍ بهم، فإنه يعودُ ثانيةً للعلويين، فيُثني عليهمْ ويشيدُ بِهِمْ وبدينهم والتزامهم بالطّاعة، إذ يقول -وهو غيرُ مُبالٍ في طعنه عليهم:

أبلغْ لديكَ بني العباسِ مألُكةً : ... لا تَدَّعوا مُلْكَها مُلاَّكُها العَجَمُ

أيُّ المفاخرِ أمستْ في منابرِكمْ ... وغيرُكُمْ آمرٌ فيهنَّ مُحْتَكِمُ

وهل يزيدُكُمُ من مَفخَرٍ عَلَمٌ ... وفي الخلافِ عليكمْ يخفقُ العَلَمُ

خلّوا الفَخارَ لعلاّمينَ إنْ سُئلوا ... يومَ السؤالِ وعمّالينَ إنْ علِموا

لا يغضبونَ لغيرِ الله إنْ غضِبوا ... ولا يُضيِّعونَ حُكمَ الله إنْ حكموا

تبدو التلاوةُ منْ أبياتِهم أبداً ... وفي بيوتِكُمُ الأوتارُ والنَّغَمُ

منكم عُليّةُ، أمْ مِنهمْ؟ وكان لهمْ ... شيخُ المغنّينَ إبراهيمُ أمْ لكُمُ؟(٣)

ما في ديارِهمُ للخمرِ مُعْتصَرٌ ... ولا بيوتُهمُ للسّوءِ مُعتصَمُ

الرّكنُ والبيتُ والأستارُ منزلُهمْ ... وزمزمٌ والصّفا والحِجْرُ والحَرَمُ

ويُنهي أبو فراس قصيدته بالدُّعاء لهم والصلاة عليهم، لأنّهم ملجأ وملاذُ كُلِّ مَنْ طلب ذلك منهم، فيقول:

---

(١) الهبيري: يزيد بن هبيرة قائد جيش مروان بن محمد.

(٢) الأزد: قبيلة موالية لبني أمية.

(٣) عُليّة: هي بنت المهدي أُخت الرشيد، وقد وصفت بالغناء.

صلّى الإلهُ عليهمْ أينما ذُكروا   لأنّهمْ للورَى كَهْفٌ ومُعتَصَمُ

ومن القصائد التي وَلِجَ فيها الشعراء إلى الموضوع دون مقدمة، القصائد التي تتحدث عن القرامطة، من مثل ما صوّر به الصنوبري ما فعلوه بالحاجّ يوم التّروية، فقد كانتْ القصيدة وحدةً واحدة، ذاتَ موضوعٍ ومغزى واحد، إذ كان الشاعر يهدفُ إلى تصوير أعمال القرامطة والجرائم البشعة التي ارتكبوها بحقّ الحجاج المسْلمين، يقول في مطلعها(٢):

بنفسي نفوسٌ بين زمزمَ والحِجْرِ   تولّت فوا فاها الرّدى وهْي لا تدري

نفوسٌ مضتْ أوْحى مضيٍّ وغادرتْ   نفوسَ بني الدنيا سكَارى بِلا سكْرِ

والقصيدة تنقسم لدى الشاعر إلى قسمين: إذ تحدّث في قسمها الأول عمّا فعله هؤلاء الجناة بالمسلمين، ووصْف لحال المسلمين وأرواحهم تُنتهب بأيدي هؤلاء الأشقياء وما آلوا إليه، إذ كانوا يبكون خشية وخشوعاً لله، وكان الموتُ فوق رؤوسهم، وما أعظمُ مُصابهم، كما يقول:

عجبْتُ لقلبٍ ما تصدّعَ حَسْرَةً   ولو كان صخراً أو أشدَّ من الصّخرِ

سلامٌ على إخوانِ برٍّ مذ انقضتْ   أخُوّتُهُمْ قُلْنا: سلامٌ على البرِّ

أتوْا يقطعون البدوَ والحضْرَ رغبةً   إلى خيرِ بيتٍ حلَّ في البدوِ والحَضْرِ

سَرَوْا وسرتْ أيدي المنايا إليهمُ   ففازوا لَدُنْ فازوا بأجرٍ على أجْرِ

رأوا حجَّهمْ حجّاً وغزواً فلم تطِبْ   نفوسُهُمُ عن كسْبِ ذُخْريْنِ في ذُخْرِ

بلى وقفوا للضّرْبِ والطّعنِ موقفاً   كأنّهمُ فيهِ وقوفٌ على الجمْرِ

دموعهُمْ تجري خشوعاً وخشيةً   وأرواحهمْ تجري على البيضِ والسُّمْرِ

فكائن ترى من سابحٍ في دمائهِ   دماءٍ غدا من هَوْلها البرُّ كالبحرِ

---

(١) الصّنوْبري: ديوانه ٩٦.

فأكرِمْ بهِمْ والموتُ فوقَ رؤوسِهمْ يلوذونَ خَوْفَ الموتِ بالبابِ والسِّترِ
أبى لهمُ إحرامُهمُ لبسَ جُنَّةٍ فلم يلبسوا شيئاً سوى جُنَّةِ الصَّبرِ

ومضى الشاعر على هذا النحو يصوِّر حال المسلمين، ومصيرهم الذي آلوا إليه بأسلوبٍ متناسقٍ لمْ يَخِلّ بوحدة القصيدة، حتّى وصل إلى ما أراد أن يقرِّره، وهو أنهم ذهبوا ضحيّةً ولم يعودوا كما عاد الحجيج، وقد جاوروا البيت العتيق، فيقول مظهراً حزنَه وأساه عليهم:

أحُجَّاجَنا مالي أرى السَّفْرَ آيباً ولستُ أراكمْ آيبينَ مع السَّفْرِ
أجاورتُمُ البيتَ العتيقَ فحبَّذا جواركمُ الباقي إلى آخرِ الدّهرِ

ثم ينطلق ليتحدّث عن هؤلاء الجُناة، ويصفهم بأقبحِ الصفات، ويصوِّر غدرهم وغيَّهم وكفرهم وطغيانَهم، فيقول:

فيا لبني الإسلامِ كم من سعادةٍ حَوَوْها بأيدي الأشقياءِ بني الكُفْرِ
بهائمُ لم تألفْ سجوداً جباهُهُمْ ولا أَلِفوا بَسْطَ الأكفِّ إلى الطُّهرِ
ولا مرَّ ذكرُ الصّومِ بين بيوتِهِمْ ولا خاضَ في سمعٍ ولا جالَ في صدْرِ

وبعد أن استرسل في حديثه عنهم، فإنه يتضرّع إلى الله بالدّعاء عليهم، وأن يأخذ ثأر المسلمين منهم، ويجازيهم كما جازى الذين طغوْا من قبلهم، وبالتالي يختم قصيدته بالدعاء للمؤمنين بالنصر، فيقول في ذلك:

فيا ربِّ لا تُمْهلْ عدوَّك وارْمِه بقاصمةِ الأعناقِ قاصمةِ الظَّهرِ
ويا ربِّ خُذْ منهمْ لدينِك ثأرَهُ فقد وتروهُ مستهينينَ بالوِتْرِ
إلهي أعِدْ أيامَ عادٍ عليهِمْ ويوماً كيوميْ أهلِ مدْينَ والحِجْرِ
وأيِّدْ أميرَ المؤمنينَ وسيفَهُ بنصرٍ كما عوَّدتَ يا خالقَ النّصرِ

وبهذا فقد كانت القصيدة تتناول موضوعاً واحداً، وتعالج قضيةً لم تخرج

عنها، وهي ظهور هؤلاء القرامطة، واستفحال خطرهم وأطماعِهم وسوءِ نواياهم، وكانت القصيدة تقوم على عنصرين متضادّيْن، هما: المسلمون والقرامطة، والذين لم يلتقوا بصفة ما، فراوح الشاعر في حديثه عن الطرفين، وركّزَ على ما كان يصبو إليه القرامطة آنذاك، وهو الحصول على المال بأي وسيلةٍ كانت، ولم يكفُّهم صلاةٌ ولا صيامٌ، ولا بلد آمنٌ، ومكانٌ للعبادة.

وأمّا عن طول القصائد لدى الشُّعراء في هذا القرن، فقد أطالوا قصائدهم في المواقف المحمودة كالحماسة والمدح ومواقف التفخيم والتهويل، فجاءتْ القصائد التي قيلتْ في تصوير ثورات القبائل العربية مطوّلاتٍ، إذْ بلغتْ إحداها ستةً وستين بيتاً(١)، وبلغ بعضُها سبعةً وأربعين بيتاً(٢)، وبعض قصائد التّشيُّع التي بلغت سبعةً وخمسين بيتاً(٣).

وهناك بعض المزدوجات الطّرْديُّة التي بلغتْ مائة وخمسةً وثلاثين بيتاً(٤)، وتجاوز بعضُها هذا الحد فوصل إلى مائةٍ وخمسةٍ وتسعين بيتاً(٥)، ومن المواقف التي أراد الشاعر فيها التفخيم والتهويل، ما صوّره أبو الرُّقعْمَق في دعوةٍ له بقرية خمرايا بدمشق(٦).

وإلى جانب المطوّلات فقد كثُرتِ المقطوعات(*) الشعرية في الشعر الشاميِّ في القرن الرابع الهجري بصورة لافتةٍ للنظر، لا سيّما في شعر اللهو والمجون

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح اليازجي ١:٤١٨-٤٢٦.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح اليازجي ١:٤١١-٤١٨.

(٣) أبو فراسْ الحمداني: ديوانه ١٥٦ - ١٥٩.

(٤) أبو فراس: ديوانه ١٨٥-١٩٢.

(٥) ابن العديم: بغية الطلب ٣:١٠٩٧-١١٠٦.

(٦) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٤١٤-٤٢٤.

(*) المقطوعات: جاء في العمدة إنه إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة أبيات غير عيب عند أحد من الناس «ومن الناس من لا يَعُدُّ القصيدة إلاّ ما بلغ العشرة، أو جاوزها ولو بيتاً واحداً...» ابن رشيق: العمدة ١:-٣٥.

والإخوانيات كالتهاني، والمقطوعات التي قيلتْ في النقد الاجتماعي، وفي وصف الأطعمة وأنواعها، وفي الغناء؛ حيثُ وصف الشعراء المغنيات، وبعض أدوات الطّرب والعزف، والشعر الذي قيل في الزُّهد والموت، وممّا تجدر الإشارةُ إليه أنْ المقطوعاتِ الشعرية أكثرُ ما ظهرتْ عند الصنوبري وكشاجم الرّمليّ.

والشعر في هذا الجانبِ -كما أسلفْتُ- أكثرُ ممّا يُحاطُ به هنا، لذا آثرْنا أنْ نشير إلى بعض الأمثلة منْه.

ويُلاحظ أنّ المقطوعات الشعريّة ذاتُ موضوع واحدٍ، ومغزىً واحدٍ، يُحاولُ الشاعرُ من خلالها أنْ يطرحَ فكرةً ما يدعو لها.

فهناك المقطوعاتُ الخمرية التي حثّ فيها الشعراء على اللهو وشربِ الخمر، وفي ذلك يقولُ الصنوبري(١):

ما ساعةٌ تمضي بلا وزْرٍ　　بساعةٍ تُحْسَبُ منْ عُمْرِي
قُمْ باكرِ الفجْرَ إلى شُرْبَةٍ　　يَغْنى بها الشّربُ عنِ الفجْرِ
لا تسْقني خمْراً وهاتِ اسقِنَا　　إنْ كُنْتَ ساقينا أخَا الخمْرِ
أنَ لأصحابي أنْ يَسكَروا　　فنادِهِمْ حيَّ على السُّكْرِ

وكان الشاعر الصنوبري يُكثِر في مقطوعاته من المحسّنات البديعية، كالجناس، ويُكثِرُ من تكرار الألفاظ، ومَعَ اعتماده على المحسنات إلاّ أنّ مقطوعاتِه تمتاز بالسّهولة المُفرطة، واللُّغة القريبة من اللغة المحكية، فهو يصفُ المُغنّي جعفرَ، ويُشيرُ إلى حُسْنِ غنائهِ، وحُسْنِ صورتهِ، إذ يقول(٢):

باللّه قُلْ لي أخدُّكَ الأحمرُ　　ألْينُ مسّاً أمْ خَدُّكَ الأصفَرُ
جَعْفرُ أحسنْتَ في غنائكَ بلْ　　زدْتَ على المحسنينَ يا جعفرُ

---

(١) الصّنوبري: ديوانه ٣٩.

(٢) الصّنوبري: ديوانه ٧٠.

أطْربْتنَا لا خلوتَ من طَرَبٍ ، أسكرْتَ منّا مَنْ كانَ لا يَسْكَرُ

لفظُك مِسْكٌ وعنبرٌ، ومتى قيسَ به المسْكُ قطُّ والعنبرُ

لحظُك سيفٌ وخِنجرٌ، ومتى قيسَ بك السيفُ قطُّ والخنجرُ

ويُطالعنا النقد الاجتماعي لدى الشعراء في هذا القرن، إذ يصوغون نقدهم لفئات المجتمع في مقطوعاتٍ صغيرة، ويصبُّون غضبَهم نحو هذه الفئات، مع أنَّهم- في الوقت نفسه- يلتزمون بالتصوير والبديع، كالطباق، والجناس، من مثْلِ ما نجده لدى الصنوبريِّ في نقد أهل اللِحى، ووصفهم بالظلم، قائلا(١):

شُبْ ازدياداً في الهوى بانتقاصْ ولا تُطِعْ أمرَ وَصُولٍ وعاصْ

إنْ تَسُمِ الشَّاميُّ هَجْراً فقدْ خَلَّصَهُ هَجْرُكَ كلَّ الخَلاصْ

يا ظالماً أصبحَ ذا لحيةٍ تُعلِّمُ المظلومَ أخْذَ القِصاصْ

فقدْ كنْتَ عِلْقاً مُثمناً غالياً فصرْتَ من بعض العُلوقِ الرِّخاصْ

فأينَ ذاكَ الحُسْنُ، مالي أرى وَجْهَكَ منه، وهْوَ خالي العِراصْ

مَنْ لبسَ الشَّعْرَ عِذاراً فقد ألبسَكَ الشَّعْرُ لِجاماً دِلاصْ(٢)

فَسِلْ بريحِ الذمِّ سَيْلَ الهَبَا وَذُبْ بنارِ الهجْرِ ذَوْبَ الرَّصاصْ

ويمزجُ الشاعر أحياناً بين أسلوبين في مقطوعاته الشِّعرية، فهو يتكلَّفُ المحسِّناتِ البديعيّة من جهةٍ، ويميلُ إلى السّهولةِ المفرطة من جهةٍ ثانية، واللغة القريبة من اللغة المحكية، وهذا ما نجدُه عند الصنوبري وهو يُصوِّرُ موقفه تجاه النبيذ، ويبيِّن كُرْهَه له، إذ يقول(٣):

---

(١) الصّنوبري: ديوانه ٢٤٥.

(٢) الدّلاص: الأملس اللّين.

(٣) الصّنوبري: ديوانه ٢٥٨.

كنتُ أُحبُّ النبيذَ جــدّاً   فصــارَ حُبِّي النبــيذَ بُغضا
وصارَ ذا مثلَ ذاك حذْواً   بلْ زادَ طــولاً وزاد عــرْضا
فلسْتُ أرضاهُ لي شـراباً   والحمدُ لـله، لسْــتُ أرضى

ويميلُ كشاجم إلى السُّهولة المفرطة والإيجاز في مقطوعاته الخمْرية، إذ يصوِّرُ كرْهَه للنبيذ وإقلاعَه عنْه، فبعد أنْ كان يعتقدُ بأنّها تطردُ الهمومَ وتبْعثُ على السُّرور، إلا أنّهُ أدركَ أثرَها على الجسم، فمقطوعتهُ تقومُ على عنصرين أوّلهما: امتناعُه عن النبيذ، وثانيهما: تعليلهُ لهذا الامتناع، يقول(١):

يا نديميَّ جنِّباني الرَّحيــقا   إنَّنــي لَسْتُ للرَّحيــقِ مُطيقا
قد تيقّـنتُ أنّها تَطْردُ الهمْـ   ـمَ وتلفي إلى السُّرورِ طريقا
غيرَ أنيَ وجدْتُ للكاسِ ناراً   تُلهبُ الجسمَ والمزاجَ الرَّقــيقا
فإذا ما جــمعتُها ونَـدامى   حرقتْـني بنــارِها تحــريــقا

وغالباً ما تمتازُ هذه المقطوعات بالإيجاز الشديد والتكثيف في الوصف، إذ يعملُ الشاعر جاهداً على وصف مظهرٍ من مظاهر الحضارة ، ولا يخرج عنه البتة، فكشاجم يصف محبرةً ،ويصف الحِبْرَ بداخلها كالمسْكِ، وزجاجتها كالعيون السّوداء ذاتِ الحَوَرِ، وكالكحلِ في أعين الحِسان، وهي عونٌ على الكتابة، رُغم أنها خرْساءُ ، فيقول(٢):

محْبــرةٌ جادَ لي بــها قــمــرٌ   مسْتحْسنُ الخَلْقِ مُرْتضى الخُلُقِ
جَوهرةٌ خصّــنِي بــجوهــرةٍ   نَاطَتْ له المكْــرُماتُ في عُــنُقي
بيضاءُ والحبرُ في قرارتِــها   أسودُ كالمِسْــكِ جَدُّ مُنْفــتِقِ(٣)

(١) كشاجم: ديوانه ٣٥٥.
(٢) كشاجم: ديوانه ٣٦٨.
(٣) فتق المسك:استخرجه

مثلُ بياضِ العيونِ زينَتُهُ   مُسْودٌ ما شابَهَ من الحَدَقِ

كأنّما حبرُها إذا نثرتْ   أقلامُنا طلُّهُ على الورَقِ

كحلٌ مَرَتْهُ الدّموعُ من مُقَلٍ   نُجلٍ فأوفتْ بهِ على يَقَقٍ(١)

خرساءُ لكنّها تكونُ لنا   عوناً على علمِ أفصحَ النُّطُقِ

ويميلُ الشعراء في شعر الزهد إلى الإيجاز والتكثيف ، فالصنوبري مثلاً يذكر الموتَ ، ويدعو إلى أخذ العبرة منه ومن القبور، فيقول(٢):

اذكرِ الموتَ واعتبرْ   واصدقِ النفسَ وازدجرْ

مَنْ سيمضي إلى القبو   رِ غداً مثلُ مَنْ قُبِرْ

ويُحذّرُ أبو فراس الحمْداني من الدُّنيا، ويجعلها مطيّةَ راكبٍ في إيجازٍ شديد، إذ يقول(٣):

ألاَ إنّما الدنيا مطيّةُ راكبٍ   علا راكبوها ظهرَ أعوجَ أحْدَبَا

شَموسٌ متى أعطتْكَ طوعاً زِمامَها   فكنْ للأذى من عقّها مُتَرقّبا

---

(١) نجل: واسع العين، يقق: شديد البياض، ومرته: من مراه أي استخرجه.

(٢) الصنوبري: ديوانه ٨٩.

(٣) أبو فراس: ديوانه ٣٩.

ب- الصّورة

تعدُّ الصورة عنصراً هاماً من عناصر البناء الشعريّ، وهي جزء ضروري من الطاقة التي تعدُّ الشعر بالحياة(١)، وقد اهتمَّ الشعراء الشاميّون في القرن الرابع الهجري عامّة بالصورة، وبذلوا جهوداً فنيّةً كبيرةً في إخراجها، وشهد لهم بذلك بعض النقاد القدماء، ولا سيّما الثعالبي الذي أكثر من التعليق على صورهم، مبيّناً استحسانه لها(٢).

ويرى بعض المحدثين أن شعر هذا القرن قد وصل إلى قمّة ازدهاره، وأعلى مراتب سلّم رقيّه وتطوره، وابتدع فيه شعراؤه العديد من الموضوعات الجديدة، وابتكروا الكثير من المعاني، وقدّموا لسامعيهم المزيد من الصور الشعرية والتشكيلات الفنية البديعة في منظرها، والجميلة في ردائها(٣).

وقد جارى الشعراء في هذا القرن مَنْ سبقهم في معانيهم القديمة، ومنها: وصف وجنات المحبوب بالورد والتفاح(٤)، ووصف لواحظه بألحاظ الغزال(٥)، وصورة المحبوبة بالبدر(٦) ، والخمر بالشمس(٧)، ووصف خلخال المرأة بالنار(٨)، ووصف الغلام بالظبي(٩)، وجعل البعد والهجر من الحبّ يُضني القلوب(١٠)، والسيوف تقري

---

(١) أرشيبالد مكليش: الشعر والتجربة ١٤٩.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٥٧، ٦٣، ١٢٩، ٢٨٣، ٢٩٣، ٣٢٨، ٣٥١، ٣٦٣، ٤٢٤، ٣٧١.

(٣) نبيل خليل أبو حلتم: اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري من خلال يتيمة الدهر ٩٥.

(٤) الببغاء: شعره ٦٧.

(٥) كشاجم: ديوانه ٢٣٨.

(٦) كشاجم: ديوانه ٢٧.

(٧) الببغاء: شعره ١٠٢.

(٨) كشاجم: ديوانه ٤١٨.

(٩) كشاجم: ديوانه ١٤٨

(١٠) الببغاء: شعره ١٠٢، الصوري: ديوانه ١:٢٣٧.

الطيور(*)، والممدوح كالبحر(*)؛ لكثرة عطائه، وجَعْلِ عطائه كالرُّباب(*)، وتشبيه الجيش بالعُقاب(*) ، ووصف الفرسان بالأسُود(*).

وقد تعددت مظاهر اهتمام الشعراء الذين تمثّلت النزعة الاجتماعية في أشعارهم بالصورة، ومن هذه المظاهر اعتناؤهم بتعدّد الصور في البيت الواحد أو المقطوعة الواحدة، كما في قول الشاعر الطائي الدّمشقي يصف غلاماً، فجعل قوامه مُهَفْهفاً فتّاناً وطرفه وسْنان، وهو إذا ما ابتسم كشف عن أُقحوان(١):

إني ليرتـاحُ قلـبي   إلى اصطحابِ المثاني
بحيثُ تنفي همومـي   معتّـقاتُ الدِّنـانِ
مـع شـادنٍ ذي دلالٍ   مهـفـهفٍ فتّـانِ
يرنو إلـيّ بطـرْفٍ   ونـاظـرٍ وسْنانِ
أعار حُسْـنَ التّثنّي   تثـنّـيَ الأغـصانِ
إذا تبـسّم تيهـاً   يفـترُّ عـن أقـحوانِ

وشغفَ كشاجم الرّمليّ بإيراد الصور في أشعاره اللاهية، فها هو ذا يرثي، على سبيل المجون، قدحاً قد كُسِرَ، مورداً تشبيهات عدّة له، قائلا(٢):

وعاءُ المُدامِ، وتاجُ البـنانِ   ومُدْني السُّرورِ ومُقصي التَّرَحْ(٣)
ومَعْرَضُ راحٍ متى تكسُهُ   ومستودعُ السرِّ مْنـها يُبَـحْ
وجسمُ هواءٍ وإن لم يكنْ   يُـرى للهـواءِ بكـفٍّ شَـبَـحْ

وبرع الصنوبري في إيراد الصور المتتالية، كما في قوله يتحدّث عن الشرب

(*) هذه الصور وردت كثيراً في الشعر لذا آثرنا ألاّ نشير إليها في الدواوين.
(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ١: ٤٠٠.
(٢) كشاجم: ديوانه ١٣١.
(٣) ألتّرح: الهمُّ.

يوم البرد، والنارُ موجودة(١):

نارُ راحٍ، ونـــارُ خدٍّ ونـــارٌ   بحشا الصَّبِّ بينهنَّ استعارُ

وتكرّر هذا اللون عنده حينــما مدح الشـرب في الصّحو وذمّه في المطر، حيث شبّه الخمر في لمعانها والقيان في صورتها بالشمس، وأخرج من ذلك صورة جميلة يقول(٢):

ويــومٌ تُكـلِّلهُ الشــمسُ من   صـــفاءِ الهَوَى وصفاءِ الهواءِ

بشمسِ الدِّنانِ وشمسِ القـيانِ   وشمسِ الجنانِ وشمسِ السَّماءِ

وحشد كشاجم في وصفه شمعةً طائفة من التشبيهات، فقال(٣):

تبكي إذا ما المقصُ خمّشَها   فـرطَ حياءٍ مـــن الأخـلاّءِ

كأنّهـا عاشـــقٌ مُخـايلُهُ   فيهِ بـوادٍ لمقـلةِ الرّائــي

صُفرةُ لونٍ، وذوبُ مغتَـبةٍ   ودمــعُ حزنٍ، ونارُ أحـشاءِ

وتعدّدت موضوعات الصورة عند الشعراء في هذا القرن، وكانت معظمها مستمدة من الحياة اللاهية كالخمر ، وأدوات الصيد، وغير ذلك.

فقد رسم كشاجم للخمر صورة إمرأة تغارُ على نفسها وقد سفرتْ، ثمّ زرّتْ عليها جيوبَها، فيقول(٤):

غارتْ على نفسِها وقد سَفَرتْ   فعاد جيبُ الحَبابِ مزرورا

---

(١) الصّنوبري: ديوانه ٦٤.

(٢) الصّنوبري: تتمّة ديوانه ٦٣.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٣٥١.

(٤) كشاجم: ديوانه ١٩٦.

وجعلها الببغاء تارة أخرى كالعروس لها مهر، ولا يحقّ لشاربها أن يفترعَها إلا بعد توفيةِ المهر، فيقول(١):

وفي الهيكلِ المعمورِ منه افترعتُها | وصحْبي حلالاً بعد توفيةِ المهرِ

وجعلها الصّوري كالفتاة العانس، فيقول فيها(٢):

ولقد أطرقُ الحوانيتَ والمهـ | ـمومُ مثلي لمثلِها طرّاقُ

مستجيراً بعانسٍ ذاتِ بيتٍ | طالما جُهِّزتْ إليه الزِّقاقُ

ويشخص كشاجم الخمرة ويجلعها عذراء متمنّعة على الزوج، لأن الخمرة تنفُر من الماء عند مزجها، إذ يقول(٣):

فامنحْ أخاكَ الغيثَ وجهَ طلاقةٍ | والقَ الربيعَ بأنّةٍ وتهلّلِ

واعرفْ لهُ حقّ القدومِ بقهوةٍ | عذراءَ تُمزجُ بالزّلالِ السّلسلِ

وتحدث الشعراء عن أدوات الطرب ومنها العود الذي جعله كشاجم كالإنسان، يرقد حيناً ويطول سباتُه، ويستيقظُ حيناً آخر، وذلك حينما تَنْبضهُ العازفة، إذ يقول(٤):

إذا انبضتْهُ أيقظتْ منه راقداً | وإنْ هي لم تنْبضْهُ طالَ سُبَاتُهُ

وجعل له عينين ونحراً وفيه طوق، قائلا(٥):

في صدرِهِ من ثقبِهِ عينانِ | وبنحْرِهِ طوقُ من الدّستانِ

ويشخصه تارة أخرى فيجعله يبكي طرباً، وذلك وهو يصف إحدى البارعات

---

(١) الببغاء: شعره ١٠١.

(٢) الصوري: ديوانه ٣١٨:١.

(٣) كشاجم: ديوانه ٤٠٨.

(٤) كشاجم: ديوانه ٧٣.

(٥) كشاجم : ديوانه ٤٦٦.

في الغناء ، قائلا(١):

بكى طَرَباً فاستضحكَ اللهو نحوه   وفُضَّتْ عُرى الألبابِ واستلبَ الصَّبرُ

وكان لآلات الصيد نصيبٌ من الصورة الفنية ، إذ رسم الببغاء للسبطانة صورةَ المرأة ممشوقةَ القدّ، مهفهفة القَوام، فيقول(٢):

مُقوّمةِ القدِّ ممشوقةٍ   مُهْفهفةِ الجسمِ ممسوحِهِ

وهي كالمرْء الذي يُعطى الأسرار فيذيعها، وهذا معنىً جديد، يشير الببغاء إلى دقة تصويبها، إذ يقول(٣):

إذا المرءُ أودَعَها سِرَّهُ   لتخفيهِ باحتْ بتصريحِهِ

وتحدث الشعراء عن السقاة الذين يقدُّمون الخمرَ ، واسترسلوا في وصفهم، فالصنوبري يصف أسنانه ويجعلها كالأقحوان، إذ يقول(٤):

وأقحوانٍ بفيكَ منتظمٌ   على شبيهِ الغديرِ من خمرِ

وإلى جانب الساقي كانت هناك الساقية ، والتي تقدم الخمر أيضاً، وجعل الطائي الدمشقي خدَّيْها موردَتيْن، وجسمَها مهفهفَ القوام كقضيب الخيزران، ووجهَهَا كالشمس حيناً، وكالقمرِ حيناً آخر، فيقول(٥):

ويومُك إذ تطوفُ بهِ فتاةٌ   على الخدَّيْنِ منها وردتانِ

مهفهفةُ القِوَامِ إذا تثنّتْ   تثنّتْ كالقضيبِ الخيزرانِ

ولم أرَ قبلَها شمساً تبدّتْ   ولا قمراً بأعلى غصنِ بانِ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٢٢٤.

(٢) الببغاء: شعره ٦٩.

(٣) الببغاء: شعره ٦٩.

(٤) الصنوبري: ديوانه ٦٤.

(٥) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٣٩٣.

وقد استوحى الشعراء صورهم من مصادر عدّة، وكان للبيئة الطبيعية في بلاد الشام أثر واضح في تشكيل صورهم، إذ جاءتْ كثيرٌ من تشبيهات الشعراء مستمدة من الطبيعة، لا سيّما الصنوبري الذي استوحى الطبيعة في كثير من صوره، كما في قولهِ يصفُ غلاماً يقدّم الخمرة ويُشبّه قامتَه بقضيب البان، وخدودَه بالورد، وقُمْصَه بالورد أيضاً، إذ يقول(١):

لا أشْربُ الراحَ إلاّ مِنْ يَدَيْ رَشَأٍ   مُهَفْهَفٍ كقضيبِ البانِ ميّاسِ

مُوَرَّدِ الخدِّ في قُمْــصٍ مُــوَرَّدةٍ   له من الوردِ إكليلٌ على الرّاسِ

كما يصوِّر الصنوبري أثر الخمر على شاربها مستحضراً صورة النّدى، وهو على زهرة الآس، فيقول(٢):

نميلُ من ثِقْلِ الكرى مثلما   يميلُ من ثِــقْلِ النّدى الآسُ

ويشبّه الببغاء خدود غلامه وثغره بزهر الرِّياض، فيقول(٣):

جنينا جنيَّ الوردِ في غيرِ وقتِهِ   وزهْرِ الرُّبا من روضِ خدّيْهِ والثّغرِ

واستمدَّ الصنوبري ألفاظ الزراعة عندما هنّأ صاحبَهُ بابن غلامه، فقال(٤):

غرسْتَ أباه قبلَهُ وغرسْتَهُ   وغرْسُ المعالي مثمرُ العودِ مُورِقُ

ويستمد الصّوري من البيئة الطبيعية ألفاظ الأغصان، واخضرار العود والغرس، قائلا(٥):

عندي حدائقُ شكْرٍ غرْسُ جُودِكمُ   قد مسَّها عطشٌ فليسْقِ مَنْ غرسَا

---

(١) الصنوبري: ديوانه ١٨١.

(٢) الصنوبري: ديوانه ١٨٢.

(٣) الببغاء: شعره ١٠٢.

(٤) الصّنوبري: ديوانه ٤٠٩.

(٥) الصّوري: ديوانه ١:٢٥٣.

تداركوها وفي أغصانها رَمَقٌ   فلن يعودَ اخضرارُ العودِ إنْ يَبَسا

ويسترسلُ الصّنوبري في رسم صورة الفقر، ويتحدث عن الجَرَب ويشبهه بحبّة العنب، إذ يقول(١):

أمَا تَرَاهُ على الكفّينِ منتظماً   كأنّهُ لؤلؤٌ ما إنْ لهُ ثُقُبُ

كحبّةِ العنبِ الصُّغرى تبينُ ولا   تزالُ تعظُمُ ولا يعظمُ العنبُ

وقد ظهر أثر البيئة الاجتماعية جلياً في صور الشعراء، فاستمدّ الصنوبري من الحياة اللاهية صورةً لإبريق الخمرَ، وجعل الشُّرْب منه بفضّ الختام، إذ يقول(٢):

وكم مُكْمحٍ بالقارِ فُضَّ ختامُهُ   لتُجْلى على أيدي الوصائفِ عاتقُهْ

وتبدو صورة العناق عند كشاجم حين يصفُ هيئة المغنّية وهي تحمل العود، قائلا(٣):

تعانقُهُ بين النّدامى غريرةٌ   كِعابٌ إليها موتُه وحياتُهُ

ويستحضر كشاجم في رسمه لأوتار المعزفة أشراك الصيد، ولكنَّ هذه الأشراك لصيد القلوب، فيقول(٤):

كأنّما تسعةُ أوتارِها   نُصبْنَ أشراكاً لصيدِ القلوبِ

ويشبّه الأمير العقيلي في مزدوجته الطردية، الفهدَ الذي ينقضُّ على فريسته بالعاشق يضُمُّ محبوبته، فيقول(٥):

كأنّهُ بلثمِ ما يصيدُ   وضمِّهِ فإنّهُ شديدُ

---

(١) الصّنوبري: ديوانه٤٥٣.

(٢) الصنوبري: ديوانه ٤٠٧ ، مكمح: ملجم، مكبوح

(٣) كشاجم: ديوانه ٧٣.

(٤) كشاجم: ديوانه ٧٠.

(٥) ابن العديم: بغية الطلب٣: ١٠٩٩-١١٠٠.

كعاشقٍ فازَ بمَنْ يُحبْ وهْوَ بهِ من قبلُ ذاكَ صبْ

ويرسم كشاجم صورة جوذابة طعام، ويجعلها كالعاشق في اصفرارها، إذ يقول(١):

جوذابةٌ من أرزٍ فائقٍ مصفرّةٌ في اللونِ كالعاشقِ
عقيقةٌ صفرتُها فاقعٌ في جــيد خَوْدٍ بضّةٍ عاتقِ

ويصوِّر الببغاء القتلى الذين صرعهم الأمير بشاربي الخمر، وشتان بين ما تحدثه الأسنّة وما تحدثُه كؤوسُ الخمرِ، يقول(٢):

فتركْتَهمْ صَرْعى كأنّك بالظُّبا عاطيتَهمْ في الرّوعِ كأسَ مُدامِ
متهاجرينَ على الدنوِّ كأنّما أنِفَتْ رؤوســهمُ من الأجسامِ

ويصوِّر الواساني أحد المدعووينَ على مائدته مستمداً صورته من الحياة اللاهية ، فيشبّه كفّه بالصّولجان، فيقول(٣):

بفمٍ أشوهٍ وشدْقٍ رحيبٍ وبكفٍّ يجولُ كالصّولجانِ

وقد صبغ بعض الشعراء صورَهم بالحياة الحربية، فهذا الصّنوبري حين يصف كؤوسَ الخمر التي تُدار بسرعةٍ، يستحضرُ لها صورةَ جريِ الأفراس، فيقول(٤):

جَرَتْ كؤوسٌ بيننا سُرْعاً كــأنّها في الجري أفراسُ

ويرسم أبو فراس الحمداني صورة غريبة لرأس القرمطي وقد رُفع على سِنان الرمح، فيقول(٥):

---

(١) كشاجم: ديوانه ٣٦٦.

(٢) الببغاء: شعره ١٥٦.

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٤١٧.

(٤) الصنوبري: ديوانه ١٨٢.

(٥) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٩١.

وأبَ ورأسُ القرمطيّ أمامهُ   لهُ جسدٌ من أكعبِ الرّمحِ ضامرُ

ويعلّق الثعالبي عليه فيقول: « وهذا من أحسنِ ما قيلَ في الرأسِ المصلوب على الرمح »(١).

كما يستمد أبو فراس من الحرب صورة الجيش، وهو يصف نساء القبائل العربية الثائرة، فيقول(٢):

فلما بَدَتْ لك دونَ البيوتِ   بَدَا لكَ منهنَّ جيشٌ لَجِبْ

وبالإضافة إلى الحياة الحربية وأثرها في صور الشعراء، فإن الحياة الثقافية كان لها دور في رسم بعض الصور، فقد استفادَ الصّنوبري من علم الكلام، كالجدل، والاحتجاج، وذلك في ذم علماء اللغة الذين اختصُّوا بعلم الغريب، إذ يقول في هجاء الدُّقيشي(٣):

ذو احتجاجٍ لم تتَّفقْ لي معانيـ   ـهِ وكيف اتّفاقُ خزٍّ وخيشِ

ومريدُ الجدالِ في غيرِ علمٍ   كمريدِ القتالِ من غيرِ جيشِ

واستغلّ كشاجم الألفاظ التي تتعلق بالكتابة في شعره الإخواني، فقد صوّر الصّنوبري وصلته به بأنهما جسمانِ والروحُ واحدة، وهما بذلك كالنقطتين حواهما خطٌّ ، فيقول(٤):

جسمانِ والرّوحانِ واحدةٌ   كالنقطتينِ حواهما خطُّ

ويصوِّر القطايف كأضابير الكتب، فيقول(٥):

عندي لأضيافي إذا اشتدَّ السَّغبْ   قطايفٌ مثلُ أضابيرِ الكُتبْ

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ١ : ٤٧

(٢) أبو فراس : ديوانه ٢٩.

(٣) الصنوبري: ديوانه ٢١٥.

(٤) كشاجم: ديوانه ٣١٥.

(٥) كشاجم: ديوانه ٦١.

ويستفيد المتنبي من اللغة في رسم بعض صوره، إذ يصور تلازم قبيلتيْ قُشير وبني العجلان كراءيْن في ألفاظ ألثغ، فيقول(١):

قشيرٌ وبلعجلانِ فيها خفيّةٌ ، كراءيْنِ في ألفاظِ ألثغَ ناطقِ

وتمثلت في أشعارهم الصور الحسّية بأنواعها المختلفة، كما استخدموا التشخيص والتجسيد والتجسيم، والوصف المباشر بالكلمات، فقد شبّه كشاجم كؤوسَ الخمر والطيور المرسومة عليها بالقيان، وصفيرها بالغناء، إذ يقول(٢):

وأكؤسٌ من رحيقِ الرّاحِ مُتْرعةٌ * موضوعةٌ بين فتيانٍ مناجيبِ

كأنّما الطيرُ في حافاتِها حُزُقاً بيضٌ زهينَ بتطويقٍ وتحبيبِ

كأنهنّ قيانٌ، والصّفيرُ غِنا وكالمناقيرِ أنصافُ المضاريبِ

ويستحضر كشاجم في رسمه لملعب الخيل وانفساحه، فيشبهه بكفٍّ فتىً كريمٍ معطاء، ذلك كناية عن خلوّهِ من العوائق، فيقول(٣):

كأنّهُ كفُّ فتىً جحجاحِ مبسوطةٌ للجودِ والسّماحِ

وكان المتنبي ذا مقدرة قوية في تشبيهاته واستعاراته، فهو يشبّه الأسد في عزلته وتفرّده بتفرُّدِ الرُّهبان ووَحْدَتهم، فيقول(٤):

في وَحْدَةِ الرُّهبانِ إلاّ أنّهُ لا يعرفُ التّحريمَ والتّحليلا

وهو كالطبيب الذي يجسُّ عليلَه؛ لكبريائه وتيهِهِ وعزّةِ نفسه، يقول فيه(٥):

يطأُ الثّرى مُترفّقاً من تيهِهِ فكأنّهُ آسٍ يجُسُّ عليلا

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٢:٣٢٤.

(٢) كشاجم: ديوانه ٥٦.

(٣) كشاجم: ديوانه ١٢٣..

(٤) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:٢٣٩.

(٥) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:٢٣٩.

واستلهم كشاجم صورة عطاء الممدوح وشبّه أنامله وجعلها كالمطر، إذ يقول(١):

يا مَنْ أناملهُ كالعارضِ السَّاري وفعـلُهُ أبداً عارٍ من العارِ

وكثيراً ما ركز الشعراء على المطية في رسم صورهم، وقد جعلوا الدنيا مطيّةَ راكب، وفي الوقت نفسه تختلف عن المطية؛ بأنَّ ظهرَها أعوج أحدب، لذا يجب الحذر والحيطة منها، وذلك كما يقول أبو فراس الحمداني(٢):

ألا إنَّما الدّنيا مطيَّةُ راكبٍ عَلاَ راكبُوها ظهرَ أعْوَجَ أحْدبَا

كما كثرت الصور التي اعتمدت على سلطان الحواس المختلفة، كالبصرية واللونية والحركية، والذوقية، والشميّة والسمعية، فقد وصف كشاجم المرأة في لباسها الشفاف، كأنَّ جسدَها نورٌ في قميصٍ من الهواء، معتمداً على الألوان، فيقول(٣):

أقبلتْ في غِلالةٍ زرقاءِ زُرقةٌ لُقِّبتْ بجريِ الماءِ

فتأمّلتُ في الغِلالةِ منها جَسَدَ النورِ في قميصِ الهواءِ

واستخدم الصّنوبري المقابلة بين الألوان في رسم صورة الحجاج الذين فتك بهم القرامطة قائلا(٤):

غدتْ أزْرُ الإحرامِ بيضاً إليهمُ فراحوا إلى الأجداثِ في أزْرٍ حمْرِ

وظهرت ألوان الطبيعة في تصوير لباس غلام نصراني عند الصّنوبري، إذ يقول(٥):

والعسليُّ الذي ارتديتَ به كما تردّى القضيبُ بالزّهرِ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٢٣٠.

(٢) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٣٩.

(٣) كشاجم: ديوانه ٢٧.

(٤) الصنوبري: ديوانه ٩٧.

(٥) الصنوبري: ديوانه ٦٣.

ومن الصّور المرئية التي اختلطتْ بالسمعية، ما تحدث به الصّنوبري في وصف أماكن اللهو، وهو يشير إلى ضحك الهزارات، وألوان الأزهار، فيقول(١):

شربْنا في بعاذينِ على تلك الميادينِ
على ضحك الهزاراتِ على نوْحِ الشّفانينِ
على ضربِ الرّواشينِ وترجيعِ الورَاشينِ(٢)
لدى أنوارِ زهرٍ لوْ ونتْ ألطفَ تلوينِ

وصوّر كشاجم المغنية التي تضرب بالعود، فوصفها بالبرق لسرعة ضربها، وبالرعد؛ لقوة ضربها، فيقول(٣):

كأنّ يسارَها في العودِ برقٌ ويُمناها إذا ضربتْه رعْدُ

ووصف ابن كيغلغ القُبلة، وكنّى عنها بقرع الثغر بالثغر، وهي صورة تمازج فيها السمع والبصر، فيقول(٤):

وأحسنُ من رجعِ المثاني وصوتِها تراجعُ صوتِ الثغرِ يُقرعُ بالثغرِ

وتحدّث كشاجم عن الرّاقصة على الكرة والحبل فوصفها بالبرق والسّراب، إذ يقول فيها(٥):

وراقصةٍ على كرةٍ وحبلٍ كخطفِ البرقِ أو لمعِ السّرابِ

وظهرت الصور الحركية عند أبي فراس وهو يتحدث عن مشية المرأة وهي

(١) الصنوبري: ديوانه ٤٨٩.

(٢) الوراشين: نوع من الطيور، الصحاح ٢:٢٦.١، والرّواشين: الشيء الفاخر، الصحاح ٣:٨..١.

(٣) كشاجم: ديوانه ١٤٠.

(٤) الباخرزي: دمية القصر وعُصْرةُ أهل العصر ١:١٦٧.

(٥) كشاجم: ديوانه ٥١.

تهتز من السرعة لا من الطرب، فيقول(١):

تسارعُ في الخطوِ لا خفّةً وتهتزُّ في المشيِ لا من طربْ

وكان كشاجم كلِفاً بالصور السمعية ، فقد وصف المرأة التي تضرب بالطبل فينتج عنه صوتٌ كصوتِ الرّعد، فيقول(٢):

ومحسنةٍ موقّعةٍ بطبلٍ كصوتِ الرّعدِ من خَلَلِ السّحابِ

وظهرت صورة الرائحة والطّيب عند الصّنوبري وهو يصف غلاماً نصرانياً بقوله(٣):

والخالِ في الخدِّ إذ أشبّهُهُ زهرةَ مِسْكٍ على ثرى تِبْرِ

وقد صاغ الشعراء في هذا القرن صورهم في لوحات فنية جميلة، فاعتمدوا على التشخيص والتجسيد، فأعطوا الأشياء صفات الكائن الحيّ، واعتمدوا على التجسيم فأعطوا المعاني المجرّدة صفات الأشياء المحسوسة، فغدت أشعارهم لوحات فنية تفيضُ بالإحساس الشعري من جهة، وبالصور المختلفة من جهة أخرى، فنرى كشاجم يشخّص الخمر ويجعلها كائناً حيّاً، تشاركه صفاته، وهي تطرد الهموم، فيقول(٤):

قد تيقّنْتُ أنها تطردُ الهمْـ ـمَ وتلفي إلى السرورِ طريقا

وجعل الصّوري الخمر إنساناً يستجيرُ بمن يُنجدُها، فيقول(٥):

حتى استجارتْ بشوالٍ فأنجدَها وكان يعثرُ شوّالٌ من العَجَلِ

---

(١) أبو فراس : ديوانه ٢٩.

(٢) كشاجم: ديوانه ٥٠.

(٣) الصنوبري: ديوانه ٦٤.

(٤) كشاجم: ديوانه ٣٥٥.

(٥) الصّوري: ديوانه ١: ٣٨٠.

وأعطى الشعراء شهر الصوم صفات الإنسان ، فجعلوا له وجهاً يصدُّ عنْ الغواني والخمر، كما يقول الصوري(١):

على أنَّ وجهَ الصومِ قد صدَّ عنكما فقالتْ تعالوا وانظروا الزاهدَ الراغبْ

وشخّصوه إنساناً يطرد الخمر، وبالمقابل فالخمر أصبحت كائناً حياً تبحث عن ملّةٍ من الملل تنضوي تحتها، كما يقول الصّوري في ذلك(٢):

وقهوةٍ قام شهرُ الصوم يطردُها عن ملّةٍ فانضوتْ منها إلى مِلَلِ

ويرسم كشاجم للثلج صورةً يتبدّى فيها في هيئةِ إنسان فجعل له أناملَ تخيط الأثواب، وتزرُّها بأزرار، وذلك حين استهدى نبيذاً وقت سقوط الثلج، إذ يقول(٣):

أما ترى الثلجَ قد خاطتْ أناملُهُ ثوباً يُزَرُّ على الدنيا بأزرارِ

أمّا أبو فراس فيشبّه الشمس وقت الغروب، بالإنسان الذي يتباهى مفتخراً حينما يلبسُ جديداً، وذلك في وصف رحلة صيد له ، فيقول(٤):

جِئناهُ والشمسُ قبيلَ المغربِ تختالُ في ثوبِ الأصيلِ المذهّبِ

وأظهر الشعراء في هذا القرن مقدرتَهم في تجسيم المعاني المجردة ، وإعطائها الصفات المحسوسة، فالصنوبري يجعل للهو رداءً، إذيقول(٥):

ألقتْ رداءَ اللهوِ عن عاتقي خمسٌ وخمسونَ مضتْ واثنتانْ

وجسّم الصّوري الهمومَ، وجعل لها دماءً تُراق، كما يقول(٦):

---

(١) الصّوري: ديوانه ١:٥٩.

(٢) الصّوري: ديوانه ١:٣٨٠.

(٣) كشاجم: ديوانه ٢٢٠.

(٤) أبو فراس : ديوانه ١٨٦.

(٥) الصنوبري: ديوانه ٥٠٣.

(٦) الصوري: ديوانه ١:٣١٨.

فاستثاروا من الهموم بكاسا ت، دماءُ الهمومِ فيها تُراقُ

وكما جعل الصّنوبري للهو رداء، فقد جعل له رحْلاً، يقول في وصفه للمجلس الذي يشرب فيه(١):

لدى مجلسٍ ألقى به اللهوُ رحلَهُ تُنازعني فيه الشّمولَ غرانِقُهْ

وجعل كشاجم اللهو مطيةً تُركب، وذلك في وصفه إحدى المنازل التي يلهون بها، فيقول(٢):

ركبتُ بهِ مطايا اللهو حتى حططْتُ بهِ مطلّحةً ركابي

وجسّم الصّنوبري الهُدى الذي جعله قد أضحى في قُبور آل البيت، وذلك كناية عن موت هؤلاء الطّاهرين، إذ يقول(٣):

أضحى الهدى في قبورٍ ضُمِّنْتَها مقبورا

وأكثر الشعراء في تشيعهم من الحديث عن وصيّة الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- وجعلوها شيئاً محسوساً منبوذاً في العراء، كناية عن عدم الأخذ بها، كما يقول كشاجم(٤):

وأوصى النبيُّ ولكنْ غدتْ وصاياهُ منبوذةً بالعراءِ

ويمثّل الصنوبري المعروف في صورة إنسانٍ حيٍّ ثم مات، وذلك إذ يقول(٥):

رأيتُ العُرْفَ شيئاً كان حيّاً فأصبحَ قد نعاهُ اليومَ ناعي

وجسّم كشاجم الخمرة وجعلها كالنار تُلهبُ الجسمَ وتحرقه، إذ يقول(٦):

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٤٠٧، والغرانق: الفتيان

(٢) كشاجم: ديوانه ٥١.

(٣) الصنوبري: ديوانه ٩٤.

(٤) كشاجم: ديوانه ٢٩.

(٥) الصنوبري: ديوانه ٣٢٤.

(٦) كشاجم: ديوانه ٣٥٥.

غير أنّي وجدتُ للكأسِ ناراً تُلهبُ الجسمَ والمزاجَ الرّقيقا

فإذا ما جمعْتُها وندامى حرّقتْني بنارِها تحريقا

واستوحى كشاجم من صورة الإمام علي وهو يمدح آل البيت صفة الهلال الذي يقود إلى الرشد، والسيف الذي يقضي على الكفر، فيقول(١):

هلالٌ إلى الرُّشْدِ عالي الضيا وسيفٌ على الكفرِ ماضي المضاءِ

ويُصور الصّنوبري في تشيعه جزع نساء آل البيت على قتلاهن، فقد جسّم دموعهن وجعلها تُنْحَر، وذلك لكثرة البكاء ، فيقول(٢):

والفاطميّاتُ ينحرْ نَ بالدّموعِ النُّحورا

ولم يقتصر الشعراء في رسم صورهم على الصور الجزئية فقط، بل ظهرت اللوحات الكبرى في تشخيصهم لبعض أدواتهم، كما شخص كشاجم البنكام وجعل له جسماً وروحاً، وأجفاناً ومقلةً وطرفاً يبكي ويترجم، فيقول فيه(٣):

روحٌ من الماءِ في جسمٍ من الصّفرِ مؤلّفٍ بلطيفِ الحُسْنِ والنّظرِ

مستعبرٌ لم يغبْ عن طرفهِ سَكَنٌ ولم يَبتْ من ذوي ضغنٍ على حَذَرِ

لهُ على الظهرِ أجفانٌ محجّرةٌ ومقلةٌ دمعُها جارٍ على قَدَرِ

تنشا لهُ حركاتٌ في أسافلِهِ كأنّها حركاتُ الماءِ في الشّجَرِ

وفي أعاليهِ حُسْبانٌ مفُصّلةٌ للنّاظرينَ بلا ذهنٍ ولا فِكرِ

إذا بكى دارَ في أحشائهِ فَلَكٌ خافي المسيرِ وإنْ لم يبكِ لم يُدرِ

مترجمٌ عن مواقيتٍ يخبّرُنا عنها فيوجدُ فيها صادقَ الخبَرِ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٢٩.

(٢) الصنوبري: ديوانه ٩٥.

(٣) كشاجم: ديوانه ٢٤٣.

وقد لجأ الشعراء أحياناً إلى الرسم المباشر بالألفاظ وما توحي به من صور، فقد وصف كشاجم الرملي الفتيان الذين يلعبون على ظهور الخيل، مشيراً إلى إغراقهم في اللعب وقد دبّ النشاط في أجسامهم، إذ يقول(١):

خِلْتُهُمُ من شِدَّةِ المِراحِ   ونَزَواتِ الأكْرِ المِلاحِ
سَكْرى تنشَّوا من حُميّا الرّاحِ   فواصلوا التجميشَ بالتُّفاحِ

ويستعير المتنبي الألفاظ التي تتعلق بالحروب وأدواتها في رسم صورته، إذ يرثي غلامَ سيف الدولة، فيقول(٢):

لئن ظهرتْ فينا عليهِ كآبةٌ   لقد ظهرتْ في حدِّ كلِّ قضيبِ

واستوحى من صورة الخيول ومقاودها صفةً أطلقها على القبائل التي لم تخضعْ للأمير، وجعلها كالخيول صعبة الانقياد، لذا فقرّح المقودُ ذِفرييْها، وهذا كناية عن عدم خضوعها، وذلك إذ يقول(٣):

فقرَّحتِ المقاودُ ذِفرييْها   وصعَّر خدَّها هذا العذارُ

ولجأ الشعراء في رسم صورهم أحياناً إلى التزيين من خلال الاعتماد على الألوان، كما يتضح من وصف الطرسوسي للسبايا، إذ يقول(٤):

تبكي بعينٍ ذاتِ غُنْجٍ وحَوَرْ   وتلطمُ الوجهَ المنيرَ كالقمرْ
أبيضَ يعلوهُ كلونِ الخمرِ   نعمْ وفي الصدْرِ الوضيءِ تفريْ

وغلبت الشكليّة على بعض الصّور، وذلك حين يكتفي الشاعر بوصف الأشكال الخارجية دون التعمق بها، حيث يصور الشاعر شيئاً ما بعدّة صور في مقطوعة

---

(١) كشاجم: ديوانه ١٢٤.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ١:٥١.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٢:١٠٠.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب ١:١٩١.

واحدة تكاد تكون هذه الصور مختلفة، كما يتضح من وصف كشاجم للبركار، إذ يقول(١):

جُدْلي ببركارك الذي صنعتْ | فيه يدا قينه الأعاجيبَا
مُلتئمُ الشفرتين مُعْتدلٌ | ما شينَ من جانبٍ ولا عِيبَا
شخصانِ في شكلٍ واحدٍ فدارا | وركّبا بالعقولِ تركيبَا
أشبهُ شيئين في اشتباكهما | بصاحبٍ ما يَمَلُّ مصحوبَا
أوثِقَ مسمارُهُ وغُيّبَ عن | نواظرِ الناقدينَ تغييبَا
فعينُ مَنْ يجتليهِ تحسبُهُ | في قالبِ الإعتدالِ مصبوبَا
وَضمُّ شطريْه مُحكماً لهما | ضمُّ مُحبٌّ إليهِ محبوبَا
يزدادُ حرصاً عليهِ مُبصِرُهُ | ما زادَهُ بالبنانِ تقليبَا
فقولُهُ كلّما تأمّلَهُ | طوبى لمن كان ذا لهُ طوبى
ذو مُقلةٍ بصرتْهُ مُذهبةٍ | لم تألُهُ زينةً وتذهيبَا

ومع اهتمام شعراء هذا القرن بالصورة، إلاّ أنّ كثيراً من أشعارهم كانت إعادة صياغة للواقع، فقد خلا شعر الصيد والطرد مثلاً من الصور، وشعر الثورات الذي صبّ الشعراء اهتمامهم فيه على قضايا تجعل الشاعر يبتعد عن ابتكار الصور والتكلّف فيها، كما أن شعر النقد الاجتماعي في معظمه يكاد يتخفف الشعراء فيه من الصور، لأنه يعالج قضايا اجتماعية فرضت على الشاعر التزام الواقع، ولم يخرجْ شعراء هذا القرن في صورهم عن حدود تجاربهم أو حياتهم العامة ، وامتازتْ صورهم بالسّهولة والوضوح، وارتفعوا بها إلى الإيحاء الفني المعبّر وإن وقفوا قليلاً في بعض الصور عند الشكل الخارجي ، وتنوّعتْ هذه الصور بين صورجزئيةٍ ولوحاتٍ كبرى.

---

(١) كشاجم: ديوانه ٣٧.

ج- الأسلوب

مما أُخذ على شعراء هذا القرن التصنّع، حتى وصف شوقي ضيف القرن الرابع الهجري بقرن التصنّع ، وقال: «من الخطأ أن نطلبَ إلى شاعر في هذا القرن أن يخرج على ذوق معاصريه، وما كان يُعجبهم من الإغراب في التعبير والأفكار، وكأنّما لم يبقَ لهم إلاّ أنْ يتصنّعوا هذه الوجوه من التصنُّع ، لمبالغات شاذّة، أو عبارات مذهبية، أو ثقافية منحرفة، وهي حال يمكن أنّ تُعَدُّ تفسيراً لما أصاب الشعر في هذه العصور من جمود»(١).

ويقول: «إنّ الناقدَ لا يحسُّ إزاء شعراء القرن الرابع وما بعده من قرون، بالإعجاب الذي كان يحسّه إزاء أسلافهم من شعراء القرنين الثاني والثالث، فقد شمل الحياة الفنية غيرُ قليل من الركود والجمود»(٢).

وفي الوقت نفسه نجد من الباحثين من يجعل الشعر في هذا القرن قد وصل إلى قمّة ازدهاره وأعلى مراتب سلم رقيّه وتطوره، وابتدع فيه شعراؤه العديد من الموضوعات الجديدة، وابتكروا الكثير من المعاني وقدّموا لسامعهم المزيد من الصور الشعرية والتشكيلات الفنية البديعة في منظرها، والجميلة في ردائها(٣).

وفي موقف آخر يقول هذا الباحث: إنّ عمالقة الشعر وفطاحل النظم في هذا القرن يكادون يلتزمون في أشعارهم النهج التقليدي القديم ، كالمتنبي وأبي فراس الحمداني وابن نباتة السّعدي، والسَّرِيِّ الرّفاء، والنامي، وأبي الفرج الببغاء، والوأواء الدمشقي، وغيرهم(٤).

ولكنَّ الباحث هنا يقف موقفاً مختلفاً عن المواقف السابقة، فقد انقسم الشعر في هذا القرن من حيثُ أسلوبُه إلى ثلاثة أقسام رئيسة، فأولها: الأسلوب التقليدي

(١) انظر: شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٣٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ٣٠١.

(٣) نبيل خليل أبو حلتم: اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ٩٥.

(٤) المرجع نفسه ٩٧

ثم الأسلوب الشعبي الميسّر، والأسلوب الزخرفي الذي أُقيم على الصنعة البديعية، ولا أرى أن الأسلوب الزخرفي قد طغى على الأساليب الأخرى، بل إن الناظرَ في أشعار هذا القرن يجد أن الأسلوب الشعبي الميسّر قد ساد وغلب على غيره ، واتجه نحو العامة بكل خصائصه، وهذا ما سنبيّنه في حينه، أما الأسلوب الزخرفي من حيث الكثرة والالتزام به فيأتي في المرحلة الثانية، ثم يليه الأسلوب التقليدي وهو غير قليل.

ولكن من الصعب أنْ نقسّم شعراء هذا القرن بحسب هذه الأساليب، فنجد مثلاً أن كثيراً من هؤلاء الشعراء قد زاوج بين أسلوبين، أو بين هذه الأساليب الثلاثة، اللهمّ إلا ما كان من كشاجم الرملي الذي وإن مثّل الأسلوب الشعبي، إلاّ أنّه أغرق كثيراً في الصنعة.

ولكن ما المعايير الأسلوبية لدى النقاد في القرن الرابع الهجري؟

نرى أنَّ ابنَ وكيع يصف الشعر الجيد -وفي اعتقاده- فيقول: «إنّه شعر ليس بالصّعب المتكلّف، ولا الليّن المستضعف، بل هو بين الرّقّة والجزالة، وفوق التقصير، ودون الإطالة، كثير الفصول، قليل الفضول»(١).

فهو كما يقول أحد الدّارسين، يطلب لجودة الشعر صفتين، الأولى: تتصل باللفظ والهيكل الخارجي للقصيدة، والثانية: تتصل بالمعنى، فمن حيث اللفظ نجد أنّه من أصحاب الذوق الرفيع السمح، الذي يطالب بعذوبة اللفظ ورقته، دون أن يخلّ ذلك بقوة اللفظ وإيحائيته، فهو لا يحب أن يكون اللفظ جافياً مستعصياً ، كما لا يحبه أن يكون ليّناً مسرفاً في اللين(٢).

وأما من حيث المعنى، فهو يحب ما تنوّعت ألوانُه، بحيث لا تفقد الوضوح، ولا تزيد عن الحاجة فيكون النص في غنى عنها، فهو بعيدٌ عن أصحاب التعمق

---

(١) ابن وكيع: المنصف ١:٢

(٢) العربي حسن درويش: النقد العربي القديم ٢٤٥.

والمنطق والفلسفة(١).

ومن ذلك نرى أن النقاد القدماء اشترطوا في جودة الشعر الالتزام بالأسلوب التقليدي كاستهلال القصيدة بالوقوف على الأطلال، أو النسيب ووصف الحبيبة الراحلة والتغنّي بالجمال البدوي، واشترطوا الألفاظ القوية الجزلة والتعابير المتينة، ولكنْ هذا لمْ يتّفق في معظمه مع شعراء هذا القرن، الذين دعوا إلى هجر المقدمة الطللية، لعدم مناسبتها لهم ولموضوعاتهم الشعرية في مثل هذا القرن، فكشاجم الرملي يدعو إلى ذلك لا سيّما في شعر التشيّع، والاستعاضة بها البكاء على آل النبي -عليه الصلاة والسلام- إذ يقول(٢):

لهُ شُغُلٌ عن سؤالِ الطَّللْ ... أقامَ الخليطُ به أم رَحَلْ
فما تطَّبيهِ لحاظُ الظّباءِ ... تُطالعهُ من سجوفِ الكِللْ(٣)
كَفاهُ كفاهُ فلا تعذلاه ... كرُّ الجديدينِ كرُّ العَذَلْ
طوى الغيّ منتشراً في ذُراهُ ... فأطفا الصّبابةَ لمّا اشتعلْ
لهُ في البكاءِ على الطاهرينَ ... مندوحةٌ عن بُكاءِ الطَّللْ

ويدعو إلى أن يُستبدل بالمقدمة الطللية مقدّمة خمْرية، إذ يقول(٤):

لا تُطْنبَنْ في بكاءِ النؤيِ والطُّنُبِ ... ولا تُحيِّ كثيبَ الحيِّ من كثبِ(٥)
ولا تجُدْ بغمامِ (للغميم) ولا ... تسمحْ لسربِ المها بالواكفِ السَّرِب(٦)

---

(١) المرجع السابق نفسه ٢٤٦.

(٢) كشاجم: ديوانه ٤١٩.

(٣) السّجوف: السِّتر، من سجف، وأسجفت السّتر: أي أرسلته، الصحاح ٤:١٣٧١.

(٤) كشاجم: ديوانه ٥١.

(٥) النؤي: الحفرة حول الخيمة يمنع السيل، الطنب: حبل طويل يُشدُّ به سرادق البيت أو الوتد، الكثيب: التل، كثب: قرب.

(٦) الغميم: واد بين الحرمين، الواكف: المطر المنهل، والسَّرِب: السائل.

ربعٌ تعفّى فأعفى من جوىً وأسىً قلبي وكانَ إلى اللذّاتِ مُنقلبي
سيّانْ بانَ خليطٌ أو أقامَ بهِ فإنّما عامرُ البيْداءِ كالخربِ
أبهى وأجملُ من ذكْرِ الجِمالِ ومن إدمانِ ذكرِ هوىً يهوي على قتَبِ(١)
مدُّ البنانِ إلى كاسٍ على سكُرٍ ورفعُ صوتٍ بتطريبٍ على طربِ

ولم يكن الصنوبري أخفض صوتاً في دعوته من كشاجم، فقد دعا إلى هجر المقدمة الطللية، فيقول(٢):

لا تبكِ ربْعاً عفا ولا طَلَلاً ولا تَصِفْ ناقةً ولا جَمَلا
وعاطِني قهوةً إذا مُزِجَتْ أرتْكَ منها في كاسِها شُعَلا

فهو يرفضها رفضاً باتاً، ويدعو إلى عدم البكاء على هذه الأطلال البالية، بل والأفضل منها اصطباح الخمر، والتي تنفي الهموم وتزيل الأحزان، يقول(٣):

لا تبكيَنْ على الأطلالِ والدِّمنِ ولا على منزلٍ أقوى من الزّمنِ
وقمْ بنا نصْطبحْ صَهْباءَ صافيةً تنفي الهمومَ ولا تُبقي من الحزَنِ

---

(١) القَتَب: الرَّحل.
(٢) الصّنوبري: ديوانه ٤٨٥.
(٣) الصنوبري: ديوانه ٤٩٦.

أولاً: الأسلوب التقليدي:

لقد جارى شعراء هذا القرن مَنْ سبقهم من الشعراء القدماء، وظهر هذا الأسلوب ممثّلا بقصائد المدح والفخر وتصوير ثورات القبائل العربية، عند المتنبي وأبي فراس والببغاء، والسَّرِيّ الرّفاء، فالتزم هؤلاء الشعراء خُطا مَنْ سبقهم، فوقفوا على الأطلال، وبكوا الديار وتغزلوا وشبّبوا وبدأوا قصائدهم بالنّسيب، ووصف المحبوبة ، وآثار الراحلين، ولم يكتفوا بهذا القدر، بل جاءت ألفاظهم قوية، وعباراتهم متينة، ونغمتهم جزلة دون تكلّف المحسنات البديعيّة.

ويطالعنا في هذا قصيدة المتنبي التي يصف فيها المبارزة بين بدر بن عمار والأسد وقد بدأها بالنّسيب، والتغزل بالمحبوبة، والوقوف على آثار الراحلين، وما أصابه من أرق نفى الكرى عن عينيه لبعدهم عنه، يقول(١):

في الخدِّ أنْ عَزَمَ الخليطُ رحيلا ... مطرٌ تزيدُ به الخدودُ مُحُولا(٢)

يا نظرةً نفتِ الرُّقادَ وغادرتْ ... في حدِّ قلبي ما حَيِيْتُ فُلُولا(٣)

كانتْ من الكحْلاءِ سُولي إنّما ... أجَلي تمثّلَ في فؤادي سُولا(٤)

أجِدُ الجفاءَ على سِواكِ مُرُوءةً ... والصَّبرَ إلاّ في نَوَاكِ جميلا

وأرَى تدلُّلَكِ الكثيرَ محبَّباً ... وأرَى قليلَ تدلُّلٍ مَمْلولا

حِدَقُ الحِسانِ من الغواني هِجْنَ لي ... يومَ الفِراقِ صبابَةً وغَليلا(٥)

ويستمر المتنبي في وصف المبارزة في نغمة جزلة قوية شديدة الوضوح، دون تكلُّف المحسنات البديعية، فيصف الأسد قائلا:

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:٢٣٢.

(٢) الخليط: العشير

(٣) الفلول: من فلول السيف: وهي كسور في حدّه، وفلّ القوم: انهزموا، وفللتُ الجيش أي هزمته، الصحاح ٥:١٧٩٢-١٧٩٣.

(٤) الكحْلاء: السّوداء الجفون.

(٥) الحدَق: جمع حَدَقة، وهي سواد العين.

أمُعَفِّرَ الليْثِ الهِزَبْرِ بسوْطِهِ   لمن ادّ خرْتَ الصّارمَ المصقولا

وقعتْ على الأردنِّ منهُ بليّةٌ   نضَدَتْ بها هامُ الرِّفاقِ تُلُولا

وردٌ إذا وَرَدَ البُحيْرةَ شارِباً   وَرَدَ الفراتَ زَئيرُهُ والنِّيلا

مُتخضِّبٌ بدمِ الفوارسِ لابسٌ   في غِيلهِ من لِبْدَتيْهِ غِيلا

ويستمر المتنبي في قصيدته، إذ يصف فرس الممدوح، ولم يكن يتجاوز الوصف التقليدي، وبقيت القصيدة ملتزمة بألفاظها القوية الجزلة، وموسيقاها الواضحة، وعباراتها المتينة، إذ يقول:

في سرْجِ ظامِئةِ الفُصوصِ طِمِرَّةٍ   يأبى تفرُّدُها لها التَّمْثيلا

نَيّالَةِ الطَّلِباتِ لولا أنَّها   تُعطي مكانَ لجامِها مانِيلا

تندى سَوالِفُها إذا استحضرْتَها   وتظُنُّ عَقدَ عِنانِها مَحْلولا

ويطالعنا كذلك أبو فراس الحمداني في إحدى قصائده التي يذكر فيها إيقاع سيف الدولة ببني كلاب سنة ٣٤٤هـ فيبدأها بمقدمة طللية وقف فيها على الأطلال وبكى الديار، وسأل الربع فلم يجبْه، وشكا الشيبَ من فراق الأحبّة، الذين كانوا سبباً في همومه، إذ يقول(١):

أبَتْ عبراتُهُ إلاّ انسكابَا   ونارُ غرامهِ إلاّ التهابَا

ومن حقِّ الطّلولِ عليَّ ألاّ   أغبَّ منَ الدموعِ لَها سحابَا

وما قصَّرْتُ في تسآلِ ربْعٍ   ولكنّي سألتُ فما أجابَا

رأيتُ الشيبَ لاحَ فقلتُ: أهلاً   وودّعتُ الغِوايةَ والشبابَا

وما إنْ شبتُ من كِبَرٍ ولكنْ   رأيتُ من الأحبّةِ ما أشابَا

بعثْنَ من الهمومِ إليَّ ركْباً   وصيَّرْنَ الصُّدودَ لها ركابَا

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٧.

أما فخره بقبيلته، - تغلب- فلم يخرج فيه عن النطاق التقليدي، فهم يعزّون الجار ويحمونه، ويوصفون بالجميل، وعدم الميل عن الحق، إذ يقول:

ألمْ ترَنا أعزَّ الناسِ جاراً   وأمرَعَهمْ وأمنَعَهمْ جناباً

لنا الجبلُ المطلُّ على نزارٍ   حللْنا النّجدَ منهُ والهضابا

تُفضِّلُنا الأنامُ، ولا تُحاشي   ونُوصفُ بالجميلِ ولا نُحابى

وقد علمتْ ربيعةُ بل نزارٌ   بأنّا الرأسُ والناسُ الذُّنابى

وتتمثل جزالة الألفاظ وقوة المعاني، ورصانة التعبير في مدائح الببغاء لسيف الدولة ، كما في قصيدته التي وصف فيها إيقاعه ببني كلاب وعفوه عنهم، يقول(١):

إذا استلّكَ الجانونَ أغمدَكَ الحلْمُ   وإنْ كفّكَ الإبقاءُ أنهضَكَ العزْمُ

ومَنْ لم يؤدبْهُ لفرطِ عتوّهِ   إذا ما جنى الإنصافُ أدّبه الظّلْمُ

إذا العُرْبُ لم تجزِ اصطناعَ ملوكِها   بشكْرٍ تمادتْ في سياستِها العُجْمُ

أعِدْها إلى عاداتِ عفوِك مُحْسناً   كما عوّدتْها قبلُ آباؤكَ الشُّمُ

فإنْ ضاق عنها العُذْرُ عندك في الذي   جنتْهُ فما ضاقَ التفضُّلُ والحِلْمُ

وقد اعتمد الببغاء على المقابلة بين الأشياء المتضادة ليحقق مُراده، وأكثر من التهديد والوعيد للجناة الخارجين على الأمير.

وله مقطوعة يظهر فيها عدم تكلّف المحسنات، واستعمل الألفاظ الجزلة القوية والتراكيب المتينة، وهو يشير إلى وقعة لسيف الدولة مع بعض القبائل العربية، فجاء مدحه له من جنس السيفية، إذ يقول(٢):

---

(١) الببغاء: شعره ١٤٧.

(٢) الببغاء: شعره ١٥٦.

عدلُ الصّوارمِ أعدلُ الأحكامِ   وشبا الأسنّةِ أكتبُ الأقلامِ
أخْلِقْ بمَنْ كفرَ الغِنى أنْ يغتدي   كفرانُهُ سبباً إلى الإعدامِ
مَنْ كان في الإكرامِ مفسدةٌ لهُ   فهوانُهُ أوْلى من الإكرامِ
فتركْتهمْ صَرْعى كأنّك بالظُّبا   عاطيتَهمْ في الرّوعِ كأسَ مُدَامِ
متهاجرينَ على الدُّنوِّ كأنّما   أنِفَتْ رؤوسُهمُ من الأجسامِ

ويصطنع السَّريّ الرفّاء الأسلوب الجزل والنغمة القوية، والتعابير الرصينة في قصيدته التي تحدّث فيها عن وفد طرسوس، وممّا ورد فيها قوله(١):

يحفُّ الوفدُ منك بأريحيٍّ   تحفُّ به السَّكينةُ والوقارُ
حضرْنَا والملوكُ لهُ قيامٌ   تغضُّ نواظراً فيها انكسارُ
وزرْنا منه ليثَ الغابِ طَلْقاً   ولمْ نَرَ قبلَهُ ليثاً يُزارُ
فكان لجوهرِ المجدِ انتظامٌ   وكان لجوهرِ الحمْدِ انتثارُ
بعثْتَ إلى الثغورِ سَحَابَ عدْلٍ   وبذْلٍ لا يغِبُّ لهُ انهمارُ
وأسكنْتَ السَّكينةَ ساحتيْها   فقرَّتْ بعدما امتنعَ القرارُ
وعلّمتَ النفيرَ بها رجالاً   عَدَاهُمْ من عدوِّهمُ نِفَارُ
وفضْتَ على وفودِهمُ فقلْنا: أفاضَ البحرُ أم سَمَحَ القطارُ؟

وتتضحُ جزالة ألفاظه وقوتها في وصفه للسَّبي الناتج عن إحدى غزوات الأمير سيف الدولة للروم في بطن هنريط -من ثغور مرعش- فيقول(٢):

ثم انثنيْتَ وآسادُ الشَّرى جَزَرٌ   بالمُرْهفاتِ وغِزلانُ النَّقا سَلَبُ

---

(١) السَّريّ الرّفّاء: ديوانه ٢:٢٢٢.

(٢) السَّرِيّ الرّفّاء: ديوانه ١:٤٣٨.

سبيٌ تحصَّن منه الجيشُ وارتبطتْ   قُبُّ الجيادِ فلا ماشٍ ولا عَرِبُ

ووصف بعض الباحثين المحدثين أسلوب السَّرِيّ، وذكر أنه يختار ألفاظه حسب مجالات القول المختلفة، فهي جزلة رصينة في المدح والفخر والهجاء، وسهلة عذبة في الوصف والغزل والخمريات... «وليس فيمن تأخر من الشاميِّين أصفى ألفاظاً مع الجزالة والسهولة وألزم لعمود الشعر منه»(١).

ويُثني عليه الثعالبي، فيقول: «ولله درُّه ما أعذبَ بحرُه، وأصفى قطره، وأعجب أمره»(٢).

ومن الشعراء في هذا القرن من جمع إلى جانب أسلوبه التقليدي، السهولة والوضوح، وهو الشاعر عبدالمحسن الصُّوري، الذي أثنى عليه الثعالبي وقال في حقّه: «من المحسنين الفضلاء، المجيدين الأدباء، شعره بديع الألفاظ، حسن المعاني، رائق الكلام، مليح النظام»(٣).

وأثنى عليه معاصره ابن حيّوس الدمشقي (٣٩٤-٤٧٣هـ) الذي فضّله على أبي تمام والبحتري، والمتنبي، لسهولة ألفاظه، وعذوبة معانيه، وقصر أبياته(٤).

وقد وقف الصوري على الأطلال في إحدى قصائده التي مدح فيها أهل البيت -عليهم السلام- ومطلعها(٥):

توقَّ إذا ما حُرمةُ العَذلِ جلَّتِ   ملامي لِتَقْضي صَبوتي ما تمنَّتِ

ويقول فيها:

غداةَ أُجيبُ العيسَ (إذ هي) حنَّتِ   وأحدُو إذا وُرق الحمائمِ غنَّتِ

---

(١) السَّرِيّ الرَّفاء: مقدمة ديوانه ١:١٤٥.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر ٢:١٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ١:٣٦٣.

(٤) الصّوري: مقدمة ديوانه ١:١٠. وابن حيوّس: مقدمة ديوانه ٣١.

(٥) الصوري: ديوانه ١:٧٣.

أُطيلُ وقوفي في الطُّلولِ كأنَّني أحـــاولُ مـــنها أن تـــردَّ تحـــيَّتي

ويتغزّل بامرأة ويشير إلى ما لحقه من البين والهجر، وينطلق بعد ذلك إلى الحديث عن آل البيت، فيقول:

وأنشدُ بَينَ البَيْنِ والهجرِ مُهجتي ولم أدرِ في أيِّ السَّبيلينِ ضلَّتِ

وما أحسبُ الأيَّامَ أيَّامَ هَجرِها تطـاولُني إلا لتَـقصيرِ مُدَّتي

ويُحْسن التخلُّص فيقول:

دعوا الأمَةَ اللاّتي استحلّتَ دمي تَكنْ مع الأمَّةِ اللاتي بغتْ فاستَحلّتِ

فما يُقتَدَى إلاّ بها في اغتـصابِهـا ولا أقْتَـدي إلاّ بصـبْرِ أئمّتي

أليسَ بَنو الزّهراءِ أدْهَـى رَزيّةً عليكمْ إذا فكّرتُمُ فـي رَزيّتي

الأسلوب الشّعبي الميسّر :

لقد غلب هذا الأسلوب على شعر هذا القرن بصورة تسترعي النظر، لا سيما أن معظم شعراء هذا القرن كانوا من عامة الناس، كالوأواء الدمشقي، وكشاجم الرملي، والصنوبري، والنّامي، والسّريّ الرّفاء، وكان هؤلاء الشعراء يصدرون في أشعارهم عن الأوضاع الاجتماعية المحيطة بهم، ويصوّرون ما في البيئة من مظاهر اجتماعية سلبية أو غير سلبية، وهم يتوجّهون بها إلى العامة، وكان بعض هذه الأشعار يهدف إلى الفكاهة وإضحاك الجماهير العامة، ومن مظاهر هذا الأسلوب البساطة والسهولة والاقتراب من اللغة المحكيّة، واستخدام الألفاظ الأعجمية والعاميّة، واستخدام ألفاظ الشتائم، والنثرية، وضآلة الإيقاع الشعري.

ويطالعنا الشاعر كشاجم في شعره الإخواني وهو يمدح أبا بكر الصّنوبري، ملتزماً في مقطوعته بالسّهولة والوضوح في الأفكار والتعابير، وما جاء به على وزن خفيف وهو بحر الهزج، حيث يجري على اللسان بسهولة، فيقول(١):

ألا أبلغْ (أبا بكرٍ)   مقالاً من أخٍ برِّ
يُناديكَ بإخلاصٍ   وما ناداكَ من عقرِ
أظنُّ الدهرَ أعداك   فأخلدْتَ إلى الغدْرِ
فما ترغبُ في الوصْلِ   ولا تزْهدُ في الهجرِ
أتنسى زمناً كُنّا   به كالماءِ والخمرِ
أليفينِ حليفينِ   على الإعسارِ واليُسْرِ
مُكبّينَ على اللذا   تِ في الصّحوِ وفي السُّكرِ

فنراه يستمدُّ أوصافه من البيئة المحيطة به، غير متكلّف أو متوعّر في ألفاظه، ولغته قريبة من اللغة المحكية، ولكنها ليس مبتذلة.

---

(١) كشاجم: ديوانه ٢٣٨.

ونهج أبو فراس الحمداني في مزدوجته الطردية الأسلوب الشعبي، فاستخدم لغة سهلة واضحة وألفاظاً رقيقة، ووزناً خفيفاً، دون غوص وراء المعاني والأفكار، إذ يقول(١):

ما العمرُ ما طالتْ به الدّهورُ　　العـــمرُ ما تمَّ به الســرّورُ

أيام عـــــزّي ونفــادِ أمري　　هي التي أحسبُها من عمْري

ويقول في اختيار الجماعة الفضلاء الذين يصحبهم معه إلى الصيد:

باللهِ لا تستصـحبوا ثقــيلا　　واجتنبوا الكثرةَ والفضولا

ردّوا فلاناً، وخـذوا فــلاناً　　وضمّـنوني صيدَكمْ ضَمانا

فاخترتُ، لمّا وقفوا طويلاً　　عشرينَ، أو فُويقَها قلـــيلا

عِصابةٌ أكرِمْ بها عِصـــابهْ　　معروفةٌ بالفضْلِ والنّجابَهْ

وتمثّل قصائد أبي فراس في أمّهِ أنموذجاً للسهولة في اللغة واستعمال التراكيب البسيطة، وذلك إذْ يرثيها معلناً عن جزعه عليها وهو في الأسر، معتمداً على التكرار، لا سيّما عبارة «أيا أمَّ الأسير» و «سقاكِ غيثُ» وكان قصده من هذا التكرار التوجُّع لضيق حاله، والاستغاثة بمن يسمع نداءه ليُطلق سراحه(٢)، إذ يقول(٣):

أيا أمَّ الأسيرِ، ســقاكِ غــيثٌ　　بكُــرهٍ مــنكِ، ما لقي الأسيرُ

أيا أمَّ الأسـيرِ، سقــاكِ غيثٌ　　تحيّــرَ لا يقــيمُ ولا يسيــرُ

أيا أمَّ الأسيرِ، سقــاكِ غيثٌ　　إلى من بالفدا يأتي البشيرُ؟

---

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٨٥.

(٢) انظر: ابن رشيق: العمدة ٢:٦٨٦-٦٨٧.

(٣) أبو فراس: ديوانه ٦٧.

أيا أمَّ الأسـيرِ، لمن تُرَبّـى   وقد مُتِّ، الذوائبُ والشعورُ
إذا ابنُكِ سارَ في برٍّ وبحرٍ   فَمَنْ يدعو لهُ أو يستجيرُ؟

وله فيها قصيدة يوصيها فيها بالصبر، ويصفها بالتُّقى والدين والنفس الزكية، ويدعوها للتجلُّد ، وقد اتّسم أسلوبه فيها بالبساطة في التعبير، والسهولة والوضوح في المعاني، إذ يقول(١):

لولا العجوزُ بمنْبِجَ   ما خِفتُ أسبابَ المنيّةْ
ولكان لي، عمّا سالـ   تُ من الفدا نفسٌ أبيّةْ
لكن أردتُ مرادَها   ولو انجذبتُ إلى الدّنيّةْ
وأرى مُحاماتي عليـ   ـها أن تُضامَ من الحميّةْ

وتظهر السهولة والوضوح حين يتحدث عن موقف أمّه وهو في الأسر، وقد أخذت تتوسط له عند سيف الدولة، فيصوّر حزنه عليها، حيث لا مُعيلَ لها في الشام، ويتصوّر أنها تسأل الركبان عنه، فيقول(٢):

يا حسرةً ما أكادُ أحملُها   آخرُها مزعجٌ وأوّلُها
عليلةٌ بالشّآمِ مفردةٌ   باتَ بأيدي العِدى معلَّلُها
تمسكُ أحشاءَها على حُرَقٍ   تُطفئُها و الهمومُ تُشعلُها
إذا اطمأنّتْ، وأينَ؟ أو هدأتْ   عنّتْ لها ذُكرةٌ تُقلقلُها
تسألُ عنّا الرُكبانَ، جاهدةً   بأدمعٍ ما تكادُ تمهلُها
يا مَنْ رأى لي، بحصْنِ خرشنةٍ   أُسْدَ شَرىً في القيودِ أرجلُها
يا مَنْ رأى لي الدروبَ شامخةً   دونَ لقاءِ الحبيبِ أطولُها

---

(١) أبو فراس: ديوانه ١٨٢.

(٢) أبو فراس: ديوانه ١٣١.

يا مَنْ رأى لي القيودَ مُوثَقَةً   على حبيبِ الفؤادِ أثقلُها

وأبياتُه تخلو من الصور البيانية ومن المحسنات البديعية المتكلّفة، وتجري في سهولةٍ ويُسر .

ويصف عبدالمحسن الصّوري حاله التي آل إليها وضعفه، وكبر سنه، وعجزه عن طلب الرزق والسّعي بلغة سهلة واضحة، إذ يقول في ردّه على صديقه الفخري الشاعر الذي عاتبه على قعوده(١):

جزاكَ اللهُ عن ذا النُّصْحِ خيراً   ولكن جاءَ في الزّمنِ الأخيرِ

وقد حدّتْ لي السبعون حدّاً   نهى عمّا أمرتَ من الأمورِ

ومُذْ صارتْ نفوسُ الناسِ عنّي   قِصاراً عُذْتُ بالأملِ القصيرِ

ويبالغ بعض الشعراء في أسلوبه السهل حتى يهبط به، فتقرب من العاميّة، فهذا أبو فراس يشير إلى الصّيادين وقد عبّر عن ارتفاع أصواتهم أثناء الصيد، فيقول(٢):

طارتْ لهُ درّاجةٌ فأرسلا   أحسنَ فيها بازَهُ وأجْمَلا

علّقها فعطعطوا، وصاحوا   والصّيدُ من آلتهِ الصّيّاحُ

وقد لجأ الشعراء في معانيهمْ وألفاظهم إلى البيئة المحيطة بهم، فبدتْ مقطوعاتهم بلغة محكية قريبة من العاميّة، كما يتّضح من وصف كشاجم لإحدى المغنيات، إذ يقول(٣):

بدتْ في نسوةٍ مثل الـ   مها أُدمجْنَ إدماجا

يجاذبْنَ من الأردا   فِ كُثباناً وأمواجا

ويسترْنَ عن الأبصا   رِ في الدّيباجِ ديباجا

---

(١) الصوري: ديوانه ١:٢٠٣.

(٢) أبو فراس: ديوانه١٨٧.

(٣) كشاجم: ديوانه ٨٥.

وقد لاثتْ من الكَـــوْزِ على مفــرقِــها تاجــا

واستمد أوصافه من البيئة الاجتماعية في وصف معزفة، إذ يقول(١):

مُعَـــلنةُ الأوتارِ صخّـــابــةٌ لها حنــينٌ كحــنينِ الغريــبْ

زادتْ على المِزْهرِ طيباً وقـد تاهتْ على النايِ بحلقٍ عجيبْ

مكــسوّةٌ أحشــاؤهــا حُلّةً بيــضاءَ من جلدِ غــزالٍ ربيبْ

كأنّما تســعةُ أوتـارِهـــا نُصِبْنَ أشراكاً لصيدِ القلوبْ

وحين يرثي كشاجم عوداً كُسِر لمغنية، فإنه يستلهم البيئة الاجتماعية المحيطة ليستمد أوصافه منها، قائلا(٢):

ومخفّفِ الأجزاءِ ليس لجرمِهِ وزنٌ يميّلُ كفّةَ المــــيزانِ

وكأنّ مقبضَهُ جبيـــرةُ ساعدٍ قد فُصِّلتْ بالدُّرِّ والعِقيانِ

ويصف أبو فراس صورة البازي مشيراً إلى لونه، لا سيّما منطقة الصدر، فيجعلها شبيهة بمشي الذّر في الرماد، فيقول(٣):

كأنّ فوقَ صدرِهِ والهادي آثارَ مشْيِ الذَّرِّ في الرّمادِ

وحين يصف الصنوبري الصيد بالشرك والشبكة، فإنه يستمد صورتها من البيئة المحيطة، ويذكر أنياب الأفاعي، وأذناب الخيل، فيقول(٤):

أفضلُ ما أعددْتُهُ من العُــــددْ وما حوى صحْبي بهِ غِنى الأبَدْ

بناتُ قينٍ حازَ في الحِذْقِ الأمدْ على مقاديرِ مخــاليبِ الصُّرَدْ

---

(١) كشاجم: ديوانه ٧٠.

(٢) كشاجم: ديوانه: ٤٦٥.

(٣) أبو فراس: ديوانه ١٨٨.

(٤) الصنوبري: ديوانه ٤٧٥.

أو مثل ما عاينْتَ أنصافَ الزُّردْ　　لها رؤوسٌ في أعاليها أوَدْ(١)

كمثلِ أنيابِ الأفاعي وأحــدّ　　ذواتِ طــعمٍ نكدٍ كلٌ النكــدْ

تُشدُّ في أذنابِ خيــلٍ إذ تُشـدّ　　ممرّة الفتــلِ كإمــرارِ المَسَدْ

لقد كان لحياة الفقر التي عاشها شعراء هذا القرن دورٌ كبير في تصوير الحياة الاجتماعية السلبية بأسلوب سهل وبسيط، موجّه لعامة الناس، بعيد عن التكلّف أو المحسنات البديعية، فكان هذا الشعر نقلاً للواقع، كما نجد ذلك واضحاً عند الصنوبري الذي أكثر من الحديث عن الثياب والنعال، والفقر والرداء والمنديل، وغيره من شعراء عصره ككشاجم والسّري الرفاء، والتلعفري، فالخليع الشامي يخاطب الأمير سيف الدولة(٢)، ويشكو الجوع والعري، فيقول(٣):

أنا شاعرٌ، أنا شاكرٌ، أنا ناشــرٌ　　أنا راجلٌ، أنا جائعٌ، أنا عاري

هي ستةٌ فكنِ الضّمينَ لنصفِها　　أكنِ الضّمينَ لنصفِها بعيارِ

وتكرّرت ألفاظ الفقر والجرب عند الصنوبري، فيشكو حاله، ويقول(٤):

الشيبُ عندي والإفلاسُ والجربُ　　هذا هلاكٌ وذا شؤمٌ، وذا عَطَبُ

إنْ دام ذا الحكُّ لا ظفرٌ يــدومُ ولا　　يــدومُ جــلدٌ ولا لحمٌ ولا عَصَبُ

وأما التلعْفري فيشكو الفقر، ويصف حاله البائسة، وحاجته إلى الكساء، فيقول(٥):

ما أصعبُ العيشَ على بائسٍ　　معاشُه في حَلَبِ النّــحوُ

---

(١) أود: اعوجاج.

(٢) الخليع يُكنى بأبي عبدالله، أدرك زمان البحتري، وبقي إلى أيام سيف الدولة فانخرط في سلك شعرائه، الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٢٣٣.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب: ٤٥١٢:١٠، الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٢٣٤.

(٤) الصنوبري: ديوانه ٤٥٢.

(٥) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٢٤٩.

ليس له في بَرْدِها جبّةٌ ... ولا قميصٌ لا ولا فروُ

ويستعطف السَّرِيّ الرّفاء ممدوحه ويلتمس منه كسوة، قائلاً(١):

وأيامٌ حسُنٌ لَديّ حتى ... تساوى الشيبُ فيها والشبابُ

وإن تُلحِقْ ثوابك بي ثياباً ... فأيسرُ ما تجودُ به الثيابُ

ولا يتورّع الصنوبري وهو يرثي رداءه الذي احترق، إذ يسترسل في وصفه وبيان مكانته لديه، فكان أنفس ما يملك ،يرتدي به ليلاً نهاراً، يقول وقد غلب على أسلوبه البساطة في التعبير(٢):

كان ردائي أجلَّ أعلاقي ... من جُددٍ كُنَّ لي وأخلاقِ

كان بهائي إذا ارتديتُ بهِ ... وكان نوري وكان أحداقي

كنتُ به أحتبي وكنتُ بهِ ... أعتمُّ في ثروتي وإملاقي

كان رفيقي صدرَ النّهارِ ولي ... في الليلِ منهُ صنوفُ أرفاقِ

مِقرَمةٌ كان لي ومنشفةٌ ... ومئزراً فاضلاً عن السّاقِ

وكان ستراً لباب بيتي أحـ ... ياناً وحيناً لُحافَ طُرّاقي

وكثر هذا النوع من الشعر، فكشاجم يصف منديلا له سُرق(٣)، ويبكي عليه، والصنوبري يرثي ثيابه ونعله الذي حلَّ به الخراب(٤) ويستهدي نعلاً في أحيان أخرى(٥).

ونظراً لأن هؤلاء الشعراء قد صوّروا الحياة الاجتماعية بكل ما فيها، فإنهم

---

(١) السَّرِي الرَّفاء: ديوانه ١:٢٨٢.

(٢) الصنوبري: ديوانه ٤٣٣.

(٣) كشاجم: ديوانه ٨٦.

(٤) الصنوبري: ديوانه ٢٤٣.

(٥) الصنوبري: ديوانه ٤٤٩.

استمدوا في مهاجاتهم أوصافهم من هذه البيئة، فقد نرى السَّرِيّ الرّفاء يرمي تهريجَهُ بالشاعر النامي، ذاكراً أنّ أباه كان جزّاراًبالمصيصة وحلب، فأكثر من الألفاظ التي تتعلق بهذه المهنة، إذْ يقول(١):

أرى الجزّارَ هيّجنــي وولّى وكاشَفَني وأسْرعَ في انكشافي
لقد شقيتْ بمديتِكَ الأضاحي كـما شقيَتْ بغارتِكَ القوافي

ويتناول ابن بطّة الشاعر المتنبي ويصبّ هجاءه على والده الذي كان سقّاءً، متخذاً من ألفاظ هذه المهنة وسيلة للتهريج به، كذكره المزادة، والراوية والساقية والدّلو، إذ يقول(٢):

بحـقّ المزادةِ والـرّاويَــةْ وفضْلِ الفراتِ على السّاقيةْ
وبالدّلو تزهـى بأوذامِـها وداني مـياهِكَ والقاصيَةْ(٣)
علامَ جـحدْتَ أباً سـاقطاً وقلْتَ أبـي سـيّدُ البـاديةْ

واهتم كشاجم -وهو مشهور ومهتمٌ بالطبخ وعالم به- إذ يصف غلاماً له، ويشيد بمهارته بالطبخ، فيقول وقد رَكّز على المفردات التي تتعلق بالطبخ(٤):

طاهي قدورٍ طيّبتْ كفُّهُ مذاقَها فالغَثُّ منها سمينْ

وهو حين يهجو غلاماً اسمه كافور، يستعير مفردات الطبخ أو الكلمات التي تتعلق بالأطعمة، وما يصيب الإنسان من التخمة، وغير ذلك، إذ يقول(٥):

مليءٌ ويسعى على مِعْدَةٍ هضُومٍ ووجعاؤهُ سالِحهْ

---

(١) السَّرِيّ الرفاء: ديوانه ٢:٤١٩.
(٢) ابن العديم: بغية الطلب ١٠:٤٦٦٥.
(٣) أوذامها: الوذم: السيور بين آذان الدلو.
(٤) كشاجم: ديوانه ٤٨٧.
(٥) كشاجم: ديوانه ١٠٥.

وفي الوقت الذي مال فيه الشعراء من أصحاب هذا الاتجاه إلى السهولة واليُسر، فإن بعضهم أُغرمَ باستخدام الكلمات الاعجمية، كما سنجدُ ذلك عند كشاجم الرملي والصنوبري، فيصف كشاجم مرآة أهداها، قائلا(١):

والهدايا في المِهرجانِ قديماً   وحديثاً من سُنّةِ الدُّهقانِ

ويُكني الصنوبري عن الخبز (بالهبيد) وعن البطيخ «بالخِربِز»، وذلك حين يهجو غلامه الفارسي أسداً، فيقول(٢):

يكْني عن الخبز بالهبيدِ كما   يُكني عن اسمِ البطّيخِ بالخِرْبِزْ

وحين يصف ساقياً يقدم الخمر ، فإنه يجعله كالدهقان، فيقول(٣):

وساقينا إذا استسقى   كَدِهْقـــانِ الدُّهاقينِ

وكثُرت الكلمات الأعجمية في وصف الأطعمة عند كشاجم، فقد وصف جونة طعام، قائلا(٤):

وطيهوجٍ وفـــرّوجٍ   أجدْنا لك تطجينَهْ

وسنبوسجةٍ مقلوْ   وَةٍ في إثْرِ طردينَهْ

ولوز ينجةٍ في الدّهـ   نِ والسكّرِ مَدْفونَهْ

وقد أكثر الواساني من الكلمات الأعجمية في قصيدته المشهورة التي يصف فيهادعوة له في دمشق.

وهناك من تباهى بذكر العبارات الجارحةالتي تمجُّها الأذن ، وهذا ما نجده

---

(١) كشاجم: ديوانه ٤٦٨.

(٢) الصّنوبري: ديوانه ١٥١.

(٣) الصّنوبري: ديوانه ٤٩٠.

(٤) كشاجم: ديوانه ٤٦٣.

عند الواساني في دعوة عملها في دمشق، فيذكر بعض الكلمات في وصف هؤلاء الذين لبّوا الدعوة، فيقول(١):

ومتى ما ذكرتُ دعوةَ أولا دِ البغايا والعاهراتِ الزّواني

ويقول في وصف أحد هؤلاء المجّان، فيصفه بأنه أبله كفحل الإبل وأحمق:

إنّ من أعظمِ المصائبِ يا قو مُ بلاشي بذلك الطّرمذانِ(٢)

رجلٌ كالفنيقِ فدمٌ بلا لبْ بٍ طويلٌ في صورةِ الشيطانِ(٣)

ويقول فيه :

زائدُ الخَلْقِ ناقصُ العقلِ والدّيـ نِ غليظُ القِذالِ كالقلّتانِ(٤)

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ١:٤١٤.

(٢) الطر مذان: الأبله.

(٣) الفنيق: فحل الإبل، والفدم: الأحمق.

(٤) القذال: القفا حيث يكون الصفع، انظر الجوهري : الصّحاح ٥ : ١٨٠٠.

الأسلوب الزخرفي :

لقد أسرف الشعراء في القرن الرابع الهجري في المحسنات البديعية، والتي كانت في معظمها على حساب المعنى، فأحالوا الشعر في كثير من الأحيان إلى معرضٍ للزخارف البديعية، وتلاعبوا بالألفاظ وأكثروا من مصطلحات العلوم المختلفة، فأصبحت هذه المقطوعات عبارة عن فنون منظومة بوزن وقافية، دون شعرية، ولا سيّما أن شعراء هذا القرن يمثّلون الاتجاه الاجتماعي.

ويطالعنا الشاعر كشاجم الرملي وهو يتكلّف بقوافيه التي جاءت غير مستساغة في قصيدة يرثي بها آل الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبدتْ القصيدة مفككة الأوصال، وكأنها قطع متناثرة، وليس قصيدة تحمل موضوعاً، والسبب هو التكلّف واختيار القوافي القلقة، وذلك إذ يقول(١):

أجلْ هو الرّزءُ جلّ فادحُهُ باكرُهُ فاجعٌ ورائحُهُ

لاربْعُ دارٍ عفا ولا طَلَلٌ أوحشَ لمّا نأتْ ملائحُهُ

عن ذاك مندوحةٌ لمعتبرٍ فذو النُّهى جمّةٌ منادِحُهُ

فجائعٌ لو درى الجنينُ بها لعاد مبيضّةً مسائحُهُ

ولم يكتفِ كشاجم بهذا، بل بنى قصيدته على المحسنات البديعية، وأكثر من الجناس والطباق الذي أودى بالمعنى، وقلّما يخلو بيت من هذه المحسنات، يقول وقد جانس بين (صفح، وصفائحه):

ما صفحَ القومُ عندما قدروا لّما جنتْ فيهمُ صفائحُهُ

وجانس بين (منح، ومانحه) قائلا:

بل منحوهُ العنادَ، واجتهدوا أنْ يمنعوهُ ما اللهُ مانِحُهُ

وجانس بين (يناطحُ ويناطحُهُ) فقال:

---

(١) كشاجم: ديوانه ١١٠.

فـي حيثُ كبشُ الرّدى يُناطِحُ مَنْ   أبْصرَ كبشُ الوغى يُناطِحُهُ

ويقول وقد جانس بين (يلفح، ولافحه) و (ويطيح، وطائحهُ) و (فاح، وفائحهُ) و (مدائحي، ومدائحه):

وبين أيديكمْ حريقُ لظـىً   يلفحُ تلك الوجوهَ لافِحُـهُ

فكم كسا منهم السيوفَ دماً   يوم جلادٍ يطيحُ طائِحُهُ

طِـبتُمْ فإنْ مرَّ ذكرُكمْ عَرَضاً   فاحَ بمسْكِ الجِنانِ فـائِحُهُ

لو كنتُ في عصْرِ (دِعبلٍ) عَبَدتْ   مدائحي فيكمُ مدائِحُـهُ

وجاءت القصيدة كلّها مَبنية على الجناس والطباق،ومن أمثلة الطباق في قصيدته، قوله:

وفي غدٍ يَعرِفُ المخالفُ مَنْ   خاسرُ دينٍ منكمْ ورابِحُـهُ

أو تكتموا فالقرآنُ مشكلُهُ   بفضلِهمْ ناطقٌ وواضِحُـهُ

يا عِتْرةً حبُّهم يبـينُ به   صالحُ هذا الورى وطالِحُـهُ

مغالقُ الشـرِّ أنتم يا (بني   أحمدَ) إذ غيرُكمْ مـفاتِحُهُ

أجلْ هـو الرّزْءُ جلَّ فادحُهُ   باكرُهُ فاجـعٌ ورائـحُهُ

لا بَرِحَ الغيثُ كلُّ شـارقةٍ   تهمي غـواديهِ أو روائِحُـهُ

ويظهر الطباق في هذه القصيدة بين (خاسرُ، ورابح) وبين (تكتموا، وناطق) وبين (مشكلُه وواضحُهُ) وفي (صالحُ، وطالحُ) و (مغالقُ، ومفاتحُهُ) و (باكره، ورائحهُ) و (غواديه وروائحهُ).

وكأننا بالشاعر قد أراد من قصيدته أن تكون معرضاً للزخارف البديعية ، ولا سيّما الطباق ،والجناس، وقد أولع الصّنوبري بالمحسنات البديعية، إذ يقول في قصيدة يرثي بها الحسين بن علي -عليهما السلام- وقد جانس بين

(كشّ، والكشاشا) وبين (مُجْرَنْش، واجر نشاشا)(١):

كلما كشّ أفـــعوانُ ضَلالٍ   دَمغـــوا أفعـــوانَه الكشّاشَا(٢)

دمغوا كلَّ مُجْرَنْشٍ حشَـنْهُ   جَهْلَةُ الجاهليّةِ اجـــرنْشَاشَا(٣)

وغير ذلك ورد كثيراً في قصيدته كلّها التي بناها على المحسنات البديعية، وأكثر منها، فجاءت ثقيلة مُستكرهة(٤).

ومن الزخارف البديعية التي أكثر الشعراء من استخدامها التصدير، أو ما يُسمّى بـ « ردّ العجز إلى الصدر ».

ولو نظرنا لرأي النقاد في هذا القرن -القرن الرابع الهجري- لوجدنا أبا هلال العسكري يقول: « إن لردّ الأعجاز على الصدور موقعاً جليلاً من البلاغة، وله في المنظوم خاصة محلاً خطيراً »(٥).

ونرى ذلك عند الصنوبري ، إذ يقول(٦):

رائشي من أتاهمُ مستريشا   ويُرى مستريشُهمْ مُسْتَراشَا(٧)

ناعشي مَنْ يَرَى مطيّتَهُ النعـ   شَ إذا ما عداهمُ استنعاشا(٨)

وهو هنا عند الصّنوبري متكلّف، لذا جاء غير محبّب .

ومنه ما جاء في قصيدته التي يهنئ أبا القاسم بن سهل بالعيد، وذلك إذ يقول(٩):

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٢١٧.

(٢) الكشاشا: من كشّ: وهو الصياح والصوت، الصّحاح: ١٠١٨:٣.

(٣) المجرنش: الجافي الغليظ الجنْب.

(٤) انظر. ديوانه ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤.

(٥) العسكري: الصناعتين ٤٢٩.

(٦) الصنوبري: ديوانه ٢١٧.

(٧) استراشا: من رشش، والرَّشَاشَ بالفتح ما ترشش من الدم والدمع، الصّحاح ١٠٠٦:٣.

(٨) استنعاشا: من نعش: أي رفع، ولا يقال أنعش وانتعش العاثر: إذا نهض من عثرته، الصّحاح ١٠٢١:٣.

(٩) الصنوبري: ديوانه ٣٢٢.

رافـعاً ألويــةَ المجــ ـدِ إلى الشأوِ الرَّفيــعْ

خَلَعتْ أرســـــانَهــا اللّذ اتُ فــــي دهْـــرٍ خليـــعْ

فــأطِعْهُـــنَّ يُطِعْـــكَ الـ ـعيشُ يــا خــيرَ مُطيـعْ

أيُضيعُ اللـــــهوَ مَــنْ ليـ ـسَ لحـــزمٍ بمُضيــعْ

وإلى جانب «التصدير» ظهر التصريع عند الشعراء، ولكنه ليس بكثرة، وفائدته عند ابن الأثير «أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تُعْلم قافيتها، وفيه دِلالة على سعة القُدرة في أفانين الكلام»(١).

«فأما إذا كثر التصريع في القصيدة، فلستُ أراهُ مختاراً، إلاّ أن هذه الأصناف من التصريع والترصيع، والتجنيس،وغيرها إنّما يحسُن منها في الكلام ماقلَّ وجرى مجرى الغُرَّة من الوجه، أو كان كالطراز من الثوب، فأما إذا تواترتْ وكثرت فإنها لا تكون مَرْضيّة، لما فيها من أمارات الكُلفة»(٢) ورأيه هذا مأخوذ من رأي ابن سنان الخفاجي .

ومن أمثلته عند كشاجم، وذلك إذ يشير إلى شرب الخمر ليلاً، فيقول(٣):

اتـخذِ الليلَ جَمَــلْ ما حمَّلَ الليلُ حَمَلْ

وإنْ عراني مَـــلَلٌ نفــيتُ بالرَّاحِ المَلَلْ

ويقول الصنوبري في رثاء آل البيت (٤):

ياكربُلاءُ أمالي فيكِ مُبْتَرَضٌ على الثَّناءِ فأبغي فيكِ مُبْتَرَضا

ومنه عند كشاجم في هجاء غلام ، يقول(٥):

كأنْ لم يكن لي من ناصحٍ يُزَهِّدُ فيكَ ولا ناصحَهْ

(١) ابن الأثير: المثل السّائر ١:٢٥٩.

(٢) انظر المصدر نفسه: ١:٢٥٩.

(٣) كشاجم: ديوانه ٤٢٨.

(٤) الصنوبري: ديوانه ٢٦٨.

(٥) كشاجم : ديوانه ١٠٤.

ومنه قوله:

بطيءُ الجوابِ فكم صائحٍ ... بهِ لم يُجبْهُ وكم صائحَهْ

واهتمّ الشعراء بحسن التقسيم لما له من وقع موسيقيّ جميل، كما يظهر عند الصنوبري وهو يقول -وقد شرب ليلة مع فتيانٍ والقمر طالع والبرق لامع(١):

يا ليلـةً طَلَعتْ بأيمـنِ طالـعِ ... تاهتْ على ضوءِ النّهارِ السّاطـعِ

بمحـاسنٍ مقرونـةٍ بمحاسـنٍ ... وبدائـعٍ موصولـةٍ ببدائـعِ

ضوء العُقار، وضوءُ وجهك مازجاً ... ضَـوءَ الهلالِ وَضوءَ برقٍ لامـعِ

وقوله يمدح الشرب في الصحو ويذمّهُ في المطر(٢):

بشمسِ الدِّنانِ، وشمسِ القيانِ ... وشمسِ الجنانِ، وشمسِ السَّما

وقال كشاجم في رثاء قدح كُسِر(٣):

وعاءُ المُدامِ، وتاجُ البنانِ ... ومُدني السرورِ ومُقصي التَرَحْ

وظهر التلاعب بقوافي القصائد عند كشاجم جليّاً، فمرّة يأتي بالقافية كلمة مفردة وأخرى كلمة مجموعة، وكرّر هذا كثيراً في قصيدته التي يرثي بها آل الرسول -صلى الله عليه وسلم- فمثلاً يقول، وقد كرّر كلمة صوائحهُ، وصائحه(٤):

عاد الأسى جدّه ووالدَه ... حينَ استغاثتْهما صوائحُهُ

ويقول:

إنْ تصمتوا عن دُعائِهم فلكمْ ... يوم وغىً لايُجابُ صائحُهُ

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٣٢٤.

(٢) الصنوبري: تتمة ديوانه ٦٢.

(٣) كشاجم: ديوانه ١٣١.

(٤) كشاجم: ديوانه ١١١.

وكرّر كلمة: ناصحه، ونصائحُهُ، فقال:

غششْتُمُ اللهَ في أذيَّةِ مَنْ إليــهمُ أدّيـتْ نصــائِحُهُ

وقال، وقد أتى بالقافية مفردة:

حاربَهُ القومُ وهْو ناصرُه قُدْماً وغشّوه وهْوَ ناصِحُهُ

ومما يُلفت النظر تكرار قوافي القصيدة الواحدة، كما يظهر ذلك في قصيدة كشاجم، إذ يقول(١):

يُطلُّ ما بيْنكمْ دمٌ (لرسو لِ اللهِ) وابنُ السّفاحِ سافِحُهُ

ويقول في القصيدة نفسها(٢):

فسوف تُغرى به الجفونُ وإنْ أضرَّ بالناظرينِ سافِحُهُ(٣)

وهو ما سمّاه المرزباني بالإيطاء: «كأن يقفّي بكلمة ثم يقفّي بها في بيت آخر في قصيدة واحدة، وإن كان أكثر من قافيتين فهو أسمجُ له»(٤).

ثم أننا نلاحظ أنّ كشاجم الرملي يكررُ قوافيه في أكثر من قصيدة، فمثلاً كرّر القوافي في قصيدته التي رثى بها آل البيت، في قصيدة أخرى يهجو غلاماً اسمه كافور، يقول في تشيعه(٥):

حاربَهُ القومُ وهْو ناصرُهُ قُدْماً وغشّوه وهو ناصِحُهُ

إذ كررها في هجائه ، فقال(٦):

كأنْ لم يكن لي من ناصحٍ يُزهِّدُ فيكَ ولا ناصِحَهْ

---

(١) كشاجم: ديوانه ١١٢.

(٢) كشاجم: ديوانه ١٠٥.

(٣) تغرى: تولع.

(٤) المرزباني: الموشح ٢٠.

(٥) كشاجم: ديوانه ١١٣.

(٦) كشاجم: ديوانه ١٠٤.

ويقول في التشيع(١):

وهْو الذي اجتاحَ أُمّةً عقرتْ   ناقتَــهُ إذ دعــاهُ صالِحُهُ

يقابلها في الهجاء قوله(٢):

غلامٌ تكاملَ فيهِ القبيــحُ   فما فيهِ من خُلّةٍ صالِحَهْ

ويقول في التشيع:

إنْ تصمتوا عن دُعائهمْ فلكمْ   يومٌ وغىً لا يُجابُ صائِحُهُ

يقابلها في الهجاء قوله:

بطيء الجواب فكم صائحٍ   به لم يجبْهُ وكم صائِحَهْ

ويقول في التشيع:

يُطَلُّ ما بينكم دمٌ (لرسو   لِ اللهِ) وابن السَّفاحِ سافِحُهُ

يقابلها في الهجاء قوله:

كثير البكاءِ بلا علّةٍ   فدمْعتُهُ أبداً سافِحَهْ

ونحا كشاجم منحىً آخر في قصائده التي جاز فيها أن تُقرأ على وجهين، فالتزم بالقافية نفسها في الضّرب والعروض، وذلك في قصيدته التي يصف فيها البازي، فيقول(٣):

قد أغتدي والليلُ مهتوكُ الحمى   والصُّبحُ يستنفضُ أبرادَ الدُّجــى

مبتسماً عن ساطعٍ من الضــيا   ضِحْكَ الفتاةِ الـخودِ في وجهِ الفتى

أو مثل وجهي يســتهلُّ للقِرى   بكــاســرٍ من الــبُزاةِ مُجْتــبى

---

(١) كشاجم : ديوانه ١١٢

(٢) كشاجم : ديوانه ١٠٤

(٣) كشاجم: ديوانه ٣٣.

أبيضَ إلاّ لُمَعاً فوق الفرا | كأنّها رشُّ عبيرٍ في مُلا
كأنّما ناظرُهُ إذا سما | ياقوتةٌ تُهدَى إلى بعضِ الدُّمى
كأنّما المَنْسِرُ من حيثُ انحنى | عَطْفةُ صُدْغٍ خُطَّ في خدٍّ رشا
كأنّما نيطتْ بكفّيْهِ مُدى | أوْحى من النَّجمِ إذا النجمُ هوى
أو رجعةُ الطرفِ سما ثم انثنى | تستأسِرُ الطيرُ له إذا بدا

وله قصيدة يصف اللعب بالصوالجة، ينحو فيها هذا المنحى، فتأتي قافية الضرب والعروض واحدة في جميع أبياته، إذ يقول(١):

ومعلبٍ للخيلِ في قرواحِ | مُنفسحِ الأرجاءِ والنّواحي
كأنّهُ كفُّ فتىً جحجاحِ | مبسوطةٌ للجودِ والسَّماحِ
عَمَرتْهُ بفتيَةٍ صِباحِ | بيضٍ بأعراضِهِمُ شِحاحِ
مؤتلفي الأخلاقِ والأرواحِ | وضُمَّرِ الأحشاءِ كالقِداحِ
من كلِّ طِرْفٍ سابحٍ طمّاحِ | مناسبٍ للبرقِ والرياحِ
يُطيره الحُضْرُ بلا جَناحِ | خالٍ من الحِرانِ والجِماحِ
ذي دُهْمَةٍ تضحك عن أوضاحِ | كأنّه ليلٌ على صَباحِ
وقاني مثلِ دمِ الجراحِ | سِبْطٍ كخطّيْ من الرِّماحِ

وقد خرج بعض الشعراء على قواعد اللغة كالمتنبي، الذي يُرخِّم الاسم في غير النداء، وهو يصف إيقاع سيف الدولة ببنيْ ضبّة وعمرو بن حابس، فيقول(٢):

مَهْلاً ألاّ لله ما صنع القنا | في عمروِ حابٍ وضبّةَ الأغتامِ

وله يتصرّف في اللغة فيشير إلى تفرق قبيلة عمرو ويطلق عليها «عمور» وتفرُّق قبيلة كعب، ويطلق عليهم «كعاب»، إذ يقول(٣):

---

(١) كشاجم: ديوانه ١٢٣.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٤:١١.

(٣) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ١:٧٧.

وعمروٌ في ميامِنهمْ عُمُورٌ وكعبٌ في ميا سرِهمْ كِعابُ

وفضلاً عمّا سبق نرى أن لمصطلحات العلوم المختلفة التي استخدمها الشعراء دوراً في زخرفة الشعر وإخراجه عن المألوف، فقد استخدم الشعراء مصطلحات الكتابة، وذكروا أدواتها كثيراً، لا سيّما كشاجم الرملي -وقد كان كاتباً- يقول في وصف أحد الغلمان(١):

مَنْ لدواةٍ كنتَ تُعنى بــها عنايةً تعجزُ عــنها القيونْ

أم مَنْ لكتْبٍ كنتَ في طيِّها أسرعَ مما تتلاقى الجــفونْ

ويمدح السَّرِيّ الرَّفَّاء أبا محمد عبدالله بن عمرو بن محمد الفيّاض، الكاتب بحلب -كاتب سيف الدولة ويستعير في مدحه الألفاظ التي تتعلق بالكتابة، كالقلم، والحِكَم، وأسماء القدماء الذين اشتهروا بالبيان، كقُسٍّ بن ساعدة، وقيس ابن الخطيم، إذ يقول(٢):

لك القلمُ الذي يُضحي ويُمْسي به الإقلــيمُ محميُّ الحريمِ

أخو حِكَمٍ إذا بــدأتْ وعــادتْ حكمْنَ بعجزِ لقمانَ الحكيــمِ

ملكْتَ خطــامَها فعلــوْتَ قُسّاً برونقِــها وقيسَ بنِ الخطيمِ

ولكشاجم يهجو الكتّاب الدُّخلاء، فيستخدم الدواة والكتابة، والرويّة، والبديهة ، فيقول(٣):

دخيلٌ في الكتابةِ لا رويٌّ له فــيها يــغدُّ ولا بَديهُ

كأنَّ دواتَه من ريقِ فــيهِ ثلاثُ فريحُها ريحٌ كريهُ

وغير هذه الأمثلة كثير لدى كشاجم الذي أكثر من الحديث عن أدوات الكتابة، ووصف المحبرة والدواة والأقلام(٤).

---

(١) كشاجم: ديوانه ٤٨٥.

(٢) السَّرِيّ الرفاء: ٦٦١:٢.

(٣) كشاجم: ديوانه ٤٩١.

(٤) انظر: ديوانه ٤٠، ٦٥-٦٦، ٣٦٨-٣٦٩.

واستفاد الشعراء من علم اللغة، فظهر في شعرهم مصطلحات النحو ، كالعلل والقياس، واللّحن، يقول الصنوبري في ذم بعض العلماء وعدم تمكّنه(١):

فـي أبي جعــــفرٍ وفي وسْــواسهْ عبـــرةٌ للبــــيبِ من جُلاّسهْ
لاحنٌ فـي اسمـهِ على ما ادّعـى في عِلَلِ النّحوِ من لطيفِ قياسهْ

وظهرتْ ألفاظ القضاة، كالعدل ووصْفهم بالفاروق، والحكم، والقضاء وذلك في مدح السَّريّ للقاضي أبي حصين علي بن عبدالملك الرقي، يقول(٢):

وحُكْمٍ تفـرّقُ الأعداءُ مــنهُ كأنّـك فيه فاروقُ الصّــحابِ
يودُّك فيه مَنْ تقضي عليهِ لشافي العدلِ أو كافي الصّوابِ

ومن مصطلحات العلوم المنظومة التي قالها كشاجم في ذكر العلم والعلماء، إذ تخلو من الرّوح الشعرية، وذلك إذ يقول(٣):

لا تمنــعِ الـعلــمَ امــرءاً والعلمُ يمنــعُ جانبَــهْ
أما الغــبيُّ فليـــس يفـ ـهمُ لُطفَــهُ وغرائبَــهْ
وتكــون حاضــرةُ الفــوا ئدِ عنــدهُ كالغائبَــهْ
وأخو الحَصافةِ مُســتحـقْ قٌ أنْ ينالَ مــطالبَـهْ
فبـــحـقِّهِ أعطيْــــتَهُ من فضلِ علمكَ واجبَـهْ

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٢٠٤.
(٢) السَّريّ الرّفّاء: ديوانه ١:٣٩٨.
(٣) كشاجم: ديوانه ٤٠.

التأثر والتأثير :

من اللافت للنظر أن الشعراء في هذا القرن قد استلهموا التراث بكل ما فيه، و تأثروا به تأثراً يكاد يكون مكشوفاً للقارئ، فقد اتكأوا على التاريخ الإسلامي كثيراً واستفادوا منه في أشعارهم، واقتبسوا من القرآن الكريم حين يستدعي الأمر لذلك، واستفادوا من السنّة النبوية ومن قصص الأنبياء، كما أنهم تأثروا بالشعراء السابقين واستفادوا من معانيهم و صورهم وأفكارهم، وتأثر بعضهم ببعض في مجاراة القصائد التي اشتهرت في هذا القرن، كما تأثر الشعراء بالفلسفة و بالأفكار الصوفية، و بعلم الجدل والكلام .

وأول ما يطالعنا من هذا التأثر، ما استفاده المتنبي من القرآن الكريم، وذكره الكلمات الدينية كالفرقان، والتوراة، والإنجيل، وذلك إذ يثني على الأمير بدر بن عمار، فيقول(١):

لو كان لفظُك فيهمُ ما أنْزلَ ال فُرقانَ والتّوراةَ والإنجيلا

ويركّز كشاجم الرملي على رفض الدنيا وتفضيل الآخرة، مستلهماً كلامه من القرآن، قائلاً(٢) :

ورفضتُمُ الدنيا لدُنْ فُزتُمْ بحظِ الآخرهْ

و يحوِّر السَّريّ الرَّفاء بآيةٍ قرآنيةٍ وهو يصف رجلاً بخيلاًمن أهل الشام، فيقول(٣) :

مدحْتُ أبا جعــــفرٍ وقلتُ : شريفُ العربْ

فأسلـمَني بُخْـــلُهُ إلى خيبةِ المنــــقلَبْ

وأبدى علـــى بابِـهِ تجمُّـــلَ أهـــلِ الأدبْ

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري٣:٢٤٤

(٢) كشاجم: ديوانه ٢١٣

(٣) السَّريّ الرّفّاء: ديوانه ١:٢١٢

إذا قلتُ :قد جادَ لي		يقولُ قميصي :كَذِبْ

وهو هنا يشير إلى قصةِ يوسف -عليه السلام- في قوله تعالى: «وجاءوا على قميصِه بدمٍ كَذِبْ»(١).

ويتحدَّث الطرسوسي عن أهل أنطاكية حين زارها، ويتكئ على القرآن الكريم في وصفه إيّاها، قائلاً :(٢)

صاحبُ ياسينَ حبيبَ فيها		وكان عند ربِّه وجيها

في الخُلدِ والثّمارِ يجتنيها		أكرِمْ به مفتخراً نبيها

وحبيب هذا ورد ذكره في القرآن في سورة "يس" بقوله تعالى : " يا ليتَ قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين"(٣).

ومن معاني القرآن الكريم، تأكيد حتمية الموت،وانتهاء الأجل، كمايقول أبو فراس(٤):

هيهاتَ! ما في الناسِ من خالدِ		لا بُدَّ من فقْدٍ ومن فَاقدِ

وأما عن نهاية الإنسان بعد هذا الموت، فهي إحدى حالين هما، كما يقول أبو فراس(٥):

فلا أملٌ غيرُ عفوِ الإلهِ		ولا عملٌ غيرُ ما قد مضى

فإنْ كان خيراً فخيراً تنالُ		وإنْ كان شرّاً فشرّاً ترى

فالمصير المحتوم إذن، إمّا للجنة وإما للنار، كما يقول الصنوبري(٦):

---

(١) سورة «يوسف»، آية ١٨

(٢) ابن العديم : بغية الطلب ١: ٩٣

(٣) سورة "يس"، آية ٢٦ . ٢٧

(٤) أبو فراس الحمداني: ديوانه ٦٣

(٥) أبو فراس الحمداني: ديوانه ١٨٠.

(٦) الصنوبري: ديوانه ٩١

ولا دارٌ سوى دارَيْنِ فاخترْ   خلوداً في النّعيمِ أو السّعيرِ

واستلهم الصنوبري من القرآن وهو يتوجّه بالدعاء على القرامطة الذين آذوا الحجيج، فيختار لهم أيامَ عادٍ، وأهلَ مدْينَ والحِجْر، قائلاً (١):

إلهي أعدْ أيّامَ عادٍ عليهمُ   ويوماً كيوميْ أهلِ مدْينَ والحِجْرِ

واستفاد الصّوري من السنة النبوية، واقتبس حديثاً للرسول – صلى الله عليه وسلم– إزاء نقده لأخيه وقد اتّصف بالبخل حين قدِم عليه ضيْفاً، فيقول:(٢)

وأخٍ مسّهُ نُزولي عليهِ   مثلَ ما مسّني من الجوعِ قَرْحُ
بتُّ ضيفاً لهُ كما حكمّ الدّهـ   ـرُ وفي حُكمِهِ على المرءِ قُبْحُ
فابتداني وقال وهْو من الكُرْ   هِ والهمُّ طافحٌ ليسَ يصحو
لِمْ تغرّبْتَ؟ قلتُ: قال رسولُ الـ   ـله والقولُ منه نُصْحٌ ونُجْحُ
سافِروا تغنموا، فقال: وقد قا   ل تمامَ الحديثِ: صُوموا تصحّوا

وكثيراً ما استفاد الشعراء من قصّة غديرخمّ ووصيّة الرسول الكريم– عليه الصلاة والسلام– لعلي– رضي اللّه عنه– فالصنوبري يشير إلى قوله عليه السلام:" هو لي كهارون لموسى(٣):" قائلاً:(٤)

هو قال: أفضلُكمْ عليٌّ إنّهُ   أمضى فسنّتُهُ التي يمضيها
هُوَ لي: كهارونٍ لموسى حبّذا   تشبيهُ هارونَ به تشبيها

واستفادوا من السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين، كنوم علي في

---

(١) الصنوبري: ديوانه ٩٨

(٢) الصّوري : ديوانه ١: ٨٤

(٣) عبدالحسين أحمد الأميني:الغدير في الكتاب والسنة ١:٢٦٨

(٤) الصنوبري: ديوانه ٥١.

فراش النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول الصّوري وهو يبيّن أحقّية آل البيت بالخلافة:(١)

وأيُكمُ نام في فرشِهِ   وأنتمْ لمهجتِهِ طالبونَا

وترددت وصية الرسول- صلى الله عليه وسلم- كثيراً في أشعارهم، وركزوا على غديرخم وموالاة علي ، إذ يقول الصّوري:(٢)

جحدتُمْ موالاةَ مولاكمُ   ويومَ الغديرِ بها مؤمنونَا

وأنتم بما قاله المصطفى   وما نصٌ من فضلهِ عارفونا

وهذا الصنوبري يفصّل القولَ في هذه الوصيّة مشيراً إلى أن الرسول- عليه الصلاة والسلام- قد أمسك بيد علي ورفعها مؤكداً موالاته، وتنويهه باسمه، إذ يقول:(٣)

رفعَ النبيُّ يمينَه بيمينِهِ   ليرى ارتفاعَ يمينِهِ رائيها

في موضعٍ أضحى عليه منبّهاً   فيه وفيه يبدعُ التشبيها

أخاه في خمٍّ ونوّه باسمِهِ   لم يألُ في خبرٍ به تنويها

وقد استلهم أبو فراس الحمداني التاريخ الإسلامي في المواقف التي تتطلب ذلك، حين كان في الأسر ودعا أمّه للصبر، وأن تأخذ العبرة من ذات النطاقين، قائلاً:(٤)

أمالكِ في ذاتِ النطاقينِ أُسوةٌ   بمكّةَ والحربُ العوانُ تجولُ

أراد ابنُها أخذَ الأمانِ فلم تجبْ   وتعلمُ علماً إنه لقتيلُ

---

(١) الصوري: ديوانه ٢:٦٨

(٢) الصّوري: ديوانه ٢: ٦٨

(٣) الصنوبري: ديوانه ٥١٠.

(٤) أبو فراس الحمداني: ديوانه١٣٦

وقد ظهرت لديهم ألفاظ الصوفية، لا سيّما في شعر التشيع، فالصنوبري يمدح آل النبي، عليه الصلاة والسلام، ويقول:(١)

وارتفعْنا حتى رأى المتناهي — في ارتفاعٍ كأنَّهُ في انخفاضِ
بالنبيِّ الصّفيِّ بالطّاهرِ الغرْ — ضِ الباغي طهارةَ الأعراضِ
وبآل النبيِّ والجوهرِ المحـ — ضِ فقلْ في الجواهرِ الأمحاضِ

فكلام الشاعر كلّه غموض، وتكتنفه الفلسفة.

وتتضح هذه النزعة عند المتنبي وهو يصف الأسد، ويذكر ألفاظ العرض والطول، قائلاً(٢):

ما زال يَجْمعُ نفسَهُ في زوْرِهِ — حتى حَسِبْتَ العرضَ منهُ الطُّولا

ويرسم الصنوبري صورة لغلامه متأثراً بالفلسفة، وهو يُشير إلى أن جمالَه قد طاف في الخلق، ثمَّ استقرّ فيه، فيقول:(٣)

ذاك ظبيٌ رُبِّي ببابِ الرّوابي — من أجلِ الظِّباء عندي قدْرا
رقّةُ الرِّقتيْنِ فيه وظَرْفُ الر — افقيّن منه يقطُرُ قَطْراً
طافَ هذا الجمالُ في الخلْقِ حتّى — حين صارَ الجمالُ فيه استقرّا

وأما عن تأثر شعراء القرن بالسّابقين، فيظهر ذلك جلياً عند المتنبي الذي قلّد القدماء، وأخذ من معانيهم وصورهم، وقد تَعقّبَه النقاد وعدّوا ذلك سرقةً عليه، ومنهم ابن وكيع التنيسي في المنصف(٤)، وقد قدّم أمثلة على تأثرِه بالسابقين، ومن ذلك قوله في النقد الاجتماعي(٥):

---

(١) الصنوبري:ديوانه ٢٥.

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:٢٤١

(٣) الصنوبري: ديوانه ٢٥

(٤) ابن وكيع: المنصف ١:٢٠٤.

(٥) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٤:٧٠

أرانبُ غيرَ أنّهمُ ملوكٌ مُفتّحةٌ عيونُهمُ نِيَامُ

يقول ابن وكيع: هذا معنى فتحهُ أبو تمام بقوله(١):

أيقظْتَ هاجعَهمْ وهل يُغنيهُمُ سَهَرُ النواظرِ والعقولُ نِيَامُ

وأمّا قول المتنبي في الأسد(٢):

أسَدٌ يَرَى عُضويْهِ فيكَ كليهما متْناً أزلٌ وساعِداً مَفتُولا

فيقول ابن وكيع: قد ألمَّ في ذلك بقول البحتري، من قصيدة في مدح الفتح ابن خاقان، ومنازلته الأسد(٣):

هزبْرٌ مشى يبغي هِزَبْراً، وأغلبٌ من القوم يغشى باسلَ الوجهِ أغلبَا

وقوله يصف الفرس(٤):

في سَرْجِ ظامِئَةِ الفُصوصِ طِمرةٍ يأبى تفردُّها لها التّمثيلا

هو موجود في قول ابن الرومي(٥):

أصفُ الحبيبَ ولا أقولُ كأنّهُ كلاّ ! لقد أمسى من الأفرادِ

إني لأستحيي محاسنَ وجهِهِ ألاّ أنزِّهَهُ عن الأندادِ

يقول ابن وكيع: فأبى تفرّد(الفرس) التمثيل لها ، وأبى تفرُّد محبوب ابن الرومي التشبيه له؛ لتفرّده، وهذا من استخراج معنى من معنى احتذى عليه، وإن فارق ما قصد به إليه(٦).

---

(١) ابن وكيع : المنصف ١:٤٠٢، أبو تمام: ديوانه بشرح الصّولي ٢:٣٧٩

(٢) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:٢٤٠

(٣) ابن وكيع: المنصف ١:٥٣٦، البحتري: ديوانه ١:٩٨

(٤) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:٢٤١

(٥) إبراهيم عبدالقادر المازني، وكمال أبو مصلح: ابن الرؤمي: حياته وشعره ٢١٤

(٦) ابن وكيع: المنصف ١:٥٣٧

فإنْ سألوا كانتْ غمامةَ وَابـلٍ   وغيْثاً وإلاّ فالدِّمارُ قِطارُهـا

وأخذ قوله في مدح سيف الدولة، إذ يقول(١):

فلم أرَ أرمى منهُ غيرَ مُخاتِلٍ   وأسْرى إلى الأعداءِ غيرَ مُسارِقِ

من قول مسلم بن الوليد(٢):

مَنْ كانَ يختِلُ قِرْناً عند موقفِهِ   فإنَّ قِرْنَ يَزيدٍ غيرُ مُختتَلِ

وتأثر المتنبي بالشعراء السابقين عليه، وقلّدهم في أشعارهم، وظهر عنده ما يسمّى بالاستطراد، والذي رأى النقاد إنّه:" أن يُريَ الشاعر أنه في وصف شيء، وهو إنما يُريد غيره، فإنْ قطع، أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد، وإن تمادى، فذلك خروج، وأكثر الناس يسمّونَ الجميع استطرادا "(٣).

وربّما أن المتنبي قلّد في هذا الفن أبا تمام(٤)، وهو يصف فرساً، واستطرد يهجو عثمان بن إدريس الشّامي،- من مهجويّ أبي تمام البخلاء-

ويُرينا المتنبي وهو يصف المبارزة بين بدر بن عمّار والأسد، أنه يصف في قصيدته كاملةً أسداً حقيقياً، ولكنه في الواقع لم يكن كذلك، فقد وصف الأسد تارة، واستعار بعض صفاته وأطلقها على نفسه تارة أخرى، ويتّضح هذا كثيراً حين يصف الاعتداد بالنفس، والأنَفَة من الدّنيّة، والكبرياء ، والتيه، والفخر في مواقع كثيرة، وتصوير الشجاعة والقوة التي يستمدّها من الممدوح، فيقول مثلا وقد أشار إلى قوته التي استمدّها من بدر بن عمّار وأخلاقه العالية، والتي كان ينشدها، فوجدها في أمير عربي هو بدر(٥):

---

(١) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٢:٢٣١

(٢) صريع الغواني: ديوانه ٨

(٣) العسكري: الصناعتين ٤٤٨، ابن وكيع: المنصف ١:٧٣

(٤) ابن وكيع : المنصف ١: ٧٣

(٥) المتنبي: ديوانه بشرح العكبري ٣:٢٤٠

فتشابهَ الخُلْقانِ في إقدامِهِ   وتخالفا في بذْلِكَ المأكُولا

أسدٌ يَرى عُضويْهِ فيكَ كليهما   متْناً أزلَّ وساعداً مَفْتُولا

ثم نراه يبينُ عن نفسه، وهو دائم الثورة، وناقم على من حوله، إذ أنه وعلى الرغم من اعتداده بنفسه، إلا أنّه لم يبلغ مُرادَه، وتحقيق أهدافه، فيقول:

ما زالَ يجمعُ نفسَه في زوْرِهِ   حتى حَسِبْتَ العرضَ منه الطُّولا

ويدُقُّ بالصَدْرِ الحجارَ كأنّهُ   يبغي إلى ما في الحضيضِ سبيلا

أما عن كبريائه واعتداده بنفسه فيختار لهما من الصفات ما يوائمه، فهو في كبريائه طبيب يجسُّ عليلا، وهو في اعتداده بنفسه كالرُّهبان في وَحْدتهم وعزلتهم، وكأنه يرى في نفسه نفساً تختلف عمّن هم حوله، فيقول:

في وَحْدةِ الرُّهبانِ إلا أنّهُ   لا يعرفُ التّحريمَ والتّحليلا

يطأُ الثّرى مُتَرفِّقاً من تيههِ   فكأنّهُ آسٍ يجسُّ عليلا

ودائماً نرى المتنبي يأنف من الدّنيّة، ويخشى من العار، إذ يقول بخفاء عن نفسه، وهو يتحدث عن الأسد الذي هاجم بدراً، فيلتمس له العذر، قائلاً:

أنَفُ الكريمِ من الدّنيّةِ تاركٌ   في عينِهِ العَدَدَ الكثيرَ قليلا

والعارُ مضّاضٌ وليس بخائفٍ   مِنْ حتْفِهِ مَنْ خافَ ممّا قيلا

كما تأثّر شعراء العصر بعضهم ببعض، فالأمير العقيلي أحمد بن محمد، قلّد أبا فراس الحمداني في مزدوجته الطردية، في مطلعها، إذ يقول(١):

يا سائلي عن خبري وسنّي   خذْ وصفَ أيامِ السّرورِ عنّي

ذاك هو العمرُ الذي يسرُّ   وما سوى ذاك فليس عمْرُ

أيامُ للأمر نفادٌ وقضا   وللسّرورِ لذّةٌ بلا انقضا

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب ١٠٩٧:٣

فهو متأثر بمطلع مزدوجة أبي فراس، إذ يقول(١):

ما العمرُ ما طالتْ به الدّهورُ   العمرُ ما تمَّ به السّرورُ

أيامُ عزّي ونفادُ أمري   هي التي أحسبُها من عمْري

بل إنّ المتتبِّعَ للمزدوجة يرى أنها تقليد لها بكل ألفاظها ومعانيها، وأحداثها.

(١) أبو فراسْ الحمداني: ديوانه ١٨٥

الخاتمة

لقد كشفتْ هذه الدراسة عن جوانب عدّة فيما يتعلق بالقرن الرابع الهجري، سواء من الناحية السياسية، أو الحياة الأدبية، فقد أوضحت الاضطراب السياسي والفوضى العارمة التي شهدتها بلاد الشام، وتنازع القوى السياسية المختلفة من العباسييّن وأمرائهم الأعاجم، وظهورْ الدويلات العربية المستقلة عن الخلافة، ثم ظهور الخلافة الفاطمية في الشام التي زاد بمجيئها تكالب الروم البيزنطيين على بلاد الشام، هذا على الصعيد السياسي، وأما عن الحياة الأدبية في هذا القرن، فقد عالج الشعر الشامي القضايا الاجتماعية التي تتعلق بحياة العامة والخاصة على حدٍ سواء، فقد كشفت عن بنية المجتمع الشامي آنذاك، وأبانت بأنّ العرب كانوا هم الغالبية العظمى من السكان، وأن النزعة العربية التي سادت في المجتمع آنذاك قد سيطرت على تفكير الشعراء، حتى أن نشاط العرب في هذه الفترة ازداد ازدياداً ملموساً وواضحاً عما كان سابقاً. فممّا زاد من بروز النزعة العربية القوميّة، هو وجود الدويلات العربية المستقلة ممثلة بالحمدانيين، والتي شعرت بكيانها ودورها المميّز على مسرح بلاد الشام في القرن الرابع الهجري، فكثر الفخر القبلي والافتخار بالأصل العربي وقد أولى الشعراء الحكّام العرب –لا سيّما سيف الدولة– عناية مميزة، وكان جلُّ مديحهم لهم يمثّل منظومة القيم العربية والإسلامية المثلى في المجتمع آنذاك، كما اتضح من الدراسة دور اليهود وتاريخهم المؤسس على الخيانة والغدر، وظهور التسامح الديني من قبل المسلمين تجاه النصارى، مما أدى إلى كثرة انتشار الأديرة، والإحسان إلى أهلها، ومشاركة العناصر غير العربية في المجتمع الشامي، وتبادل فئات المجتمع الإخوانيات والتّهاني وإظهار المودّة والحب لدى الأصدقاء، وبالمقابل ظهور الصراع بين فئات المجتمع من العرب وغير العرب.

وأبانت الدراسة عن الازدهار الحضاري رغم كثرة الأخطار التي واجهت الشام في هذا القرن، وأنها لم تخلُ من الإصلاحات الاجتماعية، والعمران وإسقاط الضرائب، والترف لدى الأوساط المختلفة، لا سيّما الأمراء والفئات الاجتماعية الغنية، وكل من التحق بالقصور أو البلاط، وبالمقابل صوّر الشعر الفئة المعدمة،

فقيرة الحال، والتي اتخذت من أشعارها وسيلة للحصول على العيش، فمثلما صوّر الشعراء جود الحكام وإفضالهم، صوّر الآخرون بؤسهم وشقاءهم، وكان من نتيجة الثراء الفاحش الذي كانت تنعم به بعض الفئات أن انتشر اللهو والمجون والغناءوالرقص والاهتمام بالقيان والغلمان الأتراك والفرس وكثرة الهُيام بهم، والإغراق بشرب الخمر، وصوّر الشعراء جميع مظاهر ا لحضارة والعمران، ووصفوا الأطعمة والولائم التي كانت تقام، وبيّنوا المهارة والدقة في عملها، لاسيما الأطعمة الفارسية، وتحدّث الشعراء عن وسائل التسلية والترفيه، فكان الصيد والطرد هو الرياضة المفضّلة لدى الكبراء من القوم، وكانت عملية الصيد أشبه بمبارزة بين هؤلاء الصّيادين الذين كانوا من النّجباء الأقوياء الذين ترافقهم الحيوانات المدرّبة، ذات القدرة الفائقة، وتعدّى صيدهم الطيور إلى الحيوانات البرية والبحرية، وكلّ كان لها وسيلة صيد مختلفة، ومن وسائل التسلية اللعب بالصّوالجة والمبارزة.

وأبان الشعر عن دور المرأة العربية في المجتمع وبروزها على المسرح السياسي، وأنّ دور النساء الحمْدانيات كان ضئيلاً في الشعر العربي، إلاّ ثمّة إشارات بسيطة.

وأولى الشعراء صراعهم مع الروم عناية فائقة، فتحدّثوا عن تخريب البيزنطيّين للحصون والقلاع العربية، ثم تعميرها من قبل الحكام المسلمين، وتحدّثوا عن الأسرى من الطرفين، وصوّروا حال الأسير المسلم لدى بلاد الروم، والأسير الرومي في بلاد المسلمين، وشتّان ما بين الإثنين، فالأسير المسلم لقي من الهوان والاضطهاد ما كاد يذهب بنفسه حسرات، والأسير الرومي الذي عومل معاملة كريمة بين المسلمين، وافتتن الشعراء بالسّبايا الروميات، ووصفوا جمالهن وحسنهن، كما أشاروا إلى وجود فئة الزّهاد والعُبّاد الذين يقومون بالجهاد ويؤدون الطاعات والفرائض، ويكتفون بالعيش على الكفاف، وكثيراً ما دعا الشعراء إزاء هذه الأوضاع إلى الزهد والإعراض عن الدنيا والابتعاد عن المعاصي والتوبة إلى الله، وأخذ العبرة والعظة من القبور وأهلها.

وكما كشف الشعر في هذا القرن عن دور البيزنطيّين وأثرهم في المجتمع الشامي ، فإنه كشف عن دور القبائل العربية والتي لم تتعود على الخضوع

والانقياد لحكم ما، لا سيّما قبيلة كلاب وبني طيء اللتيْن برزتا في هذا القرن بشكل ملحوظ، فقد كثُرتْ ثوراتُهُم وتعدّيهم وخروجهم على الحكم، وتمردهم وإظهارهم العصيان، وبالمقابل سياسة الأمير تجاههم ومعاملتهم معاملة حسنة حيناً، والعمل على تأديبهم وتأنيبهم حيناً آخر، ولم ينسَ الشعراء أنْ يسجّلوا حركات القرامطة وأعمالهم التي أغضبوا بها وجه الله، وما فعلوه بالحجيج، فقد داهموهم بمكة وأخذوا أموالهم وقتلوهم قتلاً شنيعاً.

وفصّل الشعراء الحديث في المذاهب الدينية التي سادت في هذا القرن، لا سيّما وأن الشيعة قد علا صوتهم، وأن الشعراء في هذا القرن هم شيعة بلا شك، فدافعوا عن مذاهبهم، وكثُر حديثُهم عنْ مصارع آل البيت وبيان أحقيّتِهم بالخلافة، فركّزوا على وصيّة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في غدير خُم ورثوهم رثاءً حاراً، ومدحوهم وعرّضوا بخصومهم من العباسيين والأمويين، ولكنهم جاروا في موضوعات أشعارهم هذه شعراء الشيعة في العصور السابقة.

ولمّا كان المجتمع الشامي في هذا القرن ينتابه الصراع بين فئاته المختلفة، فقد صوّر الشعراء الظواهر الاجتماعية التي رأوها سلبية، ونقدوا الفئات العليا من حكام وقضاة وعلماء وأدباء إلى جانب العامة من الناس، فاتخذ نقدهم طابعين هما: النقد التعميمي، والنقد الذي صرّحوا به دون مواربة، وكانت موضوعات نقدهم الاجتماعية تنصبّ على نقد الحكام بانشغالهم بمجالس الأنس، واللهو، وبعدهم عن الشجاعة والجود والمجد، وابتعادهم عن الدين، وسيطرة الأعاجم على الحكم، وانتقدوا العامة بالجهل والجبن والبخل والنفاق، وانعدام الزمان من وجود الأصحاب الثقات.

هذا ولم يخرج الشعراء في هذا القرن عن أسلافهم في وسيلة التعبير عن أفكارهم وموضوعاتهم الشعرية، من حيث بناء القصيدة والصورة الفنية التي كانت أحياناً جزءاً من البناء الشعري ثم الأسلوب واللغة، فقد قلّدوا سابقيهم في صورهم الفنية التقليدية، ولكنهم برعوا في التجديد في كثير من الصور، ولم تخرج صورهم عن الوسط الاجتماعي السائد آنذاك.

وقد ردّ الباحث تُهمة وصف هذا القرن بقرن التصنّع، وذلك أن الشعراء راوحوا في أساليبهم الشعرية، فجاروا الأقدمين في الأساليب القديمة التقليدية،

ووقفوا على الأطلال، وبكوا الديار وتغزلوا وشبّبوا بالمحبوبة، ومالوا في كثير من الأحيان إلى العامة، والسهولة واليُسر، ومخاطبة الأوساط الشعبية، اللهمّ إلا ما كان من كشاجم الرملي الذي أغرق في الصنعة البديعية وأحال بعض الأشعار إلى معرضٍ للزخارف البديعية، وتلاعب في بعض القصائد والتي كانت تقرأ على الوجهين في جميع أبيات القصيدة، وعمدوا إلى استعمال العاميّة والكلمات الأعجمية في أحيان كثيرة.

وقد تعرّض الباحث إلى طائفة من الآراء النقدية التي كانت سائدة في الوسط الفني في القرن الرابع الهجري، حيث كان بعضها حكماً عاماً ينطبق على أشعار معظم الشعراء، وبعضها كان حكماً خاصاً يطلقه بعض الناقدين على شاعر ما بعينه.

والله أسأل التوفيق والعون،،،

قائمة المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

المصادر المخطوطة:

٢- ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبدالله الشافعي، المعروف بابن عساكر (٤٩٩هـ-٥٧١هـ)): تاريخ مدينة دمشق -حماها الله- وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، وكُمّل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش وإستانبول، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان.

٣- ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ)): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جزء ٢٠، طبع بالتصوير عن مخطوطة ١٦٦٨ (ق١-١٧٠ب)، طوبقابي سراي -إستانبول، نشر بمعهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت- ألمانيا الاتحادية، مطبعة شتراوس وهيرشبرج، ألمانيا

المصادر المطبوعة:

٤- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزريّ الملقب بعز الدين (ت.٦٣٠هـ)): الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥- ابن الأثير (ضياء الدين)): المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر، قدّم له وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر: الفجالة-القاهرة، بلا.

٦- الأصبهاني (علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم القرشي الأموي أبو الفرج (ت٣٦٢هـ)): الديارات، تحقيق جليل العطية، لندن- قبرص، ط١، ١٩٩١م.

٧- الإصطخري (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري)): المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبدالعال الحيني، الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، والإدارة العامة للثقافة، دار القلم، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

٨- ابن أبي أُصيبعة (موفّق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أُصيبعة السّعدي الخزرجي (٦٠٠هـ-٦٦٨هـ)): عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، دار الثقافة: بيروت-لبنان، ط٤، ١٤٠٨/١٩٨٧م.

٩- الأزدي (علي بن ظافر (٥٦٧هـ/١١٧٢م-٦٢٣هـ/١٢٢٦م)): أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والثغور، تحقيق: تميمة الرّواف، دار حسّان، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

١٠- الأنطاكي (يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٧م)): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، جروس برس: طرابلس -لبنان، ١٩٩٠م.

١١- الباخرزي (علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي (٤٦٧هـ)): دمية القصر وعُصرة أهل العصر، تحقيق ودراسة محمد التونجي، دار الجيل-بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

١٢- الببغاء (عبدالواحد بن نصر المخزومي (ت بعد ٣٩٨هـ)): شعر الببغاء، تحقيق سعود محمود عبدالجابر، الدوحة-قطر، ط١، ١٩٨٣م.

١٣- البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد (٢٠٥هـ/٨٢٠م-٢٨٤هـ/٨٩٧م)): الديوان، شرح وتعليق: محمد التونجي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤.

١٤- البكري (عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت٤٨٧هـ)): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السّقا، عالم الكتب-بيروت، بلا ت.

١٥- ابن تغري بَرْدي الأتابكي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (٨١٢هـ-٨٧٤هـ)): النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١٦- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي (١٨٨هـ-٢٣١هـ)): الديوان بشرح الصّولي، دراسة وتحقيق: خلف رشيد نعمان، دار الطليعة- بيروت.

١٧- التنوخي (القاضي أبو علي المحسّن بن علي التنوخي (ت٣٨٤هـ)): نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

١٨- الثعالبي (أبو منصور عبدالملك الثعالبي النيسابوري (ت٤٢٩هـ)): يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣.

١٩- الثعالبي: تتمّة يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٠- ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت٥٩٧هـ)): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار المعارف العثمانية-حيدر أباد الدّكن، ط١، ١٣٥٨هـ

٢١- الجوهري: (إسماعيل بن حمّاد الجوهري): الصّحاح -تاج اللغة وصحاح العربية- تحقيق أحمد عبدالغفور عطّار، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٩٠م.

٢٢- أ- الحموي (أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)): معجم البلدان، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ب- معجم الأدباء - أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية: بيروت -لبنان، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١.

٢٣- الحميري (محمد بن عبدالمنعم الحميري): الروض المعطار في خُبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان-بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

٢٤- الحنبلي (أبو الفلاح عبدالحي بن العماد (ت١٠٨٩هـ)): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، بلا ت.

٢٥- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة-بيروت، بلا ت.

٢٦- ابن حيّوس (الأمير مصطفى الدولة أبو الفتيان محمد بن سُلطان المشهور بابن حيّوس الغنوي الدمشقي (٣٩٤هـ-٤٧٣هـ)): الديوان، عُني بنشره وتحقيقه: خليل مردم بك، دار صادر -بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢٧- الخالديين (أبو بكر محمد الخالدي (ت٣٨٠هـ) وأبو عثمان سعيد الخالدي (ت٣٩٠هـ)): ديوان الخالديين، تحقيق سامي الدهان، دار صادر-بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢٨- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ)): تاريخ ابن خلدون المسمّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار إحياء التراث العربي -مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٢٩- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨هـ-٦٨١هـ)): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر-بيروت.

٣٠- دعبل الخزاعي (دعبل بن علي بن رزين بن سليمان (١٤٨هـ-٢٤٦هـ)): الديوان، شرح حسن حمد، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٣١- الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)): سير أعلام النبلاء، ج١٤، تحقيق أكرم البوشي، مؤسسة الرسالة -بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ج١٥، ج١٦، ج١٧، ج١٨، أشرف على تحقيقها وخرّج أحاديثها: شعيب الأرنؤوط.

٣٢- ابن رُسته (أبو علي أحمد بن عمر بن رُسته (ت.٢٩٠هـ)): الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل-لندن، ١٨٩١م.

٣٣- ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيق (٣٩٠هـ-٤٥٦هـ)): العمده في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة: بيروت-لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣٤- السّريّ الرّفّاء (أبو الحسن السّريّ بن أحمد بن السّرّي الكندي الرّفّاء الموصلي، (ت في سنة نيّف وستين وثلثمائة)): الديوان، تحقيق ودراسة حبيب حسين الحسني، وزارة الثقافة والإعلام-الجمهورية العراقية: دار الرشيد، ١٩٨١م.

٣٥- السّريّ الرفاء: المحب والمحبوب والمشموم والمشروب (كتاب المحبوب ج١)، تحقيق حبيب حسين الحسيني،-مطبعة دار الرسالة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٣٦- السّريّ الرفاء: المحب والمحبوب والمشموم والمشروب (كتاب المشروب ج٤)، تحقيق ماجد حسن الذهبي، دمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٣٧- الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ/٩٩٨م)): الديارات، دار الرائد العربي: لبنان-بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

٣٨- أبو شجاع (محمد بن الحسين الملقّب ظهير الدين الروذراوري): ذيل تجارب الأمم -من سنة ٣٦٩هـ-٣٨٩هـ دار الكتاب الإسلامي -القاهرة، بلات

٣٩- ابن شدّاد (عزالدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى عبّادة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي -دمشق ، ١٩٧٨م.

٤٠- شهاب الدين الخفاجي (محمود بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الشافعي (٩٧٧هـ/١٠٦٩)): شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تصحيح وتعليق ومراجعة: محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الحرم الحسيني التجارية الكبرى -المطبعة المنيرية بالأزهر، بلات

٤١- صريع الغواني (مسلم بن الوليد الأنصاري (ت٢٠٨هـ)): الديوان، تعليق وتحقيق سامي الدهان، دار المعارف، ط٣، بلا ت.

٤٢- الصنوبري (أحمد بن محمد بن الحسن الضبيّ (ت٣٣٤هـ)): الديوان، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة: بيروت- لبنان، ١٩٧٠.

٤٣- الصنوبري: تتمة الديوان، جمع وتحقيق لطفي الصقال ودريّة الخطيب، دار الكتاب العربي- حلب، بلا ت.

٤٤- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي): تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق إحسان بنت سعيد خُلوصي وزهير حميدان الصّمصام، وزارة الثقافة -دمشق، ١٩٩١م.

٤٥- الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٠، ط٢، باعتناء جاكلين سُوبْله وعلي عمارة، إصدار جمعية المستشرقين الألمانية، إسطفان ڤيلد وأولريش هارمان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٤٦- الصوري (عبدالمحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري (٣٣٩هـ-٤١٩هـ)): الديوان، تحقيق مكّي السيد جاسم وشاكر هادي، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤٧- ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبةالله (٥٨٨هـ-٦٦٠هـ)): بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه وقدّم له سهيل زكّار، دمشق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٤٨- ابن العديم: زبدة الحَلَب من تاريخ حَلَب، نشره وحققه ووضع فهارسه سامي الدهان، دمشق، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٤٩- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ)): الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٥٠- الطباخ (محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي): إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، صحّحه وعلّق عليه: محمد كمال، دار القلم العربي: حلب-سوريا، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٣م.

٥١- ابن طولون (شمس الدين): قضاة دمشق: الثغر الباسم في ذكر من ولّي قضاء الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجتمع العلمي العربي-دمشق، ١٩٥٦م.

٥٢- أبو فراس الحمداني (الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني (٣٢٠هـ/٩٣٢م-٣٥٧هـ/٩٦٧م)): الديوان بشرح عبّاس عبدالسّاتر، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٥٣- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية- القاهرة، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م

٥٤- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (٤٧٠هـ/١٠٧٧-٥٥٥/١١٦٠م)): تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكّار، دار حسّان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٥٥- ابن كثير (أبو الفداء الحافظ بن كثير الدّمشقي (ت٧٧٤هـ)): البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم، وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد، ومهدي ناصر الدين وعلي عبدالسّاتر، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٥٦- كشاجم الرملي (أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك (ت بعد ٣٥٨هـ)): الديوان، تحقيق وشرح خيرية محمد محفوظ، وزارة الإعلام: مديرية الثقافة العامة: مطبعة دار الجمهورية -بغداد ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٥٧- كشاجم: المصايد والمطارد، تحقيق وتعليق: محمد أسعد طلس، دار المعرفة -بغداد، بلا ت.

٥٨- المتنبي (أحمد بن الحسين (ت٣٥٦هـ)): ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، المسمّى: التبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة: بيروت- لبنان، بلا ت.

٥٩- المتنبي: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح الشيخ ناصيف اليازجي، المسمّى العرف الطّيّب في شرح ديوان أبي الطيب، بلا ت.

٦٠- المرزباني (أبو عبدالله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت٣٨٤هـ)): الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥.

٦١- مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه): تجارب الأمم، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، بلا ت.

٦٢- المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي-القاهرة، ط٣، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٦٣- المقريزي (أبو العباس أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ)): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة المثنى- بغداد، بلا ت.

٦٤ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)): لسان العرب، دار صادر- بيروت.

٦٥- النّامي (أبو العباس أحمد بن محمد النامي المصيصي الدّارمي (٣٠٩هـ/٩٢١م-٣٩٩هـ/١٠٠٩م)): شعر النامي، جمع وتحقيق صبيح رديف، دار البصري - بغداد، ط١، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٦٦- ابن نباتة السعدي (أبو نصر عبدالعزيز بن عمر بن نباتة (٣٢٧هـ-٤٠٨هـ)): الديوان، دراسة وتحقيق: عبدالأمير مُهدي حبيب الطائي، وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية، ١٩٧٧.

٦٧- النديم (محمد بن إسحق): الفهرست، تحقيق: ناهد عبّاس عثمان، دار قطري ابن الفجاءة، ط١، ١٩٨٥م.

٦٨- أبو نواس (الحسن بن هانئ (١٤٥هـ-١٩٩هـ)): الديوان، دار صادر- بيروت.

٦٩- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (٦٧٧هـ-٧٣٣هـ)): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٣، تحقيق أحمد كمال زكي، مراجعة مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتابة، ١٩٨٠م، ج٢٥ تحقيق: محمد جابر عبدالعال، مراجعة عبدالعزيز الأهواني، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧٠- ابن الوردي (زين الدين عمر بن مُظفر الشهير بابن الوردي (ت٧٤٩هـ)): تاريخ ابن الوردي، الحيدرية-النجف، ط٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٧١- ابن وكيع التنيسي (أبو محمد الحسن بن علي (ت٣٩٣هـ)): المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره، قدم له وعلّق عليه: محمد رضوان الداية، دار قتيبة -دمشق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٧٢- اليافعي (أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سُليمان اليافعي اليمني المكي (ت٧٦٨هـ)): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات: بيروت - لبنان، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٧٣- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي (ت٢٨٤هـ)): البلدان، دار إحياء التراث العربي: بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٧٤- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري- أو عصر النهضة في الإسلام -نقله إلى العربية: محمد عبدالهادي أبو ريدة، أعدّ فهارسه: رفعت البدراوي، دار الكتاب العربي: بيروت - لبنان، بلا ت.

٧٥- أرشيبالد مكليش: الشعر والتجربة، ترجمة سلمى الجيّوسي، دار اليقظة -بيروت، ١٩٦٣م.

٧٦- إحسان عباس: تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ١٣٢هـ-٢٥٥هـ/٧٥٠م-٨٧٠م، الجامعة الأردنية: عمان-الأردن، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٧٧- أحمد أمين: فيض الخاطر، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٩٧٤م.

٧٨- أحمد علي: تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ١٣٢هـ-٤٥٣هـ/٧٤٩م - ١٠٧٠م.

٧٩- أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام، قدّم له المحامي أحمد غسّان سبانو، دار الفكر: دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٨٠- أمينة البيطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، دار دمشق، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٨١- جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، نقله إلى العربية حسني زينة، دار المشرق - ش م م، ط١، ١٩٩٠م.

٨٢- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي في العصر العباسي الثاني في المشرق ومصر والأندلس (٢٣٢هـ-٤٤٧هـ)، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٩٦٥م.

٨٣- حسن بزّون: القرمطية بين الدين والثورة، دار الحقيقة- بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٨٤- حسين عطوان: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، دار الجيل: بيروت -لبنان، ط١، ١٤٠٧، ١٩٨٧م.

٨٥- درويش النخيلي: فتح الفاطميين للشام، في مرحلتة الأولى من: ٣٥٨هـ/٣٦٢هـ مؤسسة الثقافة الجامعية -الإسكندرية، ١٩٧٩م.

٨٦- دومنيك وجانين سُوردُيل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، ترجمة حسني زينة، دار الحقيقة -بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

٨٧- سهيل زكّار: إمارة حلب، دار الكتاب العربي: سوريا -دمشق، بلا ت

٨٨- سهيل زكّار: الجامع في أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن، دار حسان -دمشق، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

٨٩- شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات -مصر والشام- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٤م.

٩٠- شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، ط٢، بلا تاريخ.

٩١- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط١٠، بلا تاريخ.

٩٢- صفوح خير: مدينة دمشق -دراسة في جغرافية المدن- وزارة الثقافة والسيّاحة والإرشاد القومي: دمشق، ١٩٦٩م.

٩٣- طه حسين: من تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الثاني (القرن الرابع الهجري)، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٩٨٨م.

٩٤- طه طراونة: مقالة، تجارة الرقيق في الشام، ضمن كتاب: بلاد الشام في العصر العباسي (١٣٢هـ/٧٥٠م-٤٥١هـ/١٠٥٩م -المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، تحرير: محمد عدنان البخيت، ومحمد يونس العبادي، عمان، ١٤١٢هـ

٩٥- عبدالحسين أحمد الأميني النجفي: الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي: بيروت - لبنان، ط٤، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

٩٦- عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية، بلا ط، ١٩٦٦م.

٩٧- عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية، بلا ط، ١٩٦٦م.

٩٨- عبدالحليم حفني: مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، الهيئة المصرية العامة للكتّاب، بلا ط، ١٩٨٧م.

٩٩- عبدالفتاح روّاس قلعه جي: حلب القديمة والحديثة- أسماؤها وحكّامهاوأحداثها وأبوابها وأسواقها وأحياؤها -مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٠٠- عبدالكريم غرايبة: العرب والأتراك -دراسة لتطور العلاقات بين الأمّتين خلال ألف سنة - مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

١٠١- العربي حسن درويش: النقد العربي -مقاييسه واتجاهاته وقضاياه وأعلامه ومصادره -النهضة المصرية -دار الاتحاد العربي، بلا ت.

١٠٢- الغزّي (كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي): نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية - حلب، بلا ت.

١٠٣- فرحان علي موسى القضاة: التشيع في الشعر العباسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ١٩٨٦-١٩٨٧م.

١٠٤- فيصل السّامر: الدولة الحمدانيّة في الموصل وحلب، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٧٣م.

١٠٥- فيليب حتّي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، راجعه وحرّره: جبرائيل جبّور،دار الثقافة - بيروت، بلا ت.

١٠٦- كانار (ماريوس كانار): نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني المتوفى ٣٥٦هـ/١٩٦٧م)، خزانة الكتب العربية -الجزائر، ١٩٣٤م.

١٠٧- كمال أبو مصلح وإبراهيم عبدالقادر المازني: ابن الرومي حياته وشعره، المكتبة الحديثة - بيروت.

١٠٨- محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق -دراسات عن أهم أماكنها الأثرية ومقالات عن أهم حوادثها المجهولة- دار الفكر، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٠٩ محمد أحمد زيود: دول بلاد الشام ومصر في العصر العباسي الثاني، جامعة دمشق، ١٤١٣هـ-١٤١٤هـ - ١٩٩٣م/ ١٩٩٤م.

١١٠- محمد أديب آل تقي الدين الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق، المطبعة الحديثة -دمشق ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م.

١١١- محمد عزّة دروَزة: العرب والعروبة في حقبة التغلّب التركي - من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر الهجري، المكتبة العصرية: صيدا -بيروت، بلا تاريخ.

١١٢- محمد كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١١٣- محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي: الدّر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت - المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م.

١١٤- محمد محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الهيئة المصرية العامة للكتاب: فرع الإسكندرية، ط١، ١٩٨٠م.

١١٥- محمود شاكر: التاريخ الإسلامي -الدولة العباسية- المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١١٦- مصطفى الحياري: الإمارة الطائية في بلاد الشام، وزارة الثقافة والشباب: عمان -الأردن، ط١، ١٩٧٧م.

١١٧- مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مكتبة الأنجلو المصرية، بلا ت

١١٨- منير الخوري عيسى أسعد: تاريخ حمص من ظهور الإسلام حتى يومنا (سنة ٦٢٢م -١٩٧٧م)، مطرنية حمص الأرثوذكسية، ط١، ١٩٨٤م.

١١٩- نبيل خليل أبو حلتم: اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدّوحة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥.

فهرس الموضوعات

الشعر الاجتماعي في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري

جنان محمد الكريزات

الفصل الرابع